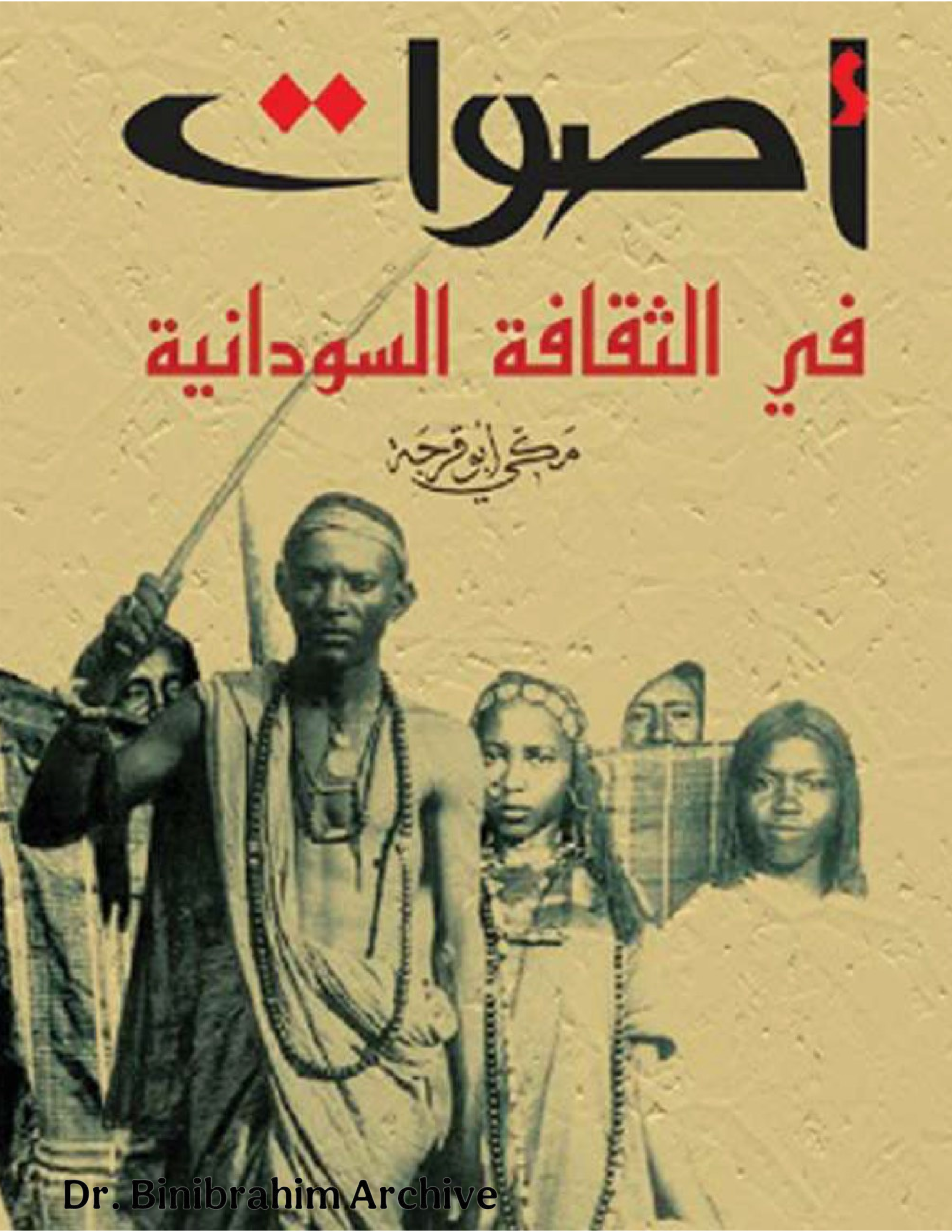

أصوات
في الثقافة السودانية
مكي أبو قرجة
Dr. Binibrahim Archive


أصوات
في الثقافة السودانية


مكي أبو قرجة


SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

مكي أبو قرجة/صحفي وكاتب من مواليد مدينة كوستي بالسودان وتلقى دراسته الأولية والوسطى في مدارسها ثم المؤتمر الثانوية بأم درمان. تخرج في كلية الحقوق بجامعة القاهرة - فرع الخرطوم. وصدر له «اليهود في السودان» (طبعتان)، «أصوات في الثقافة السودانية» (طبعتان)، «الأمل والقنوط في بلاد الأرناؤوط»، «صولة بني عثمان في ملاحم الثورة المهدية». وله مجموعة شعرية تحت الطبع.

....

أصوات في الثقافية السودانية

مكي أبو قرجة

الطبعة الثانية يناير 2015

رقم الإيداع: 2014/25316

الترقيم الدولي: 7-34-5154-977-978

الناشر
محمد البعلي

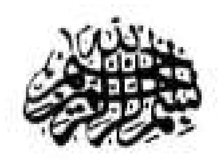
اخراج فني
علاء النويهي



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى من ش المنشية الجيزة ج م ع.


أصوات
في الثقافة السودانية

الفهرس



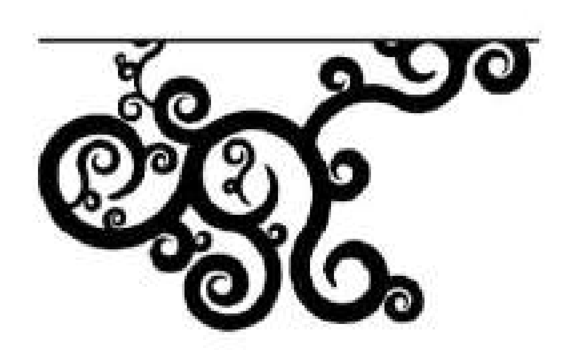
إهداء

﴿إلى والديَّ

اللذين ربياني وأحسنا إليَّ

وأودعا بين جوانحي حب الوطن

عليهما رحمة الله ورضوانه﴾



مقدمة الطبعة الأولى

قطرات من بحر النيل

الثقافة السودانية غورها عميق وروافدها متعدّدة وأنساقها متشابكة. فقسماتها تشكّلت عبر آلاف السنين. شاركت في صنع الحضارة الإنسانية - إنْ لَمْ تكن ينبوعها الأول - ثمّ لَمْ تلبث أنْ ران عليها انقطاع. لسنا بصدد الإحاطة بكلّ ذلك، وما كُنّا عليه عاكفين. ولكن حاولنا تقصي بعض تجلياتها من خلال رؤى سفرت بعد قراءات ومشاهدات ومسامرات واستعراض عميق لموروثنا من الحكايات والروايات المتصلة بخصائص تلك الثقافة ومظاهرها المتنوّعة.

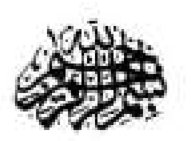
نفعل ذلك في دُجى ليلنا هذا الطويل، فنستدعي بمحبة واحتفاء وجوهاً عزيزة لنفر كريم من مبدعينا، أدباء وفنانين ومؤرخين ومعلمين ومناضلين ونقابيين ومتصوفة وقديسين، رجالاً ونساءً وأشخاص عاديين من غمار الناس- ملح الأرض - مروا سراعاً كأنفاس الصباح إلا أنّ آثارهم بقيت كعظمة الإماتونج ورسوخ جبل مرة وكبرياء الداير. نستدعي أيضاً بعضاً من أيام أمتنا الولود- معاركها وبطولاتها وانتصاراتها، وانكساراتها.. أيامها النضرات ومواقفها المشرفات وأعيادها المشرقات.

وفي إعتقادنا الجازم أنّ ما يحيق الآن بوطننا من محن وأزمات ما هو إلّا تعبير عن قصور وعينا بتاريخنا وثقافاتنا. وما السّياسة -في أرقى خطاباتها - إلا تجلي الوعي بالذات والعمل من أجل حياة غنية مثمرة زاخرة بالنشاط الإنساني الخلاق.

هذه الكتابات نشرتها صحيفة «الإتحاد» بأبوظبي على مدى خمس سنوات (2000-2004) كما أعادت نشرها صُحف عربية وسودانية. أردنا بها أنْ نقدّم

نماذج من الثقافة السودانية لأجيال منقطع بها.. حجبتها الظروف السّياسية الماحقة عن رؤية ذاتها وتجاذبتها المهاجر والمنافي - ما أبقت لها ظهراً. أردنا أنْ نشد من أزر تلك الأجيال ونقول إنّ لها تاريخاً مجيداً وحضارةً حاذقةً ثريةً ووطناً جديراً بالإنتماء إليه.وقد سرت هذه الكتابات كثيراً من القراء فأعربوا عن سعادة غامرة وفخر مشبوب ولولا ذلك لما أقدمنا على جمعها في كتاب. أما أصدقاؤنا المثقفون الحادبون الغارقون في هوى الوطن وهمومه فقد أبدوا حماساً فائقاً منذ الوهلة الأولى.. ظلُّوا مثابرين على الاتصال والتنويه عقب كل مقال.. وجدوا فيها تعبيراً عن صورة ذلك الوطن السعيد.. وكثيرٌ منهم ساهم بشكل إيجابي في إثراء تلك الكتابات مزوداً بالكتب النادرة والمعلومات المفيدة والنصائح الغالية وفي مقدمتهم العالم الكدود الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه الذي أشرع قلمه- دون مَن وادعاء - يقف منافحاً عن تاريخ أمته وحقوقها ومصالحها وحدودها السّياسية ومياه نيلها وموروثها من القيم الأخلاقية الباهرة.. ولا غرو فهو الليث من ذاك الأسد. كما لا يفوتنا أنْ نذكر بالخير الأستاذ الكريم راعي الثقافة السودانية محمود صالح عثمان صالح لإهتمامه ومتابعته وتشجيعه الدؤوب وإلتزامه بطبع الكتاب من خلال مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي. والشكر للصديق الشاعر راشد سيد أحمد الذي زوّدنا بالصور النادرة من العاصمة البريطانية. ونسوق الثناء أيضاً للأصدقاء الأستاذيْن الفنانيْن التشكيلييْن مهاب لبيب ويوسف شعبان وكلّ من الأساتذة عبدالجبار عبدالله وحمدي مصطفى وجلال بشرى وعلي الطيب والآنسة رحاب محمد عبدالله وغيرهم من الفضلاء الكرام الذين طوقوا عنقي بما قدموا من ضروب التعاون الصادق بكلّ تجرد وسماحة.

مكي أبوقرجة
أبوظبي 2005
mekkihas@hotmail.com



مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب بأبو ظبي عام 2005 من مؤسسة الأمارات للإعلام، حيث كنت أعمل محرراً سياسياً وأحياناً ثقافياً بصحيفة «الاتحاد» إلى أن تم إنهاء خدماتي في تلك المؤسسة بعد أكثر من ثمانية عشر عاماً.

عدت إلى السودان وحاروا في أمر توزيع الكتاب وأخفقت وحدة النشر التابعة لها وتوقف نشاطها. وقدتم توزيع أقل من ثلاثمائة نسخة فقط من الكتاب بالسودان. وعندما وصلت نسخة منه طرف الصديق الدكتور محمود صالح عثمان صالح راعي الثقافة السودانية قرر على الفور طبع ألفي نسخة وتوزيعها من خلال مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي. وحالت دون ذلك أسباب تقع مسؤوليتها على عاتقي. ولا أرى من الضروروي الخوض فيها. والآن تصدر الطبعة الثانية كما كانت الأولى إلاّ من تنقيح خفيف وإدخال مقالتين في الكتاب «ألفتى ضمير المدينة» «وصورتان للملكة آمنة». وما زالت الظروف التي ظللت هذه المقالات كما هي لا تبرح مكانها والأزمات السياسية والاقتصادية والأخلاقية تأخذ بتلابيب البلد. وما زلنا نؤكد أن مخرجنا هو الإهتمام بثقافتنا وبتاريخنا لشحذ الوعي السياسي لهذا الجيل حتى يتمكن من الإمساك بمصيره ويصنع مستقبلاً يكون جديراً بهذا الشعب العظيم.

المؤلف

17مايو 2014م

متأبطاً التراث.. مستشرفاً الحداثة

عبد الله الطيب



في ذلك المساء البعيد من عام 1945 كان مسرح معهد التربية بجامعة لندن يحتشد بجمع غفيرٍ حين اعتلى الخشبة شابان أسمران نحيلان دقيقا الملامح- أحدهما مفصّود الخدين - وأخذا ينشدان ويرجعان قصيدة جميلة ذات رنين صادح. كانت القصيدة من تأليف أحدهما وهو عبد الله الطيب وترجمها الأخر- أحمد الطيب - وكانا آنذاك مبعوثين إلى إنجلترا. وبعد أنْ فرغا من ذلك الإنشاد العذب تدافعت نحوهما العذارى والتففن حولهما يطلبن توقيعهما على النسخة الإنجليزية التي تمّ طبعها بالرونيو وتوزيعها على الحضور. جاء في القصيدة التي خلد فيها عبد الله الطيب العاصمة البريطانية كما لَمْ يستطع أبلغ شعرائها أنْ يفعل:

حياك(لندن) ريحان له أرج	من الرياض النضيرات المآنيف
ما أنْ يجف إذا جف الربيع ولا	يمسي يصوحه مر المهاييف
صوب العقول حياه فهو مكتهل	ريان بالزهر ذو وشي أفاويف

ولا أذهب بعيداً إذا زعمت أنْ قصيدة أخرى لعبد الله الطيب كتبها في أبريل 1946 وعنوانها «الكأس التي تحطمت» ما كانت تصوّر إلا صبوة من صبوات الصبا في لندن شاركه فيها صديقه أحمد الطيب.. والعجيب في أمر هذه القصيدة الجميلة أنها تعتبر من الشعر الحر الذي ناصبه الدكتور عبد الله الطيب عداء لَمْ يخف أواره إلا أخيراً. حَتَّى هذه القصيدة التي سبقت في الزمان قصيدتي «كوليرا» لنازك الملائكة و«بلوتولاند» للدكتور لويس عوض لَمْ يحاول الشاعر من خلالها أنْ يزعم ريادة تلك الحداثة الباكرة حَتَّى حينما حاول بعض النُقّاد إثبات ذلك وقال إنّها مجرد محاكاة لنَفَس شاعر إنجليزي أشار إليه. غير أنّي أرى أنَّ القصيدة الرائعة للشاعر محمد المكي إبراهيم «هايدي» فيها نَفَس عميق من «الكأس التي تحطمت».

والدكتور عبد الله الطيب هو أحد أبرز العلماء والمثقفين السودانيين الذين انتفعت بهم بلادهم. وقف ستين عاماً في قاعات الدرس يعلم ويحاضر ويكتب ويؤلف ويضع المناهج والمقرارت ما وهن عزمه وما كلّ ساعده وما خيب أملاً لأمته - لا تآمر عليها ولا شارك في وأد حريتها ولا ركض وراء الاستوزار يطلب جاهاً. وما نتج عن خصوماته في جامعة الخرطوم بشأن منصب المدير سوى الشعر العظيم. ولا عجب في ذلك فالرجل يتحدر من عترة كريمة جعلت من العلم حياة لها.. فالمجاذيب دورهم لا يخفى على أحد؛ علماء وشعراء وأدباء وثواراً رفعوا شعلة العلم الوقادة في الدامر وامتشقوا السيوف ذوداً عن الوطن أنصاراً للإمام المهدي في الشمال والشرق واحتسبوا عدداً من الشهداء. ذلك غير ما قدموه في انتفاضة السودانيين ضد الأتراك في عشرينات القرن التاسع عشر.

بعد تخرجه في كلية غردون التذكارية عمل عبد الله الطيب في التدريس بالمدارس الوسطى بأم درمان الأهلية وروى لي زميله العم الأستاذ مبارك بابكر البشير - عليه رحمة الله - أنهما كانا يدرسان اللغة الإنجليزية للصف الرابع - وكان فصليْن - وحدث أنْ تفوّق فصل الأستاذ مبارك على تلاميذ عبد الله

الطيب. وفسّر لي العم مبارك السبب - ضاحكاً - أنه كان يلتزم بالمقرّر ويجوده أما عبد الله الطيب فكان يحلق بهم في سماوات أخرى من المعرفة ويتشعب في الحديث فيتخذ مسارب شتى.

وتجد تلك العادة مستقرة لدى الدكتور عبد الله في الحديث وفي الكتابة. فإذا إستمعت إليه يشجيك بصوته المديد وأحاديثه الطلية المتنوّعة ويقودك إلى عوالم ساحرة في اللغة والمعرفة وإذا قرأت نثره يأخذ بلبك ويمشي بك في دروب التاريخ والسّير والخرافات والناس بمختلف أنماطهم فتتقلب بين نعيم المعرفة وطرافة الحديث.

كانت حياته الأكاديمية والفكرية زاخرة حيث عاد للتدريس في كلية الخرطوم الجامعية واستمر معاصراً أطوارها المختلفة حَتّى إكتملت في طورها الحالي جامعة من أكثر نظيراتها عراقة في العالم. وتولى عمادة كلية الآداب بجامعة الخرطوم ردحاً من الزمان نعم فيها طلابه الذين كثيراً ما كان يثني عليهم ويرعاهم ويثمن مجهوداتهم بفيض علومه الزاخر وحضور شخصيته الطاغي. ثُمّ أصبح مديراً للجامعة لمدّة عام ومديراً لجامعة جوبا عاماً آخر. صدرت له عدة دواوين من الشعر الرصين منها أصداء النيل وبانات رامة وأغاني الأصيل. واهتم بالمسرح فألف مسرحية زواج السمر وغيرها. أما كتابه المرشد لفهم أشعار العرب فقد ظلّ مرجعاً نقدياً عميقاً إلتزم فيه بالمنهج العلمي متناولاً قوافي الشعر وأوزانه تناول المُجِد القادر على هضم التراث.

ظلّ عبد الله الطيب عضواً بمجمع اللغة العربية في مصر منذ عام 1961 وقام بتأسيس جامعة بايرو في كانو بنيجيريا، كما عمل أستاذاً للغة العربية في كلية الآداب بجامعة سيدي محمد بن عبد الله في المغرب، وقضى فترة يدرس في معهد بخت الرضا لتدريب المعلمين وإعدادهم في الدويم وساهم بجهد مقدر في إعداد المناهج. وكثيرون ممن عاصروه من المعلمين يذكرون خلافاته مع

مستر قريفث الذي أسس المعهد.... فأوسعه سباً ولجأ إلى سلاح الشعر الذي يلوذ به كلما أحسَّ بضيم.

وعهد بخت الرضا لما تجيفنا ثافي
وكــان صغيراً تافهاً صلفـــا
وألفـــت كتـب الأطفال طائفـــة
من الأعاجـم فينـا كيدهـم كثفـاً

وما زلنا نذكر كتب المطالعة للمرحلة الوسطى التي قام بتأليفها بلغة جزلة سائغة سَبت عقولنا الغضة في تلك الأيام وأسعدتنا حكايات «السندباد والرخ» ومسرحية «عمرو بن يربوع » اللتين صاغهما شعراً ومسرحية «أبو الحسن وهارون الرشيد» وغيرها.. وما زال كتاب «الأحاجي» الذي ضمَّ مجموعة طريفة من القصص والأساطير السودانية يعاد طبعه للأطفال عاماً بعد عام فيشحذ خيالهم وينمي عادة القراءة فيهم.

أما كتابه من «نافذة القطار» فيظل من أمتع ما قرأت من النثر الحديث – ولا ألتمس له نظيراً من جنسه الأدبي غير أنّه أقرب إلى الهايكو الياباني – وهو ضرب من الشعر يكفي بيت منه للتعبير عما تأتي به قصيدة كاملة. ففي ذلك النثر لكلّ كلمة صداها – سفراً ماتعاً بالقطار يطوف بك على المعارف والنوادر والحكم ويتنقل فتحتويك الدهشة والأعجاب.

حملت إلينا الأنباء أخيراً أنَّ الدكتور عبد الله الطيب الذي وصل إلى إنجلترا في إجازته السنوية كعادته في كلّ صيف ألمَّ به عارض زائل – بإذن الله – وألزمه سرير المستشفى فوجفت القلوب – إلّا أنَّ ما تواتر من أنباء بعد ذلك أفاد بتحسن صحته وإستقرارها ولا نملك إلّا أنْ نرفع الأكف بالضراعة للعلي القدير أنْ يمن على ذلك العالم الموسوعي الكبير بالصحة ويمتعه بالعافية فالدنيا في غياب أمثاله ماسخة عجوز وعاطل جيدها عن كلّ حلية.

22 يونيو 2000

شيء من ذكرياته في زمن الطلب

عبد الله الطيب

في الشهر الماضي شاهدت حلقة تلفزيونية أحسبها ضمن برنامج «من الأمس» إستضيف فيها الشاعر الراحل إبراهيم العبادي وآخر لَمْ يوفق مقدم البرنامج في إبراز اسمه.. كما لَمْ يوفق في كلِ ما فعل.. أخال أنَّ ذلك التسجيل جرى في أوائل سنوات الثمانين.. كان المُقدّم جهماً غليظ الحس ومحدود القدرات حَتَّى أنّه لَمْ يكن يعي دوره- ظنّ أنّه هو محور الحلقة وتصرّف على هذا الأساس- إلّا أنك تكاد لا تخطئ إشراقات العبادي وطرافة ذكرياته. كان في تمام كيفه ورغبته في الحديث لو لا تسلط مضيفه وجهله بقيمة ما يختزنه من معارف.

تحدّث العبادي عن الحردلو ود أبوسن في مشهد أمام الخليفة عبدالله يستسمحه فيه بشأن الخليفة شريف ويحاول رأب الصدع في الخلاف الذي نشأ بين أهل النيل والخليفة. ولقد كان ظنّي أنّ الحردلو لَمْ يستسمح الخليفة إلّا بشأن ابن عمه عمارة ود أبوسن. كنت تواقاً لأن أسمع المزيد من تلك الأخبار، ولكن الأخ الإعلامي الخطير حرمني والمشاهدين عمداً. وتحدّث العبادي عن شاعر يدعي كباسة تبارى مع نظير له أمام الشيخ العبيد ود بدر الذي أجاز كلٍ واحد منهما بناقة. الحديث كان طلياً ونادراً- لولاه سامحه الله. والطريف في الأمر أنّ كباسة ذلك هو صاحب المثل الذي سارت به الركبان «عمى كباسة». وأوضح العبادي أنّ كباسة ولد أكمهاً بلا عينين إلّا موضعهما. أسوق ذلك بمناسبة ما يضيع مِنّا من معلومات تتعلّق بتاريخنا الإجتماعي وثقافتنا الوطنية.

أضرّت بنا الشفاهية.. وحَتّى هي لَمْ نستفد منها بالتسجيل والتوثيق. فأسلافنا

الذين يغيبهم الردى واحداً تلو الآخر ممن كانوا جزءاً مشاركاً في ذلك التاريخ بمثابة مكتبات تحترق- كما عبَّر المستشرق الفرنسي جاك بيرك. ولكني أرى الآن وميضاً من أمل آخذاً في الإنتشار في مجال الكتابة وخاصة المذكرات التي طالما ألقت أضواء ساطعة على التاريخ الإجتماعي للأمم. فاجأ الدكتور موسى عبدالله حامد المهتمين بكتابة إبداعية حقيقية حين كتب عن ذكريات الطفولة وأيام الطلب في مدرستي أم درمان الأميرية الوسطى وخور طقت الثانوية. رصد تلك الأيام بذاكرة فوترغرافية متوقدة، حصة بعد حصة وحدثاً تلو حدث بلغة رصينة أخاذة. كان ذلك آخر المساهمات في هذا الإتجاه وإنْ لَمْ أحظ بقراءة الجزء الأخير منها حَتّى الآن.

ولكن تبقى ذكريات الدكتور عبدالله الطيب التي ضمنها مجموعتيه النثريتَيْن «من نافذة القطار» و«من حقيبة الذكريات» وغيرهما أعمالاً مدهشة تكتسب الطابع الروائي الملحمي لما فيها من غنى في اللغة والمضامين ومن عرض للثراء الذي تميَّز به ذلك الزمن الإستثنائي. كتب الرجل مخلصاً ما غادر شاردة ولا واردة مما مرَّ عليه من أحداث.. لَمْ يخضع لترتيب أو تكنيك شأن معمار الرواية الحديثة التي خلبت ألباب النُقّاد. يتناول حكايات ويربط بينها وبين ما يناسبها من أشعار وأخبار تاريخية وأدبية فتتشعب الشجون وهو ممسك بخيوطها شأن الحاذق الماهر الدؤوب. تكاد تجد فيما يقول بعضاً من ذاتك أيام الدراسة وإنْ إختلفت الأحوال بتقادم الأيام والتبدلات التي طرأت.

التعليم عندنا حَتّى نهاية المهدية كان دينياً إلّا أنّه كان لا يقل مستوى عن أي مكان آخر في العالم الإسلامي، بما في ذلك الأزهر والزيتونة، وعندما همَّ الإمام المهدي في أيام الطلب بالتوجُّه إلى مصر نصحه بعض شيخوخه بأن مالقيه في بلاده من علوم لن يزيد عليه هناك والخير في أنْ يظل مقيماً. وتجلّى ذلك الزعم حينما حاوره الأب أهروفلدر القس الألماني الأسير والذي ألف كتاباً طفح بالحقد والبغضاء

«عشرة أعوام في الأسرة»، إلّا أنه اعترف بأنّه حين حاور المهدي وتحدّث معه في شؤون اللاهوت وجد «بحراً لا يسبر له غور».

في بداية القرن العشرين أعاد العهد الجديد المدارس الابتدائية التي كانت قائمة في العهد التركي وأنشأ كلية غردون وهي التي عُرفت بالكلية القديمة في الأوقات اللاحقة. كثير من روّادنا الأوائل في التعليم والفكر والسّياسية والثقافة والصحافة والطب تخرجوا من تلك الكلية.. وكثير منهم أيضاً تجاوزها مستوى بعد ذلك ليلتحق بالجامعات المصرية أو جامعة بيروت الأمريكية أو جامعات بريطانيا. إلّا أنّهم ظلوا يتذكرون الكلية كأنّهم ما قرأوا بعدها.

لما استعد عبدالله الطيب لأداء الامتحانات لدخول الكلية في ديسمبر عام 1935 كانت هناك بضع عشر من المدارس الوسطى، لَمْ تكن كلية غردون مدرسة ثانوية حقاً، كانت مدرسة إعدادية للتوظيف.. كانت «التجهيزي»، ثُمّ صارت ثانوية فيما بعد حين أُدخل في نظام التعليم امتحان شهادة كيمبردج وقامت المدارس العليا التي إنتقل إليها اسم كلية غردون ومهدت لقيام جامعة الخرطوم. وعندما التحق عبدالله الطيب بالتجهيزي كان يستطيع أنْ يحدّد الدراسة التي يرغب فيها. وكان القضاء الشرعي طموح الجميع ووقفاً على التلاميذ الأذكياء- وكان هو في مقدّمتهم- إلّا أنّ إختيار هؤلاء كان يتمّ كلّ خمس سنوات، وما كان صاحبنا يميل كثيراً للقضاء، بل كان إلى التدريس أقرب، يستعجل السنوات ليتوظف بسرعة بسبب ظروفه العائلية. لَمْ يستجب لدعوات معلميه في الالتحاق بالقضاء لذا كانت خيبة أمل مستر سكوت كبيرة.. ولهذا الخواجة فضل كبير على التعليم في السودان. فعندما إلتقاه بعد سنوات وهو يدرس في معهد بخت الرضا قال له متحسراً «إنّك كنت أذكى تلميذ مرّ على الكلية»، وقيل إنّ مستر سكوت زار السودان بعد ذلك عام 1967.. كدأبه من وقت لأخر في فصل الشتاء، وكان قد أسن وجعل ينتابه بعض النسيان. جمعتهم مائدة إفطار عامرة في شهر رمضان أقامها الزعيم إسماعيل الأزهري للضيف

الزائر. وكان الأزهري قد درّس عبدالله الطيب الرياضيات في الكلية عام 1939 وظلّ يُدرِّس إلى ما بعد منتصف عام 1945 ليتقاعد متفرغاً للعمل الوطني.

عندما دخل عبدالله الطيب الكلية كان الدكتور أحمد الطيب قد تخرّج فيها إلّا أنّه اتخذ نفس عنبره سكناً له - عنبر أولاد مدرسة بربر- ألفى ذكراه حيّة عطرة تتداولها الألسن حيث كان قد نظم قصيدة هزلية طالب فيها «زين العابدين أفندي» ضابط الغذاءات للداخليات بزيادة سكر شاي الصباح بنصف قطعة حيث كان المقرّر قطعتين ونصفاً. ولَمْ يستجب الرجل طبعاً وظلّ الحال كما هو إلّا أنّ صيت القصيدة تجاوز جدران الكلية حَتَّى أنّ محلات «جولدنبرج» للساعات والنظارات بالخرطوم أجازت أحمد عليها بساعة منبه.

كان عبدالله الطيب يعرف شكل الكلية حيث زارها مرّة عام 1931 مع والده- الذي كان مدرساً أيضاً- وأبلغه أنّه سيلتحق بها يوماً ما وسيحلق شعره «كاريه» وسيذهب إلى أوروبا، ويقول الدكتور عبدالله إنّ والده عرف ذلك عن طريق الكشف.. حيث كان الرجل صالحاً.. إتفق حوله جماعة من الفقراء. تحدّث عبدالله الطيب عن الداخليات وقال إنّ أغلبية أولاد العاصمة كانوا يحتلون «كتشنر» و«كرري» وأولاد «ستاك» من أولاد بربر والدامر وعطبرة وشندي وسائر الشمال وأولاد الغرب يسكنون في داخلية «مفي». وكان من بين داخليتي «ونجت» و«آرثر» تنافر، على الرغم من أنّ معظم طلابهما من بيئات ريفية مُمعنة في البداوة. وكان أولاد «ونجت» ينظرون إلى مستقبل الوظيفة بجد وصرامة، وكانوا «كبابين» في نظر سائر التلاميذ، أما أولاد «آرثر» فلا يعترفون لأنفسهم ببداوة، وكانوا يحاولون تحدي أولاد العاصمة بإبراز خصائصهم الريفية كنوع من الأصالة، إلى درجة أنّ بعضهم ربما جاء معه بدهن «الكركار» ليمسح به جسمه إمعاناً في إبراز خصوصيته. إلّا أنّ وصفه لطابور الصباح يظل الأطرف حيث يأتي رئيس الرؤساء يتيه كالطاؤوس يرتدي جلابية من سكروتة، أو بوبلين أو تيل هزاز وفوق رأسه طاقية حرير حمراء وفي قدميه

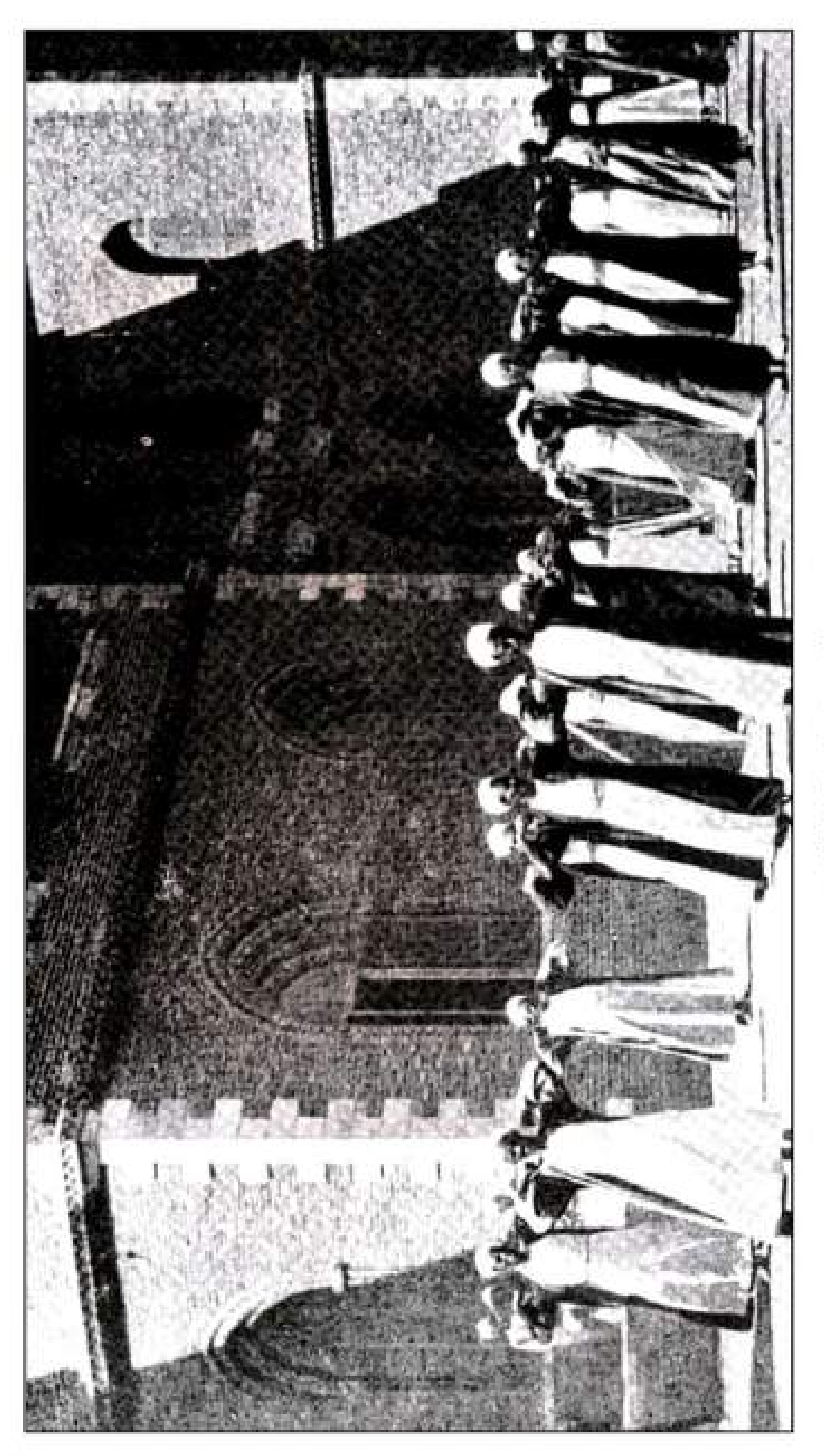
شبشب من جلد النمر، يمشي في خيلاء كسائر رؤساء الداخليات، يمشون في خيلاء كالعمد ونُظّار القبائل في إحتفال 17 يناير، ذلك الإحتفال الذي كان يقام في عواصم المديريات لتجديد ذكرى زيارة الملك جورج الخامس إمبراطور الهند وملك بريطانيا لميناء بورتسودان عام 1912 في طريقه إلى الهند.

لَمْ يكن الجمباز مرحاً خفيف الظل كما كان في المرحلتين السابقتين - الأولية والوسطي- كان ثقيلاً على النفس بسبب العنت ويراد به الإخضاع والضغط- وقد ذاق منه صاحبنا فيما يبدو الأمرّين. فقد كان مشرف الداخلية الإنجليزي يأتي بصحبة كلبه يرتدي الشورت والجوارب الطويلة الثخينة. وكان الشورت لباس المكاتب أيضاً يبدو وكأنّه يحض على التشمير وروح الجد التي أشاعها الحكام البريطانيون بين الناس.

لَمْ ينس عبدالله الطيب أنْ يلاحظ رجلاً شيخاً كان يجلس تحت شجيرات ليمون ظليلات أمام فصول السنة الأولى الخمسة.. وكان الطلاب يردّدون أنّ هذه الأرض كانت جروف والده قبل أنْ تستولى عليها الحكومة وزعموا أنّه كان يبيع السجاير للتلاميذ الذين يدخنونها. كانت السجاير ممنوعة في الكلية إلّا أنّهم سمحوا بها في فصول الامتحان في المدارس العليا. كما لَمْ ينس «مستورة» التي كانت تبيع الفول بالقرب من مقهى الطلاب «كان فولها جيداً ذهبي الحبات، كامل الاستواء، ومعه سلطة فلفلية متوقدة وزيت مستجاد، كما كان رغيفها بلدياً شمسياً حسناً».

تلك الذكريات التي صاغها عبدالله الطيب بمحبة واتقان جديرة بالقراءة وخليقة أيضاً بأن تغري الآخرين ليكتبوا عما رأوا وأحسّوا لنرسي تقليداً إيجابياً سبقتنا إليه الأمم الحاذقة.

19 يونيو 2001م



الجباز بالجبة و القفطان

صومعته.. كلية غردون

عبد الله الطيب

كان لمقتل الجنرال تشارلس غردون حكمدار السودان في 26 يناير 1885 رنّة حزن وأسى عميقين في أوساط الشعب البريطاني الذي رأى فيه رمزاً متألقاً في ذلك العهد الفيكتوري، المزهو بانتصاراته وعظمته.. إعتبروه قديساً وقف وقفته الأخيرة يصارع الهمجية من أجل نشر المدنية والإستنارة!.. ما رأوه دخيلاً غاصباً كما رآه الثوار صبيحة اقتحامهم لقصره وقتله أمام شاطئ النيل بالخرطوم.. والصينيون لا يزالون ينظرون بإكبار لذلك الشعب الذي ثأر لهم من غردون الذي عرفوه مستبداً غاشماً إبّان مهمة له في الصين. كانت الرغبة في الإنتقام تعتمل في نفوس الضباط الإنجليز حين كروا فاتحين.. كانوا معبئين بالضغينة والبارود فمشوا فوق أجساد عشرة آلاف من المقاومين الشهداء في طريقهم إلى الخرطوم عبر معركة أم درمان.. وحين عاد قائد الفتح الجنرال كتشنر إلى بريطانيا مُدلاً بنصره إقترح إنشاء مدرسة كلية في الخرطوم إحياء لذكرى غردون فتحمس له الشعب البريطاني وتداعى للإكتتاب في حملة عاطفية نادرة الحدوث. وقبلت الملكة فيكتوريا رعاية تلك المؤسسة وكانت أول المتبرعين عيناً ونقداً؛ أما رئيس وزرائها اللورد سالسبوري فقد وصف المشروع بأنّه «إلتزام إمبراطوري لإزالة ما بين الشعوب من حواجز وإقامة رابطة من المعاونة الفكرية ونشر الثقافة الإنسانية». ما أراد بذلك إلا النفاق المحض فأيّ ثقافة إنسانية تلك التي تفرضها مدافع المكسيم لإخضاع شعب وانتزاع حريته. أرادت السّياسة البريطانية للكلية التي تمّ افتتاحها في أكتوبر عام 1903 أنْ تكون مؤسسة لإعداد موظفين صغار - أفندية لا حيلة لهم- لإدارة دولاب العمل في دواوين الحكومة.. إلا أنّ طلابها كسروا الطوق وقاوموا العزلة وتطلعوا إلى المعارف ووسعوا مداركهم ليصبحوا مناط الأمل لأمتهم.

كان لمصر نصيب لا ينسى في تأسيس الكلية وأصبح أحمد هدايت بك أول ناظر لها تحت إشراف جيمس كري مدير مصلحة المعارف.. هدايت هذا كان أحد خريجي كلية برا رود وبقي في الكلية حَتَّى عام 1911. وضمت الكلية عدداً من الأساتذة والعلماء المصريين الأفذاذ أمثال عبد الرؤوف سلام ومحمد الخضري ومحمد أبو المجد وعبد الوهاب النجار ومحمد ماضي أبو العزائم وغيرهم من الذين عرفتهم الجامعات المصرية والمحافل الأدبية والعلمية. ذلك إلى جانب عدد من الأساتذة السوريين أبرزهم الشاعر فؤاد الخطيب، الذي كان أستاذا للأدب العربي.

قبل أنْ يشتد ساعد الحركة الوطنية وتسفر عن وجهها السّياسي إستخدمت الأدب وسيلة لإستنهاض الهمم والتبشير بالقيم النبيلة وماضي البطولات وساهمت الكلية بأبرز شعراء تلك الفترة من طلابها وخريجيها ومنهم عبدالله محمدعمر البنا وعبدالله عبدالرحمن الأمين ومحمد الأمين القرشي وأحمد المرضي ومدثر البوشي.. وهؤلاء تخرجوا في قسمي اللغة العربية والقضاة الشرعيين. أما أبرز الشعراء الذين تخرجوا في قسم اللغة الإنجليزية والعلوم الحديثة فمنهم أحمد محمد صالح وعبدالقادر إبراهيم، ومن قسم الهندسة الشعراء علي نور وعبدالرحمن شوقي ويوسف مصطفى التني ومحمد أحمد محجوب الذي استأثر بالكتابة النقدية إلى جانب الناقد محمد عشري الصديق. ومعظم هؤلاء لعبوا دوراً أساسياً في النهضة الأدبية الحديثة والحركة الوطنية وتسنم بعضهم مناصب قيادية عليا بعد نيل الإستقلال.

وعندما تشكّلت الجمعيات السّياسية السرية في سنوات العشرين وأفصحت عن هوية متصلة بالكفاح المشترك لوادي النيل كان من أهدافها العمل على رفع مستوى بعض الطلاب وإرسالهم إلى مصر للدراسة الجامعية، فهرب إلى القاهرة في عام 1923 الطالبان توفيق أحمد البكري وبشير عبدالرحمن ثُمّ لحق بهما بعد

عام الدرديري أحمد إسماعيل.. كانت تجربة جريئة أزعجت الإدارة البريطانية فضيقت عليهم الخناق ومنعت أهليهم من تقديم المساعدات إليهم وحرمتهم من العودة إلى السودان فلاقوا مشقة وعنتاً لولا عطف وأريحية الأمير عمر طوسون الذي أجرى عليهم إعانات شهرية مكّنتهم من الإستمرار بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) والتخرُّج فيها.

بعد تلك التجربة سمحت السلطات البريطانية لبعض الطلاب بالسفر إلى لبنان للدراسة في الجامعة الأمريكية ببيروت ومنهم معاوية محمد نور وعبدالله عشري الصديق، ثُمَّ أوفدت بعدهم عبدالفتاح المغربي ومحجوب الضوي وعبيد عبدالنور وإسماعيل الأزهري.

بعد الانتفاضة العسكرية العنيفة التي قادها ضباط سودانيون ضد الجيش البريطاني في عام 1924 ران على البلاد جو خانق من الكبت والإرهاب والملاحقات البوليسية واتخذت السلطات إجراءات قاسية لكسر الإرادة الوطنية فأغلقت الكلية الحربية وبرز إتجاه لإغلاق كلية غردون أيضاً.. إلّا أنَّ ذلك إستبدل بممارسات قمعية ضد الطلاب أفلح محمد أحمد محجوب في وصفها في «موت دنيا».

وفي عام 1931 والأزمة الإقتصادية العالمية في عنفوانها إرتأت الحكومة تخفيض مرتبات خريجي الكلية في إطار برنامج تقشفي لتجاوز الأزمة فسعت بذلك دون أنْ تدري إلى إذكاء ما كان يستعر من الغضب المكبوت فنفذ طلاب الكلية إضراباً هزَّ المجتمع العاصمي واستمر حَتّى تدخل الوسطاء وتنازلت السلطات جزئياً عن موقفها. أدى ذلك الإضراب إلى كسر الجمود السّياسي وتجاوز آثار ثورة 1924 ووضع المتعلمين أمام مسؤولية تنظيم أنفسهم لمواجهة المصير فاستمر المخاض أليماً حَتّى برز مؤتمر الخريجين العام في أواخر أعوام الثلاثين.

كما كان ذلك الإضراب خطوة أولية نحو تغيير برامج الدراسة الثانوية لتتجه نحو الثقافة العامّة وإعداد الطلاب للدراسات الجامعية وتزويدهم بالمعرفة التي تثري الروح وتشحذ القدرات.. وإنْ كان عبدالله الطيب قد وصف تلك الدراسة بأنّها كانت جوفاء لاتنفذ إلى القلوب. على الرغم من أنّه أشار إلى أنّ الطلاب كانوا يناقشون قضايا فلسفية في غاية العمق كالشك والقدر وحرية الإرادة والمعري ومساجلات طه حسين والرافعي عن كفر بشار ومجون أبي نواس ومقالة الحلاج «وما في الجُبة إلّا الله»، وتحدّث عن أساتذة بريطانيين كانوا يتدخلون على استحياء فيما يتعلق بالأفكار التي كان يتداولها الطلاب كمستر سكوت الذي أتاح فرصة الكتابة والنقد للطلاب.. الأمر الذي قابله البعض بالريبة والتوجس. كما تحدّث عن أساتذة سودانيين بحنو أمثال عوض ساتي والنصري حمزة وإسماعيل الأزهري.

وفي أوائل عام 1939 تَمّ افتتاح المدارس العليا.. وكانت فوق المستوى الأكاديمي لكلية غردون – وهي مدارس الهندسة والبيطرة والزراعة والعلوم ثُمّ الآداب فالحقوق. وكانت قد أنشئت في وقت سابق لذلك مدرسة كتشنر الطبية في 28 فبراير 1924 كأول مدرسة عليا بالسودان. وفي عام 1940 تَمّ نقل كلية غردون التذكارية من الخرطوم إلى أم درمان وخصصت مبانيها لقوات الحلفاء في الحرب الثانية واحتفظت باسمها حَتّى عام 1945 حين سُمّيت مدرسة أم درمان التي انقسمت بدورها إلى المدرستين الشهيرتين وادي سيدنا وحنتوب. وكانت المدارس العليا قد أطلق عليها اسم الكلية القديمة ثُمّ أضحت كلية جامعية ترتبط أكاديمياً بجامعة لندن، وفي يوليو 1956 أصبحت جامعة الخرطوم.

10 أكتوبر 2000م

رحيله.. حريق مكتبة الإسكندرية

عبد الله الطيب

كان يرى اللغة العربية في فصاحة السودانيين، ولا يستكثر عليهم ذلك – كمستعربين وهجناء– وإنّما يحدق في التاريخ ملياً ويقول إنّه يرى جزءاً عزيزاً من السودان والجزيرة العربية كانا رتقاً واحداً قبل أنْ ينفجر الأخدود الأفريقي العظيم وينبجس بحر القلزم. لَمْ يحدث ذلك في أزمان غابرة بعيدة.. ولكن حَتّى وقت قريب- نسبياً في التاريخ- كان البحر ممراً مائياً ضيقاً يتراءى شاطئاه ويتنادى من الضفتين قبيل. ويقول إنّه قرأ في كتاب هيرودوتس «التاريخ» إنّ عرباً من البلاد الواقعة جنوب مصر قاتلوا إلى جانب دارا إمبراطور الفرس في القرن الرابع قبل الميلاد وما تلك البلاد التي أشار إليها إلّا السودان.

مثّل عبدالله الطيب النموذج الأسمى للمثقف السوداني الذي جمع ببراعة نادرة ما بين موروثه الثقافي الضارب في القدم، وبين ما اكتسبه من وعي وإدراك من تيارات الحداثة الغربية. حسبه وُلِد ونشأ في المنطقة نفسها التي يقال إنّها كانت مهد الإنسان في طفولته الأولى، ومسرح إبداعه الحضاري الذي أهداه للبشرية الغافية في تلك العصور السحيقة.

تفتحت عيناه في خلاوي آبائه المجاذيب، الغُر الميامين، الأتقياء الثقات.. أهل العهد والصدق، الذين ما تراجعوا أمام عدو غاصب وما انثنوا.. قاوموا الأتراك الغزاة.. وشهدوا مقتلة سليمان الزبير في بحر الغزال، وخرج بعضهم مع رابح فضل الله إلى غرب أفريقيا رافضين الخضوع، وسارعوا يمتشقون الحسام، ينتصرون لدعوة الإمام المهدي حين أعلن الجهاد.

تدرّج في مراحل التعليم الزمني متفوقاً في كلّ عام، وأبدى ضروباً من النجابة

والحزم، حَتَّى ولج كلية غردون التذكارية، وكانت أملاً عزيز المنال. وهناك تجلَّت قرائحه وازدادت معارفه حَتَّى تخرَّج معلماً في المدارس الوسطى. بات أديباً مرموقاً ولا يزال طالباً في الكلية، تُوجَّه إليه الدعوات ليحاضر في المنتديات العامَّة، حول الأدب والثقافة والتاريخ، وهو دون العشرين. ظلَّ معلماً طوال حياته لا يريم بالمدارس الوسطى وبخت الرضا وكلية الخرطوم الجامعية فالجامعة.. قدَّم للأجيال بغير مَنّ ولا ادعاء، وساهم في تأليف المناهج شعراً ونثراً وفي تدريب المعلمين وإغناء التجربة التعليمية إلى جانب رفاقه المعلمين الأفذاذ الذين يدين لهم الوطن لكلِّ ما قدموه لأبنائه من فضل جزيل، هاجر إلى أوروبا في منتصف سنوات الأربعين فأكمل دراسته الجامعية وواصل من بعد دراساته العليا حَتَّى ظفر بالدكتواره.

ظلَّ أحد الأعلام البارزين والأكاديميين المرموقين على مستوى القارة الأفريقية والعالم العربي في مجال الأدب واللغة العربية، وأدهش مؤلفه «المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها» الأدباء العرب في سنوات الخمسين. وقد قام بتأليفه ولَمْ يكن قد تجاوز الثلاثين بكثير، قدَّم له صديقه وخدنه في مجمع اللغة العربية الدكتور طه حسين الذي ما انفك يراسله طوال حياته، ويشركه في كلِّ ما يتصل بشؤون العربية والأدب.

يتحدَّث عن كبار شعراء الإنجليز شكسبير وبايرون وشيلي وتي. اس. إليوت وأودن وسبنسر.. ينتقد ويترجم بعض أعمالهم ويجاريها أحياناً. وما قصيدته «الكأس التي تحطمت» إلَّا مجاراة رائعة لأحدهم.. كتبها في أبريل عام 1946. وحين حاول بعض النُقَّاد إسناد فضل ريادة الحداثة الشعرية إليه بسببها رفض تلك السانحة وتمسك بموقفه التقليدي الرافض للتجديد في الشعر.

كتب شعراً كثيراً – وله دواوين عديدة– إلَّا أنَّ بعضاً من الناس رآه متحفياً لا يعبر عن الإنسان المعاصر وانصرفوا عنه. لكنَّ ذلك لا يعني خلوه من الصوُر

الجمالية الإبداعية اللغوية والعاطفة الفياضة. وقد أعجبتني كثير من قصائده، أعود إليها من وقت لآخر متذوقاً مستعذباً، وخاصة مراثيه المترعة باللوعة الإنسانية والحزن النبيل.

أما في كتابة النثر فلا ينبري لمصاولته كاتب فقد إمتلك ناصية اللغة فانقادت إليه سلسة مطواعة. جمع وحرَّر عدداً من الأحاجي السودانية للأطفال ولكن «من نافذة القطار» و«حقيبة الذكريات» من بين أعماله النثرية تمثلان عندي ذروة القص والتداعي في الحكي مع عمق التجربة وتنوُّعها.. كلما قرأتهما إزدادتا نضارة وإشراقاً وأسهمتا في انفعالك الروحي وثراء وجدانك.. أوغل بهما أبعد مما يعرف الآن بالواقعية السحرية. لغة رصينة جادة ومفردات شاردات عابثات ضاحكات، ومواقف عادية مشحونة بالدلالات والرؤى يتعالى ضجيجها الإنساني ليشكِّل جنساً روائياً غير مسبوق.

لَمْ يكن عبدالله الطيب رجلاً سلس القياد يؤثر السلامة ويتفادى الزحام وإنَّما كان يدافع بضراوة دون ما يراه الحق، وما موقفه من إعدام الأستاذ محمود محمد طه إلَّا مثال واحد لوقفات جهيرة، كتب قصيدة شجية مؤثرة يرثى فيها المفكر الشجاع ويعدِّد مناقبه واصفاً إياه بالشهيد لا المارق كما جاز للجهلاء أنْ يتقولوا.

كان يطل على أبناء شعبه من خلال البرامج الإذاعية يفسر القرآن الكريم فيجتذب إهتمام العامَّة والخاصَّة، ويحدث أثراً طيباً في النفوس.. وفي البرامج التلفزيونية - في أوقات لاحقة- كان يحدِّثهم بعذوبة المحب وترفق العارف المجود.. يتناول شتى أنواع المعارف والتراث.. يشقق الحديث ويتنوَّع فلا يزداد إلَّا روعة وجمالاً.. يكاد يفهم قوله الجميع.. فلا غموض ولاتنطع ولا زيف ولا ادعاء.

كان حين يتحدث يستدعي الزمان والمكان والشعراء والأدباء والمحدثين والعلماء والملوك والسلاطين فتراهم أمامك شاخصين. يتكلم فيتمثل بالشعر

والحديث المأثور فتطفر بعض غوامض اللغة فيعود للشرح والتفسير شأن المعلم الحاذق والمربى الرؤوف.

وُلِد البروفيسور عبدالله الطيب في الدامر عام 1921 وتزوج الفنانة التشكيلية البريطانية جريلزدا الطيب في عام 1949 في لندن التي أحبَّها. وحضر حفل الزفاف جميع المبعوثين وسهروا في «بيت السودان» يستمعون للأغاني التي ردَّدها الأستاذ إدريس البنا.. ويا للحنين. وفي مساء الخميس الماضي شيعت العاصمة السودانية العلامة الكبير بعد مرض أدخله في غيبوبة طويلة.. أمطرت قبره سحائب الرحمة والرضوان، وأحرّ التعازي لآل المجذوب الكرام.

24 يونيو 2003م.

سمح السجايا وعبقري الرواية

الطيب صالح وحلفاية الملوك



الطيب صالح عبقري الرواية العربية- كما وصفه النُقّاد- تجده أحياناً برماً- بصورة يغلب عليها حياؤه المعهود - بتلهف محاوريه من الصحافيين على توقع المزيد من إبداعه الروائي- يرون أنّه قد توقف طويلاً ولَمْ يتحف معجبيه بجديد يتوج عمله الملحمي - يرد عليهم.. يكاد يقول لهم « ياجماعة لست ترزياً أفصل ما تريدون ولكنني أشاهد وأحتشد وأكتب ما أراه ملائماً وليس شرطاً أنْ يكون رواية». والمتابع لكتاباته المتناثرة في الصحف والمجلات يجد كثيراً من نفسه الإبداعي العميق الذي لَمْ ينقطع.. يلخّص تجاربه في السفر والقراءة ويكتب أشياء ممتعة بروح شفافة تستبطن المشاهدات لاتفوته شاردة ولا واردة.

بالأمس القريب كان في زيارة لنيويورك فكتب عن تلك الرحلة في عموده بالملحق الثقافي في صحيفة «الإتحاد» كلمات نضرات إحتفى فيها بالمحتفين

به. وكان مغموراً بسعادة لا توصف. فحكى عن أمسية نادرة قضاها بمنزل صديقه الدبلوماسي السوداني الفاتح إبراهيم حمد مدير اليونسكو في نيويورك. أعجبه لقاءه بأصهار الفاتح من أهل حلفاية الملوك، المدينة التي كانت عاصمة لمملكة العبدلاب في أزمان غابرة- والتي استوطن فيها الشايقية في أوقات لاحقة للغزو التركي في عشرينات القرن التاسع عشر. وهي لاتزال رابضة على الضفة اليمنى لنهر النيل على بعد أميال شمال الخرطوم كأنّها تتوثب لإستعادة أمجاد آفلة. تحسر الكاتب عليها وعلى بعض أهليها الذين هجروا منازلهم التي كانت آهلة بهم حَتّى وقت قريب قبل أنْ تسفوها الرياح الغادرة. وأخذوا يتوجّهون نحو المهاجر البعيدة طلباً للأمان والعيش الهنيء- وكأنّما لسان حالهم يقول «حيث يكون الخبز وتكون الحرية يكون وطننا هناك». إختزل الطيب صالح ذلك المشهد المأساوي في تجربة السيدة ستنا شقيقة كلٍ من الموسيقار المعروف بشير عباس والسيدة إقبال قرينة صاحب الدار فوصفها بالنموذج الأكمل للمرأة السودانية في زمانها الذي خلّدها فيه شعراء الحقيبة.

لا بدَّ أنَّ الكاتب الروائي قد قرأ عن سلف لها حملت اسمها- هي الملكة ستنا ملكة شندي التي ذكرها رحالة أوروبيون زاروا السودان في القرن السابع عشر.. قالوا إنّهم رأوا ملكة يحفها الجلال والكمال.. جميلة كأن وجهها صحيفة من ذهب، رغم أنّها كانت تلقاهم من وراء حجاب- الملكة ستنا هذه كانت إمتداداً لملكات مروي- الكنداكات- اللائي رعين حضارة مروي في نفس المنطقة قبل وبعد الميلاد، وجئن بالمسيحية قبل كلّ مكان حين كانت العيون لا تزال بليلة بالدمع غداة صلب السيد المسيح. حضارة لاتزال آثارها شاخصة للعيان تذهل علماء الأثار في فجر كلِّ يوم جديد. كانت موطناً لتعدين الحديد حَتّى أطلق عليها المؤرخون المحدثون وصف بيرمنجهام أفريقيا. السيدة ستنا المعاصرة تسعى الآن للحاق بشقيقتها في كندا هرباً من عنت الأيام وفشل السّياسيين الجوف في الخرطوم.

أهاجت تلك المشاهدات فيَّ أشجاناً هاجعة.. فصاحب الدار الفاتح من أهل مدينتي- كوستي- ألا سقيا ورعياً لأيامها الزاهرات.. كان يقطن في طفولته في حيِّنا يسبقنا بسنوات قليلة في الدراسة. كُنَّا نراه تلميذاً مشاغباً- ذلك الشغب الذي يستحق الإعجاب- حَتَّى إنتقلت عائلته إلى أم درمان. إلتقيت به قبل سنوات ضيفاً في دار صديقي الأستاذ معاوية الطاهر المحامي في البحرين، حيث كان مديراً إقليمياً لليونسكو مقيماً بالدوحة.. وتحدَّثنا طويلاً عن تلك الأيام التي ذهبت ولن تعود.

في صيف العام الماضي قُدِّر لي أنْ أزور العاصمة البريطانية لأول مرَّة تلبية لدعوة كريمة من صديقي الشاعر راشد سيد أحمد الذي غمرنا هو وأصدقاؤه بكرمهم الفياض وأريحيتهم الفذَّة وقضينا أمسيات سعيدة في دورهم العامرة، الدكتور محمد سليمان محمد العالم الكدود والأديب المبدع والمترجم الألمعي، والدكتور أحمد الطيب فرح مستشار الطب النفسي العارف بالشعر والراوي للنكات والملح. و كثيراً ما جلسنا نستمع للدكتور محمد سليمان يقرأ لنا أشعار الألماني «برتولت برشت»التي قام بترجمتها على نحو عزَّ نظيره في تاريخ الترجمة إلى العربية. أضاف إليها بألقه الفتان وطاقته الروحية التي لا تنضب، كان قد أبلى من مرض خؤون قاومه بعزيمته الجبارة وحبِّ أصدقائه الذين أحاطوا به كالسوار بالمعصم- ما فارقوه لحظة حَتَّى انتزعوه من براثن الموت.

أما ليلة الحلفاية فقد قضيناها في دار الصديق كمال سوار الذهب في كينجز ستون حيث جمعنا بأصدقاء فارقناهم منذ سنين وفي مقدمتهم الدكتور حمودة فتح الرحمن الطبيب وداعية حقوق الإنسان - خدين الطفولة والصبا- وأخوه إبراهيم وعائلته الصغيرة وأستاذنا الصحفي المعروف محجوب عثمان.

ما كان يدور في خلدي أننا بتنا أسرى حلفاية الملوك كما حدُث للأستاذ

الطيب صالح يومذاك- وياله من أسر نسيجه من توهج الروح الإنسانية وعذوبة السلوك- حيث وقف الجميع صاحب الدار وأفراد أسرته يكرمون وفادتنا في كلّ لحظة ما انشغلوا بأنفسهم ولابعضهم قط.. كانت تجربة جديرة بالاحتفاء في زمن تشابكت فيه الأمور.

في تلك اللحظات وصل بعض أهليهم من باريس- أسرة كاملة معظمها من النساء. كن سيدات مثقفات لسنات وخفرات. فازدانت الدار بهن وامتد بُعدُ آخر من الحديث تناول أحوال الوطن وأخباره التي لاتني تحبط الآمال، إلّا أنّ ذلك الحضور الرائع أضاء شمعة في الدجنة الحالكة وأفسح حيزاً لأن نتوق إلى فجر جديد. وهكذا تقاربت تجربة الروائي الطيب صالح بما لقيناه من أهل تلك الفلذة من كبد الوطن.

13 يونيو2000م

ذاكرة السودان المتنقلة

الطيب صالح

كتب محمد بن عيسى المثقف والوزير المغربي كلمات طيبات حانيات معجبات عن صديقه الكاتب الروائي السوداني الطيب صالح فقال: «سيدي الطيب هو ذاكرة السودان المتنقلة، يحفظ لكتابه وشعرائه- زجاليه على الأخص- يحن لوطنه الأم ويحس بأحشائه تتمزق وهو يتحدّث عن السودان، مجالسه التي يستحليها هي مجالسه مع السودانيين، من خيرة مفكريها وعلمائها ممن عرفت، ولكن الطيب صالح هو إنسان كلّ الدنيا، يستسيغ الثقافات، ويقرأ لكلّ الكبار وفي مقدمتهم الإنجليز. سيدي الطيب يحدثك عن أيّ أمر، إلّا عن نفسه وأعماله، ويحدثني عن كلّ الأمور بما في ذلك نفسه وأعماله، تحدثنا مرات هاتفياً بين واشنطن ولندن للتحضير لحفل تكريمه في أصيلة، شيء لا يصدق، في كلّ مناسبة كنت أشعر بأن الطيب صالح كان يتهرب في عفوية الطفل أو إمتعاض العذراء، لَمْ يستسغ قط فكرة تكريمه، «لا ياراجل والله لا استحق التكريم، هناك غيري من يستحقونه»، كان يردّد لي ذلك كلما فاتحته في الموضوع حَتّى أحسست فعلاً أنّه لا يرغب وأنّه فعلاً غير قادر على الرفض، وصارحته بذلك واعترف، وأخيراً رضخ».

لخّص محمد بن عيسى رأيه في ذلك الرجل بقوله «هكذا هو سيدي الطيب.. الحشوم الوقور المتواضع المتقشف، البسيط، الإنسان المسالم بقلبه ووجدانه وعقله وتصرفاته وقلمه»، لا جدال فيما كتب هذا المثقف المغربي.. فالطيب صالح هكذا ويزيد..

صلاح أحمد محمد صالح الشاعر والدبلوماسي السوداني المعروف زامل

الطيب صالح في المرحلة الثانوية بوادي سيدنا إلّا أنه لَمْ يتصل به عن كثب. وفي لندن إلتقيا حيث عملا معاً في هيئة الإذاعة البريطانية. توجس صلاح في بداية أمره من قدرات ذلك الفتى الريفي القادم لتوه من الخرطوم وخاف على سمعة السودان إلّا أنّه بات يدهشه في كلّ يوم بجديد ويثير إعجابه، فقد حقّق في إذاعة لندن ما لَمْ يبلغه سوى قلة من النوابغ. فقد كان المذيع اللامع ذا الصوت الدافىء الودود والذي يشد الأذن والقلب معاً، حين يقرأ حديثاً تشعر وكأنّك تستمع إلى صديق تأنس إليه، يحدثك من مقعد مريح مقابل وأنتما تجلسان حول مدفأة.. وحين يدير حواراً يسحر ضيفه بقدر ما يسحر المستمع!.

نال الطيب صالح مكانة إجتماعية وأدبية سامية في مجتمع الإذاعة وأروقتها ومنتدياتها، ويذكر صلاح أنّهم اعتادوا الجلوس خلال ساعات العمل في كافتيريا الإذاعة وكان يدور نقاش جدي يتناول مواضيع سّياسية وأدبية في شتى القضايا يشارك فيه عرب من جنسيات مختلفة وبريطانيون وآخرون. وكان أكثر ما يبهرهم وهم يستمعون إليه بلاغته وتمكنه من الكلمات عربية كانت أم إنجليزية وعمق ثقافته وسعة إطلاعه، كان يحاور البريطانيين في أدب شكسبير وتنيسون ولورد بايرون وفيتز جرالد وأوزبورن ويحاور العرب بالعمق والتمكن ذاتهما في الأدب العربي من عصور ذي الرمة وأبي نواس وابن الرومي والمتنبي مروراً بشوقي وحافظ وطه حسين إلى عصر نجيب محفوظ ويوسف إدريس ونزار قباني وصلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطي حجازي ويطوف معهم في بساتين بيرم التونسي وصلاح جاهين وفؤاد حداد والحردلو والعبادي وود الرضي.. ويحفظ من أقوال هؤلاء وأشعارهم الكثير. يفعل كلّ ذلك بتواضعه ووقاره المطبوع.

أما الدكتور عبدالواحد عبدالله يوسف فقد رأى الطيب صالح «إنساناً زكي الفؤاد واسع الصدر، عزيز النفس، معتدل المزاج والتفكير لا يجنح شرقاً أو غرباً، يتحدث ببساطة وعمق في آن واحد وفي أدب جم ودماثة خلق أشبه بسلوك

الصالحين، فيه من تصوف ابن عربي وحذق الغزالي الشيء الكثير. وفيه من المتنبى وشممه وجرأته وقدرته على الابداع الشيء الكثـــير أيضا. كـــان المتنبي لا يزال من أحب الشعراء إلى نفسه، ولكن الطيب بعيد عن صلف المتنبي وطموحه إلى السلطة والجاه، الطيب إنسان بسيط غاية في التواضع».

في كتاباته غير الروائية – بالمعني المحدَّد للرواية- إستحدث الطيب صالح جنساً أدبياً تجد صعوبة في تصنيفه فحين يكتب عن ذكريات أو تجارب أو آراء حول الناس والأشياء تجد متعة كأنّها مزيج من تذوق الشعر العظيم والنثر الفخيم والحكي البارع المشوق. كأن ما تقرأه ليس واقعاً، أهي الواقعية السحرية كما يتحدث النُقّاد؟– تلك قصة أخرى.

يصف زميلته في الإذاعة ليلى طنوس فيقول «مسيحية كالمسلمين، عربية كالأوروبيين، ارستقراطية كبنات البلد. تشربت حبَّ اللغة العربية من الجامعة الأمريكية في بيروت، ومن البستاني والعلايلي ومارون عبود. فيها من رومانسية جبران وجاذبية لبنان. تتلمس الكلمات العربية وهي تنطقها كأنّها قطع من عملة أجنبية نادرة». وتحدث عن آخر يدعى صباح محيى الدين فقال: « كان من دمشق أو من حلب، جاءنا يحمل درجة الدكتوراه من السوربون وزوجته فرنسية، كان حجّة في نوادر الرفث عن العرب، يحفظ منها قدراً هائلاً، شعراً ونثراً، تعوّد العيش مع الفرنسيين. فما راقته الحياة في لندن. كان يكره الإذاعة ويحتقر الأوروبيين عموماً. كل الجهود لتعليمه الإذاعة باءت بالفشل، مات بعد ذلك في حادث سير في الكويت. ويصف موسى المسعودي «لعله كان أحسن قارىء أخبار.. جاء من القدس.. كريم متلاف صريع غوان له مطلب واحد يحصل عليه دون مشقة. كان مزيجاً عجيباً من الفارس والصعلوك» قابلناه في جنيف عام 1973، عبدالرحيم الرفاعي وأنا. وكان قد طلّق زوجته الإنجليزية وتزوج هولندية، وحصل على درجة الدكتوراه وأصبح أستاذاً في جامعة ليدز. نظرنا إليه فلم نعرفه

لأول وهلة، فقد فعل فيه الزمن فعله، إلا أطلال وسامته اللافتة للنظر، وأصداء بعيدة من صوته الجميل». ووصف مدير الإذاعة العربية مستر جوردون ووترفيلد بأنه «كان رجلاً ضخماً بجميع المعاني، جسمانياً، وعقلياً وروحياً، فيه ترفع الأرستقراط وتسامح الفنان ورحابة صدر المؤرخ. كان يستحق أنْ يكون مديراً عاماً لهيئة الإذاعة البريطانية بأسرها أو نائباً في البرلمان أو سفيراً أو وزيراً، لكنه لَمْ يكن طموحاً ولَمْ يكن يبالي. وكان يصرِّف شؤون القسم العربي الكبير بلا كبير جهد. ويهرع إلى قلعته في إيطاليا خلال أشهر الصيف يقرأ ويكتب. وكان مع وقاره ضحوكاً يعجبه مزاح عبدالرحيم الرفاعي لأنه مصري، ومزاحي لأنه يعاملني كزميل له في مهنة الكتابة، فقد كانت بعض تراجم كتاباتي بدأت تظهر في لندن تلك الأيام. وكان يعجبه قول عبدالرحيم الرفاعي أنّ بريطانيا وطنه القومي، ساخراً بذلك من الزعم اليهودي بأنّ فلسطين هي الوطن القومي لليهود.

فالطيب صالح فاجأ القراء العرب والمثقفين المتابعين بصورة خاصة مفاجأة أذهلتهم في أواخر سنوات الستين الماضية حين صدرت أعماله وانتشرت وما فتئت حديث كلّ لسان وبغية كلّ قلم. وهكذا ملأ الدنيا وشغل الناس، فأعماله قرئت في عشرين لغة حيّة. فإلى جانب العربية تُرجمت أعماله إلى تسعة عشرة لغة هي الإنجليزية والفرنسية، والألمانية، والصينية، واليابانية، والروسية، الإيطالية، والإسبانية، والهولندية، والتركية، والبولندية، والنرويجية، والبلغارية، والسلافية، والتشيكية، والمجرية، والدنماركية، والكورية، والعبرية، وتناولت إبداعه الأوساط الأدبية العربية والأجنبية بالدرس والتحليل واحتفت به أيّما حفاوة. كما كانت أعماله الروائية مادة للدراسة والأطروحات الجامعية لنيل درجات الماجستير والدكتوراه، حيث بلغ عددها ثماني أطروحات لدرجة الماجستير وعشرات الأطروحات لدرجة الدكتوراه بالعربية والإنجليزية والفرنسية والمجرية، وهكذا تربع الطيب صالح بفنه الأصيل في قمة العالمية حيث اخترق بجدارته هذا الكم الهائل من لغات البشر.

لا يزال أستاذنا الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه يتحفنا بكلٍّ ما يصل إليه من إصدارات جديدة.. يسعده إطلاع القراء على مستجدات الفكر السوداني ومتابعة الحركة الثقافية، ولا غرو فهو أحد سدنتها البارزين.. يحتفي بها ويقدرها بمستوى علمه فقد أشركنا في التمتع بالسِفر الرائع الذي حرَّره صديقه الدكتور حسن أبشر الطيب وأصدره في مجلد جدُ فاخر أنيق.. يليق بجلال المناسبة وبمستوى ما خطه كبار الكتاب والأدباء، أصدقاء الطيب صالح وعارفو فضله بمناسبة بلوغه السبعين.

كتبوا كثيراً عن الطيب الإنسان وسجاياه. عن نبله ومروءته وشجاعته وكرمه الفياض، عن تواضعه وبساطته، وعن دعاباته وروحه المرحة. وتضمن الكتاب أيضاً لقاءين مع الكاتب ومقالات نقدية في غاية العمق والتنوُّع والموضوعية شارك فيها نُقَاد عرب وأجانب.

الواقعي يتجاوز المتخيل

الطيب صالح

حين أشرت إلى الجنس الأدبي الذي برع فيه الطيب صالح بكتابته عن شخصية واقعية صحبته زماناً وتوثقت علاقته بها في مقال سابق- عمل لا هو روائي ولا من جنس التراجم- كتابة مباشرة حيَّة عن شخصية واقعية. فعلت ذلك وما كنت أحسب أني أعود وشيكاً لأقرأ ذلك النص وأغوص في أغواره المغامرة. فالطيب الروائي الموهوب لَمْ يجد كبير عناء في الكتابة عن المنسي. كان في معماره كمن يتناول مادته من قريب.. لا يتلفت كثيراً ولا يتعمَّل ولا يستدعي خياله.. فكل مواقف البطل كان شاهداً عليها بل ومشاركا فيها. ويبدو أنَّ الطيب كان أيضاً يتسلى بنزوات ذلك الرجل الغريب ويستمتع بتصرفاته الشاذة، وذلك بطبيعة الفنان الذي يسعده الخروج عن المألوف. حين كتب الطيب صالح رائعته «موسم الهجرة إلى الشمال» ظنَّ كثير من النُقَّاد العرب أنَّ مصطفى سعيد هو الكاتب نفسه يروي تجربته في ذلك القالب الروائي الفريد.. والمثقفون السودانيون حسبوا البطل أحد أوائل الطلاب الذين ابتعثوا إلى إنجلترا وركزوا بصفة خاصة على الدكتور أحمد الطيب.. فتجربته غير بعيدة عن قصة مصطفى سعيد المثقف السوداني الوسيم الذي يتزوج من بريطانية تذيقه الويلات - مثلما فعلت جين مورس- تتلاعب بعواطفه وتفشل في التعامل مع عبقريته وتبالغ في الانتقام من هفواته الصغيرة. وفي مقابلات صحفية كثيرة نفى الطيب صالح أنْ يكون الأمر كذلك. فالإبداع ليس صورة فوتوغرافية من الواقع... ومصطفى سعيد جمع في ذاته ملامح بعض الشخصيات- ربما يكون أحمد الطيب أحدهم حَتَّى أنبرى أخيراً الأستاذ على

أبوسن فأعلن أنه هو مصطفى سعيد لا غيره.

كان المنسي أغرب من الواقع بكثير ومهما شطَّ بك الخيال وجمح لا يمكن أنْ تتصور شخصاً واحداً يمكن أنْ يتميَّز بكلّ هذا النشاط والحركة والحيوية والتنوُّع. ويبدو أنَّ الطيب صالح لَمْ يفكر في الكتابة عنه إلّا حينما مات بصورة مفاجئة بسرطان الكبد مثلما اختفى مصطفى سعيد فجأة مخلفا التساؤلات حول حقيقة مصيره. وعندما كتب قال «في مثل هذا الوقت من العام الماضي توفي رجل لَمْ يكن مهماً بموازين الدنيا، ولكنه كان مهماً في عُرف ناس قليلين، مثلي، قبلوه على عواهنه، وأحبوه على علاته، رجل قطع رحلة الحياة القصيرةوثباً وشغل مساحة أكبر مما كان متاحاً له، وأحدث في حدود العالم الذي تحرك فيه ضوضاء عظيمة، حمل عدة أسماء، أحمد منسي يوسف، منسي يوسف بسطاوروس، مايكل جوزيف، ومثّل على مسرح الحياة عدة أدوار، حمالاً وممرضاً ومدرساً وممثّلاً ومترجماً وكاتباً وأستاذاً جامعياً ورجل أعمال ومهرجاً. ولد على مِلة ومات على مِلة. ترك مزرعة من مائتي فدان من أجود الأراضي في جنوب إنجلترا، وقصراً ذا أجنحة، وحمام سباحة وأسطبلات خيل، وسيارات رولز رويس وكاديلاك ومرسيدس وجاغوار وماركات أخرى، وخلّف أيضاً مزرعة من مائة فدان في ولاية فرجينيا بالولايات المتحدة وبيتاً في واشنطن ومطعماً وشركة «سياحة». هذه هي الصورة التي ابتدر بها الطيب صالح قصة المنسي، وهي رواية واقعية من أجمل ما قرأت. بطلها قبطي مصري جاء يتعاون مع قسم الدراما في هيئة الإذاعة البريطانية، حيث كان يعمل الروائي السوداني، التقي به وتوثقت بينهما العلاقات رغم الإختلاف الكبير بين شخصيهما. فالطيب طبعاً رجل شديد الحياء، جمّ التواضع، بسيط وزاهد كصوفي لا يسعى للظفر بالدنيا ولا يبحث عن الأضواء ومواقع الحظوة - مثلما كان مصطفى سعيد- والمنسي شخصية ديناميكية جريئة لاتبالي مفعمة بالحياة. جاء إلى لندن في عام 1952 لا يملك غير معرفته باللغة

الإنجليزية.. يستخدمها ببراعة في مختلف المواقف وينال بها مأربه ويحقق أهدافه. غامر وتلاعب وإستخدم«الأونطه» و«الفهلوة» حَتَّى إستطاع الولوج إلى جامعة ليفربول ومن ثَمَّ انطلق في المجتمع البريطاني كواحد من أفراده.

وصف الطيب صالح صديقه المنسي بأنه كان مترهلاً بكرش ضخمة ومؤخرة بارزة- كأنَّه كرة شقت إلى نصفين- إلاَّ أنَّ وجهه كان يكسوه شيء من الوسامة، فلم يعدم نساء يحببنه، «بعضهن كن جميلات فارعات الطول، يبدو قزما إلى جانب الواحدة منهن» تزوج فتاة من أسرة إنجليزية عريقة ينحدر أسلافها من سلالة سير توماس مور، الوزير الأول للملك هنري الثامن. فأقام الدنيا ولَمْ يقعدها بالتباهي والافتخار بأصهاره هؤلاء. إقتحم دارهم الوسيعة المكوَّنة من طابقين فاستولى على الطابق العلوي».. «طالعاً نازلاً آمراً ناهياً» وقلب تلك الدار رأسا على عقب، يستضيف أصنافا من البشر، ما كان يخطر على بال النبلاء الأرابيب الراقدين في قبورهم الفخمة في أطراف إنجلترا أنْ يروا أمثالهم. وحين يفتح لك الباب تزكمك روائح الملوخية والكمونية والكوراع والمسقعة. لَمْ يكتف بذلك حين أحسَّ بقوة مركزه الإجتماعي فصاهر أسرة عربية موسرة أسبغت عليه كثيراً من نعمائها وخرج مستفيداً من تلك التجربة.

مصطفى سعيد كان عبقرياً نابغاً منذ طفولته.. قفز مراحل التعليم قفزاً.. كلية غردون فالقاهرة وأخيراً أوكسفورد، منذ البدايات الأولى كانت لغته الإنجليزية معجزة.. بهرت أقرانه ومعلميه فلقبوه بالإنجليزي الأسود. أصبح أستاذاً في جامعة أوكسفورد ولا يزال في الرابعة والعشرين. فتح له المجتمع الإنجليزي أبوابه فلَمْ يفكر في المال والجاه، بل أخذ يسعى نحو الجنس الذي ملأ عليه أقطار نفسه. كان يغشى حانات تشلسي وأندية هامبستد ومنتديات بلومزبري.. يقرأ الشعر ويتحدث في الدين والفلسفة وروحانيات الشرق وينقد الرسم. يفعل كلَّ شيء في سبيل إصطياد إمرأة. ثُمَّ لا يلبث أنْ يسرج بعيره باحثاً عن أخرى من بين فتيات جيش

الخلاص وجمعيات الكويكرز، ومجتمعات الفابيين واجتماعات أحزاب الأحرار أو العمال أو المحافظين أو الشيوعيين. ينتحل في كلّ مرّة اسما مختلفاً، مرّة حسن وتشارلز وأمين ومصطفى وريتشارد. وحين عاد إلى السودان بعد قضاء عقوبة السجن لقتله جين مورس تسلل إلى قرية منسية في الشمال وتزوج من فلاحة بسيطة ذلك بعد أنّ خلف وراءه أسطورة الرجل الوسيم الأسود المدلل في الأوساط البوهيمية. قال عنه ذلك الاقتصادي الإنجليزي الذي يبدو أنّه كان يمقته « إنّه كان واجهة يعرضها أفراد الطبقة الأرستقراطية الذين كانوا في سنوات العشرين وأوائل الثلاثين يتظاهرون بالتحرُّر. ويقال إنّه كان صديقا للورد فلان ولورد علان وكان أيضاً من الأثيرين عند اليسار الإنجليزي. كأنّهم يريدون أنْ يقولوا: أنظروا كم نحن متسامحون ومتحرّرون.. فهذا الرجل الإفريقي كأنّه واحد منّا تزوج ابنتنا ويعمل معنا على قدم المساواة»

تعرّف المنسي على مجتمعات الأدب والفن مستخدماً صديقه الطيب صالح تارة، وأحياناً كان يقتحم الميدان وحده مستعيناً بجرأته ولغته الإنجليزية المطواعة وسكنه في شارع معروف في حي عريق ترفده العظمة التاريخية لأصهاره النبلاء. ولَمْ تعوزه الحيلة للوصول إلى عالم صمونيل بيكيت المغلق. تعرّف عليه وصادقه وأصبح يدلله ويناديه بـ« سام».

جاء المنسي مرّة للطيب صالح وقال «أصلهم ناويين ينتجوا فيلم عن «لورنس»، تعرف مين حيمثل دور لورنس؟ إلك غنس في دور لعربي شاب، أما دور لورنس بيفكروا في عمر الشريف، وأنا ناوي ألطش الدور. المخرج حيكون ديفيد أخو تانغي، وتانغي وعدني يكلم أخوه « هكذا بكلّ بساطة وعفوية كان المنسي يتصرف، إلّا أنّ الطيب صالح قال إنّه بقدرما كان ممثلاً بارعاً في الحياة كان يفشل في الأدوار السينمائية التي غالباً ما يكون فيها «كومبارس» يستغرق دوره دقيقة أودقيقتين، جرسون أوخادم، أو سائق تاكسي في القاهرة. وكان رئيس قسم الدراما في الإذاعة

البريطانية يحبه ويعطيه دورا في أيّ تمثيلية يخرجها.. يستمتع بمعابثته وشتمه ويصرخ فيه «يا واد يا ابن.. أنت طول الوقت عمال تتنطط وتترقص وأول ما يولع النور الأحمر ويبدأ التسجيل تتهمد. الله يخرب بيتك ما تحط شوية من الأونطة دي في الشغل».

إلّا أنّ المغامرة الكبرى التي خاضها المنسي كانت حين إستضاف مجلس العموم البريطاني في لندن المؤتمر الدوري لبرلمانات العالم. فاتصل بالوفد المصري مقدماً خدماته، حجز فنادق وتسوق وعيادات أطباء حَتّى بات بالفعل عضواً في الوفد.. توجّه إليه الدعوات بهذه الصفة. وحين غاب رئيس الوفد لأسباب طارئة حلّ مكانه بطريقته.. واستأجر بدلة السهرة أو استعارها. وتقدّم ليحيي الملكة في صف طويل يقف وراءه محمد أحمد محجوب بقامته المديدة وسمته المهيب وقدراته الفذة وثقته المفرطة. أخذ المنسي يتحدث إلى الملكة ويتحدث حول مهامها وحياتها العائلية وتربيتها لأطفالها. استغرقت المحادثة وقتاً استرعى الإنتباه فتحرك دوق أدنبره وجذبه من ذراعه برفق. لَمّ تمر المسألة كما إعتاد المنسي أنْ يخرج من المأزق كالشعرة من العجين. وفي أول صباح بعد المحادثة أحاط به رجال الأمن مزودين بكلّ صغيرة وكبيرة عنه واتهموه بأنّه عميل للمخابرات المصرية.. بينما اتهمه الجانب المصري بأنّه عميل لبريطانيا. وبعد تحقيقات واسعة إتضح أنّ هذا الشخص إما أحمق أو مجنون لا يدري ماذا يفعل.

مصطفى سعيد المتخيل ظلّ انطوائياً يشغله نشاطه العاطفي والمنسي الشخصية الواقعية إستخدم كلّ ملكاته وأساليبه ليصل إلى أهدافه، قال عنه الطيب صالح إنّه كان ضيفاً دائماً على مائدة الحياة». وحين التقى به لأول مرّة حاول أنْ يرشوه بجوارب من نوع رخيص. لقد إستطاع الكاتب بقدراته الفذة أنْ يضم المنسي إلى عالمه الإبداعي الفريد.

6 نوفمبر 2001م

المجذوب.. يلوذ بمزرعة الحرية



عثر المجذوب على فردوسه الأرضي في طفولته حين عاش فترة منها في مزرعة على شاطىء النيل ظلّت تلازمه تجربتها طوال حياته بعد أنْ تركت فيها أثراً لا يزول. وجد فيها حريته التي لَمْ تلبث أنْ ضاعت وتبدّدت لدى التحاقه بمؤسسات التعسف والتضييق.. الزجر والأوامر..والنظام والانضباط. دخل الخلوة حزيناً باكياً وحين حاول الشيخ تألفه بتمرات رماها به.. إلّا أنّه لَمْ يلبث أنْ استكان حين رأى حواراً مقيداً بقسوة ووقعت عيناه على عصا السَلّم المخيفة. لَمْ يجد مفراً من الحفظ والمواظبة وأطياف المزرعة لاتفتأ تداعب خياله وتثير فيه

حناناً دافقاً.. بهرته الخضرة والحصاد وجمال الحيوان وحرية الطير.. وتلك الأعشاش المتقنة الصنعة.. وأصوات الليل. عاش مع أقاربه هؤلاء الذين وصفهم بأنهم لَمْ يكونوا يعرفون إلّا الأرض.. والكد والضحك والبساطة.. وقال إنَّ ذلك كان عمراً حقيقياً له.. حيث كانوا أحراراً وتعلم منهم الحرية. «وقد نشأت معهم تولوا تربيتي وخدمتي ولن أنسى حبوبتي صافي النية وأخاها الضو.. والصبر وفرج الله ممن كانوا يلوذون بتلك المزرعة».

خلبت لبه الخرطوم حين إنتقل إليها صغيراً وأحسَّ بجاذبية لها شديدة القسوة.. وعندما تدرَّج في المراحل الدراسية شهد في كلية غردون التذكارية لوحاتٍ على جدران الفصول.. ذكر من بينها لوحة الموناليزا. وذكر مستر لين، الذي أنشأ أول جمعية للفنون شارك فيها مبارك زروق الذي كان يرسم وجوهاً حساناً بقلم الرصاص والخير هاشم الذي كان يستخدم الأقلام الملونة والألوان المائية، وقد أحبَّ مستر لين هذا ووصفه بالإنجليزي الفاضل لإنسانيته ولين عريكته. كان المجذوب يتمنى لو كان رساماً.. وقد بذل جهوداً جبارة لتحقيق هذه الأمنية، حيث أنّه التحق بعد فترة طويلة - وقد تقدَّم به العمر- بالمعهد الفني.. ثُمَّ عاد والتحق بقسم الدراسات الإضافية.. حيث تلقى دروساً في الرسم على يد السيدتين جريلزدا الطيب وفاطمة عبدالفتاح، وحضر محاضرات في التذوق الفني قدمها الدكتور أحمد الزين صغيرون. وتحدَّث المجذوب عن أول معرض أقيم في السودان. أقامه مستر لين عام 1926. وقد رسم هو لوحات لحسناوات أهداها لبعض أصدقائه الذين زينوا بها منازلهم، إلّا أنَّ أفضل مشهد فني رآه وأعجبه في ذلك الزمن البعيد فقد حدث أمام الحقانية «دار القضاء الآن» حيث وقف رجل «يرتدي جلابية دبلان لها ياقة كجلاليب الختمية» ويلبس عمامة مطمئنة لا حذلقة فيها، أميل للبدانة، مجتمع الجسم، لو قلت إنَّ لونه بني لما كنت دقيقاً.. كان أخضر فاتح الخضرة. نصب خشبة مربعة لها قوائم

فرش عليها ورقة بيضاء ثقيلة، ثبتها بدبابيس صفر، يرسم بقلم الرصاص امرأة واسعة العينين، مشلخة، وممتلئة وممشطة.. تتكيء على مخدة، وتلتحف فركة، خصرها نحيل وردفها ثقيل.. «وأدهشتني قدرة الرجل في ذلك الزمن البعيد البعيد».. كان اسم ذلك الفنان علي عثمان أو عثمان علي- لَمْ يقطع المجذوب الشك- إلّا أنّه كان مشهوراً وقتذاك.. يقول إنّه كان يعمل في مصلحة السكة الحديد. وقد انتشرت أعماله الملونة ملأت جدران المقاهي، «كان يرسم شيئاً حفظه حقاً.. فهو يسجّله تسجيلاً دقيقاً.. كان رسمه كشعر «الحقيبة» يجسم المرأة المحجوبة ويركز على مواضع بعينها، ويرى المرأة ولا يراها.. ويتحدث عن العفاف والصون والكتمان.. فإذا جاءت الحرب صارت المرأة قائداً للأسطول.. أو عنباً من الشام.. ومن الغريب أنْ يستمر بعض الشعراء في هذا حَتّى الآن».

كان الفنان جحا بأم درمان يفعل مثل ذلك.. وقد اهتم برسم المرأة بشكلها التقليدي التاريخي. ذلك الذي يوحي إليك كأنّها إحدى الكنداكات بشلوخها وضفائرها وجمال تقاطيعها وامتلائها.

كان الشاعر محمد المهدى المجذوب يتحدث إلى الشاعر عبدالرحيم أبوذكرى في حوارية ثرية نشرتها الصحف في إحدى سنوات السبعين من القرن الماضي. تجد فيها قدرات المجذوب في التعامل مع النثر. وأظن ذلك الحديث كان مسجّلاً- أي بلغة الكلام وليس بلغة الكتابة - وكُنّا قبل ذلك مفتونين بمقدمة ديوان «نار المجاذيب». ثُمَّ بمقدمة «الشرافة والهجرة». ولما كنت قد سهرت تلك الليلة مع ملفات المرحوم عثمان حسن أحمد فقد عثرت على ملف يحتوي على بعض قصائد الشاعر ومجموعة من مقالات وكتابات نثرية. فدخلت في عالمه النثري رغم محدوديته حيث لَمْ يتجاوز بضع مقالات ومقدمات لدواوين شعرية.

ومن أفضل ما جاء في تلك الحوارية رأيه النقدي في الشاعرين التجاني يوسف

بشير، والناصر قريب الله، وذلك حين سأله أبوذكرى عن الأساس الموضوعي لتفضيله الناصر على التجاني. فجاءت إجابته بسيطة وسهلة، أقرب إلى الملاحظات العابرة من النقد الصارم المحدد.. إلّا أنّها مشحونة بالدلالات والفهم العميق للجمالية الشعرية وحساسيتها. فقال «التجاني شاعر عظيم خالد، وقد كنت ذكرت في مقالة سابقة أنّه لَمْ يكن متصوفاً بل شاعراً حسياً.. ولكن ثقافته ونشأته في أسرة دينية أملت عليه مظاهر صوفية انعكست على شعره. وحين حاول الخروج على مستوى شعري آخر رماه النُقّاد بالغموض. ولقد كان يجيد ما يعرف إجادة متفردة.. لقد حاول الصورة الشعرية ولَمْ يستطع الإمساك بها.. كان يخاف من الحياة.. ومن الذي لا يخاف من العجز والضرورة.. خصوصاً إذا كان عاري الأعصاب كشاعرنا العظيم التجاني.. مليئاً بالمرارة، عالماً بأنّه عبقري ضائع. وقد كتب شعراً يخصه.. لا يضارعه فيه أحد.. وشعره الذي تنعكس فيه ثقافته الدينية كان حديث حيران مع نفسه. يريد أنْ يعرف موقعه في العالم ومصيره.. كان يغوص في أعماق نفسه ويستجلي خواطره ويتأمل عزلته في ثقافته ويتشهى.. أما الناصر فكان يجيل عينيه حواليه في شجاعة من لا يبالي بالعواقب، ويعبر في جرأة وسماحة.. وقد شهدته في أيامه الأخيرة فلَمْ أر أشجع منه ولا أكثر تفاؤلاً وإيماناً بالحياة.. ولك أنْ تقارن بين الشاعرين العظيمين في شعر الطبيعة. وهذا باب له خطره في الشعر التصويري.. نعم أرجو أنْ تقارن بين قصيدة التجاني في توتي وشعر الناصر في طبيعة غرب السودان سوف يتبين لك أنَّ التجاني كان ذكياً بليغاً والناصر فناناً ذا قدرة على الخلق. وكان التجاني شديد الإهتمام بشعره عاكفاً عليه عارفاً بقيمته مدافعاً عنه متحرشاً بأدعياء الشعر.. ولَمْ يكن الناصر هكذا.. فقد كان الشعر عنده لحظات يعيشها حقاً ويمتزج فيها بالطبيعة والناس.. ولَمْ يتفرغ للشعر.. وكان صوته ناصعاً مليئاً بالوداعة والعذوبة والغضب والفرح أيضاً. وكان التجاني هادئاً صافي الأسلوب في شعره.. متفرداً في هذه الناحية مع تأثره بشوقي، وليس هذا عيباً.. وغيره من الشعراء كان

كذلك، خصوصاً حمزة الملك طمبل وصاحب «الشاطىء الصخري»[1] وقد اشتهر التجاني في مصر أولاً.. ولعل قلة إلمام إخواننا المصريين بالشعر السوداني في ذلك الزمان كان سبباً في دهشتهم أنْ يكون مثل هذا الشعر قاله شاب سوداني من أم درمان. ومازلنا نؤمن بالشهادات من الخارج ولا أدري متى يزول هذا ونتولى أمر أدبنا بأنفسنا حَتَّى نعرف سادتنا المبدعين حق المعرفة.

«لقد تأخر نشر ديوان الناصر - وهو معاصر للتجاني - ولَمْ يتأمله القراء كما ينبغي ولذلك أنكروا قوله إنَّه أشعر من التجاني وأعرف نفراً يشيدون بشهرة شاعر على السماع قبل أنْ يقرأوه. لقد إمتاز الناصر في جملته بإستقلاله وعجلته في كتابة القصيدة.. وامتاز التجاني بتصفية أسلوبه الصافي في أبيات معدودات.. إني أحب التجاني حباً لا يوصف.، مع الاشفاق عليه والبكاء والاحترام والتوقير، كما أحب الناصر الذي صاحبته فترة غير قصيرة وأعيذ نفسي من التحيز لأنه لا ينفعني.. وللناس رأي والتحيز غير مقبول في أمر فني.. والحقيقة أنَّ الشاعر نفسه هو الذي يحدد موقفه. لقد رأيت رأياً رفضه الكثيرون قبل أنْ يقرأوا الناصر قراءة حقَّة.. ولا عجب فقد هاجم أشياخنا- حماة اللغة- حمزة الملك طمبل قبل أنْ يفهموا قضيته».

في محاضرة قدمها ناقد سوداني مفراح قبل أشهر قليلة بالمجمع الثقافي بأبوظبي وصف الشاعر المجذوب بالمجون. ويقيني أنَّه قد تجني عليه وأفرط،

فالرجل كان محباً للحياة مقبلاً عليها.. شديد الصراحة والسخرية من نفسه ومن الآخرين..وقد رأي البعض أيضاً أنَّه قد أسرف في حسيته عندما وصف تجربته في الجنوب في قصيدة «انطلاق». فإذا قرأنا ما قاله عن نفسه يزول كثير من الالتباس «هل أنا متصوف؟» لا أعرف كيف خُلعت الصوفية عليّ، قال الأستاذ عبدالمجيد عابدين إنني شاعر التأمل الحسي. وأنت ذكرت الوثنية.. أما

1. حسين منصور الشاعر المصري الذي أقام بالسودان مدرساً

قضية القضايا عندي فهي البحث عن إنسان سوي.. أما الحسية في قصيدة «الانطلاق».. فقد قلت لك إنني عشت في مزرعة على شاطىء النيل قبل دخولي إلى الخلوة الصارمة- المطهرة..

وعندما نقلت إلى الجنوب إستعدتُ حريتي الأولى تلك.. لست صوفياً وطريقة مشايخي هي الشاذلية ولا يعهدون بها إلّا لحافظ مستقيم عفيف.. ولكني كنت أميل إلى حلقة القادرية ذات الطبول والنوبات.. نقاقيرهم ورقصهم وهو بعينه ايقاع حلقة الذكر والكرير في الجزيرة.. وعجبت كيف طال بحثنا عن أمر العنج وآثارهم باقية في هذا الرقص والإيقاع.. وتعرف انتشار القادرية في الصعيد، ولعلك شهدت حلقاتهم هناك.. دراويشهم يلبسون الودع والجلود.. وقد نفيت في قصيدتي «انطلاق» نفسي من العرب شغفاً بجمال الجنوب وبساطته وقوته وعلمه المباشر بالحياة.. وقد عدني أحد النُقّاد المصريين من الشعوبيين والأمر لله من قبل ومن بعد».

26 مارس 2002م.

رسائله إلى ديزي الأمير

محمد المهدي المجذوب

تحدثت الفتاة الإنجليزية روزماري عن الشاعر السوداني محمد المهدي مجذوب قائله «إنك لا تعرف مدى تأثير هذا الرجل عليّ.. إنه امتلك جوانحي واستلب عقلي.. لقد قتلني وأنا أخشى أنْ أركع أمامه حين ألقاه فهو أشبه بالقديسين.. لكنَّ في داخله بركان، ورغم أنَّ صورته حلوة هادئة، لكنَّ ابتسامته ساخرة. لقد أبلغتني أنّه تعلم بالسودان.. ولكن يبدو لي وكأنّه يحتوي العالم بين يديه.. إنه قوة جارفة.. ماذا أفعل؟ كانت تلك الفتاة لَمْ تلتق بالمجذوب بعد إلّا عن طريق رسائل حارة ملتهبة محتشدة بالمعرفة والتأمل والفكر العميق.

كان المجذوب قد كتب إلى صديقه علي أبوسن يطلب منه أنْ يختار له امرأة تكاتبه «أريد امرأة تكتب إلي.. بين الثلاثين والأربعين.. تكون أماً وحبيبة.. عرفها بأحوالي جميعاً. والأمر جد ولا يحتاج إلى مزيد من الشرح ويحسن أنْ تكون وحيدة محزونة مثلي.. (تصورا) تحسن الكتابة والوضوح والصراحة، وتكون ذات فهم عميق.. عسى أنْ ينفعني ذلك في تنظيم نفسي.. أحذرك أنْ تكون قبيحة أو سمينة أو عجوزاً وإلّا فالويل لك، أريدها ممشوقة خفيفة الوزن رؤوماً وسأكتب إليها لن أخفي عنها شيئاً.. ألا ترى في خطابي إنني في حالة سيئة جداً». أخذ المجذوب يكتب بانتظام إلى الآنسة روزماري في لندن بلغته الإنجليزية الفخمة حول الأدب والفن والفلسفة والأخلاق وعن سيرته الذاتية وإنطباعاته العابرة.. جاداً ومازحاً.. ساخراً ومتبرماً.. لا ينتظر ردودها غير المنتظمة إلّا أنّه بات يتخلل ذاتها وينمو في شرايينها بطريقة أودت بها إلى نهاية مأساوية.

كتبت ديزي الأمير الكاتبة والقاصة العراقية في مجلة «الناقد» العدد (78) الصادر في ديسمبر 1994 تشكو بمرارة من تصرف الناقد المصري رجاء النقاش فيما يتعلق باستيلائه على مجموعة هائلة من الرسائل ظلّ يبعث بها المجذوب إلى ديزي - طيلة سنوات- إحتشدت بكلّ تجاربه وملاحظاته في مختلف مجالات المعرفة وتأملاته وآرائه في الحياة في الناس بلغته الشاعرية الآسرة.

كانت ديزي الأمير قد إلتقت بالمجذوب في بيروت حينما كان عائداً من مؤتمر الأدباء العرب الذي انعقد في القاهرة في عام1964. وكان ذلك أثناء مأدبة عشاء أقامها الملحق الثقافي السوداني المتميّز ضرار صالح ضرار لعدد من الأدباء. كان المجذوب- والذي كان أميناً عاماً لإتحاد الأدباء السودانيين وقتذاك- نجم تلك الليلة بلا منازع بلطفه الذي شمل كلّ الحاضرين وبحديثه الشيق وثقافته الواسعة ولباقته المعهودة.

ومن جانبها وجّهت ديزي الأمير - التي كانت تعمل بالسفارة العراقية في بيروت- دعوة أيضاً لعدد من الأدباء من بينهم ضرار والمجذوب الذي مدّد فترة مكوثه بالعاصمة اللبنانية.

بعد عودته إلى الخرطوم بدأ المجذوب يبعث بالرسائل إلى ديزي الأمير التي لَمْ تشأ أنْ ترد عليها لإعتبارات كانت تراها، منها سلوكها المحافظ المتزمت الذي يرى في الكتابة إلى الرجال خروجاً عن مألوف التقاليد. إلّا أنّه التقى بها في القاهرة عام 1968 خلال انعقاد مؤتمر الأدباء وعاتبها بمودة ولطف وتواضع، ومن ثَمّ ظنت أنّ سيل الرسائل سينقطع إلّا أنّه اندفع بأقوى مما كان. وفي العام التالي إنعقدت أعمال المؤتمر في بغداد..وكان ناجحاً جداً أضفى عليه الربيع رونقاً بالإضافة إلى كرم الضيافة العراقية الذي أتاح لمن أراد من الأدباء البقاء في بغداد لفترات طويلة. وظلّت أحداث ذلك المؤتمر مادة دسمة لرسائل المجذوب بعد عودته إلى السودان. فكان يكتب إليها عن الأدباء الذين راقوا له

والذين لَمْ يعجب بهم بأسلوب راق ومهذب. كما كان يكتب عن تجارب طفولته وشبابه ونضاله السّياسي منتقداً بمرارة الجوانب السلبية في وطنه.

ثُمَّ لَمْ يلبث أنْ بدأ يكتب إليها عن حياته الخاصة وعائلته وضيقه وتبرمه بتقاليد إجتماعية لا يؤمن بها. أدركت ديزي الأمير عمق شاعرية المجذوب وصدق تجربته وروح الصداقة التي يتحلى بها.. إلا أنّها كانت تتساءل عن سبب إختياره لها لينفس عن همومه الذاتية والعامّة، وما يختلج في أعماقه من إهتمامات سّياسية عالمية ومحلية وتراثية وشخصية وعاطفية. وعندما علمت أنّ بعض صديقاتها يتلقين رسائل مماثلة من المجذوب تخففت قيلاً من إحساسها بالجحود.

كانت ديزي الأمير قد تعرّفت على الناقد المصري رجاء النقاش ونشأت علاقة وثيقة بين عائلتيهما. والمعروف عن النقاش أنّه كثير الإهتمام بالحياة الخاصة للأدباء وخاصة أولئك الذين يرغب في الكتابة عنهم. وكان يلح عليها أنْ تطلعه على أيّ رسائل تلقتها منهم. وكانت لا تلبي رغبته تلك حَتّى لا تكون طرفاً مع من يتناول سيرته، وفي ذات مرّة طالبها بالتحديد برسائل المجذوب وألحَّ عليها حَتّى رضخت على مضض بعد أنْ تحدّث عن الظلم الذي حاق بالشاعر ولَمْ يجد من يكتب عنه ما هو جدير به. كانت ديزي الأمير تخشى أنْ يتعامل النقاش مع رسائل المجذوب كما فعل مع رسائل أنور المعداوي الناقد المصري الراحل التي سلمتها إليه الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان، ويبدو أنّه كان قد علّق على رسائل المعداوي بصورة لَمْ تسر الكثيرين بمن فيهم ديزي الأمير.

إستمرت رسائل المجذوب تترى على الكاتبة العراقية حَتّى رأت أخيراً أنْ ترد برسالة قصيرة مقتضبة للشاعر تشكره على ثقته بها وتزجي تحياتها لزوجته وأولاده الأمر الذي أثار حفيظة المجذوب واعتبرها إهانة وواصل كتاباته المكثفة متناولاً هذا الموقف.

بعد وفاة المجذوب استأنف النقاش اتصالاته البريدية والهاتفية يطالب بالرسائل التي باتت تخشى عليها ديزي الأمير من الضياع في البريد إبان الحرب الأهلية اللبنانية. وأخيراً إستطاع الشاعر بلند الحيدري، أنْ يقنع ديزي الأمير- بعد أنْ سخر من مخاوفها- بشحن تلك الرسائل إلى رجاء النقاش عن طريق العاصمة البريطانية لندن. تسلّم النقاش الرسائل وكتب يشكر الكاتبة العراقية إلّا أنّه ظلّ يحتفظ بها منذ ذلك الوقت الذي امتد حَتَّى الآن إلى أكثر من ربع قرن دون أنْ تنشر في أيّ شكل من أشكال الكتابة. أصبح النقاش يتصرف بصورة غريبة منذ ذلك الحين مع ديزي الأمير التي قطع صلاته معها. وروت الكاتبة أنّها عندما عادت إلى بغداد في منتصف الثمانينات التقت به مصادفة في بهو فندق الرشيد وسدّت عليه المنافذ حَتَّى لَمْ يستطع أنْ يتفاداها. ولكنها تأدباً لَمْ تتطرق إلى ما بدا من تصرفاته ولَمْ تعاتبه رغم الصداقة الوطيدة التي كانت تسمح لها بذلك. ووجّهت إليه دعوة لتناول الغداء أو العشاء فوعد بالاتصال لتحديد موعد في إطار برنامج زيارته.. إلّا أنّها فوجئت بمغادرته بغداد صباح اليوم التالي مباشرة إلى القاهرة.

أحسّت ديزي الأمير بالإحباط والندم الشديد لتفريطها في رسائل المجذوب وعدم استنساخها للاحتفاظ بالأصول لأنّها أرسلت إليها هي ولَمْ ترسل إلى رجاء النقاش الذي حنث بوعوده ولَمْ يوظف تلك الرسائل في الكتابة عن الشاعر السوداني.. بل ظلّ يلوذ بصمت مريب محتفظاً بأشياء لا تخصه.

حين قرّرت «دار الطليعة» نشر رسائل الأدباء إلى أصدقائهم كتب الدكتور بشير الداعوق إلى ديزي الأمير يطلب منها إرسال أية مجموعة تمتلكها فأشارت إليه أنْ يتصل برجاء النقاش ليرسل إليه مجموعة المجذوب التي استولى عليها ولكنه رفض أنْ يرد على الداعوق. وظلّ الأمر كما هو حَتَّى الآن.. ويبدو أنّ هذه الرسائل ستضيع إلى الأبد ويضيع معها تراث نثري لا يقدر بثمن من إبداع الشاعر المجذوب.

كان المجذوب يمتلك طاقة عاطفية هائلة.. وكان صديقاً وارف الظل يحيط نفسه بالأدباء والمثقفين- وخاصة الشبان منهم- يلتقي بهم في جلسات طويلة تحفل بدعاباته وتعليقاته الساخرة ومرحه الفياض. إلّا أنّ المرء كان يلاحظ فيه حزناً دفيناً وتبرماً بالوجود- الذي كان عميق الإحساس به – تجلّى ذلك في كثير مما قال في لقاءات ومقالات صحيفة.

كان يضيق ذرعاً بتردي الأوضاع السّياسية وفشل الزعامات ويبدي قنوطاً ويأساً مما يحيط به من تقاليد متخلفة. ويبدو أنّه كان يرغب في تبديد يأسه وحزنه بالكتابة إلى بعض الذين يأنس إليهم ويهفو.

• قرأت في وقت لاحق في إحدى الصحف اليومية مقالة للكاتب النقاش حول الشاعر المجذوب

الألق الأفريقي واللغة الباهرة

جمال محمد أحمد



كتب جمال محمد أحمد بلغة ذات ألق وبهرة.. كانت مفرداته تأتي جديدة كأن لَمْ يكن يتداولها الناس ولَمْ تزخر بها المعاجم، كان يشحن كلماته بدلالات جديدة تحتضن في يسر أفكاره ورؤاه فيتلاشى الشكل في المحتوى ليبرز نص إبداعي محير.

جمال كان عجيباً متمهلاً في كلّ ما تجده عنده، وصف مرّة محمد إقبال الشاعر الباكستاني العظيم فقال «عذوبة مصادر الهامه أعطته قدرات على اليسر، أيسر الألفاظ تأتيه طوعاً، لا يملكها إلّا من نذر نفسه للحرف. في شعره وضوح وإبانة- كان يحيا رؤى التجاني، و«عبدناك ياجمال»، وكان يحيا مذاق المازني «هل حباك الإله بالحسن»، كأنّه يصف نفسه حين يكتب عن إقبال بلا شك فقد كان جمال يتقرى الكلمة بيديه يتحسسها كأنما يعجن صلصالاً ويشكل. حين ترجم «أفريقيا تحت أضواء جديدة»

لبازل ديفيدسون ترجمة تجزم بأنها أغنى أسلوباً من الأصل.. أضاف بها إلى إسهاماته الكبرى في الحياة الثقافية.. تمنيت لو قرأها جميع الناس.. كتابة تثرى الوجدان وتعمق الإحساس بعظمة أفريقيا. الكتاب يتناول أفريقيا جنوب الصحراء، لا الشمال العربي. يجد السودان فيه نصيباً. تاريخ مروي الذي هو نقطة الانطلاق لتاريخ حضارة القارة. تقرأ وتتمنى ألا تفرغ من مطالعة ما تراه عيناك، يجسّد المعاني فتتفجر الكلمات لتلف الأحاسيس جميعها كأنك ترى وتتلمس وتسمع وتشتم الشذى والعبير لذلك الماضي التليد.

كان صاحب وعي أفريقي مبكر. غاص في وجدان أفريقيا وكتب عنها بمحبة ووفاء. استعرض كثيراً من تاريخها ورموزها من العظماء كما لو كان شريكاً في الذي حدث. جاء من أقصى الشمال والتحق بكلية غردون وشارك في حياتها الثقافية والإجتماعية وأضحى رئيساً لرؤساء الداخليات فيها. وعندما تخرّج عمل بالمدرسة الأهلية الوسطى بأم درمان وإتخذ حي بيت المال سكناً.

كانت الحركة الوطنية في بواكيرها وفكرة مؤتمر الخريجين تراود المثقفين فانغمس في ذلك النشاط وشارك في إعداد التصوُّرات الخاصة بأهداف المؤتمر وأبدى نشاطاً لفت الأنظار وإستطاع أنْ يفوز بثقة الجميع. ولما بدأ العمل بتشكيل اللجنة التمهيدية تَمَّ إختياره مُقرّراً لها. كان لا يزال في الحادية والعشرين من عمره ولكنه أدى المهمة بكفاءة عالية ونال أعجاب الخريجين جميعهم وثناءهم.

كانت مدرسة أبوروف الفكرية التي تطوَّرت فأصبحت قيادة لحزب الإتحاديين هي أقرب المدارس الفكرية إلى نفسه وقلبه فقد كان صديقاً لجميع أعضائها، يلقاهم ويشارك كثيراً في نشاطهم ولكنه لَمْ ينتظم فيها عضواً كامل العضوية. كما أنَّه لَمْ يكن عضواً في جماعة القوميين رغم ما كان يربطه من صداقة بجميع أعضائها ولَمْ ينضو في عضوية الحزب الوطني الإتحادي. وفي الوقت نفسه لَمْ ير بأساً في قبول وظيفة المترجم للجمعية التشريعية التي عارضها الجميع عدا جماعة الاستقلاليين. كان لا

يقيم كبير وزن للظنون والأقاويل.. يفعل ما يريد بلا مجاملة ويتصرف بما يقتنع بصحته، كان يحب أنْ ينطلق حراً حاملاً فكره ورؤاه.

قال عنه الطيب صالح «إنَّ حديثه كان ودوداً وطريقته عجيبة في الحديث.. ينسج غلالة رفيعة من المحبة ويخلق مناخاً من الإلفة.. يستحضر أصدقاءه الغائبين ويداعب الحاضرين.. ورغم غزارة علمه وتوقد ذهنه ورحابة آفاقه الفكرية فانه لَمْ يكن يتحدث عن الثقافة والأدب إلا نادراً، وإذا فعل يلقي إليك بالأفكار العميقة جزافاً في ثنايا كلامه العادي. كان إنساناً جذاباً إلى الدرجة التي بات غير قليل من حوارييه يقلدون طريقته في الكلام والمشي والسلوك.. كان في سلوكه على سجيته تماماً لا يفعل شيئاً لا تألفه نفسه. وحَتّى عندما كان سفيراً لَمْ يكن يفعل ما يقوم به السفراء عادة، من مجاملات كإستقبال في المطار وزيارة المرضى في المستشفيات. وقد تَمَّ تعيينه في لندن ثلاث مرات، في كل مرَّة يحدث شيء يقطع عليه إقامته. وفي المرَّة الأخيرة جاء أحد الوزراء في زيارة خاصة فأرسل من يستقبله في المطار ويدبر أمر إقامته بأحد الفنادق واكتفى بذلك.. ولَمْ يزره ولَمْ يسأل عنه. وعاد الوزير الخطير إلى الخرطوم غاضباً وأقنع الحكومة بعزل جمال من منصبه». ويستطرد الطيب صالح في حديثه الطلي عن الرجل ويقول «كان جمال نسيج وحده بأدق معاني الكلمة، في حياته وفكره، وكان أسلوبه في الكتابة من الأساليب المميزة في الأدب العربي المعاصر يمكن أنْ يوضع جنباً إلى جنب مع طه حسين وأحمد زكي ومصطفى صادق الرافعي والمازني والمسعدي، إذا كتب خلق عالماً طريفاً مدهشاً تتماوج فيه الأضواء والظلال والابتسام والسخرية والفكر والأحاسيس شأن كل أدب عظيم».

أما روبن هودجكن[2] فقد كتب مقالة جاء فيها "كيف تأتى لجمال محمد أحمد أنْ ينجح ككاتب للأطفال لا يشق له غبار، ودبلوماسي ناجح، ومستشار حكيم لعدد من رجال الدولة من الإنجليز والسودانيين؟! لقد كان رجلاً أنيساً ودوداً لكلِّ من صحبه،

2. ترجمة بدر الدين حامد الهاشمي , صحيفة الأحداث 13 فبراير 2011.

وراوي قصص عظيم الموهبة. كان يروي القصص الممتعة والحكايات المشوقة وهو يقلد من يحكي عنهم بحركات تمثيلية تكشف عن سخافاتهم وتهافتهم، وتثير عند مستمعيه ومشاهديه الضحك والسرور والتأمل أيضاً. كان لجمال أيضاً ميزة عظيمة أخرى ألا وهي قدرته الفائقة على الإحساس بالمتعة عندما يسعد الأطفال. ربما كانت تلك الصفات مخبوءة في دواخل الرجل، بيد أني أزعم أنها نضجت تماماً في سنواته الأخيرة في إنجلترا،خاصة وهو يدرس على يدي البروفيسور السيدة تبل في جامعة إكسترا.

لقد أثرى جمال محمد أحمد الحياة الأدبية والثقافية بعدد من المؤلفات والتراجم والبحوث في مجالات الأدب والفكر والدبلوماسية ونشرت له عدة كتب منها «مطالعات في الشؤون الأفريقية» (1968)، و«سالي فوحمر» (1970)، و«في المسرحية الأفريقية» (1971)، و«وجدان أفريقيا» (1972)، و«عرب وأفارقة» (1977). و«في الدبلوماسية السودانية» (1985)»، و«الجذور الفكرية للقومية المصرية» - باللغة الإنجليزية - (1961). كما صدر له ضمن كتاب «بحوث أفريقية» «العنصر الديني في اليقظة الجزائرية» 1967 بكلية نفيلو / أكسفورد وبحث متميّز عن العلائق العربية الأوروبية (صدر عن مؤسسة كونراد أديناور، بون (1982)»، وأضاف للمكتبة العربية معرباً «الدولة الإتحادية»، مادسن وجاي وهامتلون (1959) وكتاب بازل ديفيدسون «أفريقيا تحت أضواء جديدة»، (1961) وله «ولايات النيل المتحدة والثقافة الأفريقية المعاصرة». عمل جمال سكرتيراً لدار الثقافة ومستشاراً ثقافياً لمجلة «حوار»، وعضواً بهيئة مجلة «التاريخ الأفريقي المعاصر»، وعضواً مؤسساً لمركز الدراسات للوحدة العربية ومخططاً ومشاركاً في الكتابة لمجلة «الصبيان» السودانية في الفترة ما بين (1946-1949)، وعضواً مؤسساً للموسوعة الأفريقية (1962).

وكان جمال قد تولى سكرتارية الهيئة الستينية لمؤتمر الخريجين عام 1936. وقد تميزّت مساهماته في مركز دراسات الشرق الأوسط «هارفارد» ومعهد الدرسات

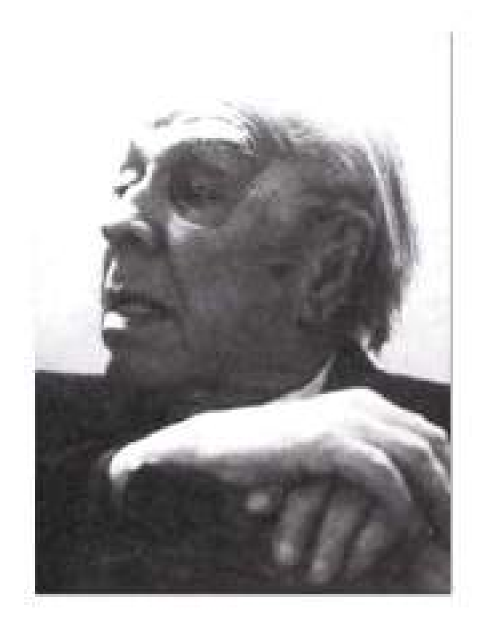
الأفريقية والأسيوية «السودان» والمعهد الدولي لدراسة اللغة العربية.

ولد جمال محمد أحمد في عام 1915 في سرة شرق - إحدى قرى وادي حلفا التي ابتلعها النيل، وقد بكى عليها كثيراً وتفجع ورثاها بمشاعر صادقة. ثُمَّ أطلق اسم قريته هذه على داره العامرة بالخرطوم إحياء لذكراها.

وبعد أنْ أكمل تعليمه الأولي والأوسط في قريته في وادي حلفا انطلق إلى الخرطوم ليواصل تعليمه في الكلية التي تميّز فيها على أقرانه بالفصاحة والخلق القويم حَتَّى أصبح رئيساً لرؤساء الداخليات. وبعد أنْ أمضى فترة من الزمن بالمدارس الوسطى في أم درمان تَمَّ نقله إلى معهد التربية ببخت الرضا- الذي كان يختار النوابغ للعمل فيه حيث شارك في تفجير الثورة التعليمية في سنواتها اللاحقة. وفي نهاية الحرب العالمية الثانية سافر في بعثة دراسية إلى بريطانيا التي عاد إليها للمرَّة الثانية للدراسات العليا في جامعة أكسفورد. وعند عودته إلى السودان اختارته كلية الخرطوم الجامعية عميداً للطلاب. وفي تلك الفترة- اتسع نشاطه الثقافي والفكري فقدم المحاضرات والبحوث وأتحف الصحف السيارة بمقالاته العميقة وخاصة صحيفة «الأيام» حيث كان يمهرها بتوقيعه «عارف سعيد». وبعد إستقلال السودان وقيام وزارة الخارجية ولج أبواب الدبلوماسية فأضحى سفيراً لبلاده في العراق وسوريا ولبنان والأردن وتركيا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وأثيوبيا، وبرز في تلك العواصم دبلوماسياً ناجحاً وأديباً معروفاً ومحدثاً مفوهاً تحتفي به الأوساط الفكرية والثقافية في حله وترحاله. وتدرَّج في مناصب وزارة الخارجية السودانية فأصبح وكيلاً ثُمَّ وزيراً، كما كان أول رئيس لإتحاد الكُتَّاب السودانيين.

ظلّت حياته عامرة ثرية، دافق الحيوية متوقد الذهن يقرأ ويكتب بنهم ويقبل على مسرات الحياة ويستقبل أصدقاءه ويسعدهم بغزير ثقافته وثاقب فكره وبآرائه النيرة وروحه العذبة إلى أنْ وافاه الأجل المحتوم في عام 1986- عليه رحمة الله.

التاريخ السوداني في نصوص بورخيس



29 مايو 2001م

يعقوب المريض، الذي كان أكثر حكام السودان قسوة قضى نحبه في قصره في اليوم الرابع عشر من قمر برمهات عام 1842 تاركاً البلاد لضراوة جباة الضرائب المصريين، وهناك من يرى أنَّ عبد الرحمن المسعودي قد قتله إما بالسم أو الخنجر.. وربما قضى بصورة طبيعية حيث إنَّه تسمى بالمريض. وقد روى المسعودي العراف للقبطان ف.برتون عام 1853 وقائع القصة فقال «إنَّه نتيجة للمؤامرات التي حاكها أخي إبراهيم- مع الوعود الكاذبة بالمساندة للرؤساء السود في كردفان الذين ضللوه- قاسيت الأمرين أسيراً في قلعة يعقوب المريض».

هكذا بدأ الكاتب الأرجنتيني المعروف خورخي لويس بورخيس قصته «مرآة

الحبر» التي قرأت ترجمة لها بالعربية نشرت أخيراً.

لا سبيل إلى التعامل مع هذه القصة التي يتلبسها أسلوب بورخيس المتشح بالواقعية السحرية إلّا بتجريدها من النظرة النقدية التقليدية الصارمة للنص. فالذي يدهشنا حقاً ونحن بصدده الآن ليست سحرية النص، وإنّما وقائعه التي جرت في منتصف القرن التاسع عشر وفي موقع جغرافي ناء لا تحيطه موسوعة بورخيس مهما بلغ مداها.

يجعلك النص تتأمل في كيفية الوصول إلى تلك المصادر العصية حَتّى على الباحثين المختصين - عن تاريخ السودان - وتوظيفها في عمل إبداعي ينتجه كاتب مثل بورخيس، ما الذي دفعه إلى تلك المغامرة وهو الذي ظلّ يمتح من معين التراث الأمريكي اللاتيني الغارق في ثرائه الأسطوري وثقافاته المتعددة.. بالإضافة إلى التاريخ الأوروبي وتناسل أحداثه في واقع الثقافة الغربية المعاصرة.

ويتداعى بورخيس في قصة ذلك العراف الذي ألقت به المقادير في قلعة يعقوب المريض بانتظار الإعدام - بعد أنْ قُتل أخوه في ذلك النطع الأحمر الدامي- لولا أنْ أسعفته الحيلة باستخدام قدراته في السحر الأسود ليلهي بها الحاكم، فجاء بقلم من القصب ودواة وكتب الرقي والعزايم (البخرات) وأحرقها مع الكزبرة واللبان الجاوي واستعمل المندل ليرى الحاكم في دائرة الحبر التي صبها في كفه جياداً رشيقة ترعى في سهوب واسعة ومُدناً ومناخات وممالك وكنوزاً مخفية وسفناً تجوب البحار وآلات حرب ونساء فاتنات وملوكاً مدفونين في بطون الأهرامات وأشباحاً بثياب سودانية وأحياناً ببزات نظامية. وحينما رأى الطاغية في دائرة الحبر رجلاً ملثماً يقتادونه إلى الإعدام طلب من العراف أنْ يكشف له عن الغطاء ليتعرف على الرجل التعيس، وحين فعل رأى الطاغية صورته والسيف يهوي على عنقها فأعول ثُمّ سقط صريعاً.

لا بدَّ أنَّ بورخيس - القارئ الأسطوري والذي تخيَّل الفردوس في طفولته مكتبة ضخمة - قد قرأ كثيراً من النصوص والتقارير التي كتبها الرحالة الأوروبيون الذين زاروا السودان خلال حقب تاريخية متعاقبة، وفي ظنّي أنَّ الطاغية يعقوب ما هو إلّا حكمدار السودان أحمد باشا أبو ودان، الذي مات في الخرطوم في عام 1842 ودفن في إحدى القباب التي مازالت شاخصة في وسط العاصمة قرب شارع القصر.

كان أبو ودان شخصية طموحة حدثته نفسه بالإستقلال عن محمد علي والي مصر والاتجاه إلى السلطان العثماني يستمد منه شرعيته، ذلك بعد أنْ وطدّ صلاته مع السودانيين، وقيل إنّه بدأ بالفعل في مراسلة الباب العالي لتنفيذ خطته لولا أنْ عاجله الموت، الذي لَمْ يكن طبيعياً فيما ذكرت المصادر.. فيد الوالي كانت الأسرع بطشاً.

استخدام بورخيس ظلالاً مما قرأ في إنتاجه للنص، لَمْ يغرق في تفاصيل التاريخ ولَمْ يتحر دقته.. فذاك أمر لَمْ يكن يعنيه. ترك الأسلوبية والمناخات العامَّة تسيطر على قصته. إلّا أنك تكاد لا تخطئ نوعية تلك المناخات.. أساليب العرافين وكتابة «البخرات» وصناعة المندل فتبرز صور في غاية الروعة والغرابة حتَّى النهاية الدامية للطاغية.

الواقعية السحرية مصطلح شاع في سنوات الثمانين من القرن العشرين وارتبط بشكل عام بالإبداع الروائي لكتَّاب أميركا اللاتينية، وخاصَّة بورخيس والكلولومبي جارسيا ماركيز، وقد تجلّت بصورة عميقة في قصة بورخيس «كتاب الأمل» وإتسمت بها معظم أعمال ماركيز، وقدَّم كلٌ من الألماني جونتر جراس والإنجليزي جون فاولز والإيطالي إيطالو كالفينو تجربته الخاصة في تلك الواقعية التي تميِّز سحريتها كلَ نص عن الآخر.

وُلد لويس خورخي بورخيس عام 1899 في بوينس أيرس، وقد هاجرت أسرته في طفولته إلى إيطاليا ودرس في سويسرا وأتقن عدّة لغات وأبدى عبقرية باكرة منذ يفاعته. وفي مرحلته الأولى تأثر بالشاعر الإنساني الأمريكي وولت ويتمان مع اطلاع عميق على مختلف الاتجاهات الأدبية السائدة في الأدب الإسباني والأوروبي بصفة عامةً. كتب شعراً بديعاً أخاذاً وبات أحد الوجوه الإبداعية اللامعة بعد عودته إلى بلاده. نشر نصوصه الإبداعية في الشعر والرواية وأخذ يلهم أجيالاً من الكتاب والأدباء في جميع أنحاء العالم بإعتباره مثالاً فريداً للإنسان الذي تصنعه الثقافة الواسعة. والتف حوله النُقّاد بعناية وإهتمام واعتبروه أسطورة إبداعية تزين وجه القرن العشرين. وقد صدر أول كتاب مهم يؤرخ لمرحلته الإبداعية الأولى عام 1954 بعنوان «بورخيس والجيل الجديد».. ثمَّ صدر «الخيال الضائع» في العام نفسه. أصبح بورخيس أستاذاً في الأدب الإنجليزي في كلية الفلسفة بجامعة بوينس أيرس. وفي عام 1956 حصل على جائزة الدولة وأخذ بصره في الضعف والتلاشي حَتّى أطبق عليه العمى الكامل في عام 1960. ولَمْ يعد قادراً على الكتابة والقراءة لولا أمه التي انبرت لهاتين المهمتين ليدخل منعطفاً جديداً في تجربته الإبداعية.

شحذ العمى رؤيته وشفافيته وقدرته على الغوص في أعماق الأشياء وشكّل بدايته الحقيقية مما دعا صديقه الأديب الفرنسي جان بيير برنس لأن يقول «في نهاية الخمسينات بلغ بورخيس أوج نضجه الأدبي بفعل حياته القاسية واللحظات الصعبة التي سببها له العمى، إلا أنّ الطريف حقاً أنّ ذهاب البصر هيأ له مستوى جديداً من الكتابة وسلك بأسلوب جديد درباً آخر أكثر حيوية، وذلك حين إستخدم اللغة الشفاهية». وقد مال إلى البساطة ورسم صوراً بتعبيرات وألوان من الحياة العادية البسيطة، وكأنّه يستسلم لتسجيل ملامح واقع رتيب هادئ وشفاف لدرجة يبدو فيها النص أحياناً ضرباً من الوصف الخارجي المحايد والبريء،

والمفعم بالسلامة.

سبق بورخيس في تناول التاريخ السوداني كمادة للإبداع الروائي جورجي زيدان الذي خاض تجربة ثرية جديرة بالإعجاب حين قام بتوظيف التراث الإسلامي في إثنين وعشرين عملاً روائيا ألهبت خيالنا في مرحلة الطفولة وعبأت شعور ووجدان أجيال من الأطفال العرب خلال العقود المتتالية للقرن العشرين، وقربت إلى الأذهان أحداث التاريخ الإسلامي الممتدّة من فرغانة بأفغانستان إلى القيروان في الشمال الأفريقي فالأندلس. وكان نصيب السودان منها روايتين هما «المملوك الشارد» و«أسير المتمهدي »، والأولى دارت أحداثها ما بين مصر وبلاد الشام والسودان. فبعد مذبحة القلعة التي قضى فيها الوالي محمد علي باشا على معظم المماليك وفرّ بعضهم إلى السودان سيّر حملته بقيادة ابنه إسماعيل لفتحه ولمطاردة فلولهم. كانت الرواية العربية في طفولتها وقتذاك مجرد بناء سردي وحبكة تعتمد على العقدة التي تنفك عن نهاية سعيدة. لا شك أنّ الكاتب قد اعتمد على الروايات الشفاهية عن تلك الحوادث وبعض التقارير المبتورة الضعيفة الصياغة التي كانت تأتي في شكل رسائل من السودان إلى مصر. فالصحف لَمْ تكن قد برزت إلى الوجود في القاهرة بعد، والأخطاء التاريخية كانت فادحة وذلك حين تناول في نصه حادثة اغتيال إسماعيل باشا في شندي، فقد كان يظن أنّ المك نمر هو زعيم الشايقية.. وجعله يقيم في قصر ويرتدي ثياباً وصفها، فهي غير تلك التي كان يرتديها شيوخ العرب السودانيون في أيامه.

أما روايته الأخرى «أسير المتمهدي» فقد جاءت نصاً متماسكاً توزعت الأحداث فيه ما بين مصر والسودان حول الثورتين العرابية والمهدية، ويبدو أنّه قد توفّرت لدى الكاتب المصادر والروايات الشفاهية والصحف التي رصدت الأحداث الأمر الذي جعل منها رواية كلاسيكية تتقيد بوقائع التاريخ.. إلّا من

هنات صغيرة في ترتيب الأحداث والطريف أنَّ أحد أبطالها كان هو حسن حبشي الذي عمل كاتباً للأمير عبدالحليم مساعد. ويبدو أنّه كان موظفاً مصرياً في ديوان المديرية بمدينة الأبيض.. وذلك قبيل اندلاع الثورة المهدية. والواضح أنّ جورجي زيدان وجد في شخصية حسن حبشي - الذي فرَّ إلى مصر بعد موقعة توشكي - منجما غنياً لرواية الأحداث. كما أني قرأت مرّة أنّ جورجي زيدان عمل أيضاً في مخابرات الجيش البريطاني مثلما كان نعوم شقير، وقد صحب حملة الإنقاذ أيضاً التي عادت خائبة بعد أنْ تأكد لها سقوط الخرطوم في يد الثوار في صبيحة 26 يناير 1885. وهكذا تسنى له معرفة الكثير عن تفاصيل الثورة المهدية وقائدها وقدم وصفاً تفصيلياً لبعض الأحداث تكاد لا تجده في معظم المصادر التاريخية، الأمر الذي يمكن أنْ يشكِّل مادة مهمة للمؤرخين.

كتب جورجي زيدان كثيراً حول الأدب وتاريخ الإسلام بالإضافة إلى هذه المجموعة الروائية.. إلّا أنّه لَمْ يسلم من سهام الناقدين الذين رأوا في تلك المجموعة افتراءات على الإسلام والمسلمين، لَمْ ينطلق هؤلاء النُقّاد من وجهات النظر الأدبية وهامش الكاتب في الحرية لتطويع الأحداث حسب مجريات القص، إلّا أنّي لا أرى فيها ما يُشكل إساءة للمعتقدات والدليل على ذلك صدور طبعاتها عشرات المرات ولا تزال تحتل مكانها في جميع المعارض بمختلف العواصم العربية. والمعروف أنّ الرجل أصدر مجلة «الهلال» في مصر عام 1892، ومازالت تواصل الصدور، عاش جورجي زيدان - وهو لبناني الأصل في الفترة ما بين (1861 - 1914).

مابين لوركا والخليل





في المكان الذي احتلته عمارة مرهج بالخرطوم في وقت لاحق كان للخواجة السوري شيخ أمين مطعم و«كُلُب» يتكون من غرفة وصالة وحديقة داخلية صغيرة. كان هذا هو المكان الوحيد الذي يستقبل المثقفين السودانيين لقضاء سهراتهم في عشرينات القرن المنصرم. فقد كانت مثل تلك الأماكن تقتصر على الأجانب فقط. وفي هذا «الكُلُب» كان النادل اليوناني يني شناكة خفيف الظل، عذب الصوت ينغم نداءاته لطلبات الزبائن بالحان شجية أسرة انحدر بها من بلاد الإغريق لا ريب. وفي سنوات منتصف القرن وما بعدها بقليل عرف الناس مقهى شناكه مكاناً يرتاده المثقفون والأدباء والصحافيون وطلاب الجامعات.

وكان أبرز روّاد «كُلُبْ» الشيخ أمين الشاعر والفنان خليل فرح الذي كان

منغمساً حَتّى مشاش العظم في الشعر والغناء والموسيقى والعمل الوطني.. يشارك بحماس في تأسيس رؤية جديدة لوطن يرزح تحت وطأة الإحتلال. كان عبقرية فذة بكلِّ المقاييس. جاء إلى الخرطوم من قريته دبروسة في الشمال وهو في غضارة الصبا بل لَمْ يبرح مدارج الطفولة بعد شاعراً ينظم بلغته النوبية في البدايات. وحينما ولج كلية غردون التذكارية بقسم ورش البرادين بلغ صيته مدينة أم درمان فتحرك شعراؤها لسبر غور تلك الموهبة فاختبروه - وهو لما يزل تلميذا بالكلية - كما درجوا على ذلك كلما سمعوا بموهبة شعرية جديدة - فاعترفوا بقدراته المتجاوزة.

لَمْ تكن ألحان يني شناكة تمرُّ على الخليل دون أنْ تؤرق مضجعه وتشكّل له هاجساً مستمراً.. فقد كان يرى ويسمع مالا يتسنى للآخرين، فعبّر عن ذلك بقوله:

يا يني يا بلبل أمين

صداح حميتني النوم يمين

فالخليل تميّز بحساسية شعرية وفنية عالية وكيمياء تحوّل المعادن الخسيسة إلى ذهب.. تجسّد ذلك في سائر أعماله الإبداعية التي لا تزال تكتنفها عوالم من السحر والدهشة المستمرة والتساؤل المشروع عن أسرار تلك الإمكانيات التي لا حدود لها. وما كان لحن أغنية «عزّة» التي أضحت كنشيد «المارسييز» للأمة السودانية إلّا نتاجاً للحن المارش العسكري المعروف.

ود الشريف رأيه كمل

جيبوا ليه شالايته من دار قمر.

إستمع إليه الخليل مصادفة في القاهرة حيث كانت تؤديه فرقة للكشافة تابعة

للجالية السودانية. ومثلما كان يفعل فيدريكو جارسيا لوركا الشاعر الإسباني.. يستلهم أغاني الغجر في أشعاره ومسرحياته التي أدهشت العالم إستطاع الخليل - الذي زامنه ورحل مبكراً مثله - أنْ يغترف من مختلف الينابيع ليؤسس إتجاهات جديدة ويحدث تحوُلات عميقة في الفن السوداني.

أكثر ما يدهش المرء جرأة الخليل في كتابة الشعر بتراكيب جديدة ومفردات عجيبة وبسهولة لفظية وصور «سوريالية» لا تفتأ تصبح جزءاً من الروح الشعبية ووجدان الناس.

زاره يوماً الزعيم الوطني علي عبداللطيف يصحبه رفيقه الشاعر صالح عبدالقادر. وكان عبداللطيف قد أُفرِج عنه لتوه من السجن فباغته الخليل بتلقائية مدهشة.

ماك غلطان.. ده هوى الأوطان.

وما لبثت هذه الكلمات أنْ أصبحت مطلعاً لقصيدة تحوَّلت إلى أغنية ثورية إتخذها طلاب المدارس الحربية نشيدا خلال تظاهرتهم المسلحة التي طافوا بها شوارع العاصمة مُتحدِّين قوى الإحتلال البريطاني في عام 1924م.

شارك الخليل في تكوين الجمعيات السِّياسية السرية منذ بواكيرها وبات أحد أبرز ناشطيها.. يكتب الأشعار الوطنية ويتحدى السلطة في مواجهات شجاعة لَمْ يكن يبالي بنتائجها.

وعندما تفجرت أحداث ثورة 1924 واجهتها قوات الإحتلال بقسوة وشراسة وأعدمت قادتها العسكريين وأودعت الزعماء السِّياسيين السجون والمنافي.. لَمْ يستسلم الخليل ولَمْ يؤثر الصمت فاستخدم أشعاره وأغانيه في المقاومة.. وكانت أغنية «أذكر بقعة أم درمان» شرارة أشعلت حماس الناس فأخذوا يرددونها في

بيوتهم ومناسباتهم الخاصة. وذكر الشاعر حدباي عبد المطلب في شهادة له تضمنها كتاب أصدره ابن الخليل مؤخراً بعنوان «مجنون عزّة» أنَّ رهطاً من حسان أم درمان هرعن مشياً على الأقدام يقصدن منزل الخليل بالخرطوم - في حالة نادرة الحدوث آنذاك - ليستمعن إلى القصيدة من الشاعر نفسه ويستوثقن من كلماتها لأنها تنوه بأسلاف لهن كان لهم دور في الوطنية.

أما قصيدته «نحن الشرف الباذخ» فقد كانت مانيفستو سّياسياً رغم غنائيتها وإعتبارها تحوّلاً نوعياً في اللحن والموسيقى والأداء.. إنشغلت السلطات الأمنية بأمرها - لانتشارها في أوساط العاصمة.. وكان صموئيل عطية - اللبناني الجنسية - مسؤولا في قلم المخابرات إلّا أنّه كان مُحبّاً للأدب والفن وصديقا لعدد من المثقفين السودانيين. وجّه عطية الدعوة لأصدقائه لحضور ليلة ساهرة في داره ودعا الخليل أيضاً ليقدّم بعضاً من أغانيه.

فطن الخليل لتحدي مسؤول الأمن وقرّر منازلته في داره وأبلغ أصدقاءه أنّ سهرته الليلة في «عرين الأسد». ومنذ اللحظة الأولى إحتضن مزهره وأخذ يشدو بالأغنية التي أفزعت سلطات الإحتلال «نحن ونحن الشرف الباذخ». فكان موضع إعجاب الجميع لجسارته وجرأته وأدائه الرائع الذي تجاوز روح القمع والتسلّط.

لَمْ تمهله ذات الرئة طويلاً رغم تنقله بين الخرطوم والقاهرة طلباً للعلاج .. فغيبه الردى في العشرين من يونيو عام 1932 - وهو في شرخ الشباب- فارتاعت البلاد لغيابه الفاجع. وأقام أصدقاؤه الأدباء والشعراء والمثقفون حفلاً تأبينياً في اليوم الأربعين لوفاته وقف فيه عرفات محمد عبدالله خطيباً معدّداً سجاياً ومناقب الشاعر الراحل فقال: «كان الخليل شهماً هماماً كريماً متلافاً يؤثر على نفسه لا يخشى الناس ولا الأيام والليالي، صريحاً لا يدس ولا يكيد، يترفع عن السفاسف فما سمعته ولا رأيته متذللاً ولا متملقاً، عزيزاً في ضعفه وقوته».

ووصف عرفات قدرات صديقه الشاعر الذي لَمْ يكن يغني إلّا للصفوة من أصدقائه وقال «وفاتكم إنّ الخليل إذا جلس بين أصحاب أصفياء في هدوء الليل وأرسل في جوفه نغمة متموجة، ترسل في جسوم السامعين قشعريرة خفيفة ويكون قد نسي العالم الذي حوله غير متكلف ولا متصنع يخرج نغماً لا يشبهه صوت المزمار ولا أنين القيثار، بل كان شيئاً لا يقاس بغيره قائماً بذاته لا يدركه إلّا مَن دقّ حسه وصقل ذوقه». أما محمد أحمد مجوب فقد رثاه بقصيدة بعنوان «مأتم الفن» ومطلعها:

غاب في الرمس خليل واستتر شـــاعر فـذ وفنــــان أغـــــر

ومازال الخليل يحيا في وجدان أمته وما زالت أشعاره تتوهج في كلّ يوم جديد: «عزّة في هواك» و «وفي الضواحي وطرف المدائن، و«فلق الصباح»، و«يانيلنا يا نيل الحيا»، و«جناين الشاطئ»، و«ما هو عارف» و« تَمّ دور وادور»، وغيرها.

5 سبتمبر 2000م

المواقف الجهيرة

صلاح أحمد إبراهيم



لَمْ يكنْ مذِقَ اللسان.. يقول ما لا يفعل.. كما عبَّر ابن الأحنف.. بل كان قوّالاً فعالاً صعبَ المرتقي متقلب الهوى - شأن الشعراء المفرطي الحساسية- وكان واضحاً كالشمس في رأد الضحى.. وصف شعبه مرّة بالجَمل البشاري الذي يقوده الصغير بالمعروف.. إما اهتاج دقَّ العنقا فكأنّه هو ما تجاوز وصف ذاته في ذلك. وكتب مرّة عن المثقف فقال.. الذي لَمْ يفتح مع الظلم حساباً مشتركاً.. والذي لَمْ يسمن حين جاع أهله.. لا رأى ولا امتلك.. ولعمري كان ذلك منهجه في الحياة..فحياته كانت تحدياً متصلاً رغم هدوئه الجليل وصمته المتسامي.. أراد لحياته هذه أنْ تكون ثورة لا تهدأ منذ غضارة الصبا وحَتَّى غيابه الفاجع.

حين جثمت دكتاتورية عسكرية قاهرة على وطنه كان قد تخرّج لتوه في جامعة الخرطوم متطلعاً للالتحاق بالسلك الدبلوماسي.. يملك كافة مؤهلاته ويزيد.. فحدث أنْ تآمرت دول الغرب على الكونغو وزعيمه باتريس لوممبا.. استكثرت عليه إستقلاله والتمتع بخيراته.. وأحاطت به من كلّ جانب - إحاطة السوار بالمعصم- تريد السلطة لأعوانها لضمان إستمرار تدفق الثروة نحو عواصمها وأراد صلاح لحكومة بلاده أنذاك موقفاً مشرفاً يُكمّل موقف عبد الناصر الذي وقف إلى جانب لوممبا لا يحيد.. ولما أعياه السبيل كتب شعراً قادحاً مُراً كالحنظل ما ترك لوزير الخارجية جنباً يرقد عليه.. أثخنه بالجراح، وكان يدرك ألا مطمع لديه بالانتظام بالسلك الدبلوماسي، بعد أنْ قال «والنعام الدبلوماسي الأنيق.. يدفن الهامة في كوم من اللفظ رشيق».

وحين إنتصف له الوطنيون واختاروه سفيراً بالخارجية - وهو الذي تجاوز لعاعات الدنيا من مال وجاه وبات أكبر من ذلك -« يحتوي على الجموع» كما يقول وولت ويتمان لَمْ يغره المنصب ولَمْ يقف حائلاً بينه وبين مواقفه الجهيرة فتصدى لأكبر رأس في البلد-عندما جنح الرأس في حديث أدلى به لإحدى المجلات- فأوسعه سباً وتقريعاً وترك سفارته وتوجّه إلى باريس ليعمل موظفاً صغيراً في إحدى السفارات العربية. وكأني به كالشاعر بابلو نيرودا عندما أغلق قنصلية تشيلي في مدريد وحمل البندقية ليقاتل في صفوف الجمهوريين في الحرب الأهلية الأسبانية.

تمثل صلاح بكلّ سجايا ومناقب أمته فاتصف بالأريحية ولين العريكة والبذل والتضحية والفداء وحبّ الآخرين والغضب العادل المشروع، وأصبح نموذجاً ساطعاً في النقاء والوفاء، وكان لا يفتأ يردد اسم الشاعر المرحوم شيبون -الذي زامله في ثانوية حنتوب، ووصفه بقوله.. شيبون حنجرة الشعب وصوت بلادي المثير.. وقفا هما الاثنان لمستر براون - ناظر المدرسة الإنجليزي- كشوك

الحوت في الحلق- في أوائل الخمسينيات والإستعمار البريطاني في حشرجة الروح ففصلهما عن الدراسة- أيام كانت مثل هذه التضحيات تعد ضرباً من الجنون- ولكنهما انتصرا عليه عندما جلسا لامتحان الشهادة من المدارس الأهلية ونجحا في الالتحاق بالجامعة.

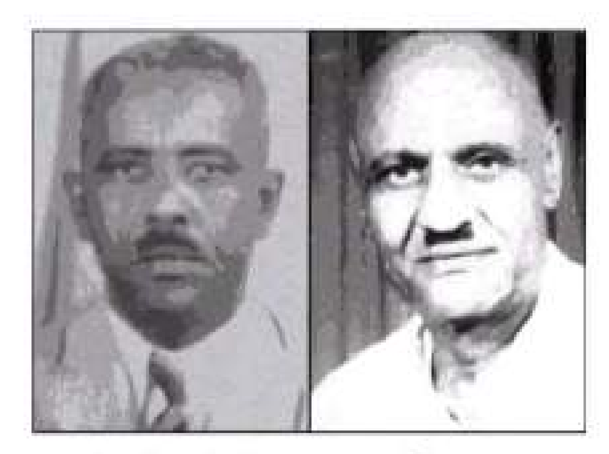
كان من الطبيعي أنْ يفيض صلاح بالمعرفة، وأنْ يكتب الشعر منذ نعومة الأظفار، حيث نشأ في بيت يعج بالعلماء والمؤرخين والمثقفين الأفذاذ- وعندما تخرّج في الجامعة صدر ديوانه الأول، وشغل حيزاً مهمّاً في الشعر السوداني.

وكان صلاح كثيراً ما يردد قول الناقد السوداني الأمين علي مدني « الشعر الجديد يتطلب ناقداً جيداً، وذلك عندما يفاجئ المتلقين بشعر جديد ولغة جديدة، مغترفاً من المعين الثرار للعربية الدارجة في السودان فيفجر المعاني، بما هو خليق بإبداع الشاعر المتفرد.. ويقول شعري خشن كالخيش.. ربما لا يعجب بعض المتنطعين من النُقّاد.. ولكني لا أبالي.. أما في الكتابة النثرية فقد عالج صلاح القصة القصيرة باقتدار.. ومازلت أذكر قصته «وهكذا يا أستاذ» التي هزتنا حَتّى الأعماق عندما قرأناها في عهد الطلب.. وله مجموعة قصص صدرت في مؤلف مشترك مع صديقه الأديب المبدع البروفيسور علي المك الذي سبقه إلى الدار الباقية.. وعنوانها «البرجوازية الصغيرة» وكانا لا يزالان طالبين بالجامعة، أما مقالاته التي عبَّر فيها عن خصوماته الفكرية والسّياسية والأدبية فجديرة بأنْ تحتل مكانها بين عيون النثر العربي الرفيع. وقد قدّم الشاعر للقراء «غابة الأبنوس» و«غضبة الهبباي» و«محاكمة الشاعر للسلطان الجائر». فضلاً عن ترجمة «الأرض الأثمة» للمناضل الأفريقي باتريك فان روزنبرج.

نشر هذا المقال في «الإتحاد» في يونيو 1993 غداة وفاة الشاعر

1 أكتوبر 2002م

بين شاعرين: زقودة وود المادح



محمود الفكي و عبد الحليم علي طه

أطلق محمود الفكي على صديقه اللدود عبدالحليم علي طه لقب «ودالمادح»، وذلك لأن شقيقه عبدالرحمن الفكي الذي كان يعمل ضابطاً في قوة دفاع السودان مع عبدالله خليل وعبدالرزاق علي طه ويقيمون معا في حامية شندي كان يلاحظ أنّ أهل وأقارب عبدالرزاق علي طه من قري منطقة شندي كانوا يزورونه بالحامية وكثيراً ما يحملون بين أمتعتهم طاراً. ولَمْ يكن المتاع سوى مخلاية أو مخلايتين حيث لَمْ تكن حقائب السفر معروفة في ذلك الوقت، ولَمْ يتوان عبدالرحمن الفكي في نقل تلك الملاحظة إلى شقيقه الذي سرعان ما إستخدمها في هجاء عبدالحليم:

تاريخنا بين طابية ومطار
وخلافنا مخلايتين وطار

وقال أيضاً:

نقرات طار أبوك بتصمم الإضنين
نقزاتو التقول عنز الخلا أب قرنين
حايم بين رفاعة وطيبة والكاملين
وإيراد ليلتو قط ما زاد على القرشين

يعني أنَّ والد عبدالحليم كان مادحاً متجولاً بين قرى الجزيرة.

ويبدو أنَّ الفريقين من آل علي طه والفكي إحتكما إلى عبدالله خليل في هذا الشأن بإعتباره شاهداً على الواقعة فرد بحزمه وصرامته المعهودة« مخلاية شفت.. لكنَّ طار ما أعرفش». إما عبدالحليم علي طه فقد لقب غريمه محمود الفكي بـ«زقوده» و«الحفيد» يشير إلى أنّه من الحلب ومن أحفاد جنكيز خان.

ويقول معاصروهم إنَّ هذه الألقاب كانت شائعة في أوساط الخريجين وكان ينادونهما بها بلا حرج. كما أنَّ الصحف في ذلك العهد كانت تتداول ألقاب الشاعرين دون أنْ يثير ذلك أي نوع من الغضب أو العتاب في أوساط العائلتين اللتين تقبلتا ما كان يرد في قصائدهما من هجاء لاذع وسخرية عندما يتعرُضان للأنساب والأصول.

وبعد قيام مؤتمرالخريجين وبروز التكتلات السّياسية إنحاز عبدالحليم علي طه إلى معسكر الإستقلاليين بينما وقف محمود إلى جانب المعسكر الإتحادي، ولكن من الناحية الحزبية البحتة يقول بعض معاصري محمود إنَّ عواطفه الحزبية البحتة كانت تتأرجح بين الإتحاديين بحكم الجوار والسكن في «أبوروف» وحزب الأشقاء بحكم علاقة الصداقة. وكان المعسكران يتقبلان إخوانيات محمود وعبدالحليم السّياسية بروح متسامحة تتفهم المُلَح والطرائف وتستمتع بالفكاهة والدعابة بل إنّهم كانوا دائمي التطلع للجديد من قصائدهما لتبديد الملل

وإشاعة روح التسامح. وفي إحدى المناسبات هجا عبدالحليم الإتحاديين بقوله:

ربـات الـخـدور في جمالهـا ما بنعيبا
كنج كونج إنقبض والـنـار وقـع في لهيبا
والـزول التقيل بنقلبـو فيها قليبـه
والحلبــي المقرش سوليـهو زريبـه
واللاسلكــي هين بلقــى فيهو ضريبه
طبيز إنقــرع أبقالنـــا داب السيبـــه
ودحـامـد وقـع والقاضي حالته صعيبه

وقد قصد الشاعر بكنج كونج إسماعيل الأزهري وبالزول التقيل يحيى الفضلي وبالحلبي المقرش أمين زيدان وباللاسلكي إبراهيم جبريل لطول قامته وبالسيبه محمود الفضلي. والسيبه هي ثلاثة عصي تعلق عليها قربة الماء. أما ود حامد فهو علي حامد ويعتقد أنَّ طبيز هو بابكر القباني والقاضي هو محمد أحمد المرضى.

أما محمود الفكي فقد أوسع الاستقلايين سبّاً لموافقتهم على التطوُّر الدستوري ومشاركتهم في الجمعية التشريعية:

سلســـلة السودانـــي الحاويـــة البعيد والداني
أهل الجبـــة المتروزة اللجنتـــــم منبوذة
هـجـرو الـــورد والـــبـوزه وشـــرابـم الـكـــازوزة
رئيس الجميـــــع شنقيطي ونايب الرئيس حمريطي
فيها العريـــان والميطـــي وقلبــوا الحكم برنيطي
أهل اللبــاس البوجـــه المابعومـــو عكس الموجه
ما بهيجوا ساعة الهوجـــه وجون بول باقي ليهم خوجه
شيخنا الكبير مادبـــو وود الأميـــر الجنبو
الحكم الثنائي بيحبو ومابيرضي شيتاً يقلبو

وعندما نقل ثانوي كلية غردون في النصف الأول من الأربعينات من الخرطوم إلى أم درمان سنحت الفرصة لمحمود الفكي بأن يراقب أوضاع الأستاذ عبدالحليم علي طه المادية والمعيشية عن كثب ليستفيد من ذلك في قصائده الساخرة.. فقد لاحظ أنّ عبدالحليم خلافاً لزملائه المدرسين كإسماعيل الأزهري وأبوبكر عثمان وغيرهما لَمْ يكن يملك سيارة صالون بل كان يستخدم دراجة في ذهابه إلى المدرسة وإيابه، كما لاحظ أنّه يسكن بالإيجار ويتنقل من مسكن إلى آخر فخاطبه بهذه الأبيات:

الناس ركبو الصوالين والجيب فرفاره
وإت لابس رديك البشبه الشمـــاره
تقدل وتتنفخ في البسكليت أب طاره
في البقعة الوسيعة اللامة كل الأمه
لالقيت ليك مكان ولا جحير تتلمه

وجاء في أشهر قصائد عبدالحليم التي هجا فيها محمود الفكي:

فـي وصـف الحفيد قـالـوا الحفيد اتمادى
فـي الـغي والـضـلال رخص فتحلو عياده
راسـمـالـو الـقرد خسران عليهو قلاده
دربكة وطبل زمباره جايه هـــواده
مـا بـنكر عليك صنعة جدودو أجـادا
فتح الحله سمح خت كدرو سداده
جـاب الـمويه جاب الرمله جابلو رمادا
أدى الحيط جبهتو خت إيدو وساده
سكسك في النحاس غنى العنب يا ساده

كان الشاعران موظفين مرموقي المكانة في الخدمة المدنية.. فالأستاذ عبدالحليم علي طه عمل مدرساً بكلية غردون ثُمَّ المدارس الثانوية ثُمَّ ملحقاً ثقافياً بسفارة السودان بالمملكة المتحدة. وتدرَّج في الوظائف حَتَّى شغل منصب الوكيل

لوزارة التربية والتعليم. أما السيد محمود الفكي فقد عمل محاسباً بمصلحة المالية ثُمَّ مديراً للإذاعة السودانية بعيد الإستقلال. وقد عاشا حياة ثرية وأمتعا الناس. ولا يزال من بقى من معاصريهما يرددون في حبور تلك القصائد الساخرة وتلك الأجواء التي كانت تعطر أماسي العاصمة في تلك الأيام، خالية من الضغائن ومليئة بالروح العذبة والأخلاق السودانية الأصيلة السمحة.

لَمْ يكن عبدالحليم ومحمود وحدهما في تلك الساحة، فقد عرف الناس «شعراء الكتيبة» وكان من أعضائها البارزين محمد المهدي مجذوب ومحمد عبدالقادر كرف وإمام دوليب والخزرجي وأحمد علي طه- شقيق عبدالحليم- ومنير صالح عبدالقادر.

وكانوا يجتمعون في مكتبة حسن بدري بأم درمان حيث كان يحتفظ بإنتاج الجماعة في درج بالمكتبة سموه «درج السفاسف»، وأما إمارة الكتيبة فقد كان يتنافس عليها شعراً حسن بدري والنور إبراهيم. وقد أثبت الدكتور عبده بدوي في كتابه (الشعر في السودان) إخوانيات شعراء الكتيبة فذكر أنْ دستور الكتيبة ينص على أنْ عضوية الجمعية يستحقها من هجا أكبر عدد من الشعراء المؤسسين للكتيبة، وأن القادم والمسافر يجب أنْ يقال فيهما شعر، وأنَّ التقرير السنوي للكتيبة يجب ن يكون شعراً. وفي مقدمة ديوان «الكتيبة» للشاعر النور إبراهيم، كتب منير صالح عبدالقادر يقول: « إنّهم كان يعيشون عصر فساد سّياسي، وأن أحلامهم في حياة فاضلة لَمْ تتحق فراحوا يتهاجون لينفسوا عن أنفسهم متخذين الرمز في الهجاء سبباً من أسباب الراحة النفسية».

صدر في مارس الماضي كتاب (بين شاعرين، مع إخوانيات عبدالحليم علي طه ومحمود الفكي)، لمؤلفه الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه، حيث قام بنشره مركز عبدالكليم ميرغني الثقافي بأم درمان، وقامت بالإشراف على توزيعه شركة رياض الريس للكتب والنشر ببيروت. والدكتور فيصل عبدالرحمن كاتب غني

عن التعريف ظلَّ يرفد المكتبة السودانية بمساهماته المتميّزة في السّياسة والتاريخ والقانون. والكتاب عبارة عن مجموعة مقالات قام المؤلف بنشرها في صحيفة «الخرطوم» التي كانت تصدر في القاهرة - قبل أنْ تنتقل إلى الخرطوم- في الفترة ما ين 1999 و2000. وعبدالحليم علي طه هو عم المؤلف، حيث إستطاع من خلال هذه العلاقة أنْ يعثر على معظم شعره إلّا أنّه لَمْ يعثر إلّا على قدر محدود من أشعار محمود الفكي.

1 مايو2001 م



تحريض على الكتابة والإبداع



بدور عبدالمنعم

تلقيت بكلّ ترحيب وامتنان آخر إصدارات مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي بام درمان «ذكريات وخواطر» تضمن عدداً من المقالات بقلم الكاتبة السودانية السيدة بدور عبد المنعم عبد اللطيف سبق نشرها في صحيفتي «الإتحاد» بأبوظبي و «الخرطوم» حين كانت تصدر في القاهرة. وذلك خلال فترة إمتدت منذ أواخر سنوات الثمانين حَتّى أواخر سنوات التسعين الماضية. كتبت عن تجاربها وذكرياتها وما عَنّ لها من خواطر. ما وضعت الكتاب جانباً حَتّى التهمت صفحاته التي تجاوزت التسعين.. فأدهشني تماسك النص واكتنازه وثراء اللغة وبذخها بلا تعمد أو تنطع وانتابني إحساس غامر بأنّ معظم هذه المقالات كان يمكن أنْ تكون أساساً لعمل إبدعي متميّز. في مقال بعنوان «أيام في الخرطوم» وردت صور تعبر عن واقع اجتماعي جديد يتشكّل.

* مجموعة فتيات يتحدثن: بكره عرس فلانة...انتم عارفين العريس ألماني؟.. أتفرس في الوجوه الشابة علني ألمح دهشة أو استنكار..... يخرق أذني صوت

المغامرة الباكرة في التجديد الشعري

حمزة الملك طمبل



«محبرة أمينة، مقدسة للشاعر..

من حبرها ينبثق عالم»

«كفافي»

لَمْ يحظ الشاعر والناقد حمزة الملك طمبل بكثير إهتمام يناسب فضل ريادته وسبقه في محاولات التجديد الإبداعي كما أنَّ النُقّاد والمؤرخين لَمْ يبرزوا دوره كما ينبغي ويكاد اسمه الآن يتوارى في سجِّل التوثيق الأدبي. وقد ظلَّ هذا الشاعر الناقد يكتب منذ بدايات القرن العشرين وحَتّى سنوات الخمسين. وصدر «ديوان الطبيعة» في طبعته الأولى في أبريل 1931. ويبدو أنّه صدر مرّة أخرى مع مقالاته النقدية في

معجون بالكآبة والقنوط: «والله بختها لقت ليها واحد يمرقها من الحفرة دي».

* في معرض حديثها عن زواج ابنتها في الخرطوم قالت لي «أول حاجة عملتها جبت لي ثلاث بنات من جامعة أم درمان الأهلية عملن لي البتي فور والكعك بتاع العرس لأني بيني وبينك ما بقدر على حق الخرفان و الطباخين البجيبهم للنسوان البجن للخدمة من الأهل والأصحاب».

* أخرى كانت عاملة حنة جميلة في يديها وقدميها.. قالت رسمتها لها طالبة في جامعة الخرطوم .. ذكرت أنّ مواعيد الطالبة «الحنانة» مرهونة بجدول محاضراتها.. يا لها من صورة جميلة رائعة لطالبات يكافحن لانتزاع التعليم ويناضلن من أجل لقمة العيش في ظلٍّ هذا الغلاء الطاحن.. ما أروعهن وهن يقلن لا للإنحراف.. ولكن ماذا تفعل الأخريات لحل هذه المعادلة الصعبة.

* الساعة الثانية عشر ظهراً يدخل أحد الأعمام وهو يتصبب عرقاً من الحر «طلعت من سوبا من الساعة الثامنة بالباص، واحد من الركاب قال نشلوا منه ثلاثة ملايين..أخذو الباص كله للقسم.. أخيراً لقوا القروش واحد داسيها جوة بطيخة مقورها من جوة».. يا لها من عبقرية في فن النشل تلك التي تفتقت في ظلّ التوجُّه الحضاري.

* في الصيدلية كنت أشتري دواء رطوبة للوالدة دخل واحد اشترى حبة ضغط واحدة.. قذفها في حلقه.. لاحظ دهشتي .. قال أعمل شنو؟ الحبوب ثمنها غالي كلما أحسّ بالتعب بشتري واحدة. وهم يتشدقون عبر القنوات الفضائية أنّ الخدمات الصحية وصلت إلى أرقى مستوى وأنّ الدواء في متناول الجميع».

تمثل تلك الصور رصداً لتحوُّلات عميقة في المجتمع السوداني لا تخفى على أحد مثلما يحدث في كثير من الأماكن في أزمان الحروب الطاحنة

والأزمات الحادة المستمرة سّياسية أو إقتصادية.. النص الابداعي الذي يحملها يكون أبلغ وأبعد أثراً من البيان السّياسي أو التحقيق الصحفي. فحين قرُر البلاشفة القيام بالثورة السوفييتية وإحداث التحوُّل الإجتماعي العنيف في روسيا لَمْ يكتفوا بالأدب السّياسي والبيانات التحريضية بل طلبوا من الكاتب الروائي مكسيم جوركي أنْ يسعفهم برواية على عجل تناسب تطوُّرات الأحداث فكانت «الأم» التي احتلت مكاناً بارزاً في تاريخ الأدب السوفييتي. وما استطاعت الكتب ولا المقالات الصحفية ولا البيانات السّياسية الغاضبة ولا شهود الأحداث التي أعقبت إنقلاب بينوشيه على الليندي في تشيلي وإرهاب الدولة والرعب الذي كاد أنْ يختلط بالهواء ويتمطى في الشوارع أنْ يعكس بالضبط ما وقع في تلك الأيام مثلما فعلت رواية «بيت الأرواح» للكاتبة التشيلية إيزابيل الليندي.. فقد تناولت الأحداث وتابعت القص من خلال تجربتها الشخصية.. بما هو أشبه بالواقعية السحرية، ليست واقعية ماركيز كما يرى بعض النُقّاد.. بل واقعيتها هي التي جسُدتها بإمكانياتها وبوعيها الخاص الذي تفجر في تلك الأيام.. ثُمَّ أعقبتها برواية «الحب والظلال» التي صوَّرت فيها تداعيات الحدث بانتصار الديكتاتورية على الديمقراطية والتصفيات الدموية الواسعة النطاق ومطاردة المثقفين والسّياسيين المعارضين الذين أرغم الأحياء منهم على التسلل خارج الحدود.

برزت الليندي فجأة ككاتبة ذات إبداع مدهش لتحتل مكاناً مريحاً إلى جانب كتاب أميركا اللاتينية العظام أمثال جورج أمادو وجابرييل جارسيا ماركيز.... لا تقل عنهم روعة ولا إمكاناً. لَمْ يكنْ أحد قد سمع عنها قبل سنوات قلائل لأنَّها باختصار ما كتبت الرواية إلّا حين تقدَّم بها العمر. ولكنها قبل ذلك كانت صحافية ذات تجارب واسعة ومتنوّعة عاصرت مأساة قريبها الرئيس الليندي وشهدت مصرعه. كما كان منزل أسرتها يستقبل المثقفين الكبار والشعراء

أمثال بابلو نيرودا إلّا أنّها ما كتبت الرواية إلّا في وقت متأخر. وفي ردها طرافة حين سئلت عن ذلك وقالت إنّها لَمْ تفكر في الأمر إلّا في زمان باتت فيه خياراتها تنحصر إما في رفو جوارب أحفادها أو الخوض في تجربة الكتابة.. وقد كان الخيار الثاني حيث حققت نجاحاً منقطع النظير وترجمت رواياتها إلى معظم اللغات وأفرغت مخزون العمر الذي عاشته بصدق وانفعال.

في الأسبوع الماضي كنت قد كتبت عن «يوميات في السودان» للسيدة البريطانية أزماي توماس.. وعلى الرغم من أنّ زوجها جراهام كتب «موت حلم» عن مشاهدته وتجاربه في السودان إلّا أنّها تناولت ما ارتأته هي لا زوجها.. فسجّلت ما هو جدير بالقراءة سواء أكانت صوراً إيجابية أم سلبية. والكاتبة بدور عبد المنعم نفسها تناولت تجارب سيدات بريطانيات أقمن في السودان مع أزواجهن في أيام إحتلالهم للسودان. وكتبن إنطباعاتهن حيث أتيحت لهن فرصة الوقت في أماكن يسودها السكون والهدوء. الناس في الدول المتقدّمة - كما ظلّ دأبهم - يقرأون كثيراً ويكتبون أيضاً.. يسجّلون تجاربهم وخواطرهم.. ففي داخل كل إنسان مبدع قابع.

يأتي هذا الحديث تحريضاً لكتابنا ومبدعينا الذين لا يواصلون كدحهم في إتجاه تعميق رؤاهم لإرتياد مناخات جديدة للإبداع وأحيانا يكتفون بالقدر القليل من الإنتاج ويتوقفون وهم في تمام النضج والقدرات. فالروائي المبدع الطيب صالح أدهش الناس في الداخل والخارج برواياته وقصصه ذات الزخم الإنساني الرفيع.. ووصفه بعض الأذكياء بأنّه كان أقدر وأنفع من جميع إمكانيات إعلامنا منذ الإستقلال حيث لفت الأنظار لبلاده وجلب لها كثيراً من الاحترام. الطيب صالح بات يتضايق كثيراً حينما يشير النُقّاد إلى توقفه عن كتابة الرواية. ويقول إنّه يستعيض عن ذلك بأجناس أخرى من الإبداع كالمقالة.

ومثله أيضاً الشاعر محمد المكي إبراهيم - الذي أعده أحد أفضل شعراء

العربية في زمننا هذا -يقول أيضاً إنّه تحوّل إلى كتابة المقالة شأن آخرين كثيرين وينعي نهاية موسم عطائه الشعري ولا يرى داعياً للمكابرة.. ماذا نقول إزاء هذا الإعلان الذي يحبط محبيه الذين ظلوا يتوقون رغم الشعر العظيم الذي كتبه، إلى مزيد من الأعمال الأكثر روعة وإبهاراً.. وخاصة عندما يتحدث عن آرثر رامبو الشاعر الفرنسي الذي توقف عن الشعر وهو دون العشرين - وظلّ أفضل الشعراء الذين قدّمتهم البشرية في تاريخها الطويل.لا يزال مركز عبدالكريم ميرغني يفاجئنا بعطائه وإغداقه بنشر النصوص الجديدة بالقراءة والحفاوة، وذلك في إطار محاولاته الجادة والمسؤولة لتوثيق الفكر السوداني وإشاعة المعرفة وترسيخ الوعي الخاص بالذات القومية وخصائصها.

25 سبتمبر 2001

فتعكـس إنْ أشرقـت شمســه
بأعيننــــا مــــاله من صور
أم المرء إنْ أشرقت نفسه يرى
الكـون كالــوهم فيها ظهـــر

«غير أنّه لا يصيب في الإجابة على مثل هذه الأسئلة حَتُى ولا أولئك الذين صفت نفوسهم وشعروا بمثل ما شعرت به أنت». ويسترسل ذلك الناقد البارع المجهول في تناوله لأشعار حمزة فيقول «لقد كنت شديد الوطأة على الشيخ والأفندي.. ولا سيما في قصيدتك (ذهب الوفاء) وإنْ كنت لَمْ تقلِ إلّا حقاً، وإني أعلم أنْ شعورك فيها عام يتناول الطبقتين-المشائخ والأفندية- في كل بلد إسلامي، كما أعلم أنَّ مبعث هذا السخط في نفسك هو ضياع مجد الإسلام والمسلمين الأخلاقي. إنَّ قصيدة (الأصوات والصور) بل وقصيدة (المعاني والأشكال) ضرب من الفلسفة سقته إلينا في أبسط الأساليب ولا يستكثر هذا على من يأخذ المعاني عن الجبال والأطلال والأرواح والأشكال. إنَّ غزلك حار لطيف ولكنه صريح نوعاً ولا بأس بهذا ما دمت نقي الصحيفة فلا أقل للشباب من أنْ يتغزل. ومراثيك بليغة مؤثرة، وقد يشتم منها بعض الناس عدم الرضا عن هذا النظام الإلهي الذي استجوب ظلام العدم بعد نور الحياة، ولكني على يقين من حسن يقينك، وأعتقد أنَّ الحيرة وفرط الحسرة هو الذي جمع بك إلى هذا الجانب. قلت: إنّك لا تقصد أنْ تنتقم لنفسك بقصيدتك في الدويم ممن أساءوا إليك فيها وما كنت محتاجاً إلى هذه الملاحظة لأن ذلك واضح في قولك:

كربة في النفس قد فرجتها   بكلام فيه للنفس شفاء

وأنى للشاعر الأديب أنْ يسري عن نفسه بغير كظم غيظة أو سكب شعوره على الورق ولمن تسنى له بث حزنه وهو يكاد يكون وحيداً بين هذه الأوساط الموبوءة».

وقت لاحق في مجلد واحد بعنوان «الأدب السوداني وما يجب أنْ يكون عليه وديوان الطبيعة». والديوان اشتمل على قصائد كتبت في الفترة ما بين 1916 و1930. تعدّدت أغراضها من وصف للطبيعة والغزل والإخوانيات والمراثي والهجاء، وأغراض أخرى لَمْ يتناولها إلا المحدثون في أشعارهم، فقد كانت بعيدة عن فضاء القصيدة التقليدية. كان شاعرها مدركاً لتجاوزه الأسلوب الشعري الذي كان سائداً كما كان مدركاً أيضاً أنَّ الذائقة الشعرية للمتلقين عهد ذاك كانت تنتصر لمحمد سعيد العباسي وعبد الله محمد عمر البنا وعبدالله عبدالرحمن الأمين وأضرابهم. لذا فقد جاء في مقدمته للديوان أنّه كتب ذلك الشعر تعبيراً عن أحاسيسه الذاتية وفق ما يتمنى أنْ يكون عليه الشعر في المستقبل. وأفصح عن رؤيته الإبداعية الجديدة يائساً بقوله «وطالما ترددت في طبعه ونشره على الناس الذين لا يخصهم من أمره شيء، وإنْ خصهم لن يقرأوه، وإنْ قرأوه فلن يفهموه، وإنْ فهموه فلن يعنوا به، وإنْ عنوا به فلن يقدروه، وإنْ قدروه فلن يحرك نفوسهم، وإنْ حركها فلشيء ربما لا ترضاه نفسي، ومع ذلك فإنّي أطبعه وأوزعه عليهم بدافع طبيعي خفي ينطوي تحت سر إرتباط الفرد بالمجموع» وأعلن حمزة في مقدمته تلك أنّه خالف اللغة في ذلك الديوان، وكشف عن ديوان له سابق «نظمته مقلداً بدافع شعوري الخفي بجمال الشعر ثُمَّ حذفته جملة لخلوه من التجديد، غير أني نشرت بعضاً من قصائده في أول هذا الديوان للذكرى فقط».

يبدو أنَّ الإحساس بضرورة التجديد في الشعر والأدب كان هاجس عدد من الأدباء والكتاب في سنوات العشرين، وإنْ لَمْ يُعبَّر عنه بصورة واضحة وملحة غير حمزة الملك طمبل -ذلك قبل صدور مجلتي «النهضة» و«الفجر» اللتين اضطلعتا بمهمة التركيز على الأجناس الأدبية المختلفة وعكستا رؤى وأفكار المبدعين الجدد. فالطبعة الأولى لديوان حمزة تضمنت ثلاث مقدمات، أولاها بحث تحليلي كتبه الناقد الإنجليزي ماثيو أرنولد عن الشعر -ترجمته مجلة مصرية- واحتوى على خلاصة الرؤية النقدية الجديدة التي برزت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

وقال الشاعر: إنَّ هذا البحث يتفق مع نظرته للشعر. وذلك يعني أنَّ حمزة الملك طمبل ظلَّ يكتب الشعر وعينه على التيارات النقدية العالمية الحديثة التي ظلَّت تغذي شعوره بضرورة الخروج بالشعر من قوالبه التقليدية وأغراضه التي ما عادت تتماهى مع التغيرات العميقة التي بات يشهدها ذلك القرن.

أما المقدِّمة الثانية فقد كتبها أديب سوداني -لَمْ يشأ أنْ يفصح عن اسمه- وكتب بعنوان: «كلمة أخ في موضوع الديوان» ووقع في ختام مقدمته بكلمة «أخوك». لَمْ أستطع أنْ أخفي دهشتي وإعجابي بتلك القدرة النقدية التي عبرت عن رؤية متجاوزة وأدوات لَمْ تكن لتتوفَّر في ذلك الزمان الباكر -قبل سبعين عاماً- والأدب العربي كان لا يزال يحاول الفكاك من أنماطه التقليدية. كما أنَّ قواعد النقد الأوروبي الحديث لَمْ تعرف على نطاق واسع ولَمْ تستخدم بعد.. إلاَّ أنَّ الأصوات الشعرية والأدبية العربية التي هاجرت إلى الأمريكتين وتأثرت بالثقافة الغربية كانت تجد طريقها إلى بعض العواصم العربية. والواضح أنَّ محاولات الشاعر الكاتب عباس محمود العقاد ومدرسة الديوان كانت تستأثر بقدر كبير من الإهتمام. وقد ذكر ذلك الأديب السوداني -الذي ضنَّ علينا بمعرفة اسمه- أنّه حين قرأ أشعار حمزة فوجئ بمثل ذلك الشعر البديع الذي إعتبره -رغم كثرة إطلاعه- جديداً في لفظه ومعناه. وأشار إلى عدد من القصائد التي رأى فيها عناوين جديدة في الشعر تدل على اتصال الشاعر بالطبيعة اتصال المفكر المتأمل ـ ولذا فهو جدير بحمل لقب شاعر الطبيعة. وأعجبته قصيدة «شيخوخة شجرة» فقال: « كلنا نرى الأشجار الشائخة-مثلاً- ولَمْ تزد ملاحظة الأغلبية منّا على أنّها تصلح خشباً، أما أنت فقد استخلصت منها عبرة أي عبرة -كذلك كان الحال في غيرها من قصائدك.. ضرب من أعمق ضروب الإحساس ذلك الذي دفعك إلى الاستفهام في قصيدة «منظر» بالأبيات الآتية:

هل الكـون وهم يكـاد الدجى
يعفي علـى حــــاله من أثـر

الآن كاتب مقالة وهذا أمر حدث قبلي لكثيرين. لقد انتهى موسم عطائي الشعري ولا داعي للمكابرة. فالشعراء لهم موسم للعطاء ومواسم للبيات الشتوي ومواسم للموت ومواسم لتكرار أنفسهم، وهو نوع أخر من الموت. كان إليوت يقول إنّ الشاعر الحقيقي هو الذي يستمر في الكتابة حَتّى ما بعد الخامسة والعشرين. ولكن لَمْ يقل لنا ما عمره الحقيقي؟ رامبو هجر الشعر قبل سن العشرين ولكن ذلك لَمْ يمنعه من أنْ يكون شاعراً عظيماً. ولكن روبرت فروست ظلّ يكتب إلى سن الثمانين، وكلما تقدَّم في العمر كلما أنتج شعراً أفضل كالنبيذ الذي يتعتق بمرور الزمن».

كان صديقنا إسحاق القرشي يسألني كثيراً عن محمد المكي- الذي لَمْ يكن قد التقى به - بلازمة طريفة بلهجة ناس بحر أزرق «هذا الشاعر عامل فنّ عمل» ولا يفتأ يكرر قصة قصيدة «أيّها الوالغ في جرح الكركدن ». التي ربما يكون قد كتبها محمد المكي وهو بالصف الثالث أو الرابع بمدرسة خورطقت الثانوية. عثر عليها إسحق داخل كتاب مدرسي حين نقل إلى الصف. وكان الكتاب يخص الشاعر الذي إنتقل وقتذاك إلى الدراسة في جامعة الخرطوم. كان إسحاق يقول بدهشته الهازلة تلك هذه القصيدة كتبها فتى صغير كان يرتدي « الشورت» الخاكي والقميص البوبلين بكمين قصيرين ومازلت أحتفظ بها.. يرجوني أنْ أحدثه عن ذلك.

وحين تحدث عن بداياته في الكتابة قال محمد المكي: «وبعد أنْ تشبعت بسيرة تشيخوف وجوته في كتيبات سلسلة أقرأ رحت أحلم بأن أكون كاتباً في يوم من الأيام، فأحسست أنني اقتربت من تحقيق ذلك الحلم يوم نشرت لي الصباح الجديد (مجلة كان يصدرها الأستاذ حسين عثمان منصور) قصة قصيرة. ثُمّ نشرت صحيفة الطليعة (لسان حال إتحاد العمال في السودان) قصيدة صغيرة كانت السبب في تعرفي على الأديب الفيلسوف عبد السلام نور الدين..

إستطاع ذلك الناقد أنْ يمس شعرية حمزة الملك طمبل مساً شفيفاً.. نفذ إلى جوهرها واستكنه جديدها.. إلّا أنه لَمْ يستخدم قواعد نقدية صارمة.. إستعان بثقافته وحساسيته إزاء الإبداع.. فكأنّه في ذلك كان إنطباعياً ولكن بصورة مدركة لا تخطئها العين. أحسَّ بإرتباط الشاعر العميق بالطبيعة، وأشار بنفس لطيف إلى مواضع العظمة الشعرية في قصائده. كما أحسَّ بتأملاته الفلسفية وانسيابها في نسيجه الشعري.

من الواضح أنَّ الطابع العام لشعرية حمزة الملك طمبل رومانسي -شأن زمانه- واستخدامه للغة واستدعاء الصور والأخيلة أقرب إلى الواقعية فصوره حالمة ومفرداته مباشرة وعارية من أساليب البلاغة. وظلَّ يصبو في قصائده لأن يتعرَّف عليه المتلقون من خلال مذهبه في التجديد، كما تمنى لو يفرضه عليهم ذائقة عامَّة.

وبما أنِّي لا أنحو منحى نقدياً في تناولي لشخصية الشاعر حمزة الملك طمبل ولا أتقيد إلّا بما أحسبه يضيء بعض جوانب تجربته وشعره، أجد نفسي مدفوعاً لإستشراف بعضاً من عالمه الذي ظلّ مجهولاً. وما كنت أجرؤ على هذه المحاولة لو لا أنْ أتاح لي رؤية الديوان بأريحيته المعهودة الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه. وكنت قبل أنْ أطلع على الديوان لا أعرف عن حمزة الملك طمبل سوى أنَّ آباءه هم ملوك أرقو، الذين حكموا منطقتها عقوداً من الزمن -وأنه عمل بالإدارة البريطانية ردحاً من الزمن.

لَمْ يهتم حمزة بشعر الوطنية ولَمْ تجد السِّياسة هوى في نفسه.. رغم أنَّ قصائد الديوان هذه كتبت في أوج العنفوان الثوري الذي امتد من بداية تكوين الجمعيات السِّياسية وحَتّى هزيمة ثورة 1924 وما صاحب ذلك من أحداث دامية مأساوية تركت أثرها في معظم المثقفين السودانيين. والأكثر من ذلك أنَّ الديوان تضمن مديحاً للإنجليز بصورة سافرة ومباشرة..لَمْ يحاول أنْ يخفي كلفه وهيامه بذوي العيون الخضر. فقد استقبل المندوب السامي اللورد اللنبي بقصيدة عصماء لدى زيارته

للدويم وكال له المديح وخاطبه بفاتح القدس.

وتبدو المفارقة فادحة أنْ يكون الشاعر توفيق صالح جبريل -الذي ينحدر من نفس الأرومة الملكية- قد استقبل اللنبي بشعر غاضب مجلجل تداولته الألسن وتقاضي توفيق ثمنه عسفاً وتضييقاً وظلُ قابعاً في وظيفة نائب المأمور، الأمر الذي ظلّ مصدراً لتندره وسخريته طوال حياته.

وحمزة الشاعر الملك كان يرى للإنجليز فضلاً على أسرته -التي ظلّت من أبرز بيوتات الإدارة الأهلية- وقد نوّه بذلك الفضل في قصيدته «على قبر» التي يرثي فيها أباه الملك طمبل حمد فيقول:

بيتك السادر في حرز حريز
فهو يرعاه كرام الإنجليز
قد أجازونا كما كنت تجيز
لَمْ تزل أنت على الناس عزيز

لَمْ يكن حمزة وحده الذي نأى بنفسه عن الحركة الوطنية وهام حباً بالمستعمرين.. كثيرون مثله من المتعلمين رأوا في قادة الجمعيات السّياسية والحركة الثورية الوليدة غوغاء وسوقة.. وظنوا الإنجليز مخلصين جديرين بالوفاء.

وليس عذيراً لحمزة أنّه كان أرستقراطياً يفيض إحساساً بمحتده النبيل ودمائه الملكية مترفعاً عن الشأن العام.. إلّا أنّ ذلك الإحساس لا بدّ أنْ يكون قد شكّل نظرته للأمور ودفع به لاتخاذ مثل هذا الموقف.. ويبقى من حمزة -مع ذلك- الشاعر الذي خاص مغامرة مبكرة في سبيل تأسيس فضاء شعري جديد. ولد حمزة في عام 1893 وتوفي في عام 1960- عليه رحمة الله.

10 يونيو 2003م

بين الشعر والنثر

محمد المكي إبراهيم



صديقنا الشاعر محمد المكي إبراهيم بقدر ما هو شاعر ضخم فريد فهو أيضاً كاتب ناثر مختلف.. إذا نثر فله أسلوب ليس لغيره منه نصيب. يطرح أكثر القضايا تعقيداً في الفكر والسّياسة والأدب بأفخم الألفاظ وأيسرها ولا تخفى عليك سخريته الذكية اللاذعة العميقة. كتب لي مرّة إبان الجولة الأولى للمفاوضات بين حكومة الخرطوم وحركة قرنق.. كان يذكرني بأيام مضت والزمان لَمْ يذهب بالناس كما فعل الآن.. ذكريات مضى عليها أكثر من عشرين عاما، وكُنّا عهد ذاك في ميعة الصبا الوقادة. جمعتنا أمسية نادرة تحت سماء الخرطوم بحري الصافية العميقة، في حديقة البلدية، مع مجموعة من الأصدقاء الشعراء.. رسم صورة أخاذة لذلك اللقاء، فقال: أذكر تلك الليلة القمراء في حديقة البلدية حيث وجدتكم أنت وشابو وراشد. جلسنا تحت قمر وهاج يحفنا نخيل غامض النوايا ويتلامع من حولنا نيل صامت رايح في حال سبيلو. طعمنا وشربنا وتلذذنا بالشعر وهنالك رددت أنت أبياتاً استحوذت على روحي ردحاً من الزمان.. هل تذكرها فإنّني قد أنسيتها وما أنسانيها إلّا الشيطان (الذي يكمن هذه الأيام في

تفاصيل ماشاكوس). لك أنْ تستمتع بسخريته هذه العابثة الجميلة أو تتعجب من ذاكرته الفوتوغرافية المدهشة.. فرغم مرور تلك السنين وحياته الحافلة المليئة ظلَّ يذكر قصيدة قيلت مرَّة واحدة في أمسية مباغتة عابرة. لولا ذلك لما كان محمد المكي المثقف الموسوعي الممتلئ الوجدان، والمترع الخاطر والفياض الإبداع.

نحن الآن نتابع مقالاته السِّياسية حول الأزمة السودانية والقضايا العربية ونلاحقها.. فهي محتشدة بالمعلومات والمشاهد التاريخية والتناول الخلاق.. اللغة الجامحة والنفس الطويل والسخرية التي لا تخلو من غضب الشاعر وانفعالاته. وهو يقول إنَّ الكاتب في داخلي ظلَّ يناضل ولكن دون حرص على الظهور - وهي عادة لَمْ أتخلص منها إلّا يوم طلقت الدبلوماسية.. وتحت ظلال التعديل الدستوري الثاني (المادة التي تضمن حرية الكلام لكلّ سكان الولايات المتحدة وضيوفها) لَمْ يعد هنالك من مبرر للإنزواء. وتجدني الآن أكتب في صحف عربية كثيرة ومن حين لآخر أناوش الصحف الأمريكية برسالة أو مقالة.. في حياتي لَمْ أعش خصوبة قلمية كتلك التي أعيشها الآن ولذلك أسباب كثيرة بينها قضية الوطن التي صارت تؤرق الكهل والشيخ والوليد». جاء حديثه هذا في حوار ممتع أجرته معه مجلة «كتابات سودانية» قبل حوالي عامين.. لخَّص فيه تجربته في القراءة والتكوين وفي الكتابة.

طبعا محمد المكي كتب شعراً جميلاً ولا ريب.. منذ بداياته الباكرة كان له صوته المنفرد المجلجل، لذا أدهش الناس وعبأ جيلنا بالفخر والإعتداد.. كان شاعر أكتوبر بلا منازع. حين كتب شعره ذاك لَمْ يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين بكثير. ولا تزال تلك القصائد تكتسب جدة وعنفواناً.. نلوذ بها كلما ألمت بنا جائحة وتراءى لنا الخطر..

ما ترك الشعر مخاصماً فهو لا يزال يكتبه متألقاً متجاوزاً ولكنه بات مقلاً « إنني

جئت مصباحاً وسلوى
ها هنا السجاد وبالرحب تفضل
أنت شجرت السماء.

شاعر كالرمح جسماً وروحاً.. حاد الإنتباه.. ولوع بالحديث إلّا أنّه يجيد الإصغاء بروح الحكماء.. كلماته تصل صليل الأجراس وشعره يتفاقم في المكان فيستحيل سحراً وأسطورة وشجناً دؤوباً يأخذ بمجامع القلوب. شاعر يغوص في أحزان وجودية لا سبيل إلى الإفصاح عنها ولا الفكاك.. يستعين عليها بالضحك والإبتسام الدائم لتنثال وتنسرب في السديم، ثُمّ لا تلبث أنْ تعود.. عيناه تبرقان في شراسة الصقر ووداعة اليمام. يحدثك فيمعن في الكرم وروح المجاملة. لا تستطيع وصفه بالأريحية أو لين العريكة فهو أكثر. كان كثيراً ما يقول لي إنّ «الحساسية هي داؤنا القديم» كأنّها قد أذابت شحمه وأتت على لحمه فاستحال طيفاً نحيلاً كشجر السيسبان في يفاعته.. شفيفاً كسحابة صيف عابرة. يحدثك عن معارف لاحدود لها ويحدق في عينيك كأنّما يعتذر عن علمه الوفير. لا يتفضل وإنما يعطي ويمنح، لا يمتن ولكنه يتعطف. لا يبحث عن ضوء ولا شهرة إلّا إذا كانت النجوم تسعى لذلك.

كتب شعراً جميلاً منذ سنوات صباه وصدر له ديوانان «أغنية لإنسان القرن الحادي والعشرين»، في القاهرة عام 1968، و«حاطب الليل» في الخرطوم عام 1988. ويعتبر من جيل الستينات والرعيل الذي أسس مدرسة «أبادماك». نشرت له الصحف والمجلات داخل السودان وخارجه.

صحبناه خلال سنوات ممرعة خصيبة.. وما كان أسعدنا- نحن المتلقين- نجلس بين يديه كلّ مساء ونصغي لتلك العذوبة المنهمرة - كما عبّر محمد المكي - فاجأنا ذات أمسية وهو يقرأ شعراً باللغة الإسبانية.. كان من ديوان لشاعر

يا ترى هل كانت هي القصيدة التي تحدث عنها إسحاق؟

والدكتور إسحاق محمد الأمين القرشي كان شاعراً وسليلاً لدوحة شعر- كما كان ناقداً وكاتباً ومحدثاً بارعاً سطع كالشهاب في فضاء الثقافة وكان لا يزال بالجامعة ولكنه آثر الإنزواء وكفَّ عن الكتابة وقيل إنَّه تصوف. نتسقط أخباره لنطمئن عليه ولا نظفر بطائل يروي الظمأ.. فالرجل كان نسيجاً مختلفاً. وهو يتنقل الآن بين الجامعات الأوروبية والعربية فما زايله قلقه القديم- أكاديمياً وعالماً لغوياً يدرس فقه اللغة العربية؟

تنطوي نفس شاعرنا محمد المكي على حبٍّ عظيم للوطن أفصح عنه بروائعه الخالدات.. «أمتي» شعر لا يتكرر. مازلنا نحفظ منه الكثير ونراجعه في كلِّ حين. هذه ليست نظرات نقدية بقدر ما هي تجديد للإحتفاء بما صنع الشاعر لأمته ولما يكنه لها من حب. أعجبني كثيراً حديثه في ذلك الحوار الجميل عن كردفان والأبيض التي شهدت طفولته ويفاعته المفعمة بالذكريات... وهذا جزء من نثره الفخيم، قال: يوما ما ستجد نفسك منجذب إلى الماضي بإستمرار وأن الطفولة والصبا هي عماد حياتك وأنا الآن في نفس المرحلة.. تطفر كردفان إلى ذهني وقلمي كل يوم.. السودان القديم الذي عشته هو إلى حد كبير كردفان وخرطوم الستينات.. منزلنا هناك تحوَّل إلى أطلال وفكر إخوتي في ترميمه ثُمَّ وجدوا أنَّ فصول مدرسة القبة التي انهارت أهم منه.. ذلك عمل من أعمال أهل الجنة أسأل الله أنْ يثيبهم عنه أحسن الثواب وهو فعلاً مُقدَّم على ترميم بيت الطفولة. ولكنني سأكمل ذلك المشروع ذات يوم وأذهب لأعيش جزءاً من زماني مع أولاد الحلة.. النور صالح حميدة ومكي المساعد وياسين صقر، وكل ذلك تحت ظلال شيخنا ورئيس سجادتنا الولي العارف السيد البكري تاج الأصفياء.. سبقني خدن الروح فضيلي جماع وعاش في حي القبة وكتب فيه قصيدته الباهرة «شارع في القبة».. ولكن ذلك كان في زمن راح وهذا زمن آخر.. فقد عدت إلى

مدينة الطفولة قبل أنْ أغادر السودان فأنكرتها نكراناً شديداً.. كلُ ما فيها تغير للأسوأ وأيام زيارتي كان جلاوزة موفق الخيرية (وهي واجهة أمنية) يصطادون طلابنا من الشوارع ويأخذونهم إلى مشارف المدينة حيث يعذبونهم ويتركونهم على قارعة الطريق إنتقاما من تظاهراتهم التي أحرقت لهم بنكهم الإسلامي (منذ متى كان للإسلام بنوك؟). هنالك مشاريع عملية أحلم بها لمدينة العمر الجميل لإستعادة بيئتها التي ضاعت وإيصال الماء إليها من ضاحيتها العائمة في حوض جوفي، وكل ذلك رهن برحيل الإخشيديين فبدونه تظل كلُ السكك مقطوعة والمستقبل مرتهن».

آخر رسالة تلقيتها من صديقي الشاعر محمد المكي إبراهيم بالبريد الإلكتروني كانت في غاية الطرافة والإبهار.. « انجلو- أراب» عبارات بالعربية والإنجليزية واستخدام ذكي للغتين.. تضحكك وتسعدك وتفصح عن إمكانيات الشاعر المدهشة وعبثه المشاغب وتدفق الإبداع في كلّ ما يقول ويفعل.. لقد انشغلت في الأيام الماضية وسافرت وأخشى ألا أكون قد قمت بالرد عليها.. وأنا أطمع أنْ تكون هذه الكلمات رداً مفتوحاً (على الهواء مباشرة كما يقولون) علها تشفع لي تقصيري في حق الشاعر العظيم.

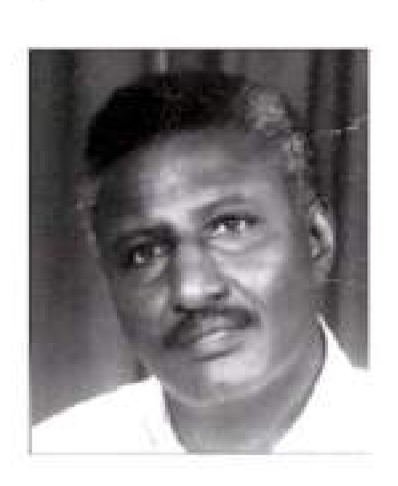
بعد أنْ مَن الله بالشفاء على الفنان الكبير محمد وردي وتكللت العملية الجراحية الصعبة بالنجاح في الدوحة كتب إليه صديقه محمد المكي من واشنطن تهنئة جميلة جديرة بأنْ يقرأها الناس.. البساطة المحتشدة بالمعاني.. كتب يقول: إلى حنجرة الشعب السوداني المجلجلة، أخي الحبيب محمد الوردي، والحاجة والأنجال والأحفاد - شكرا لك على هذه السعادة الكبرى التي أدخلتها على قلب أخيك وقلوب محبيك في كلّ مكان باستجابتك الطبية للعلاج وتقبل بدنك لهذه الهدية المقدمة إليك من فؤاد سليم ونية خالصة. أنهض سالماً معافى فالكلَ بانتظار إبداعك الناضج الجميل..كتب الله لك عمراً

جديداً ولا شك أنّه سيتمخض عن فن جديد أجمل وأحلى من كلّ الجمال والعذوبة التي صنعتها في الأيام الأولى. تقبل التهاني مني ومن أفراد عائلتي وكافة أصدقائي. ودمت في نعمة ورضى لأخيك. محمد المكي إبراهيم- واشنطن.

حمل إلى صديق للطرفين وهو صديق أيضاً لوردي هذه الكلمات التي أرسلت إلى الفنان الكبير. وكتب هو أيضاً كلمات لا تقل روعة وجمالاً وطلب مني أنْ أفعل مثلما فعلا حَتَّى نسعد الفنان في فترة نقاهته، ولكني ترددت فكلماتي ستغدو خرقاً بالية إزاء ما صنعاه من كلمات.

الشاعر «ذو القلب الرنان الأجراس»

شـــابو



حين إستفسر عن أحواله محمد المكي إبراهيم في إحدى رسائله الخاصة كتبت إليه أقول «أما شابو فأشاهده في برامج ثقافية تلفزيونية.. انظر إليه باشفاق يجلس وسط أناس ملتحين لا يعرفونه- كمن حلت عليه لعنة الهدهد - يتحدثون بلغة محمد فريد أبوحديد وعلي الجارم وعبدالعزيز جاويش.. لا يتجاوزون مقرّرات اللغة العربية في المدارس.. يحاول شابو أنْ يحلق بهم فيقعدونه بنظراتهم البلهاء وروح التعالي الأجوف.. علمت أنُ أموره مستقرة نسبياً حيث يعمل بالتدريس في معهد لتعليم اللغات.

كان شابو ولا يزال يكن إعجاباً كبيرا ومودة خالصة لصديقه الشاعر، ففي قصيدته «أغنية لمكي إبراهيم» يقول عنه:

صرت إمكاناً خرافياً وثوقاً
آه يا طيفاً كما لمح الفجاءة
جئت ليلى

كمال الجزولي..

قمح الكلام ونيل المرام



«يجب على الشاعر أن يكون أنفع من أيّ شخص في قبيلته»

بول إيلوار

«لا ينقص من قيمة الجمال أن يخدم الحرية وأن يعمل على تحسين الجموع البشرية، إنّ الشعب المتحضر ليس قافية رديئة، والفائدة الوطنية أو الثورية لا تنتزع شيئاً من الشعر».

فيكتور هيجو

الشاعر كمال الجزولي، نضج قمح الكلام في بيادره واستوي خبزاً.. وامتدت كرمته وتعرشت ظلاً وريفاً.. وغدت دنا معتقة شفيفة.. رفع عقيرته بالغناء والنشيد العذب.. واشتار من عيون ما قال فأهدي للمبدعين الراحلين المجذوب وأبوذكرى وعلي عبدالقيوم وغيرهم. كان يرمي بشظايا صندل الشعر في الجمر قبضة فقبضة حتّى قف شعر المكان واعتبق.. وتمايلت السدوف غبطةً وثناءً وامتنانا.. وتجاوبت أصداء أنفاس الشعب وأنساق وجده ووعيه.. أنفاسه الكامنة تحرك أوراق العشب

شيلي بابلو نيرودا.. عقدت الدهشة ألسنتنا.. ثُمَّ لَمْ يلبث أنْ إنعطف مترجماً للشعر فورياً بلغته العربية الصقيلة ومفرداته الفتانة.. كان يترجم بلا توقف وكُنّا نتلهف ونود أنْ نتخطف الكلمات والدهشة تتضاعف. وبعد أنْ أفقنا حدثنا عن صفقة عقدها مع القس الإيطالي راعي الكنيسة الكاثوليكية بالمدينة «كوستي» أنْ يعلم كلٌ واحد منهما الآخر - العربية والإسبانية. إتخذا أحد فصول المدرسة الفنية العليا - حيث كان شابو مديراً- مكاناً للقاء التعليمي. وبعد مضي ستة أشهر كان شابو يبكر بالحضور ويملأ السبورة بأشعار لوركا ونيرودا ومقتطفات من الأدب الإسباني، ذلك قبل أنْ يأتي صديقه القس فاغراً فمه من الدهشة حيث كان لا يزال هو في مرحلة «حمد والولد والجمل».. ثُمَّ لَمْ يبرح «قام سافر تاه».

عاش الشاعر عبدالله إبراهيم محمد موسى (شابو) أياماً نضيرة في مدينة كوستي في سنوات السبعين من القرن الماضي، كان يتلقانا في داره مرحباً متهللاً، ويجلس إلينا موفور الشباب.. رائع المحيا، بهي السمت، طلي الحديث إلّا أنّه يغيب أحياناً ليختلي بصديقه الشاعر عبدالعزيز سيد أحمد.. وكان يلقبه بـ«بحر العلوم». كان يقيم غير بعيد عن داره ويعمل مهندساً في مشروع سكر عسلاية. يختليان فيتناجيان ويرصدان المجرات ويتحدثان في المعارف والعلوم والشعر والأدب والتاريخ مرابط خيولهما الرامحة في براري الإبداع. يقول إنّ نديمه ذاك كان يخيّره في ما يكون عليه الحديث ذاك المساء.. عن بنات نعش الكبرى أو درب التبانة؟ أم عن حضارة الإنكا، أم إكتشاف الحديد وعن صهره حَتّى يشف كالبلور؟ كان شديد الإعجاب بصديقه الشاعر عبدالعزيز سيد أحمد وكانت تروقه غرابة أطواره. كان يحكي قصة إكرامه لأصهاره فرسان الرزيقات حين جاءوا لزيارته في الخرطوم، ورأى الذبائح لاتفي بالمطلوب فعمد لشراء أكبر بقرة سمك من جهة خزان جبل أولياء.. تزن ثلاثين كيلوجراماً أو تزيد.. وأمر أنْ توضع على المائدة كما هي محشوة بالخضروات والتوابل.. فامتدت بطول

المائدة تعبر عن رغبته العارمة في إكرام الضيف.

ولد شابو بمدينة الكوة في النيل الأبيض، وظلّ ولوعاً بها كلفاً مشوقاً. وحين كتبت مرّة عن الدكتور التجاني الماحي، كان لا بدّ لي أنْ ابتدر الكلام بشابو الذي يكن تقديراً عظيماً لقريبه العالم الموسوعي. وتحدثت عن الكوة أيضاً من خلال محبة شابو لها فأعجب المقال أهل المدينة وأسعدهم وأبلغني شابو فسرني ذلك.. فهم بعض أهلنا وبيننا وبينهم صلات واشجة.

عاش شابو في مصر ذلك المخاض العظيم الذي أعقب ثورة يوليو وتأميم القناة والعدوان الثلاثي وحركة التحرير الأفريقية في إبانها.. فاتصل بالحركة السّياسية والثقافية وعاصر جيلي عبدالرحمن وتاج السر الحسن ومحيي الدين فارس ومحمد مفتاح الفيتوري، ورأى كيف كان عبدالوهاب البياتي يتحاشى المجالس.. راغباً في رؤية القليل ممن يحب وينتقي في مقهى ريش.. سلوك الشاعر الجامح والمتنائي عن العادي والمألوف... تلك الفترة تركت بصماتها واضحة في تجربة شابو.. وكان لا يفتأ يردد:

(إثنان ما لاقيت أقسى منهما
شمس الضحى والشاعر الحساس)

وعندما عاد من بعثته الدراسية في الولايات المتحدة كان قد إكتسب تجربة جديدة باتصاله بذلك المجتمع وقراءاته للأدب الأمريكي عن كثب فالتمس بغيته في وولت ويتمان وريتشارد رايت وجيمس بلدوين وغيرهم.

عاد ليعمل معلماً بالكلية المهنية العليا ويتألق في مجال الأدب والشعر في سنوات الستين.

في الشهر الماضي إلتقينا بعد سنوات في الخرطوم بمكتب صديقنا وتلميذنا الأديب الدكتور أحمد الصادق أحمد مدير معهد اللغات. «سيلتي»، كان شابو

قد أتفق تسع سنوات يدرس الإنجليزية في ذلك المعهد بعد أنْ تقاعد عن العمل بوزارة التربية، فقضينا نهاراً وضيئاً طيباً ودارت بيننا أحاديث الذكريات، فأتحفنا بطيب حديثه الذي تخللته قراءات شعرية. كان يتكلم عن الشعر وعروضه ويربط ذلك بألحان "الجابودي" في بادية السودان فأسمعنا كلّ جديد ومثير. وطلب منه الدكتور أحمد الصادق أنْ يقرأ قصيدة «حجر» التي يقول فيها:

ماذا عليك إذا ابتعدت
ماذا عليك إذا انقضى زمن الغناء
وصوحت أمجاد عمرك في الربيع
حجراً تكثف ثُمَّ أقعى في طريق السابلة
ماذا يفيد الناس من حزن الغريق
فالعشب ينمو فوق ظهر الناقلة
والشمس تشرق دائماً في الشرق
تشرق دائماً
وتلون الآفاق بالبهج العتيق

مازال شابو يتربع على عرشة الشعري ويتألق في مجالات الثقافة ويتمتع بصلات واسعة مع المبدعين شباناً ومخضرمين، ويعرفه جميع العاملين بالصحف اليومية، يوقرونه ويمحضونه كثيراً من الود والإخلاص، ومازال قلبه كما قال:

في قلبي هذا الرنان الأجراس
تحنان يشعلني حباً كالبحر
ويقتلني مقتا
ضاعفت الأحزان الوقت
ضاعفت الأحزان الوقت

عرفات..

المثقف المرهف والكاتب الطليعي



عرفات محمد عبدالله

شهدت سنوات الثلاثين من القرن الماضي في السودان غياب ثلاثة من أبرز رموزه في الإبداع والفكر والسّياسة.. فقد غيّب الردي خلالها الشاعر الفذ وفنان الوطنية خليل فرح والشاعر العبقري التجاني يوسف بشير والكاتب الطليعي عرفات محمد عبدالله، قضوا ثلاثتهم ومازالوا في شرخ الشباب.. يشاركون بوعي في التأسيس الفكري والإبداعي لأمتهم.. يشقون جهامة ليلٍ طويل ما كان يلوح في أفقه صباح. كتب محمد أحمد محجوب مقالاً مطولاً يتحدث فيه عن الرائد عرفات في مجلة «الفجر» في 16 مارس 1937 فقال أتذكر يوم أنْ مات عرفات فخرجت العاصمة المثلثة جميعها تشيعه إلى مقره الأخير باكية حزينة.. ألمْ تقل يومذاك إنّه انتصار لدعوتنا، وإنّ الذين كان يهدمون عرفات وأنصاره ويقللون من قيمة ما يدعون إليه ويكيلون التهم، كانوا في ذلك اليوم أول الباكين وفي طليعة المشيعين؟. ألم تقل يوم ذاك إنّها الخطوة الأولى التي خطاها السودانيون نحو القومية السودانية؟.. وها هي الأيامٍ تمضي سراعاً، وها نحن مازلنا نكافح ونجالد، وها هي مبادئ عرفات تزداد كلٍ يوم رسوخاً في الأذهان،

كالريح الفجرية فتكتسح الركاكة والبذاءة والغثاثة وما ران من تنطع وفجاجة.

جاء كمال الجزولي إلى دولة الإمارات بدعوة كريمة من القائمين على جوائز سلطان العويس الأدبية، لحضور حفل توزيعها.. فاستضافه المجمع الثقافي في أبوظبي بالتعاون مع الجمعية الثقافية السودانية التي قدمته فقرأ شعراً جديداً ناضجاً، ناضحاً بالحكمة والمعرفة.. مزنراً بتجربة خصوصية قليل من الشعراء من تعرّض لها.. حيث واجه السجن والمعتقلات والتهديدات المستمرة بالتصفية الجسدية.. ذلك ما عبَّر عنه في قصيدته «هسيس»:

ليس القتل ما أخافه،
ليس الميتة المفجعة،
ليس انفجار هذا الباب فجأة
أو دخولهم - عند منتصف الليل -
بالأسلحة المشرعة
لا.. ليس دمي الذي يسيح في قيحه
ولا جمجمتي التي تتشظى على الجدار
لكنما أخوف ما أخافه
هو الخوف ذاته
ذاك الذي إذا غفلت عنه لحظة سرى إلى مسام الروح،
ناقلاً وساوس المعاذير المنمنمات
في هسيس الانكسار.

في مرثية للشاعر القتيل فيدريكو جارسيا لوركا قال شاعرنا محمد المكي إبراهيم، في ذروة عطائه وكدحه الخلّاق، «لا يقتل الشاعر في أسبانيا وإنما يعفي ويستتاب».. لا أدري حَتَّى الآن ماذا وراء هذه الكلمات في القصيدة، ولكني أذكر أنّها أعجبتنا وقتذاك ومازالت.. فشعر ود المكي يظل دائماً كالحليب سائغاً

للشاربين في مراحل العمر المختلفة مهما تغيرت كيمياء الجسد وتبدلت، الشاعر والحقيقة صنوان.. والحقيقة ملك الشعب وروحه.. والإعتداء عليه محاولة لوأد تلك الروح وقتلها.

ولوركا شاعر إسباني إستطاع أنْ يمسك بكلتا يديه بالروح الأندلسية ويعمد تجربته بينابيعها وريفها وغجرها وتاريخها العابق بالأمشاج الثقافية العربية. كتب الشعر والمسرحية بابتكار وجدة وعفوية فأدهش العالم الذي لا يزال يتعامل مع إبداعه بكثير من التقدير والإكبار. وحين أردات قوات الفالانج السوداء في أخريات الحرب الأهلية أنْ تصيب إسبانيا في كبدها وتفقدها روح المقاومة لاحقت الشاعر بيتاً بيتاً حَتَّى اقتادته إلى ساحة القتل كالطائر المقرور لتقع المأساة التي لا يزال هولها ماثلاً.

وكمال الجزولي هو ابن الشعب.. ولد بأم درمان في وقت كانت في قمة مزاجها الثوري تتهيأ للمخاض العظيم.. ونشأ فيها وتلقى تعليمه في مراحله الأولى بمدارسها ثُمَّ هاجر إلى كييف لدراسة القانون. ومنذ ميلاد قصيدته «أم درمان تأتي في قطار الثامنة» بات أحد الشعراء السودانيين المعروفين وكان لا يزال طالباً بالجامعة.

كان لتجربته في الإتحاد السوفييتي أثرها حيث تعرف على كتاب وشعراء مختلفين قادمين من أصقاع الأرض البعيدة. وعاصر مبدعين سودانيين كانوا مقيمين ودارسين في موسكو أمثال الشاعرين جيلي عبدالرحمن وعبدالرحيم أحمد عبدالرحيم «أبوذكري» والقاص مصطفى مبارك مصطفى، وكان بينهم صداقة وود. وظل هو وأبوذكري يتزاوران متنقلين ما بين موسكو وكييف. وقد تابع كمال التجربة المأساوية لصديقنا أبو ذكرى التي قادت في النهاية إلى موته.

ومن عجب أني كنت أفكر في الكتابة عنه هذا الأسبوع عندما عثرت بين أوراقي

على حوار أجراه أبوذكرى مع المجذوب في أوائل سنوات الثمانين الماضية ونشرته إحدى الصحف السودانية. أدخلني ذلك الحوار في العالم النثري للشاعر المجذوب الذي شاقني تناوله للغة واستخدامه للمفردة، كنت أتهيا للكتابة عن ذلك لولا أنْ فاجأنا كمال الجزولي بزيارته المباغتة.

قبل سنوات نشرت صحيفة "الإتحاد" الظبيانية للشاعر كمال كتابته الثاكلة عن صديقه أبوذكري.. كان ذاهلاً وحاضراً عندما كتب، وكان ماثلاً لديه ذلك النبوغ الشعري والعبقرية الفذة، فتفجع راصداً تلك اللحظات الأليمة والتحوُّلات المريعة التي كانت تحاصر روح الشاعر وتسوقه إلى مشارف الردى.

بعد سهرة عامرة بالود والمشاعر الفياضة جمعت عدداً من الأصدقاء بمنزل صديقنا المبدع عثمان حامد سليمان، إحتفاءً بالشاعر الزائر، عدت مغتبطاً أتأبط مجموعة من الأعمال الأدبية والفكرية من إنتاجه الأخير، ولَمْ يهدأ لي خاطر حَتّى تصفحت كثيراً مما تضمنته فأطربتني أيما طرب وملأت جوانحي بالرضا والعرفان.

فكمال ليس شاعراً مجيداً فحسب وإنَّما كاتب أيضاً واع بدوره ومسؤوليته كمثقف وطني قبل كلِّ شيء. كتب مقالات ثرية بصرامة الأكاديمي وعذوبة الشاعر.. واستدعى كثيراً من المراجع.. التهمها بأناة وتبصر.. عكف عليها مثابراً، جاداً ودوءباً.. متمكناً من أدواته الإبداعية في الرؤية والإمعان.. لَمْ تفته روح الفكاهة والمسامرة رغم ما احتوته تلك النصوص من فضل الريادة الفكرية البكر لقضايانا الشائكة المعقدة.. تشعر كأنّك تقتحم عالماً فكرياً جديداً.. وأنا لا أريد أنْ أفسد على القارىء متعته قبل نشرها واستعجل فرحاً مجزوءاً.. وإنما سأعمل على إتاحتها للجميع في موعد جد قريب.

19 أكتوبر 2002

أفكارهم ورؤاهم.

فكتب عنه يقول «إنَّ رجلاً يدرك للحياة أسمى معانيها.. ذا عقل نفّاذ وفكاهة حاضرة، شاعراً سواء أنظم الشعر أو دبج النثر، أو غنى بآثار المتقدّمين أو المتأخرين، فناناً سواء أكان عازفاً على آلة أو مغنياً، أو رساماً، أو عاشقاً لهذا أو ذاك من ضروب الفن سيجد عيشنا الذي نحن فيه جدّ ممل وعقيم، فإذا به يقرّر أنَّ الله لا يغير ما بقوم حَتَّى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا كُنَّا نحن محرومين من الكثير من مباهج الحياة ومقوماتها فلا أقلّ من أنْ نعني بما يخفف بعض الشيء من مرارة الحرمان، وإذا لَمْ يكن في ميسورنا أنْ ننشيء «نادي الفنون والآداب»، نظراً لقلّة الذين سيقبلون على الانتساب إليه، ولأن بيئتنا لَمْ تنته بعد إلى هذا اللون من اللذات المعنوية، ولا بدّ لنا من نشر الدعوة الأدبية وتهذيب الأذواق، وترويض الناس على تذوق الفن، فلنبدأ بجماعة صغيرة للفنون والآداب يقوم أعضاؤها بمهمة الروّاد في هذا الميدان.

صدر كتاب «موت دنيا» لمؤلفيه محمد أحمد محجوب وعبدالحليم محمد في عام 1946، ولكن الواضح أنّه كتب قبل ذلك، فالتجارب المتعلقة بسنوات الثلاثين وبداية تكوين الجمعيات الثقافية بدت حارة متدفقة بحيوية التجربة وعنفوانها.

وافقت تلك المجموعة على إقتراح عرفات الذي وجد هوى في نفوسهم المتعطشة للمعرفة والبعث الجديد في تلك الأيام المقفرة، وشرعوا في تكوين جماعة للفنون والآداب فقدموا المحاضرات لتأكيد دور الثقافة في حياة الناس، إلّا أنَّ هذه التجربة لَمْ تعمر طويلاً حيث تعرَّضت المجموعة لضغوط عزاها المحجوب لجهات وصفها بالرجعية عملت على الكيد لهم ونجحت في مسعاها بتخذيلهم عن المضي قدماً، ولكن يبدو أنّهم انزووا إلى حين ثُمَّ لَمْ يلبثوا أنْ أعادوا الكرة بإحياء جمعيتهم التي عرفت بمجموعة الهاشماب والتي قُدِّر لها أنْ

وتزدادالقلوب بها إيماناً، ولكن هل أدركت يا أخي أنَّ المسؤولية قد تضاعفت وأنَّ العبء قد ثقل، وإنا قد بدأنا مرحلة جديدة من مراحل الجهاد، لقد تطوَّر الأمر، فبعد أنْ كان محصوراً في دائرة جماعة تدعو إليه أصبح اليوم جهاد أمة».

يبدو أنَّ عرفات لَمْ يكمل دراسته في كلية غردون.. إضطرته ظروف ما لم يفصح عنها أحد إلى هجر مقعده وهو في الصف الثالث.. وذلك رغم نبوغه ومن ثَمَّ التحق بمصلحة البريد والبرق كاتباً ومترجماً.. وكانت تلك المصلحة تغص بشباب متوثب عالي الهمم، كانوا يقرأون بنهم شديد ويتقارضون الشعر ويبحثون الأدب، وأصبح عرفات ريحانة المجالس وقطب الرحى في حلقات الأنس والنقاش.

وقد ساهمت هذه المصلحة بعدد وافر من الموظفين الذين شاركوا في أحداث ثورة 1924 وفي مقدمتهم عبيد حاج الأمين، وصالح عبدالقادر.

ولمَّا بات عضواً في قيادة جمعية اللواء الأبيض، التي تبلورت أهدافها واشتد ساعدها خلال عامين أو ثلاثة من تأسيسها، رأت الجمعية أنْ تبعث بعرفات إلى مصر كممثل لها هناك.. حيث معقل النهضة ليصطلي بالأوار الذي خلفته ثورة 1919 وليؤسس منبراً للجهر بحقوق الإنسان في السودان.

ترك عرفات الوظيفة ملبياً نداء الوطن، كما ترك عائلته الصغيرة، زوجته وطفلتيه- في وقت كان يعتبر فيه مثل هذا السلوك ضرباً من ضروب المغامرة. وقد أعلن لدى وصوله إلى القاهرة قوله «ما جئت إلى مصر طالب مال ولا باحثاً عن عمل ولكني جئت أعرض مطالب شعب وأدافع عن قضية أمة».

وفي 26 يونيو 1924 حين احتدمت الإنتفاضة المعادية للإحتلال البريطاني في الخرطوم والمدن السودانية الكبرى واندلعت التظاهرات وجُّهت جمعية اللواء الأبيض «نداء السودان إلى الأمة البريطانية». وقد ترجم عرفات النداء إلى اللغة

الإنجليزية ونشرته صحيفة «التايمز»، كما نشرت «الأهرام» نصه باللغة العربية.. كان الهدف من النداء طرح القضية السودانية أمام الرأي العام البريطاني وليقف على حقيقة جمعية «اللواء الأبيض» وأهدافها، ورفض النداء الإدعاء بأنَّ السودانيين راضون عن الإدارة البريطانية وانتقد أداء الحكومة في الخرطوم في مجال الاقتصاد والتعليم واعتبر مشروع الجزيرة مزرعة خلفية لمصانع لانشكير لإمدادها بحاجتها من الأقطان بأبخس الأثمان.

وفي تلك الأيام التي حفلت بالضجيج والحركة في مصر والسودان اغتيل السير لي ستاك سردار الجيش المصري في شوارع القاهرة فاعتقل عرفات ومجموعة من رفاقه السودانيين متهمين بالتورط في حادث الاغتيال، ورزح في السجن سبعة أشهر أمضاها متذرعاً بالصبر ومثالاً للثبات.

ولما أفرج عنه ألفى الجو ملبداً بالغيوم والأمور قد تغيرت والتزم الكثيرون دورهم تفادياً لحملات القمع والإرهاب فاضطرته الظروف لأنْ يفتح حانوتاً للبقالة ليسد رمقه هو وبعض من الطلاب السودانيين الذين هربوا إلى مصر طلباً للعلم، ثُمَّ لَمْ يلبث أنْ توجّه إلى سيناء ليعمل في شركة إنجليزية للتعدين حوالي العام، ومن هناك رحل إلى جدة والتحق بالعمل موظفاً في شركة القناعة للسيارات، وكان يجد في أوقات فراغه متسعاً لتقديم دروس في اللغتين العربية والإنجليزية لبعض الراغبين وأصبحت داره قبلة لزوار جدة من السودانيين والمصريين من الحجاج وغيرهم.

بعد اغتراب دام أكثر من خمسة أعوام عاد عرفات إلى السودان، والظروف كما هي.. عسف وتضييق. فكتب إلى أستاذه المستر هيللسون مساعد السكرتير الإداري في الشؤون الأهلية يطلب منه أنْ يسهل له سبل العودة إلى الخرطوم متعهداً بالمحافظة على الأمن العام لمدّة عامين.

وهيللسون هذا مستشرق معروف عمل مدرساً في كلية غردون التذكارية، وتقلب في وظائف إدارية مختلفة، وجاء في رسالته لهيللسون «لقد اشتركت فيمن اشترك في حركة سنة 1924 تدفعني إلى ذلك وطنيتي، ولما فشلت في مهمتي أريد العودة اليوم إلى بلادي ولا أقطع على نفسي عهداً بأنني إذا دعتني ظروف الخدمة العامّة في بلادي سأحجم عن ذلك »، عاد عرفات إلى الخرطوم لا ليقبع في داره وإنّما ليتسلل إلى المجتمعات وليتعرف على الأوساط التي طال عهده بها، ووجد في نادي الخرجين ضالته فشارك في المسرح، وشهده الناس مُخرجاً وممثلاً جيداً يؤدي دور مجنون ليلى فينتزع الإعجاب والتصفيق. وذلك في سبيل دعم المشروعات الشعبية كالمدرسة الأهلية والأحفاد وملجأ القرش، فعل ذلك دون أنْ يجرفه التحزب أو الإنتماء لغير ما هو قومي. كان نشاطه ذلك وصلاً لما انقطع بسفره خارج السودان، فقد كان يشارك في الليالي المسرحية التي شهدها عام 1924 ووجدت إهتماماً وإقبالاً عظيمين للإجادة التي تميّزت بها تلك الجماعة المسرحية من شباب الموظفين والطلاب وفي مقدمتهم صديق فريد وعرفات محمد عبدالله وعبدالرحمن علي طه.

حين عاد عرفات مكتسباً خبرات وتجارب جيدة خاصة خلال فترة وجوده في مصر، أبدى إهتماماً واضحاً بالثقافة، فتلقف فكرة محمد عباس أبو الريش لإنشاء مجلة «النهضة» وبذل وقته وقلمه في حماس أدهش الجميع وحين احتجبت بموت صاحبها أبدى جزعاً وأسفاً شديدين. كان واضحاً إهتمام عرفات بدور المثقفين كنخبة قادرة على الاضطلاع بمهمة النهوض بالوطن.

كتب المحجوب في «موت دنيا» أنّ عرفات - الذي التقاهم بعد عودته من الخارج وكانوا فتيةً أيفاعاً - كان يحدثهم عن تجربة سنوات مضت «كانت مُفعمة بالشعر والفن و بالأدب والجمال» جمعته ومهتمين آخرين، ومن المؤكد أنّه كان يحثهم على خوض تلك التجربة ليشكّلوا جمعيات ثقافية تلعب دوراً في بلورة

والإصرار وأعلن عرفات أنَّ المجلة ستركز إهتمامها على الفنون والآداب والثقافة. وأكد أنَّها لن تكون ساحة لتصفية الخلافات أو الإنحياز لنصرة حزب على الآخر. لَمْ تكنْ الأحزاب السِّياسية قد برزت بعد. وبقى لها عقد كامل من السنوات حَتَّى تتبلور الاتجاهات ويتمُّ تأسيسها، إلَّا أنَّ الخلافات بين «الشوقيست» و«الفيليست» على زعامة نادي الخريجين كانت تخيم على أجواء العاصمة.

وبعد عام من صدورها خطت «الفجر» خطوة جديدة بإعلانها الإهتمام بالحياة السِّياسية والإجتماعية في إطار ما وصفته بالتجديد الإصلاحي الرشيد. وفي محاولاتها بخلق شعور قومي وتأكيد الهوية السودانية دعت جماعة «الفجر» إلى التأسيس الفكري والإبداعي القومي الذي يتماشى مع خصوصية الشخصية السودانية ومكوّناتها الثقافية.

كانت تلك الجماعة قد قرأت الأدب الغربي بصفة عامَّة والإنجليزي على وجه الخصوص خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والأدب العربي قديمه وحديثه وتوفَّرت على معارف شتى.

وعندما صدرت صحيفة «النهضة» وتلتها «الفجر» باتت تلك المجموعة مواجهة بإبداع سوداني يرتبط بحياة الإنسان في بلادهم.. ومن وضع للأسس النقدية وكتابة للقصة والأجناس الأدبية الأخرى «في بلد إنعدم فيه الفن وخلت مجالسه من المرح» كما عبَّر محمد أحمد محجوب الذي أكَّد بأنَّ العدد الأول لـ«الفجر» ازدهى بما بين دفتيه من بحوث أدبية، وشعر جميل، ونقد اجتماعي أشبه بمبضع الجراح الذي يعرف مكان الداء فيقتلعه معجلاً بالشفاء، وما كُنَّا ننتظر المدح والثناء بقدر ما كُنَّا ننتظر النقد والتجريح. ولَمْ يخيب الناس ظننا بهم، فلم يعجب بعضهم بحث صديق أديب عن «سافو» شاعرة لسبوس اليونانية المبدعة، ولَمْ تعجب البعض الآخر نقدات «الرقيب» في صدى المجتمع. ولكننا لَمْ نضق ذرعاً بذلك، بل مضينا في سبيلنا، وإذا بصحيفة يونانية تصدر في الخرطوم تحيي

تلعب دوراً أساسياً في التأسيس الفكري وترسي تجارب عميقة متصلة بالثقافة السودانية. وقد شاركت تلك النخبة بحماس في قيادة الحركة الفكرية والثقافية التي انتهت بقيام مؤتمر الخريجين العام، وسعت تلك المجموعة إلى تكوين ذاتها بالقراءة المتصلة والمناقشات المستفيضة وألمت إلماماً عميقاً باللغتين العربية والإنجليزية وتابعت التيارات الفكرية والثقافية السائدة وقتذاك حَتَّى توفّرت على ثقافة موسوعية.

وعندما أصدر عرفات مجلة «الفجر» كان أفراد المجموعة هم كتابها وشعراؤها.. برزت ناضجة نافست مثيلاتها من المجلات العربية كـ«البلاغ»، و «الرسالة» و«السّياسة».

وإستطاعت منذ ميلادها أنْ تستقطب قراء كثيرين كانوا يتسابقون لاقتنائها. وقد كتب الأستاذ عبدالقادر حمزة - الكاتب المصري- في مجلة «البلاغ» الصادرة في الخامس من نوفمبر 1934 يقول «تصل إليّ في أوائل كلّ شهر مجلة سودانية تصدر باللغة العربية اسمها «الفجر»، وهي من المجلات العربية القليلة التي أقبل على مطالعتها بعناية زائدة وبشغف غير قليل لأسباب عديدة منها طرافة ما يعالجه كتابها من موضوعات وجودة اللغة التي يكتبون بها وجزالة الأساليب وغير ذلك مما لانجده في مجلات كثيرة تصدر في بعض بلاد الشرق العربي، وتدعي التفوق والتزعم في الأدب الحديث.

تحدث السكرتير الإداري لحكومة السودان جيمس روبرتسون عن شعار «السودان للسودانيين» في عام 1945، وقال إنّه بوفاة حسين الخليفة شريف في عام 1928 تفرقت جماعة هذا الشعار، إلّا أنّه ظلّ يعتمل في نفوس بعض الموظفين والضباط حَتَّى عاد للظهور مجدّداً بعد بضع سنوات كمصدر إلهام لجماعة من الشباب المثقفين يعرفون باسم «جماعة الفجر» كان يقودهم عرفات

محمد عبدالله الذي لعب دوراً بارزاً في اضطرابات عام 1924، ولَمْ تعد لديه أوهام بشأن مصر».

كان حسين الخليفة شريف قد كتب في صحيفة «الحضارة» خلال شهري أغسطس وسبتمبر 1920 أربع مقالات بعنوان «السودان ومصر أو المسألة السودانية» تصدى فيها لمطالبات مصر الملكية والباشوات الإقطاعيين الذين أخذوا يتحدثون بصوت عال عن حقوق تاريخية في السودان.. حقوق الفتح والسيادة! وذلك في أعقاب ثورة 1919.

جسّد حسين شريف موقفه في شعار «السودان للسودانيين». وفي أوقات لاحقه تراجع عن موقفه المتشدّد إزاء مصر ورأى «ضرورة إقامة نوع من الإتحاد بين مصر والسودان للحفاظ على الروابط التاريخية للبلدين».

كان عرفات أحد قادة حركة اللواء الأبيض قد عاد من مصر بعد سجنه في أحداث إغتيال السير لي ستاك وبعد خروج الجيش المصري من السودان إثر تلك الأحداث العاصفة التي بلغت ذروتها باصطدام فرقة عسكرية سودانية بالجيش البريطاني. وكان قد تردّد أنّ هناك اتفاقاً جرى بين قائد الجيش المصري أحمد رفعت ومجموعة من الضباط السودانيين الذين قادوا الانتفاضة المسلحة. إلّا أنّ رفعت تراجع عن الدخول في معركة إلى جانب السودانيين ضد الإنجليز وانصاع لأوامر الملك فؤاد بمغادرة الخرطوم فوراً. كان عرفات واحداً من بين عدد من المثقفين السودانيين الذين أحبطهم هذا الموقف ودفعهم للبحث عن دروب أخرى للنضال من أجل قضية السودان. وكان أبرز هؤلاء إلى جانب عرفات، صالح عبدالقادر، وعبدالله خليل.

كان كلُّ ما يملكه عرفات حين تقدَّم هو ورفاقه لاستصدار رخصة مجلة «الفجر» جنيهاً مصرياً واحداً، فصدر العدد الأول في الثاني من يونيو عام 1934 بالعزم

«أيها الناس إننا نحترم العقائد والمبادىء والأراء ونرى في اختلافها ظاهرة طبيعية بل محمودة، وليس من رأينا أنْ نقول للغير طلقوا عقولكم ولانطلب إلى أحد أنْ يقيد نفسه برأي غيره، بل إذا رأينا الأمر قد جاز حدوده المعقولة وأفسد على الناس تفكيرهم فإننا نقول.. تعالوا إلى كلمة سواء». «إننا نفهم، لو كان للفهم قيمة أنَّ الحزبين المحترمين يضم كلٌ منهما جماعة من «المجددين» إلى أفراد من «المحافظين» أو من يسمون كذلك ولَمْ أسمع مطلقاً بأنَّ الحزبين يمثل أحدهما «الشباب المجدِّد» والأخر «الكهولة المحافظة» فكيف إذن بربك نوفق بين هذا وبين التفسير الذي أقحم على مقال الأديب «س..» ما لم نكلف أنفسنا من الشطط ما كُنَّا في غنى عنه. إنَّ هذا يذكرني بتلك القصص الظريفة التي جرت مجرى المثل بين العوام عن «البغل في الأبريق» والجمل الذي طلع النخلة والوزة التي هي عنز ولو طارت». «إنَّ رأينا في «الحزبية» قد طرحناه للملأ قبل اليوم. وهو أننا نستنكرها ونرتقب اليوم الذي لانرى فيه إلَّا بنياناً مرصوصاً يشد بعضه بعضاً. وقد يسر المرء إذ يرى نيران الحرب الحزبية تخمد بعض الشيء ويرى الناس كلّ يسير في عمله، ويمضي في سبيله لا شغب ولا لجب».

هذا نموذج من كتابة عرفات وأرائه الحكيمة وسعيه لوحدة كلمة الأمة. وقد شملت كتاباته السِّياسة والأدب والاجتماع والصحافة والمسرح والاقتصاد والتعليم والفلسفة واللغة.

إستطاعت «الفجر» أنْ تصدر بصورة منتظمة حَتَّى توقفت مؤقتاً لإصابة عرفات بذات الرئة وصراعه مع المرض حَتَّى توفي في عام 1936 ولَمْ يبلغ الأربعين من عمره. كانت جرأة عرفات وشجاعته وريادته هو وأصدقاؤه الكتاب الذين لَمْ يتقاضوا أجراً قط سبباً في تحقيق تلك التجربة الثرية.

كان إلى جانب عرفات من الكُتَّاب الذين ساهموا بأقلامهم في مجلة «الفجر» محمد أحمدمحجوب ويوسف مصطفى التني، والتجاني يوسف بشير، ومرضي

مجلتنا أحسن تحية. وما صدر عدد من أعداد «الفجر» إلَّا وأعقبته ضجة في دور الحكومة وفي المجتمع. فالحكومة غير راضية عن اتجاهاتنا، ضائقة ذرعاً بما نوجّهه من نقد لسياستها. والمجمتع شاك في أمرنا لأنّه لَمْ يتعود مثل تلك الصراحة في النقد ومجابهة الحاكمين. ولا يزال يشكو من العقد النفسية.. عقد الخوف وروح الخنوع، ولهذا أصبحنا في حال لانحسد عليها، لأنَّ الحكومة تعتبرنا معادين لها، والمجتمع يحسبنا ممالئين للحكومة وإلَّا لما سكتت عنا. وكم مرَّت بنا من ظروف أطبقت علينا الحيرة نطاقاً قاتماً، إذا حاولنا نقد المجتمع والأفراد وجدناهم ضيقي الصدر لا يرحبون بالنقد وإنْ كان للصالح العام. والحكومة كصاحب البيت المبني من الزجاج ما رأت حجراً مطوحاً في الفضاء إلَّا ظنَّه موجُهاً إلى داره يقوض أركانها. وكثيراً ما فكَّر بعضنا أنْ يحطم القلم ويهجر القرطاس ويطلق الأعمال العامَّة، فأنّها لا تورث صاحبها في ذلك الجو البغيض إلَّا الإتهام والحسرة والألم.

هؤلاء كانوا يؤسسون ويدفعون ضريبة الريادة واقتحام المجهول، إلَّا أنَّهم أكدوا أنَّ عرفات كان أكثرهم إحتمالاً للأذى، وكان يشجعهم على المضي قدماً في ذلك المشروع التأسيسي ويطالبهم بعدم الإهتمام بالنقد وعدم الإحتفال بالثناء والتقدير. وقد تميَّز عرفات بالمرونة والحكمة. فكان يهدىء من ثورة الشباب إذا اشتعلت وتَبدَّى ضرامها ولكنه يذكي لهيبها إذا ما رأى الجمر يوشك أنْ يصير رماداً. وكانت إدارة الأمن العام تتابع بإهتمام بالغ ما تتناوله المجلة ولا يكفُّ جرس الهاتف عن الرنين مهدِّدين تارة ومتوعدين أخرى، وعرفات ماض بجرأته غير عابيء حَتّى حسبهم البعض على صلة بالسلطة خاصة بسبب علاقاتهم بإدوارد عطية الذي كان مدرساً بكلية غردون، وهو لبناني ماروني كان عمه صموئيل عطية يعمل في قلم المخابرات. وإدوارد هذا عُرف بعلاقاته الواسعة بالمثقفين السودانيين وقد ألف كتاباً بعنوان «عربي يروي قصته» أورد فيه تجربة

معاوية محمد نور ومشاهد من المجتمع السوداني في ذلك الوقت.

طالب المحجوب على صفحات «الفجر» بالتعبئة القومية لتحقيق الإستقلال الذاتي على الأقل إنْ لَمْ يكن هناك نصيب من إستقلال سّياسي. وحدُدت المجلة الخطوات الأولى للحكم الذاتي بتوفير الوظائف ذات المسؤولية للخريجين حَتَّى يتمكنوا من الإلمام بقضايا الحكم ومشكلات البلاد ومن ثَمَّ المشاركة بفاعلية في تقرير مصيرهم.

وهاجمت «الفجر» توجُّه حكومة الإحتلال للإعتماد على الإدارة الأهلية، وأبدت إهتماماً عميقاً بالتعليم ودعت إلى رفع مستواه ومراجعة المقرُرات المدرسية لتلبي الاحتياجات التعليمية والثقافية في المستقبل. وطالبت بتوفير التعليم العالي ليجد الفرد السوداني فرصاً أفضل في نيل الوظائف والترقي. كما إقترحت ألَّا يتلازم التعليم مع احتياجات الحكومة للموظفين وإنَّما يكون ضرورة من أجل ذاته، «لتخريج جيل مفيد حقاً وإعداد سودانيين راقين لا أشباه أفرنج». كانت الفترة التي صدرت فيها مجلة «الفجر» من أكثر المنعطفات حدة في تاريخ السودان المعاصر، حيث أعقبت أحداثاً مهمة وقعت في عام 1924 تمخضت عنها نتائج ظلَّت تؤثر بشكل مستمر في رؤى وأفكار الخريجين، وأضحت تلك المجلة المنبر الوحيد الذي إلتف حوله المثقفون كُتَّاباً وقراء حيث أتاح لهم الفرصة لبلورة آرائهم ومواقفهم ومقترحاتهم الخاصة بتنظيم أنفسهم لمواجهة قضاياهم والتعامل مع سلطات الإحتلال.

وعندما أعلنت فكرة مؤتمر الخريجين تبنتها «الفجر» وأخذت تعبِّر عنها وتتابع وقائعها وأخبارها حَتَّى قيام المؤتمر ليتوّج مشروعها الفكري والسّياسي. وظل عرفات يبذل جهوده لتوحيد كلمة الخريجين وتنسيق مواقفهم. وكان كثيراً ما يكتب ناصحاً وموضحاً كيفية الحوار وإدارته واحترام وجهات النظر المختلفة. كتب مرَّة مقالاً حول ذلك جاء فيه:

عاماً يصحبه جماعة من الفقراء، وهناك أبدى ضروباً من الكرامات كشفاء المرضى وقضاء حوائج الناس.. كان يرفع يديه فتسقط فيهما الدنانير فيوزعها لطالبيها. ولكن حدث أنْ رجلاً من الأشراف في مكة دعاه ليستعين به في شفاء أمه ولما رأى خوارقه حاول أنْ يسلبه مكنونه.. ولما أنْ أعيته الحيلة وصف له كنزا في السودان ليفتنه بالدنيا. ولما عاد إلتمس الكنز فوجده ومن ثَمّ إتسع رزقه.. فكثرت مواشيه وكلف بها خمسمائة من مريديه يركبون الخيل ويحملون السيوف المزينة بالفضة ويقيمون في قرى منفصلة لكثرتهم.. وشيد زريبتين للماشية ليذبح منها للأضياف في كلّ صباح إلاّ أنّهما لاتفتآن تمتلئان كما كانتا.

ذكر الشيخ عبدالصادق ولد حسين أنّه حدث أنْ زار الشيخ حسن في بلدته.. إلاّ أنّه لَمْ يجده حيث كان يتعبد في الخلاء، فلما انتظره لأيام سمع ذات صباح هرجاً ومرجاً والنساء يزغردن، خرج الجميع يشاهدون عودة ذلك الشيخ الذي وصفه بأن كان قصير القامة، أصلع، إلاّ أنّ له ذؤابات من الشعر مضفورة.. يرتدي ثوباً من الدمور ويحمل عصا في يده. رآه يشق الجمع حَتّى يلج الحوش. وفي أول المساء ضربت الطبول.. وفرشت سجادة رومية على الدكة أمام الديوان.. وخرج إلى الناس يسلم عليهم ويقضي حوائج المحتاجين منهم. وفي ذلك المجلس عرضت عليه فتاة مريضة فطلب أوقية من الذهب مقابل شفائها.. ولمّا جيء بها طلب من أمها أنْ تلبسها رحطها وأمرها أنْ تقوم فترقص وتلقى بغدائرها فوق أحد حيرانه الجالسين.. كان ذلك الشاب قد أسرّ قولاً في نفسه بلغ أمره الشيخ الذي ردّ عليه بذلك وأشفعه قولاً يؤكد حظوته عندالله.. حَتّى أخجل الشاب. وفي ذلك المشهد أيضاً طلب من رعاة الضأن العاملين معه أنْ يطلقوا الحملان ترضع ما تشاء.. ومن ثَمّ ينهضون للحليب، وبعد ذلك تبقى من اللبن بعد اكتفاء صغار الضأن ما يبلغ ثمانية عشرة ويبة- وأظنها القرعة الكبيرة أو البرمة.

محمد خير (ميمان) والأخوان محمد وعبدالله عشري الصديق والسيد الفيل وجمال توفيق بدوي، وصالح عبدالقادر والهادي العمرابي وغيرهم.

4 ديسمبر 2001م.



سير لي ستاك (إلى اليمين)

الطبقات..

بين غرابة الوقائع وعذوبة النص

«قال: ياكوفي أنا في الخلوة راقد، رأيت نجمة كبيرة في السماء تعلّقت بها روحي وخرجت من جسمي، فطارت، فخرقت السموات السبع، فسمعت صرير الأقلام، فلو كان ياكوفي بعد محمد نبي تنبأت، ثُمّ رجعت فوقعت في جزيرة من جزاير المالح فجاءني رجل لابس كسايين من صوف فلقنني اسمي ومشى معي خطوتين وجابني في قوز الصغيروناب فوجدت الشيخ الزين في الدرس ومعه ثمانية طلاب فلمّا قابلتهم رطنت رطانة عجمية.. فتركوا القراءة، ثُمّ رجعت فوجدت رواسي عنده مركب، فأدخلني فيها، فجئت طالباً خلوتي فوجدت أبي في ساقيته فخاطبني، أقعد يا فقير لامن ننزلك.. الخلوة فيها فقير مختل بنفسه.. فدخلت خلوتي فوجدت ياكوفي جثتي في الجبة إنْ تنشروها بالمناشير ما تتحرك فماعت لها روحي فدخلت فيها».

هذه التجربة الباطنية الغرائبية الفذّة وهذه اللغة البديعة الفخمة التي اتسقت مع محتواها وتجوهرت في نصها خطها الشيخ محمد النور ضيف الله قبل قرنين كاملين من الزمان وصف بها تجربة الشيخ حسن ودحسونة ضمن مؤلفه الباذخ كتاب «الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان».

بعد فراغه من خلوته إرتدى الشيخ حسن ثيابه الخشنة المصنوعة من لحاء العشر والتي أدمت إهابه وتركت فيه أثرها من القروح. حجّ الشيخ حسن إلى بيت الله الحرام وساح في الأرض من الحجاز إلى مصر والشام حوالي إثني عشر

وقد سلحهم بالبنادق.

هذا الكتاب رغم أنَّ تأليفه تَمّ قبل مائتي عام.. وتناول أحداثاً تواترت عبر الروايات الشفهية وحدثت قبل كتابتها بمائتي عام أيضاً.. ورغم أنّه اشتمل على كثير من المبالغات.. إلّا أنّه يكشف عن معلومات ثرية ومهمة عن حياة السودانيين الدينية والعلمية والأدبية والسّياسية والإقتصادية.. ويقدم المؤثرات الحقيقية التي أسهمت في تكوين الشخصية السودانية المعاصرة.

تغلبت اللهجة العامية على الفصحى في كتابته، إلّا أنّها لغة حيّة وغنية ومشحونة بالدلالات الموحية. وعلى الرغم من إكتشاف بعض الوثائق والمؤلفات التي أرخت لعهد الفونج.. وهي الفترة التي تناولها الكتاب - فإنَّ «الطبقات» ظلَّ يجسّد الأسس المعرفية الحقيقية التي لا يستطيع الباحثون تجاوزها. وكان أول من أرشد إلى قيمة كتاب «الطبقات» واعتمد عليه هو الشيخ أحمد بن الحاج أبوعلي، كاتب الشونة، ومؤلف كتاب «تاريخ ملوك السودان» أو «مخطوطة كاتب الشونة»، وقد حظي هذا المؤلف بإهتمام عدد كبير من الباحثين والناشرين أمثال ماكمايكل، وهيللسون، وسليمان داؤود منديل، وعلي عبد الرحمن الأمين وعبد العزيز أمين عبد المجيد، ومكي شبيكة، وعبد المجيد عابدين، وهولت، وعلي محمد علي، ومحمد محجوب مالك، وحسن الفاتح قريب الله.

وتعكس مادة «الطبقات» أنَّ مؤلفه ود ضيف الله رغم ثقافته الواسعة لَمْ يكن مؤرخاً بالمعنى الدقيق المعاصر، إلّا أنّه كان مرآة صادقة وسجّلاً حافلاً لما حدث في عصره من أخبار وأحوال راوياً أميناً لكلّ ذلك.. وكان دافعه لتأليف هذا الكتاب دعوة من بعض زملائه طلبوا منه أنْ يؤرخ لملك السودان وأنْ يذكر مناقب الأولياء والأعيان.. فآثر أنْ يقتدي بمن سبقه من المحدثين والفقهاء والمؤرخين ممن تناولوا هذا المجال وألفوا في التأريخ والمناقب أمثال عبد الغافر النيسابوري، والسيوطي، وابن حجر العسقلاني، والشيخ أحمد المقري. ولا

وفي مشهد آخر رواه الفقيه عبدالصادق أيضاً يصف إحدى أماسي شهر رمضان في حضرة الشيخ حسن ودحسونة.. وكأنّه يصف إحدى ليالي ألف ليلة وليلة، قال إنّ مئة وعشرين جارية جئن يلبسن أفخر الثياب ويحملن أقداح طعام. كانت كل واحدة منهن تلبس سواراً من العاج يحيط به سواران من الفضة، وكل جارية تتبعها أخرى صغيرة في أذنيها قرطان وترتدي ثوباً «دردبيسي» وتحمل صحناً، وكل جارية تمشي وراءها أخرى وفي معصمها سوار من الفضة وترتدي فردة منير وتحمل قرعة. وجلس هذا الجمع الغفير من الفتيات أمامه وأخذ يوزع الطعام على الناس، فتنهض كل جارية تحمل إناءها وتقدّمه للضيوف حتّى فرغ من الجميع. بقيت جارية واحدة قامت بوضع قدح وصحن وقرعة أمام الراوي ولد حسيب.. ولما كشفت أغطيتها وجدوا فيها ديكين وفرخي حمام وعصفورين. وقال الشيخ حسن «إنّ فطورنا هذا المساء كله دجاج مربوط على الزبدة لمدّة تسعين يوماً». ولما جيء بفطور الشيخ نفسه رأى الناس طستا ملآناً بماء (القرض) وطبقاً يحتوي على مطالة «خبيزة» مصنوعة في الرماد الساخن "الملالة" فنفض عنها الرماد وشرب ماء (القرض) وأخذ طرفاً من المطالة فته في (القرض) وأكله ثمّ تمضمض وقام للصلاة.

هذه الصورة النادرة ليست من نسج الخيال وإنّما كانت جزءاً من الواقع الإجتماعي الذي عاشه السودانيون في حوالي القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. كان هؤلاء الشيوخ أعمدة الحياة الإجتماعية وأمراءها غير المتوجين وكان بعضهم قد حاز ثراء واسعاً.. كثيرون لَمْ يفتنهم ذلك الثراء، وإنّما كانوا واحات يهوي إليها الضيوف والغرباء.. كان الملوك يحسدونهم على تلك المكانة ولا يجرؤون على مسهم حتّى لا يعطبوا.

وورد في سيرته تلك تصوير مدهش لموكب له توجّه إلى سنار تلبية لدعوة من الملك بادي ولد رباط ليعالج أخاه ناصراً الذي أصيب بنوع من الشلل «ماسكاه

غزالاً عاجناه» يخالطه نوع من الجنون، فتأهب للسفر يصحبه أناس كثيرون.. بعضهم مظاليم وآخرون مطلوبون للعدالة. كان الموكب مهيباً حيث تقدّمت أمامه ثلاثة وأربعون من الخيل العتاق مطهمة ومسرجة بأفضل أنواع السروج وليس على ظهورها فرسان.. وهو راكب جمله. ولما اقترب من سنار رآه الملك بادي فقال: إنّ هذا الفقيه أخذ ملكنا، ولَما علم الشيخ حسن بذلك طلب أنْ يبلغوه بأن ملكه هذا عرض عليه فلم يقبله. ولما أقبل على مريضه خرج الناس إلّا أمه وأخته.. اختبأتا في "القطيع"[1] فرأتا عجباً حيث قام الشيخ بذبحه ومن ثَمّ شفاه وانهضه وأخذه إلى أخيه الملك وطلب منه أنْ يجلس للناس ثلاثة أيام يقضي حوائجهم.. وقد فعل.

عاش الشيخ حسن ودحسونة حياة ثرية مليئة بفعل الخير وهداية الناس وحل مشاكلهم.. ومن الطرائف التي أوردها كاتب الطبقات أنّ خادمة اسمها مهيوبة أتت إليه ليكتب لها حَتّى تجد الحظوة والقبول لدى الناس، فكتب لها في ورقة «حموزة مهيوبة.. حمراء مقلوبة.. تلعب بها الهوبة في جزائر النوبة» فوجدت المرأة حظاً وافراً. ولما أخذتها للجلاد دفعه فضوله لقراءتها فسألها عن كاتبها فلما أبلغته قال لها إنّ الشيخ قد أساء اليك.. فانقطع حظها.

كان سبب وفاته أنه حاول أنْ يردي تمساحاً إحتجزه في حفير ولكنه توحش وكثر ضرره.. فوجّه إليه نيران بندقيته فارتد إليه البارود فقتله عليه رحمة الله تعالى. ولعل في ذلك أول إشارة لاستخدام الأسلحة النارية في السودان.. لأنّها حَتّى القرن التاسع عشر كانت قليلة العدد في أيدي بعض الناس. وحين قاوم السودانيون الغزو التركي عام 1821 كان ذلك بالأسلحة البيضاء.. ولكنها لَمْ تلبث أنْ انتشرت في سنوات الحكم التركي. وقد ورد في نفس سيرة الشيخ حسن ودحسونة أنّه إتخذ جنوداً من الغلمان الأحباش يصحبونه كالميليشيات

1. مخزن في المنزل يضم إحتياجات الطعام وغيرها.

الفارس الصوفي والشاعر الموسيقي

إسماعيل الدقلاشي

نصب الملك سايمين ود دكين نفسه ناقداً أدبياً حين وجّه اتهامه للشاعر الشيخ إسماعيل الدقلاشي بأنّه لَحْنَ في شعره، فغضب الشيخ ورد عليه بحدة «هل أخبرك بذلك شيطانك الجالس فوق رأسك؟». واحتدم الحوار بينهما إلى الدرجة التي قرّر الملك قتل الشاعر الصوفي. وهنا إنبرى له أهله وذووه ناصحين ومنعوه من التورط في سفك دمه خوفاً من أنْ يجلب إليهم الخراب. فتراجع الملك سايمين عن موقفه وشكاه إلى شيخه الفقيه محمد ود منوفلي فاعتذر عن التحدُث إليه وقال «أنا ما بقدره حافظ الكتاب وشايله الشباب». والطريف في هذه الحادثة الأدبية أنّ جميع أشكال الإبداع الفكري والثقافي في عصر الفونج كتبت باللغة الدارجة السودانية، فقد كانت الأداة الوحيدة للتعبير.. أي لَمْ يكن هناك مجال لناقد يتحدث عن اللحن في اللغة.

وقراءة النماذج القليلة من أشعار الشيخ محمد ود هدوي والفقيه على الشافعي والشيخ ود عبد الهادي والسيد ود دوليب ومكي الدقلاشي تجسّد شيوع أساليب التعبير في سودان ذلك الزمن الذي إعتمد لهجته الخاصة حَتّى جاء العهد التركي فوضع نهاية لهذا الوضع. وهناك أمثال الشيخ فرح ود تكتوك- أحد معاصري الدقلاشي - وأشعاره وحكمه، وحَتّى كتاب الطبقات - الذي وردت فيه سيرة الشيخ إسماعيل هذا تمت صياغتها كلّها في قالب العاميّة، والأهم من ذلك كله كانت شجاعة الشاعر وجرأته في تحدي الملك.

ولد الشيخ إسماعيل في القرن السابع عشر في بلدة يجبي الواقعة بين الشقيق

شك أنَّ المؤلف قد تأثر أيضاً بكتاب «الطبقات الكبري» للشعراني، فقد قال عن منهجه في الكتابة.. «وأردت أنْ أجمع هؤلاء الأعيان في معجم واحد وأذكر العلماء على حدة، وعلماء التوحيد على حدة، وقراء القرآن على حدة، والنجباء والشعراء على حدة، وأذكر الملوك والشيوخ المعتنين بأمر الدين والأعيان المذكورين، أبينهم بحروف الهجاء».

25 ديسمبر 2001م

من قريب. وكانت تنمو حوله نباتات طويلة صلبة كأنّها رماح نابتة.. تطفو التماسيح وتسبح فوق سطح الماء وتتمدّد على الشاطئ وكأنّها جذوع أشجار ضخمة.. وأفراس البحر والجواميس تختلط أحيانا بقطعان البقر الواردة إلى المشارع.. ذلك إلى جانب الحيوانات المتوحشة الأخرى كالأسود والأفيال والذئاب والغزلان.. كانت الطبيعة بكراً وسخية.

أقامت قبيلة الشلك على الشاطئين والجزر من منطقة الدويم وحَتّى أعالي النيل.. كانوا سادة المنطقة بلا منازع منعوا قبائل العرب والوافدين من شمال السودان من الاقتراب من الماء إلّا بحساب وظلّوا كذلك حَتّى منتصف القرن التاسع عشر حيث بدأوا في التراجع وإنْ بقيت بعض الجيوب حَتّى العقود الأولى من القرن العشرين.. وتبقى تفاصيل حادثة مقتل الشيخ إسماعيل جزءاً من أسرار التاريخ في ذلك الجزء من الوطن.

يحتوي كتاب « طبقات ود ضيف الله» على كنز زاخر بما كانت عليه الحياة السودانية طيلة عصر الفونج الذي امتد من أوائل القرن السادس عشر وحَتّى القرن التاسع عشر.

وعلى الرغم من أنّه مكرس لرواية كرامات الأولياء والصالحين إلّا أنّه اشتمل على مادة خصبة عن أساليب الحكم وطرائق الحياة.. كما أنّه يوضح حقائق جغرافية عن الأماكن والقرى في ذلك الزمن فضلاً عن اللغة التي كان يستخدمها الناس وقتذاك ومنها كثير من المفردات والتراكيب التي اندثرت وما عادت قيد التداول والإهتمام.

وأستطيع أنْ أجزم بأن هذا الكتاب يمكن أنْ يكون رافدا أساسياً للكُتّاب والمبدعين لإثراء وجدانهم والاغتراف من فيضه في أعمالهم الإبداعية. وأرى أنّ الكاتب الروائي الطيب صالح الذي حذق صنعته على نحو مدهش إستطاع

وعد الجم شمال غرب الدويم بالنيل الأبيض.. ويجبي هذا جبل صغير ويعرف أيضاً بجبل الشيخ إسماعيل أبو رادعة.. وكان أبوه الشيخ مكي الدقلاشي شيخاً من كبار الصوفية في ذلك العهد - ترجم له ود ضيف الله في الطبقات أيضاً.. وقد خرج في سياحة له ولَمْ يعد... كان يصحبه طفله النور الذي تَمْ العثور عليه وحده بعد حين.. أما إسماعيل فقد كان لا يزال في المهد.. وأمه هي خيرة السقرنجاوية والتي كان قد بعث بها سلطان تقلي إلى الشيخ مكي لتنجب له الأولاد الخضر الصالحين.. وتلك من سمات اختلاط أعراق الامة السودانية. ولما شبٌ عن الطوق حفظ إسماعيل القرآن على الفقيه محمد ود منوفلي خليفة والده.. وتعلم الفقه والتوحيد على الشيخ مختار بن جودة الله (شارح الأخضري) وشرع في تدريس الرسالة والتوحيد والقرآن.

برز الشيخ إسماعيل في كتابة الشعر وألف قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم... كما ألف كتاباً في الطريقة وآداب الذكر.. وبالإضافة إلى ذلك له أشعار في الغزل الصريح.. تغزل في تهجة وهيبة بلغة حسية مباشرة لا يقدم عليها إلّا من له قدم راسخ في علم الباطن.. وجاء في كتاب الطبقات أنّ زوج هيبة خاف عليها و «قنجر» بها إلى جبال تقلي.. وقنجر مفردة مندثرة تعني أنّه خرج ولَمْ يعد.. ويرى ود ضيف الله أنّ الشيخ إسماعيل من الملاماتية.. وهي فرقة من الصوفية تخالف الشرع ظاهراً توبيخاً وهضماً للنفس. ولربما كان ذلك مثل ما فعل الشيخ محمد الهميم الذي تجاوز الأربع في الزواج الشرعي وجمع ما بين الأختين.. ورغم معارضة القاضي دشين أصرّ على موقفة بإعتباره مأذوناً له. ولا يخرج الأمر عن شطحات الصوفية في حالات جذبهم وخروجهم عن المألوف.

وتحس في أشعار الشيخ مكي إحساساً عميقاً بالطبيعة والحياة.. فتجده يحب المطر ويتوق لهطوله المتواصل «صب مطر الصعيد يا ليته عايد»، ويقول « صب مطر الصعيد وصاح المغرد»... إهتم بتغريد الطيور وتغيرات الطقس وهبوب

الرياح الباردة العليلة من الجنوب.. ذلك غير ما تعكس قصائده القليلة أحوالاً مختلفة من الحياة الإجتماعية في ذلك العصر.

إلّا أنّه يبقى أهم ما يتميّز به الشيخ إسماعيل هو قدرته العبقرية على العزف، حَتّى أطلق عليه لقب صاحب الربابة.. وهي الطمبور - وعلى الرغم من وصف «الطبقات» لقدراته هذه والذي لا يخلو من مبالغة إلّا أنّنا لا نملك إلّا أنْ نتوقف أمام ظاهرة موسيقية مدهشة «حينما يعزف على الربابه تصدر نغمات يفيق منها المجنون وتذهل العقول وتطرب الحيوانات والجمادات وحَتّى أنّ الربابة حينما يضعونها تحت وهج الشمس تعزف على نغمات صوته دون أنْ يمسها» ونقل عن تلميذه الفقيه أبو النور الرياشي أنّه كان يهتم بالرقص حينما تأتيه حالة الجذب الصوفي فيستدعي العرائس والعرسان ويعقد حلقة في فناء داره ويعزف تلك الألحان الشجية. كما أنّ فرسه «بنت بكر» قد تعلمت ما يشبه الرقص.. فكان حين ينشدها مرتجزا «بلغة الحرب»: «بنت بكر المردا: سلطية العرضة». كانت تحرك جسمها وتجلس وتنهض وتقرب رأسها من رجليها الأماميتين.. وتدهش الحاضرين بتلك الحركات الإيقاعية... والواضح أنّ الشيخ إسماعيل كان يهتم أيضاً بمظهر السلطة، فحواريوه يحيطون بموكبه يحملون القسي والسهام.. تكاد لا ترى فرسه من كثرتهم يهللون بأنغام جميلة ويثير الموكب حماس الجميع فيصحبونه ويرددون التهليل.

ولمّا عاد من سنار في شفاعة لدى البلاط الملكي عبر النيل الأبيض في مشرع أليس- الكوة الحالية - وثب عليه جماعة من قبيلة الشلك وقتلوه.. وكان لمْ يتجاوز الأربعين من عمره بكثير.. وقد اكتفى ود ضيف الله بهذا القدر من النهاية المأساوية لهذه الشخصية الأسطورية والعامرة بالمآثر الجليلة.

والنيل الأبيض كان غير النيل الذي نراه الآن.. كان بحراً عريضاً يغص بالجزر وتحيط به أدغال كثيفة وأشجار عملاقة. كان أمازوناً أفريقياً تكاد لا ترى الماء إلّا

يتمنى أنْ يبزهما.. وتضم المجموعة أطايب ما جادت به قرائح المبدعين السودانيين منذ السلطنة الزرقاء وحَتّى سنوات الثمانين من القرن العشرين، كأنّها باقات من أزاهير الربيع أو خريف كردفان في ذلك الزمان السخي السعيد.. كأنّما أراد عثمان أنْ يوقظنا- نحن النوام- على حقيقة قدراتنا الإبداعية كأمة حيّة.. توالت الحضارات في مفاصلها وما اعتراها الآن سوى إنقطاع مؤقت ووهن عابر.. ذهابه بعد حين.

كان عثمان يكتب مجلته هذه بخط يده وأحياناً بماكينة الكتابة. يتصل بالكُتّاب والمبدعين يدعوهم للكتابة وإرسال كلّ جديد أنشأوه وينقب في التراث ويهتم بالوثائق. وحين إعتزم إصدار عدد بمناسبة عيد الإستقلال في الأول من يناير 1981 قال «ولجأت إلى المظان والمصادر بدأت بجرابي- وهو كجراب الحاوي- يحتوي على بعض قصاصات ومخطوطات مما عكفت على جمعه منذ أنْ كنت يافعاً. وما أنفك أفعل وإنْ بلغت سن النبوة دون رشدها! وبدأت بمخطوطات شعر المرحوم يوسف مصطفى التني.. وهي أشعاره المتأخرة والتي لَمْ تنشر في ديوان بعد، كان ابنه الطالب الفتى- آنذاك- قد تحنن على بصور منها.. كان ذلك قبل أنْ يصبح الأخ أحمد رئيسي الذي به إئتمر ولقراره انصاع .. فتأمل ! ولاتحسبن نشر بعضها ضرباً من رشا!! فشعر التني تهتز له القلوب وتطرب.. ولَمْ اختر شيئاً من شعره السّياسي. اكتفيت بأنّكم - أجمعين- تحفظون شيئاً من (في الفؤاد ترعاه العناية).

و«كان قد أهداني الصديق العمرابي مخطوطة أصلية لقصيدة لعمه المرحوم الهادي العمرابي يمدح مولانا السيد علي الميرغني، وقد كتبت في عام ميلادي (!!) فاستهواني ذلك ولا أظن أنّها نشرت قط.. فرأيت إثباتها لقيمتها التاريخية، ولتعبيرها عن وجدان الناس آنذاك».

ويواصل عثمان حديثه فيقول «ثُمّ لجأت إلى الأدب (المعلب)»!! ومتى يا ترى

أنْ ينهل من معين تلك المناخات التي حفل بها الكتاب ويوظفها بشكل بارع في أعماله وخاصة في«مريود» و«بندر شاه». كما أنّ هناك عدداً من مبدعينا تناولوا سيرة شخصيات وردت في الكتاب وأبدعوا نصوصاً ذات إعتبار. وقد كتب الشاعر الراحل الدكتور محمد عبدالحي شعراً جليلاً تناول فيه شخصية الشيخ إسماعيل صاحب الربابة، وحاول أنْ يقارب بين تجربته وأسطورة أورفيوس اليونانية.

كان الكاتب الأرجنتيني بورخيس يتحدث دائماً عن كتاب « ألف ليلة وليلة وتأثيره عليه في الرؤية الإبداعية وكتابة النص. ويعلن دائماً أنّه لا يستطيع أنْ يحصي أو يقدر عدد المرات التي قرأ فيها الكتاب. فقد كان بالنسبة إليه كتاباً مفتوحاً يقرأه في كلّ حين، ثُمّ لا يلبث أنْ يقرأه ويقرأه.

ومع إختلاف النوع والمقدار والجنس الأدبي لا يقل كتاب الطبقات قيمة عن «ألف ليلة وليلة» للكتاب الراغبين في تطوير رؤاهم الإبداعية، وتظلّ سيرة الشيخ إسماعيل صاحب الربابة الأكثر سطوعاً في هذا السفر الرائع.

سهرت معه تلك الليلة

عثمان حسن أحمد



في تلك الليلة بلغ بي السهاد مبلغاً ولجَّ النوم في العناد.. فنحن معشر العاملين في مجال الصحافة يروق لنا السهر.. فحين ينقضي دوامنا في أو بعد أو قبل منتصف الليل بقليل ينتابنا إحساس التلميذ الصغير في نهاية اليوم الدراسي أو آخر الأسبوع.. إحساس بالحرية لا مثيل له.. نحس وكأن يومنا قد بدأ لتوه.. نقرأ ما فاتنا في صحف اليوم ونتابع المواضيع السّياسية وربما مقالات ثقافية أو فكرية مما يكتبه أضرابنا المكتوون بلعنة الكتابة وهمومها.. فقد قيل إنَّ الشاعر والصحافي المصري المعروف كامل الشناوي كان قليلاً ما يرى الشمس.. يغفو قبل شروقها بقليل ويخرج من منزله بعد الغروب.. وحين تمادى الأرق تناولت مجموعة «أضواء» التي كان يصدرها عثمان حسن أحمد من واشنطن حين كان يعمل مستشاراً ثقافياً لسفارة جمهورية السودان.. ظلّت المجموعة تلازمني منذ أنَّ أهداني إياها صديق الطرفين الأستاذ محمد ميرغني بركة في عام 1984. ففيها عزاء للنفس حين أتصفحها فأجد فيها إفتتاحيته المشرقة بلغتة الموجزة المعبِّرة وكلماته المنتقاة الباذخة.. وكأني به يجاري عبدالحميد وابن العميد..

وعندما كبرنا وشببنا عن الطوق صادقناه وأصبحنا ننفق أعذب ساعات فراغنا بصحبته هو وأساتذة لنا أجلاء آخرون.

كان عثمان حسن أحمد مبتهجاً خلال ذلك النهار الوضيء في خرطوم تلك الأيام. إستهوتني طريقته في الحديث عن «دراهمه» التي كان يودعها في شكل أسهم في تلك الشركة، كان يتقصى أرباحه.. وظلّ يمازحني حين علم أني في زيارة لمخطوبتي التي وصفها بسليلة الأمراء متجاهلاً أني انحدر من نفس تلك الأرومة. ما كان يمهلني لكي اتحدث وأرد على دعاباته الساخرة.. كان يتحدّث ويتحدّث ويشيع مزيداً من البهجة والحبور.

نشأ عثمان في حي أبوروف وبدأ تعليمه في خلوة الشيخ سليمان، ثُمَّ التحق بمدرسة أبوروف الأولية فأم درمان الأميرية الوسطى فمدرسة وادي سيدنا الثانوية التي فصل منها في عامه الدراسي الثالث لنشاطه السّياسي، وجلس لامتحان الشهادة الثانوية من المدرسة الأهلية بأم درمان. التحق عثمان بالعمل في وزارة المعارف معلماً بالمدارس الوسطى فبدأ بمدرسة أبوعشر ثُمَّ تَمَّ إختياره للتدريب في معهد بخت الرضا «كورس السنتين» لنيل الدبلوما وهناك التقى بأستاذه الدكتور أحمد الطيب أحمد، الذي كان في ذروة عطائه التربوي والثقافي ومحاولاته الدؤوبة لوضع اللبنات الأولى للمسرح. وكان قد عاد من لندن بعد أنْ نال شهادة الدكتوراه في المسرح العربي وأخذ يكتب في مختلف المعارف في الصحف السودانية ويترجم المسرحيات والأعمال الأدبية المهمة. انعقدت أواصر صلة حميمة بين التلميذ وأستاذه، وظلّ عثمان وفياً لذكرى الدكتور أحمد الطيب، لا يفتأ يذكره ويكتب عنه عقب وفاته الفاجعة. وإستطاع بعد جهود شاقة أنْ يجمع أعماله في «أصوات وحناجر» كما أسلفنا القول، ولولاه لذهبت تلك الأعمال بدداً.

عندما تَمَّ إنشاء معهد المعلمين العالي بأم درمان لتخريج معلمين ومعلمات

يعلبون شعر الشعراء في أشرطة تباع كما تفعل الفرنجة!! وكان أستاذي وشيخي الشاعر الفحل محمد عبدالقادر كرف قد تكرم عليّ بتسجيل شيء من شعره. وهذا جزء من أفضاله الكثيرة عليّ.. فاخترت رائعته في رثاء السيد عبدالرحمن المهدي.. ثُمَّ لجأت إلى شريط رائع يحتوي على مقامات المرحوم محمد حاج حسين.. وتلك تحف وروائع، ولكن أغلبها يحتاج لحواش تشرح الأسماء والمناسبات والأحداث. فاخترت طرفاً من مقامته (المعاش الإختياري)، وكان بودي أنْ أنشر طرفاً من مساجلات زقودة وود المادح.. ترى هل يعرفها جيل البطولات هذا؟! وتلك أروع المعارك الأدبية في تاريخ السودان المعاصر.. هما المرحوم محمود الفكي وعبدالحليم علي طه.. وكانا يتساجلان بالشعر القومي الجيد. فزقودة يتعاطف مع (الأشقاء) والأستاذ عبدالحليم مع حزب الأمة. وكان بينهما ود يؤكد أن الخلاف لا يفسده.. ولدي قدر وفير من قصائدهما.. ولكنها تحتاج إلى جهد كبير لإعدادها وحزّ في نفسي ألا أوفق في نشر بعض أعمال كثير من المبدعين.. شعراء وكتاب لسبب أو آخر.. أخص المرحوم الشاعر شيبون – حنجرة الشعب- كما أسماه صلاح أحمد إبراهيم».

حديثه هذا عن محاولاته التحضير لعدد واحد خاص من مجلته «أضواء».. وهكذا كان يفعل في كلّ ما يحاول من عمل كجمع وثائق أو كتابة موضوع، أو كتاب مثلما فعل حين جمع وحقق كتاب «أصوات وحناجر» الذي جمع فيه معظم أعمال أستاذه المرحوم الدكتور أحمد الطيب.. ونسج قصة طريفة عن معاناته في سبيل جمع تلك المادة والتقى أشخاصاً غريبي الأطوار ممن كانوا ذوي صلة بالدكتور أحمد الطيب الذي كان كلفاً بكلّ ما هو غريب واستثنائي.. رسم لوحات ساخرة من تلك التجربة، ستكون موضوع حلقتنا الثانية من هذا المقال في الأسبوع المقبل حَتَّى تسعد القراء وتعكس شيئاً من الروح المرحة والفكاهة التي تميَّز بها عثمان.

وقد اشتهر عن عثمان إيثاره للكتاب «الدراج منه والنادر والوثائق، التي ظلّ يهدي دار الوثائق منها المجموعة تلو المجموعة من وثائق الحركة الوطنية وغيرها التي كان ينقب عنها ويرصدها وينفذ إليها بعشق عارم للوطن وتاريخه. وقد كرمته دار الوثائق القومية مراراً وفاء لما قدمه إليها وترأس أيضاً لجنة الوثائق الأصلية بتلك الدار.

كان ذلك منسجماً مع نشأته في بيت يغص بالكتب والمعارف والذي كان جزءاً من الحركة الوطنية والفكرية التي انتظمت البلاد بعيد أحداث ثورة 1924. فقد كان أبوه وعمه حسين «الكد» في مقدمة المثقفين الذين أنشأوا جمعية أبوروف الأدبية الفكرية المعروفة، والتي ساهمت هي ونظيرتها جمعية الهاشماب في تشكيل الوعي المعاصر.

كنت قد سمعت كثيراً عن عثمان وخفة ظله وحضوره المشرق من جمهرة الأدباء والمثقفين.. إلّا أنني التقيته مرُة واحدة.. وكان عائداً من إنجلترا في عام 1983، وذلك في مكاتب شركة الصمغ العربي، حيث كانت تعمل زوجتي. وكُنّا مخطوبين وقتذاك. كانت تلك الشركة في عنفوان عزها وعافيتها يقودها مديرها الهمام.. الإداري الحاذق والرجل المثقف عثمان محمد الحسن الذي حين كان يطل بسمته الوقور وبشاشته الدائمة يشيع إحساساً بأن الوطن لا يزال في خير. تعرف عليّ عثمان في لحظات فقد كان يجمع بيننا أصدقاء مشتركون أبرزهم الأستاذ محمد ميرغني بركة الذي زامله في ثانوية وادي سيدنا والذي تشرفت بالتتلمذ على يديه بمدرسة كوستي الأميرية الوسطى- رعياً وسقياً لأيامها الناضرات الذاهبات- يدرسنا اللغة الإنجليزية، وكُنّا جد مأخوذين بأسلوبه المختلف ومزاجه الذي كان يبدو حاداً والذي يبعث فينا شعوراً بأنّه كمن يتفضل بالدروس علينا. وذلك مع قدراته الواضحة التي لَمْ تخطئها عيوننا.. فكُنّا نخشاه ونحبه وننسج قصصاً طريفة حول أسلوب حياته المترف وأناقته المفرطة..

للمدارس الثانوية إلتحق به عثمان وتخرج ليعمل معلماً للغة الإنجليزية، ومن ثَمَّ تَمَّ إختياره لبعثة دراسية في إنجلترا حصل فيها على درجة الماجستير في اللغة الإنجليزية بجامعة ليدز برسالة عن أدب الروائي النيجيري آشينو آشبي. وفي أواخر سنوات السبعين تَمَّ إختياره ليعمل ملحقاً ثقافياً بسفارة السودان بالولايات المتحدة. ويرجع لعثمان الفضل في إنشاء جمعية الدراسات السودانية النشطة في أميركا. عاد عثمان إلى السودان في عام 1983 وانتدب سكرتيراً أكاديمياً في معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، وانتهى انتدابه في عام 1987 وعاد إلى وزارة التربية والتعلم.

وفي أثناء عمله في الملحقية الثقافية بواشنطن نشر عثمان ببلوغرافيتين.. الأولى تضمنت الرسائل الجامعية التي كتبها سودانيون أو تلك التي بحثت مسائل تتعلق بالسودان في الجامعات الأمريكية، أما الأخرى فهي عن الأفلام الوثائقية والاثنوغرافية عن السودان. ذلك بالإضافة إلى نشرته الثقافية «أضواء» التي ضمنها منتخبات من الأدب والمعارف السودانية. انتقاها بذوقه الرفيع يعينه إطلاعه الواسع العميق. كما صدرله كتاب عن الأستاذ إبراهيم أحمد، أحد أبرز المعلمين الذين درسوا في كلية غردون ثُمَّ كلية الخرطوم الجامعية. كما كان من أهم الشخصيات الوطنية التي ساهمت في تكوين مؤتمر الخريجين العام والذي ترأسه في عدد من الدورات. وساهم عثمان بعدد من الترجمات في مختلف المواضيع. وقد توفاه الله في عام 1988، وكان لا يزال في الثالثة والخمسين مبكياً على خلقه النبيل وشخصه الودود ووطنيته المشبوبة وشغفه بالعلم والمعرفة فله الرحمة.

5 مارس 2002

قصص ونوادر مع «أصوات وحناجر»

كان الراحل الأديب عثمان حسن أحمد يمزج بين الجد والهزل في كلّ ما يحاول.. تحركاته الديناميكية تلك كانت تتسم بالفكاهة والعبث. ولكن إذا علمنا أنّ محاولاته لجمع أعمال الدكتور أحمد الطيب وترتيبها وإعادتها زادت على عشر سنوات لتملكنا العجب من تلك المثابرة وذلك الإصرار.. وأخيراً نجح وصدر كتاب «أصوات وحناجر» الذي اتسم بالثراء والتنوّع والمتعة الجزيلة. والكتاب مقسم إلى عشر فصول تتناول الأدب والمسرح والمجتمع والتعليم وغير ذلك. يروي عثمان أنّه حين أرتاى جمع تلك الأعمال التي ضمنها الكتاب اعتزم الإتصال بكلّ من كان ذا صلة بالمرحوم حَتّى يتسنى له الحصول على أيّ أثر من آثاره للتعرف على حياته وإنتاجه.. فلقي من بعضهم عوناً عظيماً ومن آخرين صداً وعزوفاً.. وكان البعض يراوغ ويماطل.. والبعض الأخر يدلي بأحاديث طريفة وأخرى موغلة في الغرابة.

ولقي واحداً مرّة في السوق فاستوقفه يطلب ميعاداً ليلقاه، إلّا أنّه انتهره قائلاً:« انت مش جاد أبداً» وانصرف عنه إلى سيارته غاضباً. واغتفر له عثمان ساخراً بأنّه لا بدّ أنْ يكون محقاً فاستيقافه في الطرقات العامّة أمر تنقصه اللياقة والكياسة.

ثُمّ زار صديقاً آخر وسأله عن إنتاج أحمد فقال له:« إنّ أحمد لَمْ يكتب كثيراً.. وحينما فعل كانت كتاباته مخيبة للآمال ودون ما توقع الناس.. ألا تذكر مقالاته في «الأيام» عن الخضار والكلام الفارغ». وذكر أيضاً أنّ أحمد كان كثير المشروعات يتحدث عنها ولا ينفذها. وضرب مثلاً بموضوع الكتابة للأطفال..

ثُمَّ قال: «وكان مزاجه غريباً.. فقد كان يصادق العامَّة، وأذكر مرَّة أنَّه صادق واحداً أظنه أسطى في المنطقة الصناعية. وكان أحمد يزور هذا الرجل ويأتي به أحياناً لأصدقائه، وكل ما استهواه في ذلك الرجل هو استعماله الخاطىء للغة.. حاجة غريبة.. غريبة». وقال عثمان إنّه تذكر ذلك الرجل حين لقي سر الختم الخليفة الذي حدثه كثيراً عن أحمد الطيب وروى له نادرة كان يضحك لها أحمد كثيراً فقال «من عادة بعض الإخوة الجنوبيين أنْ يتناولوا الجعة المحلية في أيام العطلات ثُمَّ يتوجَّهوا لبائع الأظلاف أو «الضلافين» فيقول الواحد منهم: بالله أديني بوت بتاع بقرة و«البوت بالإنجليزي هو نوع من الأحذية». وظلَّ أحمد يسمى الضلافين بوت بتاع بقرة». وعلق سر الختم الخليفة علي تلك الحادثة بأن طريقة استعمال الناس للغة كانت من إهتمامات أحمد ومصدراً لتندره وضحكه.. يستخدمها أحياناً في كتاباته.

والتقى عثمان بالمرحوم الأستاذ محمد أحمد عمر في داره التي يصفها بأنَّها كانت تعج بالناس من كل ملة ودين.. وكانت ملتقى لأهل الشأن طيلة ربع قرن من الزمان.. وقد توفاه الله بعد أنْ عانى من المرض طويلاً ووحيداً حيث انفض ذلك السامر وذاب. فحدث عثمان بأنَّهما كان يجلسان في كنبة واحدة في حصة الرياضيات بالكلية القديمة. وما كانت تلك المادة تروق لهما.. فما أنْ يبدأ المدرس بكتابة المسائل العويصة على السبورة حَتَّى يخرج أحمد ديوان العقاد- الذي لا يفارقه- ويتراهنا على حفظ قصائده.

أما الأستاذ بشير محمد سعيد فقد حدَّث عثمان بقصة لاتخلو من طرافة وقال «حين كُنَّا في المدارس العليا كنت أستثقل أحد الزملاء وأحمل عليه وأتناوله بالقدح.. فقال لي أحمد مرَّة:« مالك تشغل بالك بيه؟ فلان زي ملاح أم رقيقة لا يضر ولا ينفع فما لك بيه..».

أما أظرف هؤلاء جميعاً -كما ذكر عثمان- فهو شاب قيل إنَّه من تلاميذ أحمد

الطيب الذين أحبهم، وكان هادئاً صامتاً لا يتحدث إلّا قليلاً وفي صوت لا يكاد يسمع.. وكان وئيد الخطو بطيئة، يسكن في مكان بعيد.. ولكم أشقاه بملاحقته ومراوغته التي لاتنتهي. وظنه كان يضيق بيوم الجمعة فكلما لقيه سأله أنْ يلقاه بداره يوم الجمعة المقبل.. وعده بأشياء كثيرة من آثار المرحوم يحتفظ بها ولكنها تحتاج إلى بحث وتنقيب «حَتّى كأنّها البترول»... وما أنْ يقرع الباب إلّا ويدب دبيباً ثُمّ يفتح الباب في بطء وهدوء.. ثُمّ يسلم عليه سلاماً طويلاً كثيراً لا حرارة فيه ولاجفوة ولكنه فاتر.. يلح عليه في الدخول ثُمّ يصر على تناول الفطور الذي يتأخر كثيراً كثيراً. والرجل قليل الكلام، كثير السهو، بارع في التزويغ عن الموضوع الأساسي.. الذي من أجله أتى عثمان.. متمكن من خلق المعاذير التي يرويها في قصص محبوكة لا تمتلك إلّا أنْ تصدقها.. يحكيها في تؤدة الشيوخ وصبرهم.. وينقضي يوم الجمعة دون أنْ ينال منه إلّا وعداً صادقاً بإيفاء العهد في المرّة التالية.. فشرب مقالبه وأكل فطوره جمعات.. ومن ثَمّ أدمن زياراته حَتّى رحل عن الدار دون أنْ يحصل منه على شيء غير وريقة زعم أنّها بخط الفقيد.. إلّا أنّ عثمان أعرب عن يقين أنّها مُزورة. ولَمْ يلبث أنْ رحل عن الدار فجأة وانقطعت صلته به.

ومن تلاميذ الدكتور أحمد الطيب واحد أنكر احتفاظه بأيّ أثر من أعماله، إلّا أنّ عثمان فوجيء بأنّه أعار مسرحيتين من ترجمة أحمد لطرف ثالث فأضمر خطة نفذها بحذافيرها. فلما أزمع صاحبنا السفر في بعثة قصيرة إلى الخارج أخذه عثمان إلى المطار بسيارته وودعه، ولما تأكد من مغادرته عاد إلى منزله وأبلغ زوجته أنّه يبحث عن أوراق تخصه فوجد أربع مسرحيات من ترجمة الدكتور في الدرج الأسفل من خزانته وأخذها وقضى منها وطره وأعادها وكأن شيئاً لَمْ يكن.. حيث إنّه لَمْ يفاتحه في الأمر من بعد.. وعلق على ذلك بسخريته المريرة «فكلانا سارق وإنْ تعدّدت الدوافع».

ذكر عثمان أنّه كتب لأكثر من ستين شخصاً تكرم بالرد عليه أقل من ثلثهم بقليل. وراسل مؤسستين بريطانيتين وكتب إلى أربعة من الفرنجة فردوا عليه أجمعين. ولَمْ ينس أنْ يعلق ساخراً بقوله «فالحمد لله الذي جعلنا من القوم المسلمين».

ونقل عثمان أطرافاً من الرسائل التي تلقاها.. فقد كتب الأستاذ عثمان سليمان- من تلاميذ وزملاء المرحوم- يقول:« وأذكر أنّه كان يحاضر في نادي الكورسات محاضرته المشهورة عن (ماهو الشاعر؟) فقال أحد الحاضرين معقباً- لقد خانك التعبير يادكتور- فرد عليه في حياء وتواضع جم: ألست من البشر، فسبحان الذي وهب داؤود الحكمة وفصل الخطاب».

أما السيد إبراهيم نمر - محافظ بنك السودان الأسبق- والذي عمل معلماً ببخت الرضا في وقت سابق فقد كتب يقول عن أحمد الطيب:« إنّ روح الدعابة والمرح كانت متمكّنة منه، فمثلاً عندما أجازت الحكومة مشروع المعونة الأمريكية ووصل ذلك في نشرة رسمية علق عليها بقوله «للعلم والابتهاج». وكتب الأستاذ جمال محمد أحمد يقول:« وأعجب ما يجيء في البال وأنا أكتب لك عن أحمد، هو ماذا كان أحمد؟؟ كان في تقديري رسولاً فاتته الرسالة، ليته كان يعرف الغضب، أذن لبقى معنا، أرأيت هذه الخلة التي عوتب عليها بعض الرسل ممن نقدس؟ حَتّى هذه كان خلواً منها».

واختار عثمان جانباً من رسالة كتبها السيد أحمد محجوب عن عجوز إنجليزية توطدت صلتها به، وجاء فيها «صديقة أخرى- صاحبة المنزل الذي عاش فيه أحمد، ذهبنا أول ليلة على ميعاد لنرى الحجرة وكان مساءً كئيباً لأنّه كان ممطراً وبارداً مما زاد من بشاعة هندامنا ومظهرنا الخارجي، قابلتنا مقابلة باردة وعلى مضض أعطت أحمد الحجرة، سكن معها ونشأت بيننا جميعاً صداقة قوية ووجدت تشابهاً فكرياً بينها وبين أحمد ما زاد الود. قالت لي ذات مرّة، بعد شهر

من تلك المقابلة الفاترة «إذا سئلت هل لقيت المسيح؟ لأجبت بالإيجاب أجل أنه يسكن معي في داري، ولن أغفر لنفسي مطلقاً موقفي مساء لقيتكما إذ جئتما لمشاهدة الحجرة».

ويسترسل عثمان في مقاله ويقول إنَّ قصصه ونوادره مع كتاب «أصوات وحناجر» إستمرت في المراحل التالية من طباعة ونشر وغيرها. ويؤكد أنَّ أعمال أحمد الطيب لاتزال في أيدي الآخرين لَمْ يتمكن من جمعها رغم المجهودات التي بذلها والمثابرة التي لَمْ تعرف الكلل. وقد حصل على بعض المسرحيات التي ترجمها كالعاصفة، وهاملت، وروميو وجوليت، والملك لير، والأجزاء الفكاهية من مسرحية هنري الرابع وزوجات وندسور المرحات - وكلها من أعمال شكسبير- ويحتفظ شخص بمسرحية بيرناردشو، جان دارك، و«العابث في الغرب» لسنج- وقد اشترك مع جمال محمد أحمد في ترجمة هاتين المسرحيتين. وأشار عثمان إلى صديق يحتفظ بترجمة «عطيل» التي اشترك في ترجمتها مع الدكتور عبدالله الطيب. وهناك محاضرات مهمة ألقاها في مناسبات متعدِّدة لَمْ يعثر على أيِّ أثر لها.. كما لَمْ يعثر على الكراسات الصغيرة و(النوت) التي كان يلخّص فيها أحمد ترجماته ويكتب فيها خواطره وآراءه حيث تداولتها أيدي أصدقائه.

وذهبت نفس عثمان حسرات على الصحف التي كان يكتب فيها أحمد وضمت نفائس إبداعاته.. حيث تعاني دار الوثائق من نقص كبير في محفوظاتها من الصحف السودانية. وقد حاول عبثاً الحصول على صحيفة «الحادي» ومجلة «النور» التي كانت تصدرها وزارة المعارف وقتذاك، ذلك بالإضافة إلى مجلة «الصبيان» القديمة التي لَمْ يعد مكتب النشر يحتفظ بكامل مجموعتها- حَتَّى قبل الحريق الذي التهم البقية من مجلداتها الحديثة-. وامتدح عثمان للباحثين- لاحظ أنَّ ذلك حدث في يناير 1983- الدكتور حسن مصطفى حسن، الذي

وصفه بصديق الصبيان وحامي حماها.. حيث ظلَّ يسعى للحصول على مجموعة منها لتحفظ للباحثين والأجيال القادمة. وأشار عثمان للترجمة المسلسلة لكتاب الصحفي البريطاني أنتوني مان «حيث ضحك القدر» والذي تناول فيه بالقدح والسخرية الأوضاع في السودان عشية إستقلال البلاد واختفى مجلد نوفمبر 1954– الذي تضمن عدداً من تلك المقالات المترجمة– من دار الأيام منذ منتصف الستينات.. كما أنَّ مجموعة دار الوثائق المركزية ناقصة.. وظلَّ عثمان بعد أنَّ صدرت المجموعة الأولى من أعمال الدكتور أحمد الطيب، يأمل في العثور على الأعمال المفقودة التي لن تجد شخصاً مهموماً مثله يستطيع أنْ يسعى للحصول عليها.

12 مارس 2002م.

مسرح البسطاء

الدكتور أحمد الطيب



اعتادت إمرأة ريفية عجوز على الحضور إلى مباني معهد التربية ببخت الرضا نهار كلّ خميس... تطل من نافذة غرفة مكتب واسعة تسأل بعفوية « الرسول ياعمي الليلة ماعندكم رُواية؟ بضم الراء.. تقصد مسرحية يبتسم الشاب الثلاثيني الجالس مستغرقا في الكتابة، يومئ برأسه إيجاباً.. كان الدكتور أحمد الطيب قد عاد لتوه- في بداية الخمسينات من إنجلترا حاملاً درجة الدكتوراه في المسرح العربي كأول عمل أكاديمي من نوعه وتدرج من رئاسة شعبة اللغة العربية ليصبح نائبا لعميد المعهد ثُمَّ عميداً له، وماكان أحمد سوى ذلك الفتى مفصود الخدين، الذي شارك عبدالله الطيب في إنشاد قصيدته - والتي ترجمها أيضاً إلى الإنجليزية في تلك الليلة اللندنية الباردة - كما ورد في حديثنا عن عبدالله الطيب -ولما كان عدد من القراء الكرام قد أبدوا رغبة في معرفة تلك الشخصية لَمْ نجد مناصاً سوى الإذعان لتلك الرغبة.

كان الدكتور أحمد الطيب أحب الناس إلى سكان منطقة الدويم ولَمْ يكن أحد

يرتاب في أنه درة وزارة المعارف وجوهرتها حيث لَمْ يضع المعهد في خدمة وتدريب طلابه وحسب وإنّما فتح أبوابه للبسطاء وكان سبيله إلى ذلك مسرح المعهد الذي ظلّ يغص بالحضور من الدويم والقرى المجاورة رجالاً ونساءً وأطفالاً مساء كلّ خميس - يرين عليهم سكون عظيم لدى تقديم أعماله.. لا نأمة ولاصوت.

ترجم أحمد الطيب وسودن وأخرج عدداً من المسرحيات لشكسبير وشوسنج بلغة بسيطة سهلة ممتعة وبحوار قصير العبارة يميل إلى الفكاهة حَتّى ذورة المأساة ففي مسرحية يوليوس قيصر.. وهو في طريقه إلى مجلس الشيوخ قبيل اغتياله بقليل يلتفت إلى بعض العامّة ويسأل أحدهم ماصناعتك؟ فيرد عليه مغنياً.

شدو له وركب في بمبرو أب لبده
وإتحكر قعد أدى الإبار جبده
ويردد الأخرون:
أهي الليلة العديل والزين
الليلة العديلة يا وداعة الله

وكان أحمد الطيب دائماً يدعو لمسرح لا يكلف مالاً، فالملابس تصمم من قماش الدمورية والأحذية من الورق المقوى والشخصيات ترتدي ملابس موحية، فديدمونة في «عطيل» ترتدي فستاناً مزركشاً وحذاء بكعب عالٍ وشعراً مستعاراً، وهارون الرشيد في «العباسة» يتميّز عن غيره بعمامة ضخمة وحزام عريض ملون كما أنّ المكياج بسيط للغاية يتكون من الصمغ وألوان البودرة وما تيسر لدى شعبة الفنون.

كانت تجربة الدكتور أحمد الطيب في وضع أسس المسرح المدرسي جديرة بالإهتمام وقد شملت أجيالنا في مختلف المراحل التعليمية وذلك على الرغم من أنّ جذور المسرح المدرسي في السودان تعود إلى أوائل القرن العشرين حين قدّم تلاميذ مدرسة القطينة الأولية في عام 1908 مسرحيتين «نكتوت» «والمرشد

المدرسي»أخرجهما مأمور المركز المصري. وبعض المؤرخين يعودون بجذوره تلك إلى ستينات القرن التاسع عشر في مدرسة الخرطوم الابتدائية التي انشأها الخديوي عباس.

روى معاصرون للدكتور أحمد الطيب أنّه كان يحتفظ بدفاتر عدة بعناوين مختلفة باللغتين العربية والإنجليزية يدوّن فيها ملاحظات مستمرة عن مسرح شو وبرشت ويعقوب صنوع «أبو نضارة» وزكي طليمات وجورج أبيض والريحاني وصديق فريد.

بدأت حياة الدكتور أحمد الطيب بميلاده في قرية كدباس عام 1917 وتلقي تعليمه الأولي والأوسط بمدينة بربر، ثُمَّ إلتحق بكلية غردون وعمل محاسباً بمصلحة الزراعة لسنوات، ثُمَّ عاد للإلتحاق بقسم اللغة العربية بالمدارس العليا وتخرج فيها عام1942 واختير للعمل بمعهد التربية ببخت الرضا ثُمَّ بعث إلى إنجلترا حيث قضى عاما بمعهد التربية بجامعة لندن وبعد أعوام عاد لنفس الجامعة ليحصل على درجة الدكتوراه من معهد الدراسات الشرقية والأفريقية.

رآه الناس في بخت الرضا رجلاً بسيطاً زاهداً وسعيداً بتلك البيئة الريفية التي كانت أقرب إلى مزاجه من الخرطوم حيث طموحات الآخرين- أيام السودنة - ومكايداتهم. وكثيراً ماكانوا يشاهدونه طلق المحيا يتأبط كتبه متجهاً نحو داخليات الطلاب ليتناول معهم وجبة الإفطار. ولاريب في أنّه أخلص لوطنه فدرس في جميع المراحل بالمعهد وألّف المناهج وساهم في إعداد المعلمين ومثل السودان في شتى مجالات الفكر.

كان ينشر مقالاته في صحف «الرائد» و«الأيام» و«الحياة»، ومجلة «الصبيان» و«النور»، وتفرغ فترة للعمل بدار الأيام وترجم كثيراً من المسرحيات والأعمال الأدبية أهمها «حيث ضحك القدر» للكاتب الساخر أنتوني مان وصدر له كتاب

«مختارات من الشعر القصصي» ومن كتب الأطفال «مجازفات هرقل، وشمسون الجبار».

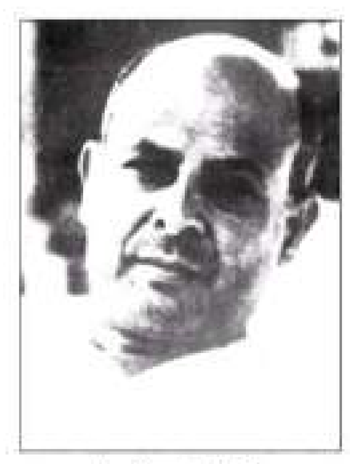
بذل تلميذه المرحوم الأستاذ عثمان حسن أحمد جهوداً جبارة لجمع أعماله المبعثرة وأودعها كتاب «أصوات وحناجر» ولا يزال لدي العديد من أصدقائه الكثير من إبداعه المنشور والمخطوط.

وبعد خمس سنوات من رحيله استكتب عثمان حسن أحمد السيدة ريموند وهي مثقفة إنجليزية عملت بمدارس البنات الثانوية بالسودان حيث التقت بالدكتور أحمد الطيب فوصفته بانه كان غني الروح ثاقب الفكر جمّ الثقافة جزيل العطاء في محادثاته الثرية حَتّى ليبدو فقر الآخرين وإملاقهم حين يتحدث، وأضافت بحماسة «يالها من ذاكرة تستحق كل ثناء فقد كان يقتطف في حديثه من شكسبير وشيلي ووايلد وبايرون وبيرتز - أعظم شعرائنا وأدبائنا وكتاب المسرح. ولَمْ يكن أحمد مُطلعاً على الأدب العربي فحسب وإنّما كان من الراسخين في معرفته، وقد كان أطول منّا باعاً في الدراما الفرنسية على وجه الخصوص ولقد أرشدني إلى راسين وستندهول وإلى الفلاسفة المحدثين أمثال شو وبرستلي ورسل، وتحسرت السيدة ريموند على غيابه بقولها لقد ولد في وطنه قبل أوانه بمئة عام والسودان بغيره قفر فقير ولاعزاء له في فقده».

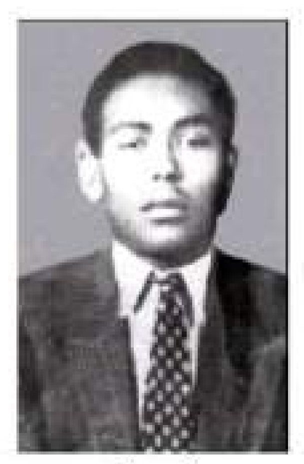
عاش الدكتور أحمد الطيب تجربة مريرة من زواجه بفتاة إنجليزية أذاقته الويلات وتفننت في تعذيبه فكتب وصفاً لما كان يلاقيه منها في مذكرات له، كانت أشبه بجين مورس في رواية موسم الهجرة إلى الشمال بل هي..هي حذوك النعل بالنعل «النسخة الأصلية» إلاّ أنّه بعد فراقها اقترن بسودانية نعم معها بشيء من السعادة حَتّى وافاه الأجل عام 1962 وهو في الخامسة والأربعين من عمره مخلفاً طفلين أحدهما صبي من البريطانية والأخرى بنت من زواجه الثاني.

4 يوليو 2000م

صلاح بشرى وكمال عبدالحليم



كمال عبدالحليم



صلاح بشرى

حملت رياح أمشير وزمهريرها القارس في في ذلك الصباح الكئيب من عام 1948 نبأ فاجعاً تسلل من السجن إلى الجامعات والمعاهد والمصانع والبيوت فارتاعت مدينة القاهرة. مات صلاح بشرى الطالب السوداني في السجن ضحية التعذيب وقسوة الجلادين. كان صلاح طالباً بكلية الطب في جامعة فؤاد حين إقتاده البوليس السّياسي إلى الزنازين. لَمْ يكن قائداً سُياسياً ولا زعيماً طلابياً، لكنه كان واحداً من آلاف الطلاب الذين انخرطوا في النضال المشترك ضد الاستعمار وحلفائه المحليين. أدى البرد والجوع وسوء المعاملة إلى إصابة صلاح بالسل الرئوي فمنعوا عنه الدواء بينما كان يلفظ رئتيه دماً نجيعاً.

كانت لائحة السجن التي وضعها المستر لوكس، أول مدير للسجون المصرية تمنع السجين من تناول أي طعام خارج السجن حيث توفّر له السلطات نصف رغيف أسود مع قليل من الملح للإفطار ورغيفاً مع شيء من الفول أو العدس-

مخلوطاً بالرمل- للغداء ورغيفاً مع سائل لا لون ولا طعم يسمونه «اليمك» للعشاء. ويمنع تناول أي شيء يحتوي على السكر أو الحلوى. وفي ظروف تمّ فيها شيء من الانفراج يروى أنّ سجاناً رأى سجيناً يتناول قطعة من «العجوة» فصاح بأعلى صوته «دي خربت» ثُمّ سقط مغشياً عليه. ذلك هو السجن الذي زج فيه صلاح بشرى فأصيب بالداء القاتل ثُمّ قضى.

ردد الناعي نبأ وفاة صلاح فخرجت تظاهرة ضخمة غاضبة من الجامعة وانضم إليها عشرات الآلاف من العمال في ميدان التحرير قادمين من شبرا وحلوان والوايلي والعباسية، يهتفون ضد الاستعمار والسراي. ثُمّ توجّهوا إلى ميدان «الأوبرا» حيث أقيمت الصلاة على جثمان الشهيد في مسجد الكخيا. كان الغضب قد إستبد بالجماهير التي أحاطت بالجثمان تندد بالجريمة وتطالب بمحاكمة الخونة ورجال المباحث.

أعدت السلطات طائرة خاصة لنقل الجثمان من القاهرة إلى عطبرة - حيث تعيش أسرة الشهيد- وانتدبت أحد باشوات القصر ليصحبه إلى هناك ليؤدي واجب العزاء إلى أسرته وإلى الشعب السوداني نيابة عن الملك. إلّا أنّ الجماهير المصرية الغاضبة والطلاب فرضوا سفر أحد قادة الطلاب ليكون الممثل الشعبي لمصر في التشييع. أقلعت الطائرة وهي لا تضم سوى بضعة أفراد ممثلين لعدد من الجهات ويترأس الوفد ذلك الباشا برأسه الضخم وطبعه المتعالي. كان يتحرك في تؤدة وضجر صامتاً قابضاً على سيجاره يحرك رأسه يميناً ويساراً وكأنّه على وشك الاختناق تبرماً بتلك الرحلة التي فرضت عليه وبتلك المجموعة البائسة المتواضعة من الناس التي لا ترقي لمستواه.

ولَمْ يمر وقت طويل حَتّى استدعى الباشا ذلك الطالب وسأله عما إذ ا كان مجيداً للخطابة ولما نفى له قدرته على ذلك أمره باحضار ورقة وقلم وكتابة خطبة لالقائها على جماهير عطبرة وتتلخّص في أنّ «الفاروق أعز الله ملكه، وحمى

عرشه، يعزي شعبه في السودان في وفاة ابنه صلاح». هبطت الطائرة في مطار عطبرة وكانت الزهور وبطاقات النقابات وإتحادات المدارس والجامعات لاتزال عالقة بالصندوق الخشبي الذي حمله أربعة من الرجال حين تجاوزهم الطالب المصري خارجاً من الطائرة ليخطب في الناس بانفعال وطلاقة ثُمَّ يردد «يسقط فاروق عدو الشعب» «يسقط فاروق قاتل صلاح»، عبدالهادي كلب الوادي. وانزوى الباشا كجرذ جرفته السيول.

كانت مدينة عطبرة قد خرجت عن بكرة أبيها لإستقبال الجثمان وتشييعه فرددت الهتافات التي نددت بالقتلة والاستعمار رغم إجراءات الحظر التي حاولت السلطات البريطانية فرضها. وعاشت المدينة يوماً مشهوداً حفل بالتظاهرات والمواقف الغاضبة التي إستفزها هول الجريمة.

ظلَّ كثير من الكتاب المصريين - خاصة الذين عاصروا تلك الفترة طلاباً- يكتبون عن تلك الذكريات التي مضى عليها أكثر من نصف قرن والتي اقترنت بزملائهم السودانيين وخاصة الدكتور رفعت السعيد- الكاتب والمؤرخ المعروف، والدكتور يوسف إدريس - الروائي المبدع.. إلّا أنَّ قصيدة الشاعر محمد كمال عبدالحليم تظل النموذج الأكثر سطوعاً في الوفاء والإحساس بفجيعة اغتيال صلاح بشرى الذي كان لا يزال في ميعة الصبا. ظلت هذه القصيدة لعقود من الزمن يرددها الطلاب السودانيون في أماسيهم معجبين، مستهلمين صور البطولة من تلك المأساة التي هزت وجدان الشعب السوداني.

بين صخر وحديد وأعاصير وسل
وسدود وجنود قتلوا مِنّا بطل
حسبوه سيساوم حينما يدنو المصير
وجدوا حراً يقاوم وهو في النزع الأخير

والشاعر المصري محمد كمال عبدالحليم- وهو قد تجاوز السبعين الآن- لا يزال حياً بيننا مؤثراً الصمت ومجللاً بالأسى رغم جلجلة صوته المدّوي في سنوات الأربعين من القرن الماضي- حيث كان مجرّد الهمس جريمة ونعال المستعمر فوق عنق الأمة. عثرتُ على ديوانه قبل فترة فكنت كأني قد وقعت على كنز ثمين. فأضحيت كلما طالعته، إزددت شغفاً بتلك التجربة الشعرية التي لَمْ تجد ناقداً يضعها في ماهي جديرة بها من مكانة. ولا يزال النُقّاد يتحاشونه كالبيت المسكون. وما أصدق الشاعر السوداني الراحل صلاح أحمد إبراهيم حين أشار إلى القمقم الموضوع على اسمه كي تكتمل مؤامرة الصمت.. «لأن ذلك الشعر يضع كلُ إنسان أمام ضميره أمس واليوم وغداً».

كمنت مأساة الشاعر محمد كمال عبدالحليم في أنّه قرع الأجراس بعنف يقض المضاجع واستعجل الفرح بشعارات مذهبية آنس في بريقها الخلاص، ولكن جدة شعره وعنفوان صوته والإضافة الفذة لريادة الشعر الحديث ظلّت باقية متقدة لا ينكرها إلّا مكابر. ماكان كثيراً على كمال حليم أنْ يرى فيه النُقّاد العرب ما رآه العقل النقدي الأوروبي في الشاعر عزرا باوند الذي ارتبط اسمه بمديح الفاشية ولا الشاعر سان جون بيرس الذي كان أحد أعمدة الخارجية الفرنسية أيام الإحتلال النازي وحكومة فيشي - إبان عنفوان مقاومة باريس- لَمْ يجد نُقّادنا العرب في الموقف من هذين الشاعرين المتهمين في وطنيتهما ورؤيتهما للحق الصريح صريعاً عذيراً في انصاف كمال حليم.

فالشاعران الغربيان رغم مواقفهما التي اصطدمت بأماني شعوبهما احتلا مكاناً لائقاً لقيمة الإبداع الذي قدماه - دع عنك غيرهما من عشرات المبدعين الذين انحازوا لنفس الفكر الذي ارتضاه شاعرنا- الذي كان جزاؤه النسيان والحرمان من أنْ يتخذ موقعه الطبيعي في ريادة الشعر العربي.

مازلت أذكر حديثاً للشاعر الفيتوري أدلى به لإحدى المجلات قبل سنوات

إخترق به جدار الصمت المضروب حول كمال ناصحاً النُقّاد بأن يعيدوا النظر في مسألة ريادةالشعر الحديث بصفة عامّة. وانبرى ليسجّل موقفاً عجز عن إتخاذه نقدة الشعر وليخرص ألسنة الذين يراوحون بين إسمى نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وأحياناً لويس عوض. وأعرب عن إعتقاد جازم بأن هناك مبالغة في هذا الإدعاء بإعتبار أنّ عباءة الشعر الحديث إنّما نسجت على منوال شارك في غزله أو نسيجه ثلاثة شعراء- هم نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وكمال حليم. فنازك والسياب أعطيا الخيط والمغزل، أما كمال فقد أعطى اللون والرائحة. وأكد في حديثه الصاحب ذاك أنّ شعره هو الذي أعطى القصيدة العربية المعاصرة جوهرها الحقيقي.

كان كمال في غضارة الصبا حين نذر نفسه للشعر والسجون سائراً بأقدام حافية فوق الأشواك والجمر فتغنى بالفلاح والعامل والحب المصادر بكلمات متوهجة لخّصتها كاتبة مصرية ذات حضور بقولها «حَتّى الهوى عنده لا يسلم من التوقد المشبوب.. من القوة والحيوية.. قد يرق معموده لكنه لا يتمرغ ولا يتهاون، بل يقول في تلطف القوة لاذل الضعف.. فورة.. إنطلاق.. إلتياع ولكنه عزيز».

صدر ديوانه الوحيد «إصرار» الذي صودرت طبعتاه الأولى والثالثة من أصل طبعاته الأربع- للمرّة الأولى عام 1951 ليحتوي أشعاره التي كتبها منذ عام 1943 لترى فيها «مجلة فصول» الصادرة في يناير 1951 رؤية تجسّد معاني النقد الحديث حين أشارت إلى أنّ «الشاعر تخير لغة ممعنة في البساطة لَمْ يعهدها الشعر العربي من قبل حَتّى ليخال القارىء أنّها صادقة وطبيعية صدق الآهة الصادرة من الملسوع. وجديد على الشعر العربي ألاّ يقف اللفظ ستراً يحجب المعنى. وفي كتابه «شعراء العرب المعاصرون» الصادر عام 1958 لخّص الشاعر الدكتور أحمد زكي أبوشادي شعر كمال حليم في كلمات جامعة حين قال «لكننا نهتم بهذا الشعر لا لمثاليته وحسب، بل لطاقته الشعرية وروحه التجديدية

أيضاً. فكلها تؤلف في نظرنا وحدة فنية جميلة خليقة بالإعزاز».

أما الدكتور الطاهر أحمد مكي إكتفى بالقول «جاءت البداية بعد شهور من إنتهاء الحرب، وبالتحديد في أول يناير من عام 1946، أبياتاً من الشعر يقرؤها المثقف العربي لأول مرّة في مجلة «أم درمان» التي كانت تصدر في القاهرة، ذات نغم جديد لَمْ تعهده الأذن العربية من قبل. وكانت لشاب مصري، طالب في كلية الحقوق بالقاهرة وقعها باسمه الأول وتوجّه بها للإنسان في مصر وأعطاها عنوان «إصرار».

توفي الشاعر في وقت لاحق من كتابة هذا المقال عليه رحمة الله

31 يوليو 2001م

القدرات المتعدّدة وروح الإبداع

محمد أحمد محجوب



توجّه المحجوب عندما كان طالباً بكلية غردون إلى مكتبة «سودان بوكشوب» ليشتري نسخة من كتاب « الشرق المتطوّر» الذي ألّفه الكاتب الإنجليزي المعروف ج. أ.سبندر بعد رحلة قام بها إلى تركيا ومصر والهند خلال عامي 1925- 1926. وعندما وقف أمام البائع اليوناني ليسدّد ثمن الكتاب وهو يقلب في صفحاته دخل السير هارولد مكمايكل يسأل عن نفس الكتاب فاعتذر إليه البائع في أدب جم وأبلغه أنّ النسخة الأخيرة اشتراها الآن ذلك الشاب الواقف، فحدجه بنظرة حار في تفسيرها وقتذاك واستأذنه وأخذ يقلب في صفحات الكتاب ثُمّ سأله بلهجة ماكرة مستنكرة و«هل تقرأ وتفهم مثل هذا الكتاب ؟» فلم يجبه المحجوب، بل أخذ كتابه وخرج في صمت.

كان المحجوب فتى غض الإهاب لَمْ يكمل عامه العشرين بعد إلّا أنّه كان مولعاً بالقراءة ومتابعة ما يستجد من معارف.. وقد قرأ الكتاب وسره ما كتبه سبندر.. فالرجل كان كاتباً وشاعراً من تلك الجماعة التي أطلق عليها مجموعة كيمبردج..

تألقت في سنوات العشرين والثلاثين من القرن الماضي. وفي كتابه ذلك أنصف زعماء الشرق الذين برزوا عهد ذاك مصطفى كمال أتاتورك وسعد زغلول والمهاتما غاندي، وأشار إلى الأدوار المهمة التي يضطلعون بها في سبيل نهضة بلادهم وتطوُّرها.. أما مكمايكل الذي إستكثر الكتاب على المحجوب فقد كان أحد أهم الإداريين الإنجليز الذين مروا على السودان وكان كاتباً ومؤرخاً ومدققا متميِّزا بذكاء وقاد. وقد ألَّف كتاب «السودان الإنجليزي المصري» الذي إستعرض فيه تاريخ السودان منذ أقدم العصور وتعرَّض فيه لحاضر الحكم والوضع السِّياسي وحَتَّى مستقبل البلاد حاول التكهن به.

ولد المحجوب بمدينة الدويم عام 1908 وتدرج في مراحل التعليم متفوقا حَتَّى تخرَّج في كلية غردون التذكارية مهندساً في أوائل عام 1929. وجاء في تقرير تضمنه ملفه في العمل أنَّه أكفأ وأقدر من أقرانه السودانيين الذين يسبقونه في الخدمة بخمسة عشر عاما، وأن عقله يتميَّز بسرعة التفكير. وقد أنجز بعض المشروعات الهندسية خلال الفترة القصيرة التي قضاها في هذا المجال».

قرَّر المحجوب فجأة أنْ يغير مسار حياته بالتحاقه بمدرسة الحقوق في يناير 1936 ليتخرج وينتظم في سلك القضاء في نوفمبر 1938. ومنذ بداياته تلك كان مكتب الأمن العام يتابع نشاطه مع غيره ممن كانوا في عداد موظفي الدولة ويتابعون دراساتهم في كلية الحقوق. وقد لاحظ المكتب تمرده في العمل على رؤسائه وتردده على مكاتب «جريدة النيل» فاقترح إبعاده إلى الأقاليم بعد التخرج. واتضح من خلال تلك التقارير أنَّ رؤساءه البريطانيين رغم تقديرهم لكفاءته كان يضايقهم ما يعتبرونه تعالياً وإحساساً بالتفوق والاعتداد. وتضمنت التقارير أيضاً أنَّه شخص تتملكه روح التفوق والمعرفة وأنَّه معروف بأنَّه كاتب سِّياسي يبشر بأفكار متقدِّمة.

في عام 1941 نُقِل المحجوب إلى دائرة شندي القضائية التي كانت تشمل مدينة

عطبرة.. وبرز نشاطه السّياسي في هاتين المدينتين سافراً حيث ترأس مؤتمر الخريجين في شندي. وفي عطبرة إنصرف إلى إلقاء المحاضرات وعقد المؤتمرات وحلقات النقاش. وفي إحدى هذه المحاضرات طرح فكرة قيام إتحاد عام لعمال السودان ليصبح قوة مطلبية وإجتماعية تخدم مصالح العمال. ضاق المحجوب بالوظيفة وأخذ يتوق إلى المحاماة ليجد هامشاً من القدرة والحركة في مجالات العمل الوطني الذي بات من الواضح أنّه سيكرس حياته من أجله.. وعندما تمكّن من ذلك تولى سكرتارية الجبهة الإستقلالية في عام 1947- وكانت مُكوّنة من حزب الأمة وبعض المتعاطفين معه- وذلك دون أنْ يكون عضوا في الحزب.. وقد شارك في وفود الإستقلاليين التي طافت أوروبا والولايات المتحدة. كما شارك في الجمعية التشريعية وكان من أعضائها البارزين الذين إعتمد عليهم الإمام عبد الرحمن المهدي. وفي الإنتخابات الأولى - دوائر الخريجين- كان ترتيبه الثاني بعد مبارك زروق واختارته المعارضة الإستقلالية زعيماً لها في مجلس النواب حيث شارك رئيس الوزراء إسماعيل الأزهري في رفع علم البلاد صبيحة يوم الإستقلال. ولعله من الأشياء الطريفة والمثيرة لدهشة الكثيرين أنّ المحجوب أنضم لحزب الأمة في ديسمبر 1956، وذكر أنّ سببه الرئيسي في ذلك هو « أنني كنت أمينا للجبهة الإستقلالية. وكان حزب الأمة آنذاك الوحيد الذي تتوافق سياسته مع قناعاتي السّياسية ». وشارك محجوب في حكومة عبد الله خليل الأولى في يوليو 1956 خلفاً لمنافسه مبارك زروق. وبعد انقلاب نوفمبر 1958 كان في مقدمة المعارضين الذين تمّ نفيهم إلى الجنوب إلاّ أنّه بعد ثورة أكتوبر تولى الخارجية مجدداً ثُمّ صار رئيساً للوزراء في يونيو 1965 بعد الإنتخابات التي جرت في أبريل.

وبعد انقسام حزب الأمة وائتلاف جناح الصادق المهدي والحزب الإتحادي سقطت حكومته ليتولى الصادق الحكم، إلا أنّه عاد إلى رئاسة الحكومة بعد سقوط هذا الائتلاف وقيام آخر بين الحزب الإتحادي وجناح الإمام الهادي في مايو 1967

وظلَّ حَتَّى وقوع انقلاب مايو في 25 مايو 1969.

كان المحجوب من أبرز رموز ذلك الجيل وكان موهوبا متعدّد الملكات ذا نشاط دافق واعتداد بالنفس وكان يؤمن بدور الفكر والثقافة في بناء المجتمعات. وقد ساهم في النشاط الأدبي، ناقداً وكاتباً وشاعراً وفي المجال القانوني قاضياً ومحامياً وفي السّياسة زعيماً ووزيراً ورئيساً للوزراء.

وقد استمد تلك القدرات من مثابرته وإطلاعه الواسع ومكانته الإجتماعية المرموقة والتراث الغني لأسرته. فهو من ناحية أمه، من الهاشماب الذين شاركوا في الحياة السّياسية والإجتماعية خلال عهدي المهدية والحكم الثنائي، وكان جده لأمه الأمير عبد الحليم مساعد من أبرز أمراء المهدية، وقد صحب الأمير أبو قرجه في ملاحقة حملة هكس- والأمير عبد الرحمن النجومي في الزحف نحو مصر حيث إستشهد في توشكي. وكان المحجوب معجباً بتراث أجداده هؤلاء وكثيرا ما أورد أسماءهم في كتاباته. كما كان لخاله السيد محمد عبد الحليم دور كبير في تربيته وتعليمه وتوجيهه للقراءة والإطلاع على عيون الأدب وأمهات الكتب.

تميَّزت حياة المحجوب بعطاء فكري واسع فقد كان ينشر مقالاته في مجلة «النهضة» السودانية لصاحبها عباس أبو الريش ومجلة « الفجر» التي أصدرها عرفات محمد عبد الله الذي كان يعاونه المحجوب وبعض أصدقائه في تحريرها، ثُمَّ واصل إصدارها أحمد يوسف هاشم بعد وفاة عرفات.. وصدرت للمحجوب أيضاً كتب «نحو الغد» و «الحركة الفكرية في السودان.. إلى أين تتجه؟» و «الحكومة المحلية في السودان» و «موت دنيا» الذي كتبه بالاشتراك مع ابن خاله ورفيق عمره الدكتور عبد الحليم محمد. كما صدر آخر كتاب له بعنوان « الديموقراطية في الميزان » الذي لخُص فيه تجربته السّياسية وأودعه بعضاً من ذكرياته. ذلك غير الدراسات والمحاضرات التي ساهم بها في إثراء الحركة الفكرية والثقافية.

وكان المحجوب قد تصدى لتكوين جمعية القراءة بالهاشماب والتي كان من بين أعضائها عبد الحليم محمد وعرفات محمد عبد الله وأحمد يوسف هاشم ويوسف مصطفى التني وعبد الله عشري الصديق وأخوه محمد وأمين بابكر والسيد الفيل..

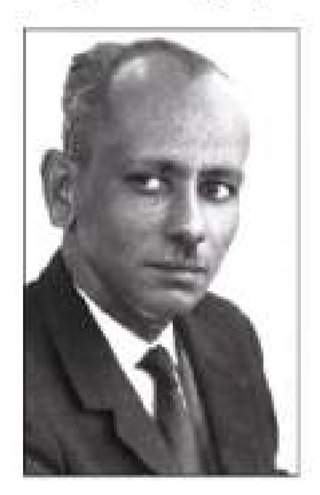
نظم المحجوب الشعر منذ فترة باكرة وإستمر ينظمه حَتَّى أيامه الأخيرة. وقد صدر له ديوانه الأول «قصة قلب» في عام 1961 و «قلب وتجارب» عام 1964، و«الأندلس المفقود» وهو ديوان صغير تضمن قصيدة واحدة عام 1969، ثُمَّ الديوان الرابع والأخير «مسبحتى ودني» الذي صدر عن دار المعارف بمصر عام 1977.

كان المحجوب معجباً بشعره مدلاً به. وكان يسعده إشادة الآخرين به وإنشاده. وفي خلال زيارة المستشرق الفرنسي الكبير جاك بيرك للسودان في أواخر ستينات القرن الماضي أقام له المحجوب مأدبة عشاء دعا لها عدداً من المثقفين والوزراء. وقد أنشد لهم الأستاذ مكاوي مصطفى بعضا من أشعار المحجوب ومن بينها« ذات الرداء» بصوت أشجاه وأطربه فأخذ يستعيد حَتَّى طلوع الفجر. وفي السنوات التي قضاها في لندن كان يلتقي بأصدقائه ومن بينهم الكاتب الروائي الطيب صالح والشاعر الفنان التشكيلي عثمان وقيع الله الذي كان يستجيد المحجوب إنشاده للشعر ويطلب منه دائماً ألا ينشد شعر المتنبي قبل شعره حَتَّى لا يفسده له ويحوله إلى كلام لا طعم له.

عاش المحجوب حياة عريضة وغنية ومتنوّعة وكان شخصية جذابة تستقطب إهتمام الناس في نطاقه المحلي وفي المحيطين العربي والأفريقي. وكانت كثير من العواصم تحتفي بزيارته لها.. ويهرع إليه الأدباء والمثقفون يستمتعون بما يشيعه حوله من روح إبداعية شفافة وقدرة على التواصل الإنساني.

«موت دنيا»..

جدلية الحب والمعرفة



د.عبدالحليم محمد

يقول أحدهما وأخاله المحجوب - يقيناً هو - «يونانية حسناء في ريعان الشباب ممتلئة أنوثة وحناناً، ساهمة النظرات على وجهها سيماء حزن خفي حاولت كثيراً أنْ أدرك كنهه ولكني لَمْ أستطع فك رموزه، وخصلات شعرها المرسلة الطليقة يداعبها النسيم وهي تسوى ذلك الشعر مكانه بيد كلها الفتنة، وتتحدّث الإنجليزية في عجمة حبيبة إلى السامع لا يسعه إلّا أنْ يطلب منها المزيد. تلك هي بائعة الكتب في ذلك الحانوت الصغير، تلاطف هذا وتجامل ذاك، وتطلع السلم إلى رفٍ قصي لتأتي بكتاب وضع هناك، وهي في صعودها وهبوطها تبدو كلّ محاسن جسمها: صدر بارز، وخصر نحيل، وساق فاتن أملود، وفستان يساعد كلَّ ذلك الجمال على الظهور، فلا هو بمخفٍ الضوامر، ولا هو بمقلل من قيمة المشارف، لا ولا هو بساتر الملادة. تلك هي بائعة الكتب التي لفتت أنظارنا إلى المتجر وجعلتنا نرتاده ولا نمل إرتياده، وهي التي نشأت بيننا وبينها أول صداقة فكرية، قبل أنْ نألف صحبة المؤلفين والتحدث إلى الكتب

والاستماع إليها، ولحسنها في قلوبنا كل إجلال وتخليد. مضت زهاء الخمسة عشر عاماً منذ أنّ لقيناها أول مرّة، ولكن ما نكاد نلقاها بعد ذلك إلّا ونذكر أنّها الفاتنة المُلهمة، عبقرية الجمال التي تهدي الناس إلى شعاع العبقرية من أقدم الأجيال حَتَّى يومنا هذا ولا يحلو لصديقنا عشري - يعني عبدالله عشري الصديق أو أخاه محمداً - إلّا أنْ يلفت نظري إليها كلما لقيناها في الطريق وأنْ يذكرني بأنّها أستاذنا الأول، وهل نرضى نحن بغير أستاذية الجمال».

لقد لقيتها في العام الماضي وراءها سرب من الأطفال يمتازون بنفحة من ذلك الجمال والوداعة، وأمهم لَمْ تفقد شيئاً من رشاقتها ولا فتنتها، غير أنّ الأيام قد جعدت ذلك الوجه الطليق ورسمت عليه سطوراً من حكمة الزمن، وبدت شعيرات بيضاء هنا وهناك في شعرها الذي طالما سوته بيد الفتنة، إنّها كتاب من الجمال العبقري، والكتب الجيدة الجميلة لا يدركها الفناء، تبقى على الزمن تراثاً خالداً ونبراساً يضيء الطريق للسارين في مسالك الفكر».

هذا النثر الإبداعي الرفيع تضمنه كتاب «موت دنيا» الذي ألّفه محمد أحمد محجوب وابن خاله الدكتور عبدالحليم محمد، كانا في ريق الصبا عند ذاك في سنوات الثلاثين من القرن الماضي، أودعاه ذكريات عزيزة وانطباعات عن حياتهما التي ترافقت مع تحوُّلات عنيفة في السّياسة.. عاشاها في كلية غردون - المرحلة الثانوية - في سنوات العشرين، وما تلا ذلك من سنين. كانا قد نهلا كثيراً من فيض الأدب.. عثرا على كنز من الكتب في دارهما بأم درمان وتأثرا بالمناخ الأدبي العام الذي أخذ يطبع حياة العاصمة بميسمه حين نشأت جمعيات القراءة والتثقيف الذاتي وأخذت في الازدهار.

تعرفا على الأدب والفلسفات الغربية وشغفا بالتراث الإغريقي وملأهما سقراط بمثالية الفكر والإستعداد للموت في سبيل الإعتقاد وأعجبا بالوزير البريطاني دزرائيلي الذي حفزه الإحساس بالاضطهاد ليصل إلى مكانة رفيعة وإستطاع أنْ

يجسّد تجاربه فيما كتبه من أدب رائع، كرواياته «فيفيان جراي» و «كنجز بي» و«سبل» و تقلبا في مختلف حقول المعرفة ونهلا من كلْ ما كان متاحاً لهما.

كانت الصحافة المصرية تشكّل رافداً أساسياً في شحذ الوعي لدى المتعلمين السودانيين، فكلفوا بها أيما كلف.. كما كان كُتّاب مصر وشعراؤها في تلك الفترة يمثلون ذروة الذوق الأدبي في الثقافة العربية.. طه حسين والعقاد والمازني وعبدالرحمن شكري، وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه المهندس.. وإذا تأملت ما اقتطفناه في صدر المقال تجد تأثير هؤلاء الكُتّاب والشعراء واضحاً على مستوى التراكيب والمفردات في ذلك النص.. وتبدو حساسية المحجوب الشعرية بارزة بصورة عفوية حين يتحدث عن الفاتنة اليونانية «التي تسوي شعرها بيد الفتنة» كما يتحدث عن «ساقها الأملود»، فيستدعي الشابي مثلما استدعى علي محمود طه.. ولكنك لا تحس بأيّ تعمل أو تكلف. لَمْ تكن الرواية العربية قد برزت بشكل سافر إلى الوجود.. مجرد محاولات حيية متعثرة.. ولكن المقال الأدبي وجنس الكتابة النثرية الإبداعية في المشاهدات والانطباعات كان يجد حماساً لدى القراء والمثقفين. ويشير المحجوب نفسه لمؤلف المازني «إبراهيم الكاتب».. الذي يتماهى مع النص الذي كتباه.

كتب المحجوب عن صالون أدبي لسيدة من نساء ذلك الزمن - قطعاً ليست دارفوز.. بعدها بسنوات - أطلق عليها أصدقاؤه اسم «مدام دي باري».. امرأة سودانية عادية صقلوا حسها وشحذوا وعيها فباتت أدرى الناس بإدارة الحديث وكيفية تناول القضايا مع المتابعة الدقيقة لأخبار الطبقة المثقفة التي تتمتع بصلات وثيقة مع كثير من وجوهها اللامعة. وصف المحجوب الصالون بأنّه كان داراً أنيقة حسنة النظام تنمُّ عن ذوق وفن.. لَمْ تكن للعبث والمجون وإنّما هو صالون بكلْ ما تعني الكلمة.. يدور الحديث فيه عن الأدب والفن والسّياسة وتنشد فيه الأشعار.

شغف الكاتبان بالموسيقى وعرفا بتهوفن.. وكانا يرتادان الأماكن التي تجمع

السحر والفتون.. فقد كان للأجانب عالمهم في مدينة الخرطوم.. كانت لهم وحدهم دون أهليها من السودانيين. إلّا أنهما لا يلبثان أنْ يعودا باحثين عن الموسيقى في بلادهما فيستعذبان القيثارة وما تثيره فيهما من أشجان ومسرات.

كتبا عن المرأة السودانية التي جسّدا نموذجها الفريد في تلك السيدة التي كانت تحمل إناءً من الثريد والتظاهرات الحاشدة تزحم شوارع العاصمة فتقدّم طعامها للجوعى في ذات يوم مكفهر. ويتحدثان عن أخرى ويقولان «جلّت عن أنْ تسمى»، ويبدو أنّها زوجة الزعيم عرفات محمد عبدالله، فيستطردان في الحديث «فرقت الحوادث بينها وبين بعلها وهو أنبل الرجال وأثبتهم على مضض الجهاد، فاحتملت كلّ ذلك في صبر وثبات، حانية على طفلتيها الحبيبتين، تربيهما وتعلمهما وتغرس فيهما أنبل المقاصد والعقائد، وها هي تقص عليهما قصة أبيهما، وكيف خرج من الحمى وتعرّض للصعاب والتشريد آونة، ونعم بالحياة والنجاح أخرى، وتخفف عنهما حرمانهما حنو الأبوة ورعايتها، وهي في كلّ ذلك تتألم صابرة وترتقب عودة الرائد.. وها هو قد عاد إلى الحمى.. وها هو ذا يقود القافلة ويحسن الحداء. وها نحن ننضوي تحت لوائه، ونسعد بالعمل معه ومشاركته التفكير في شؤون البلاد، وإذا بتلك المرأة النبيلة تحدثنا حديث ذلك العام، وموقفها من ذلك الرجل المنتفخ الأوداج، الذي لَمْ يبقِ مكاناً في الدار إلّا تبشه، ولَمْ يبق إلّا خدرها يريد أنْ يصل إليه، وهنا أعطته الدرس الأول والصفعة القوية.. فخرج من الدار مطأطئ الرأس وفي عينيه دمعة تترقرق». هذا هو عرفات بعينه فقد كان أباهم الروحي.. وتلك هي زوجته التي لقنت أحد ضباط المباحث ذلك الدرس. «وقد أغفل الكاتب عمداً أنْ يورد الأسماء مما أفقد النص البعد التاريخي الذي كان يمكن أنْ يكشف الكثير.» والواضح أنّه أراد أنْ يكون نصاً أدبياً بحتاً شأن الرواية رغم واقعية الأحداث. كما أنَّ الكاتبين لَمْ يحددا الحدود الفاصلة بين كتابتهما.. إلّا ما يستطيع القارئ أنْ يستشفه من

طبيعة الحدث.. والأسلوب متقارب لدرجة التطابق، حَتَّى تظن أنَّ الصياغة النهائية إنفرد بها أحدهما دون الأخر.. وأغلب الاحتمالات أنْ يكون هو المحجوب.. رغم المقدرات التي تميَّز بها دكتور حليم. فقد كان أديباً مطبوعاً قبل أنْ يهجر ذلك المجال ويتجه للإهتمام بالرياضة التي أبدع فيها. يمضي بك الكتاب صعوداً وهبوطاً ويتناول صورا شتى ومتنوِّعة عن الحياة السودانية خلال النصف الأول من القرن العشرين.. طلاب الكلية وما كابدوه إثر ثورة 1924 ثُمَّ الإضراب الشهير الذي سجَّل أول انتصار لهم وتراجع للإدارة البريطانية.. الجمعيات الأدبية وهي تشق طريقها.. نادي الخريجين وإحتفالات المتعلمين بالمناسبات المختلفة.. نماذج من الحكام البريطانيين وسلوكهم تجاه الأخرين. ولعل أطرف ما جاء في الكتاب وصف البعض منهم الذين كانوا يتصرفون كأنَّهم آلهة اليونان في جبال الأولمب. فروى بريطاني لا ينتمي لرجال السلك السِّياسي - يسخر منهم- قصة عن إمبراطور الرومان قال فيها «أقام الإمبراطور حفلة من حفلاته الدامية التي تدور رحى الحرب فيها بين الأسود الكاسرة والمسيحيين الأوائل، وقد تجمَّع حوله رجال الدولة وأعيان البلاد، وجيء برجل من أولئك المسيحيين المعذبين وأطلق الأسد عليه، ولكنه تمتم ببعض كلمات فوقف الأسد حائراً لا يحرك يداً، وغضب الإمبراطور لذلك وأشار إلى أحد وزرائه أنْ يتحرى عن السبب، فذهب الوزير واستفسر وعلم أنَّ الرجل قال للأسد: «أنا أحد رجال السلك السِّياسي في حكومة السودان» ولهذا صد الأسد عنه وتساءل الإمبراطور دهشا عن السر! فقيل له إنَّ الأسد لا يفترس إلَّا الآدميين فقال أليس رجال السلك السِّياسي في حكومة السودان آدميين؟ فقيل له: «عفوك يا مولاي إنَّهم أنصاف آلهة». كانت لهذه الدعابة أثرها في أوساط السودانيين حيث تضمنت كثيراً من السخرية والشماتة على تعالي الإنجليز وإحساسهم بالتفوق.

سرعان ما تنبه السادة الإنجليز إلى ما يدور في أوساط المتعلمين السودانيين

من ضيق وتبرم بأسلوب معاملتهم فإتخذوا سّياسة جديدة بالدعوة إلى حفلات الشاي في الدور الخاصة وفي سراي الحاكم العام التي قرّر السير استيوارت سايمز فتح ميادينها لأبناء الشعب مرّة كلّ أسبوع للترفيه عنهم. وكان يدعو المتعلمين وغيرهم إلى تلك الحفلات.. حسبوه ربما يرغب في الحديث عن قضايا البلاد وهمومها ويناقشها معهم.. إلّا أنّ الكلام كان ينحصر في أنواع الزهور التي تزين ميادين السراي وأنواع الطيور الوافدة من بلاد بعيدة والأخرى المستوطنة.. وأحياناً عن صيد السمك.

صدر هذا الكتاب لأول مرّة في أغسطس عام 1946، ثُمّ صدرت طبعة ثانية خاصة في عام 1986 بمناسبة الذكرى العاشرة لرحيل الأستاذ محمد أحمد محجوب.

26 نوفمبر 2002



غمامة تحت عمامة

في ذلك الصباح البعيد إصطبغت الآفاق بألوان أرجوانية يجللها سواد.. اعتلت كواكب في السديم.. إختلجت وديان وتقبضت قسمات سهول وتيبست لحاء الأشجار وتصوحت أوراقها.. حنت النوق وغاض الحليب في أخلافها وألقت أسراب الفراشات بنفسها على نيران الرعاة وأمسكت الطيور ببيوضها كأنها بانتظار زلزال مدمر.. وتراكضت نقانق تدفع برئالها أمامها مذعورة.. عوت ذئاب وأجفلت وعول.. أرزمت طبول وتجاويت أصداؤها، فطائر التم هوى من عليائه صريعاً على الفلوات.. تمدّد الشاعر ميتاً تحيط به هالة من النبل زرقاء بيضاء تتلألأ.. قضى شهيد مناقبيته وروحه الشفافة.. كان ذلك في أوائل العقد الثاني من القرن العشرين بمدينة الأبيض.. إنتقل النبأ الحزين من دغل إلى سهل ومن سهلٍ إلى دغل حَتّى ارتمى على بحر النيل مرهقاً وانداح على صفحته الصقيلة ثقيلاً كالزئبق فاختنقت الأسماك وتمشى النبأ في شوارع أم درمان فسيطر عليها سأم كثيف.

كان الديوان الملكي غاصاً بالوزراء والقضاة والأعيان وكبار الضيوف في الفاشر حاضرة دارفور والسلطان الشاب علي دينار بن زكريا يجلس على سرير الملك يحفه الجلال بعينيه الواسعتين المستديرتين تحدقان إلى الأمام نحو ذلك الرجل الوضيء الجالس في ثبات ويقظة تنمان عن علو الهمة، والكل غارق في الصمت، إلّا أنهم كانوا يدركون أنّ الأمر لَمْ يكن يتعلق بمحاكمة أو صدور قرار قاس بقدر ما هو عتاب يوجّهه السطان إلى صديقه الشاعر التاجر حامد ود محمد

الذي يغشى مدينة الفاشر مرتين في العام فينتظره السلطان على ما هو أحر من الجمر ويفسح له مجالاً في مجلسه ويستمع بحبور إلى مغامراته وأشعاره وأخبار «دار صباح» ولا يتركه يغادر المجلس إلا وهو محمّل بكلّ ماهو غال ونفيس. إعتدل السلطان في جلسته تتابعه العيون الخاشعة والمشفقة والتفت إلى حامد الشاعر معنفاً «أما سمعت ياحامد من قبل أنّ هدايا الملوك لا تُرد ولا تُهدى ولاتباع.. وأنا قد اصطفيتك دون سائر التجار القادمين من «دار صباح» صفياً ونديماً.. ولقد كانت قصيدتك الأخيرة في مدحنا درة زينت تاج ملوك الفور لذا اقتضت أريحيتنا مكافأتك عن جدارتك في قول الشعر ومعرفة مكانة السلاطين.. فلم أهديت كلّ ما منحناك إياه وعدت لا ترعى للملوك حرمة». لَمْ يرد السلطان إلّا أنْ يتحدث باقتضاب متحرقاً لأنْ يستمع إلى ردّ صديقه. هبَّ الشاعر واقفاً بقوامه السمهري الفارع ليرد على السلطان خلافاً لتقاليد البلاط التي تقتضي أنْ يكون حال المرء جاثياً على ركبتيه.. لَمْ يكن الحديث نثراً وإنّما شعر تأتى عفو الخاطر ببداهة وإحكام.. وتناثرت أبيات القصيد الفخمة تعدّد مآثر السلطان وترسل الاعتذار إرسالاً بتهذيب وترفع تؤكد غلبة الطبع وسخاء اليد الذي لا تقيده أعراف ولا تقاليد.

كانت غضبة السلطان مضرية لا تعرف التراجع ولا تقبل الاعتذار حيث رأى في موقف الشاعر بتوزيعه كلّ هداياه على فقراء مدينة الفاشر إهانة لا تليق بالملوك.. فأصدر أوامره الصارمة بمنع الشاعر التاجر من عبور دارفور مرّة أخرى. أذعن الشاعر، لملم أطرافه وغادر القصر ومن ثَمّ المدينة التي ظلّ يتحاشى المرور بها خلال رحلاته المنتظمة بين الأبيض ومناطق ودّاي وأفريقيا الوسطى.

ولدي عودته من رحلاته المتعدّدة إلى مدينة الأبيض التي كانت ترتدي له أغلى حللها وحليها تموج بالطرب الحفي وتغدو أيامها أعياداً. وكانت داره واسعة تحيط بها أشجار الدوم والدليب وسبيلان من الجرار الضخمة ملأى بالماء

القراح لعصائب الطير والسابلة.. والأبواب مفتوحة في أناء الليل وأطراف النهار تفيض بالأضياف وذوي الحاجات وجماعات الواغلين.. والموائد مبسوطة ودماء الذبائح لا تجف.. وعندما يرخي الليل سدوله يخرج متنكراً يغشى منازل الفقراء ممن لا يستطيعون الوفود إليه.. فيطرق الأبواب يوزع الأموال صرَّة فصرَّة على الأرامل والأيتام والمرضى حَتَّى لا يتبقى في يده شيء.. حالة أقرب إلى الأساطير ولكنها حقيقة.

أضحت دارفور سلطنة مستقلة عندما جثم الإحتلال البريطاني، إلّا أنَّ ريقه ظلَّ يتحلب وهو يترقب السوانح للوثوب عليها.. كان المفتش الإنجليزي لمدينة النهود في منطقة كردفان المجاورة يقعي على كرسيه الساعات الطوال يتسقط أنباء دارفور ليدبج التقارير الواحد تلو الآخر إلى حكومته بالخرطوم، يمهد السبيل لغزوة مرتقبة. في تلك السنوات المليئة بالهواجس والإحتمالات. كان حامد يروح ويجيء بقافلته التجارية الصغيرة يشق الفلوات.. ينحدر إلى واد ويرتفع إلى تل ويمر بالنهود في كلّ الأحوال.. كان تجار المدينة ووجهاؤها يتلقونه بالبشر والترحاب.. مغتبطين يتنافسون على استضافته.. وكان المفتش الإداري الإنجليزي يتحرق لرؤياه عله يقتنص شيئاً من الشاعر الحصيف ولكنه لا يلبث أنْ يرتد خائباً.. فالشاعر عندما يتردد اسم السلطان علي دينار يتهلل وجهه ويمتدحه شعراً ونثراً حَتَّى عندما عاد مغضوباً عليه ومطروداً من القصر الملكي.

ما كانت مخابرات الإدارة البريطانية لتغفل عن مثل حامد.. يجوب البلاد شرقاً وغرباً كمن يغزل لنسيج جديد وفجر مختلف.. فرصدته عيونها ظنته يزود دارفور بالسلاح. يجيىء به من ودّاي وأفريقيا الوسطى- تلك المستعمرات الفرنسية- ولكنها ما كانت لتستطيع أنْ تثبت ذلك فتحرشت بقافلة له وصادرت كميات من التبغ وسن الفيل كما صادرت منزلاً له بأم درمان.

انحدر الشاعر من أسلاف تجذرت عروقهم في أقصى شمال السودان.. وصفهم المؤرخون العرب بـ«رماة الحدق» لحذقهم في الرماية.. كانت نبالهم لا تطيش، ما تصيب إلّا حدقات العيون.. فعندما حاربهم المسلمون بعد فتح مصر أصابوا بنبالهم في ضحى معركة واحدة مائة وخمسين عيناً. فقأوها فاستحقوا عن جدارة وصف «رماة الحدق» فأعجبت المؤرخين بسالتهم ومضاء عزيمتهم. قال أحد هؤلاء المؤرخين وأظنه البلاذري «إنُّ نكايتهم لشديدة وسلبهم لقليل». كان كيدهم أبعد من ذلك في التاريخ، فقد فقأوا عيون جنود الفرس حينما حاولوا غزو السودان بقيادة أرونديت- نائب الأمبراطور دارا- في نهاية القرن السادس قبل الميلاد -خارج بلدة اسوان المصرية الحالية- ما طاشت سهامهم.. كانت الأحداق بغيتها فهزموهم وردوهم على أعقابهم فيما روى المؤرخ الحمصي اليوناني الكنعاني الأصل هيلودور.. هؤلاء «رماة الحدق» قبلوا الإسلام بالموادعة والمسالمة وكفّ المسلمون عن قتالهم بعد أنْ كتبوا المواثيق والعهود ولكنهم ما لبثوا أنْ أقبلوا على الإسلام.. وباتوا بعد ذلك من جنوده الميامين.. أشرعوا رايته وتدفقوا في أحشاء السودان يعلّمون الدين ويبتغون الرزق ويختلطون بالأهلين.. وعندما اندلعت الثورة المهدية في أخريات القرن التاسع عشر كانوا ضمن حداتها ووقود نارها.. انتصروا لها وانتصرت بهم وألقوا بالغزاة خارج الوطن وأقاموا دولتهم الوطنية وعاصمتها أم درمان. أقامت عائلة حامد بالعاصمة الجديدة في حي الشيخ محمد صالح ود أرو.. وهو خال الشاعر.. كان مقيماً بالأبيض وإنتقل إلى أم درمان شأنه شأن الكثير من العائلات التي رحلت مع الإمام المهدي وأقامت في المدينة الجديدة. أغلب الظن أنّ الشاعر كان لمّا يزل طري العود في ميعة الصبا عندما تفجرت الثورة المهدية فلَمْ يشارك فيها بنصيب وإنْ كان قد تنسم عبيرها الفواح.

ورث حامد كلّ شجاعة آبائه هؤلاء، سجاياهم، نبلهم وكرمهم الجموم، واجه

السباع في الآجام وانثنى يطارد الأشداء من قطاع الطرق هاربين أمامه.. وحَتّى الآن لاتجد فماً ثرثاراً في غرب السودان حيث للبطولات مكان إلّا ويتحدث عن حامد.. أطلقت قبائل كثيرة اسمه على أبنائها.. يتمنون أنْ يتجسّد في واحد منهم يوماً ما رغم مرور عشرات السنين على وفاته.. هذا القلب الصخري لَمْ يتحمل أنْ يرد طالب حاجة قصده من بعيد فتوقف عن الخفقان أي حينما أدرك حامد أنّه لا يستطيع أنْ يفي بغرض ضيفه ويمنحه ما يتمناه – لضيق ذات اليد– أسلم الروح كما طائر التم الذي يموت حالما يسقط في فخاخ الصياد.. فاكتملت الأسطورة.

5 ديسمبر 2000م



قديسة سودانية عاشت في إيطاليا

جوزيفينا بخيتة



جوزيفينا بخيتة

يتميَّز الدكتور منصور خالد دون معظم أقرانه من السِّياسين السودانيين بعمق الرؤية وفخامة الأسلوب فيأسر قارئيه سواء أنْ اتفقوا معه أم اختلفوا. ومنذ «حوار مع الصفوة»، ظلَّ يرتقي بكتاباته مغترفاً من معين الأدب العربي القديم وتاريخ الثقافة الإسلامية والإنسانية ومركزاً على تاريخ السودان، يتوغل في طلب المعارف ويغوص ويأتي بجديد كلما كتب. وفي يوليو الماضي حين شارك بكلمة ألقاها باللغة الإنجليزية في افتتاح المؤتمر الذي عقد في مركز جامعة كيمبردج بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لرحيل الزعيم السِّياسي والأديب الشاعر محمد أحمد محجوب تناول القضايا الخلافية التي لا تزال تشغل السودانيين وفي مقدمتها مسألة الهوية. وفي معرض حديثه عن الحضارتين النوبية والمسيحية أشار لتجربة أسطورية لامرأة سودانية من دارفور خاملة الذكر تدعى جوزيفينا بخيتة عاشت كرقيق في أواخر القرن التاسع عشر وجئ بها إلى الخرطوم بعد أنْ

تعرَّضت لعذابات مريرة على أيدي النخاسين. وكان خلاصها على يد القنصل الإيطالي العام في زمن الدولة التركية السابقة، الذي أخذها معه إلى إيطاليا حيث عُمدت وأُدخلت الدين المسيحي وسميت جوزيفينا إلّا أنّها أصرت على الاحتفاظ باسم بخيتة. انضمت بخيتة إلى «أخوات كانوسيان»، وأصبحت معروفة بالأخت السوداء.

وخلال الحرب العالمية الثانية قامت بأعمال إنسانية أثارت الإعجاب حين انبرت لحماية سكان بلدة ستيو خلال عمليات القصف، وبعد خمسين عاماً على وفاتها وفي عام 1992 طوبتها الكنيسة. وفي أكتوبر من العام الماضي سماها البابا قديسة لتنضم إلى قائمة قليلة العدد من القديسين السود. وقال الدكتور منصور خالد أنَّ الكاثوليك السود في كلّ أنحاء العالم ابتهجوا بهذه المناسبة - إلّا في السودان حيث تجاهل الإعلام الحكومي النبأ.

بدأ النشاط التبشيري للكاثوليك خلال سنوات الأربعين من القرن التاسع عشر، بعد عقدين من الحكم التركي. وتوالى على الخرطوم منذ عام 1843 مبعوثون كاثوليك من النمساويين والإيطاليين والألمان البافاريين. وبدأت تلك البعثة إقامة مبنى لها عام 1850 في الخرطوم، ومن ثَمّ توسّع نشاطها فأقامت محطتين بمنطقة البارية في بحر الجبل وفي بقعة ما بين شامبي وبور، ولكنهما أغلقتا بعد حين، وعندما عادت البعثة في عام 1872 إلى الخرطوم برئاسة الأب كمبوني افتتحت ثلاث محطات في بربر والأبيض والدلنج بجبال النوبة. فتك داء الملاريا بسبعة عشر من أفراد البعثة فأخلت محطة بربر، ثُمّ انسحبت نهائياً إلى القاهرة في ديسمبر 1883 بعد هزيمة حملة الجنرال هكس في براري كردفان.

كان افتتاح القنصلية النمساوية في الخرطوم يرتبط بأهداف البعثة الكاثوليكية. وكان أول نائب لقنصلها هو الدكتور رتز الذي وصل إلى الخرطوم في مارس

1851 وعرف بصلاته الواسعة مع الكثير من مشايخ العرب بمنطقة الخرطوم. أما هانزل الذي شغل المنصب في عام 1853 وجاء للتدريس في مدرسة البعثة الكاثوليكية فقد إمتدت إقامته حَتَّى سقوط مدينة الخرطوم في يناير 1885. وقد ترك أبحاثاً قيمة في الجغرافيا والانثروبولجي نشرتها المجلات العلمية في النمسا وألمانيا. وكان رجلاً إجتماعياً يستضيف السائحين والمكتشفين في منزله، كما يتحدث العربية ولغة البارية.

ركزت البعثة الكاثوليكية على التعليم، وكانت ترمي بذلك إلى تنصير الأطفال الأرقاء فأنشأت مدرسة ضمتهم مع بعض الأطفال البيض والمولدين، إلَّا أنَّها لَمْ تستمر طويلاً فأقامت مدرسة أخرى في عام 1850 لتدريس القراءة والكتابة والحساب والموسيقى والأشغال اليدوية واللغات العربية والفرنسية والإيطالية. وبعد أعوام قليلة شهدت المدرسة تقدُّماً وازدهاراً فأضيفت مواد جديدة لمقرَّرات الدراسة كالتربية البدنية والفنون الجميلة والغناء كما أُلحق بها قسم تجاري في عام 1859. والتحق خريجوها بالمصالح الحكومية. وقد اهتمت المدرسة بالتعليم المهني فاستحدثت أقساماً للتجارة والحياكة والحدادة وصناعة الأحذية يشرف عليها خبراء إيطاليون.

وكان المهندس سبادا يدرس علم الميكانيكا للتلاميذ الذين يظهرون كفاءة ومهارة. وكان هؤلاء التلاميذ يعملون في الترسانة بعد إكمال الدراسة. وفي السنوات اللاحقة توسعت المدرسة في قبول التلاميذ، ذكوراً وإناثاً، حَتَّى بلغ العدد في عام 1878 ثلاثمائة ولد ومائتي بنت.

تماهت البعثة الكاثوليكية مع الموقف العالمي المنادي بإبطال تجارة الرقيق وإستخدمته لتحقيق أهدافها في تنصير الأهالي، فتوسُّعت في شراء الرقيق وتربيته تربية دينية للإستعانة به في التبشير بمناطقهم. كما شجعت الرقيق على

الهرب وأنشأت من أجل ذلك ملجأ بدار الإرسالية لإستقبال الهاربين. ويزعم الكونت الإيطالي لويجي بنازي الذي زار الخرطوم قبيل الثورة المهدية أنهم نجحوا في تحويل الرأي العام بالسودان ضد تجارة الرقيق.

ومما لا ريب فيه أنَّ البعثة الكاثوليكية دأبت على تنصير المسلمين. وقد تَمَّ العثور على فتية وفتيات من تلاميذها تختلط أسماؤهم الإسلامية بالمسيحية، وبخيتة مثال واضح لذلك، كما كانت هناك فتاة سودانية تدعى كاترين زينب أجول استعانت بها البعثة في معرفة لسان الدينكا، ويبدو من اسمها أنّها كانت مسلمة وتنصرت.

وقد برز من تلاميذ البعثة القس الدينكاوي دانيال سرور الذي ألَّف أكثر من عشرين كتاباً عن عادات قبيلة الدينكا لَمْ يبق منها سوى كتاب واحد موجود الآن بمكتبة المخطوطات بمجمع آباء فيرونا. ذلك إلى جانب التقارير والمراسلات والمذكرات التي أعدها أفراد البعثة والتي تزخر بها مكتبات جميعات البعوث الدينية في إيطاليا وخاصة في ذلك المجمع. وقد قام الأب الياس توفيولو الذي تولى التدريس في كلية كمبوني بالخرطوم مراجعة تلك الوثائق واودعها في مخطوط بعنوان «الأعمال الجغرافية وغيرها الخاصة بالبحث عن الاجناس البشرية التي قام بها مراسلو الإرسالية الكاثوليكية الأفريقية الوسطى (1846 – 1898). وتتضح إهمية هذا المخطوط فيما تضمنه من الكشوف الجغرافية التي قام بها أفراد البعثة الكاثوليكية والتي لَمْ تتعرّض لها كثير من كتب الرحالة التي تناولت هذا المجال. وكان قد فقد الكثير من التقارير المهمة التي كتبها أفراد البعثة من بينها تقرير كتبه أحد الآباء في عام 1848 عن جزيرة سنار.

السودان عرف المسيحية قبل كل مكان، وكان أول سوداني يعتنقها هو وزير خزانة الكنداكة، ملكة مروي، حوالي عام 35م – أي بعد عامين من وفاة السيد

المسيح. وقد وردت قصته في سفر لوقا، وهي قصة شيقة أوردناها عدة مرات فيما كتبنا حول هذا السياق، ويذهب بعض المؤرخين إلى أنَّ السودان شهد انتشارا للمسيحية قبل أنْ يحدث ذلك رسمياً في المناطق الأخرى، وقد تَمَّ العثور على وثائق تثبت أنَّ ذلك يعود إلى حوالي عام 450م. وفي أوائل سنوات السبعين من القرن الماضي تَمَّ اكتشاف لوحة حجرية في البركل أقامها رجل يدعى يوانس وزوجته اليصابات تذكاراً لابنتهما نيوسيس المتوفاة، ويعود تاريخها إلى ما بين 300 و500م. والواضح أنَّ يوانس واليصابات اسمان مسيحيان من أصل عبري، اما الصورة الرسمية التي وصلت بها المسيحية إلى السودان، والتي تردّدها كتب التاريخ، فهي مبادرة ملوك القسطنطينية بارسال وفود التبشير.

وازدهرت المسيحية في السودان وتجسّدت في مملكتي المقرة وعلوة ولكن لا يزال الغموض يلف الملابسات التي أدت إلى زوالها إلا من بعض الإشارات العابرة من الرحالة الذين زاروا السودان في أيام اضمحلالها التدريجي حَتَّى اختفائها في الفترة ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر.

فقد كتب القس البرتغالي الفاريز الذي زار إثيوبيا عام 1250 م أنّه عندما كان في بلدة غندار وصل بعض القساوسة والرهبان من السودان يرغبون في تعلُّم مبادئ الدين المسيحي، وقالوا إنّهم كانوا يتلقون كلُ شيء من القسطنطينية ولكن بسبب الحروب وموت جميع رجال الدين انهارت المسيحية في السودان.

وقال الفاريز إنْ يوحنا الطرابلسي الذي كان يصحبه وسبق أنْ عبر منطقة بلاد النوبة شاهد أكثر من مئة وخمسين كنيسة معظمها مبنية داخل القصور وجدرانها مزدانة بصورة السيدة العذراء والحواريين، وتلك الشهادة أثبتتها الآثار التي تَمَّ إكتشافها في النوبة أخيراً.

ومن عجب أنَّ أحد القسيسين في مصر كتب في عام 1742 أنْ بعض البرابرة

القادمين من جزيرة تنقاسي، الواقعة تجاه دنقلا العجوز التمسوه وطلبوا منه أنْ يعطيهم بعض الصلبان لحماية أطفالهم. ومن المستبعد أنْ تكون المسيحية قد إستمرت بعد سقوط دنقلا العجوز في حوالي 1326. الراجح أنّ هؤلاء الناس كانوا يتخذون من الصلبان تمائم حسب معتقداتهم التي سبقت الإسلام ولا بدّ من التأكيد من أنّ المسيحية قد زالت من الوجود في السودان ككنيسة منتظمة في أوائل القرن السادس عشر حين انتصر الحلف الذي قاده عمارة دنقس وعبدالله جماع على النوبة المسيحيين وسقطت مملكة سوبا في عام 1504م. وعندما مرّ الرحالة اليهودي داؤد روبين عام 1526 على سوبا وجدها خراباً إلّا أنّه رأى بعض سكانها يعيشون بين الأنقاض. وإستمر اسم العاصمة المسيحية في بعض القرى الواقعة في منطقة الروصيرص. كما أنّ هناك سوبا أخرى قرب «أبوجماي» حيث يسكن بعض الهمج الذين انحدر أجدادهم من المدينة القديمة، واحتفظوا باسمها. وقيل إنّ بعضهم لا يزال يردد عند القسم «أحلف بسوبا دار الجد والحبوبة اليطفح الحجر ويغطس الكركعوبة».

الفتى الذي فقدناه في ناشفيل

رينقو باولينو دينق

«مات هناك في رحاب النور صديقنا
فتى من الجنوب اسمه ميور
تراه في الصباح كتحية الصباح
يدخل البهجة في الأرواح والسرور
مؤتلق الأسنان في ابتسامة كأنها سرب من الإوز
انتظمت رووقاً على صفحة نهر الجور»

الشاعر صلاح أحمد إبراهيم

تجمّع عدد غير قليل من اللاجئين السودانيين في شقة السيدة فكتوريا في مجمع سكني بمدينة ناشفيل في ولاية تينسي..إفترشوا الألحفة والبطاطين وأسندوا ظهورهم إلى الجدران.. كانوا حزانى صامتين تلفهم الكآبة والإحساس المرير بالغربة .. وذلك خلال مشاركتهم لتلك العائلة التعيسة أحزانها في وفاة الفتى رينقو باولينو دينق الذي لقي مصرعه على يد مهاجر لاتيني يدعى راؤول كونزاليس سيلفيا. طعنه بسكينه حتّى الموت. لمْ يكن دينق قد تجاوز التاسعة عشر.. إلّا أنّه كان شهماً كريماً ذا مروءة ونجدة وسخاء.. تحدث عنه أصدقاؤه المهاجرون السودانيون لوكالات الأنباء.. قالوا إنّه كان أخاً لنا ووقف إلى جانبنا وقدم إلينا الطعام والكساء، وانخرطوا في بكاء مرير. حلّ دينق بناشفيل قبل عام ونصف العام بصحبة عمته وعميه وجدته.. جاءوا من القاهرة حيث تركوا والدي

دينق هنالك وأقاموا في شقة تتكون من غرفتين في ذلك المجمع السكني الذي ضمهم مع مهاجرين لاتينيين. يعتمد اللاجئون السودانيون على مساعدات الأهل والأصدقاء والبعض الآخر يعتمد على المؤسسات الخيرية. كان دينق يحلم بالحصول على منحة جامعية يوفرها له فريق كرة السلة الذي سينضم إليه. وقد إلتحق بالفعل بمدرسة هيلسبورو العليا لتطوير لغته الإنجليزية ولكنه سرعان ما هجر الدراسة حين عثر على وظيفة ثابتة بدوام كامل بأحد المخازن التجارية الكبيرة.. كان عمله في مرآب السيارات حيث يقوم بتنظيم حركتها وتوقفها المؤقت فيه إلى حين فراغ المتسوقين في المخزن. كان قد نشب العراك بينه وبين غونزاليس على مترين من الأرض في حين ترك خلفه مليوناً من الأميال المربعة هي مساحة بلاده التي ضاق بها وبحروبها المتجدّدة. لَمْ يكنْ يصدق أنه قد نجا بجلده من جحيم الحرب في الجنوب. وإعتقد أنّه حلّ بربوع ملؤها الأمن والطمأنينة والعيش الهنئ في بلاد « العم سام »

وفي فبراير الماضي كانت قد وقعت حادثة راح ضحيتها فتى آخر هو جيمس مشار جيو الذي ساقته المنية إلى ولاية أريزونا في إطار برنامج لإعادة توطين آلاف الأطفال والمراهقين السودانيين اليتامى ممن فقدوا أسرهم في دوامة الحرب اللعينة. حافلتان تصادمتا في عرض الطريق فهوت إحداهما على جيو الواقف على بعد بضعة أمتار بانتظار وسائل النقل العام ليعود إلى شقته بعد عناء يوم حافل عقب نهاية الدوام. كان محملاً بالمواد الغذائية والأطعمة التي يجلبها لزملائه. قبل وقوع المأساة كان قائداً لمجموعته ومستودعاً لأسرارها واحتياجاتها وما تحصل عليه من أموال قليلة. كان يتميّز بروح التصميم والمعنويات العالية. وعقب وفاته الفاجعة جلسوا حيارى يائسين يسألون عن سبب عدم إعتقال السائق مباشرة لإنزال العقوبة به وعن عدم السماح لأصدقائه بمرافقة جثمانه إلى المستشفى في سيارة الإسعاف، وعن عدم دفن جثمانه مباشرة بعد الوفاة. وقد

أدرك مدير لجنة الإنقاذ الدولية في فوينيكس روبن دون ماركوس أسباب حيرتهم وتساؤلاتهم وأرجعها إلى أسبابها الثقافية حيث أنهم يعيشون في واقع مغاير بقوانينه وأنماط سلوكه.

في عام 1841كتب المفكر المصلح والشاعر الأمريكي إيمرسون يقول « لَمْ يكن لنظرية الإصلاح يوماً في تاريخ العالم ما لها في وقتنا الحاضر من مجال فإنَّ كافة المصلحين السابقين كانوا يوقرون بعض النظم والمؤسسات الكنسية أو الدولة أو التاريخ أو التراث بيد أنَّ هذه جميعاً وكافة الأمور الأخرى المسيحية والقوانين والتجارة والمدارس والمزرعة والمعمل - تسمع الآن صفير الصور «نفير البعث» فلتهرع إلي الحساب- وما من مملكة أو مدينة أو تشريع أو شريعة أو دعوة أو رجل أو إمرأة إلا تهدده الروح الجديدة ».كان ذلك الزمن الذي تحدث فيه إيمرسون زمن تذمر لا حدود له وأمل لا نهاية له لذا توجَّه أيضاً بهذه الدعوة لمواطنيه «علينا أنْ نعيد النظر في كلِّ بنياتنا الإجتماعية: الولاية والمدرسة والدين و الزواج والتجارة والعلم وأنْ نستكشف أصول طبيعتنا الخاصة ».

كان ذلك زمن تحديات كبرى واجهت المجتمع الأمريكي الذي كان يحتمل في حالة التكوين والمخاض العسير فنهض المصلحون رجالاً ونساء لتشكيل المجتمع المدني الذي يسع الجميع ويحد من ضراوة الغلاة والمستبدين. وانصرفوا بنشاط عارم وعاطفة صادقة حارة عزَّ نظيرها في التاريخ وعكفوا على إزالة العقبات. وإتجه إيمرسون وأضرابه إلى تخليص الكنيسة من التعصب والطقوس ليعودوا بها إلى المبادئ الأخلاقية العظيمة الكامنة في قلوب البشر وعملوا على محو الأمية وحلِّ مشكلة تعليم البنات وإتجهوا إلى الطبقة الفقيرة الرازحة تحت نير الرأسمالية الزراعية والصناعية البازغة. وكانت المرأة مسحوقة مستضعفة فتكاتف عدد من المصلحين مع نساء جسورات وأطلقوا حملة من أجل حقوق النساء في المحاكم وفي السّياسة وفي الأعمال والمدارس. وقادت

دوروثيا ديكس حملة من أجل المصابين بالجنون وأنشأ غيرها معهد بيركنز للعميان وأقام توماس جالوديت مدرسة للصم وصور تشارلز لورينج برس مأساة الأطفال المتشردين في شوارع المدن الكبرى.

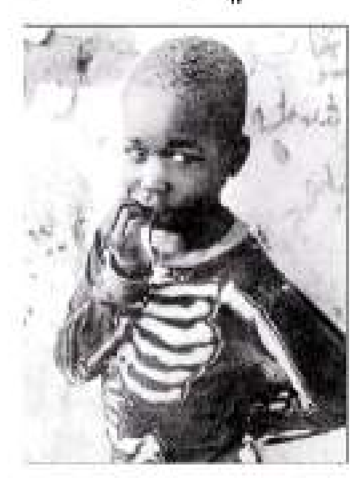
إقتنع هؤلاء المصلحون بأن للإنسان قيمة لا حدود لها وعملوا على تجنيبه ويلات الحرب ونادى أحدهم بأنه « ما من حرب مشرّفة، وما من سلام غير مشرّف». انتصرت هذه المبادئ وخلقت مجتمعاً متماسكاً رغم تباين أعراقه وتقدّمت هذه الأمة حَتّى بلغت صدارة الأمم ولكنها ما زالت تعاني من التشوهات التي لا تقعد بها كثيراً حيث ما زال كثير من المضطهدين يلوذون بها فارين من جحيم بلدانهم. إنّ هذه التجربة في طريق تقدُّم الإنسانية لحرية بالإهتمام وهذا المجتمع المدني لا يفتأ يتماسك رغم ضراوة السلطة وتغول الرأسمالية الشرسة على مسيرة الحياة وأقدار الناس.

نحن في السودان نحتاج لمثل هؤلاء المصلحين.. لرجال يؤرقهم الظلم وتهزهم صوُر إهدار الإنسانية فلا محيد عن توقف هذه الحرب.. فنحن لا نريد أنْ يقتل بعضنا البعض نحن نريد السلام. وإذا كان هناك أمراء للحرب أياً كان جانبهم تدفعهم شهوات التسلُط وتركبهم نزعات القتل والتدمير وقهر الآخرين فليرفعوا أيديهم عن مستقبل هذا الشعب الطيب المسالم الذي لَمْ تبق له الحرب سوى الحقد والدمار. ولينهض الجميع من أجل قهر الحرب ووأد العنف ولتصمت المدافع وتغرد الطيور وتقرع الطبول وترفرف رايات السلام ويفرح الجميع ولتعد السيدة فكتوريا – عمة المغدور رينقو باولينو دينق – من منفاها في ناشفيل إلى قريتها في الجنوب.

7 أغسطس 2001م

مدرسة رمبيك..

حنين جارف إلى الماضي والسلام



الطفل جابرييل

اعتدنا أنا وجابرييل على تسميتهما الأستاذ والمهندس لأن الأول حصل على شهادة الدكتوراة من مصر والآخر لأنه أشرف على إعادة إعمار عدد من المباني. لَمْ نرهما لعدة أيام وكان ذلك أمرا غير عادي فلقد كُنَّا نشاهدهما بانتظام حول مباني المدرسة حيث كانا طالبين قبل سنوات عديدة. ومنذ عودتهما إلى رمبيك ظلا دائما يطوفان حول الفصول الخالية، يناقشان الكيفية التي تمكنهما من إعادتها إلى أحوالها السابقة. ولما كُنَّا انا وجابرييل نتمنى أنْ نكون طالبين في هذه المدرسة فقد كانت تسعدنا الأوقات التي تجمعنا بهما، وقد كانا لا يبخلان برواية القصص المتعلقة بماضي المدرسة وكيفية سير الأمور في أيامها الخوالي، لذا فقد ازعجنا غيابهما غير العادي. كان الأستاذ والمهندس عجوزين فقد مضى حوالي نصف القرن منذ أنْ كانا طالبين في هذه المدرسة. استبد بي القلق وذهبت بي الظنون إلى أنَّ أحدهما أو كليهما سقط طريح الفراش بسبب المرض. وأوغلت في الظن إلى

درجة القلق على حياتهما. ولما مضت الأيام تعاظم الإعتقاد باحتمال وفاتهما. وكثيرا من الأحيان كنت أجد نفسي مستلقياً وسط الحشائش في غابة أشجار التيك تضايقني حرارة الجو فأسرح بعيداً بخيالي حَتّى أنسى وجودي بهذه الحالة، وكثيرا ما كنت أستعيد إحاديث الأستاذ والمهندس.

كان الأستاذ يقول «بشكّل عام فالنساء إضعف من الرجال، فإذا قتل طفل أمام إمرأة فإنّها بلاشك تنفجر بالبكاء، ولكن الرجل لا يفعل، ويصف المهندس اليوم الذي عاد فيه إلى مدرسة رمبيك الثانوية بعد أنْ استعاد الجيش الشعبي المدينة من القوات الحكومية، «كان المكان الأول الذي زرته هو صفي توجّهت إليه مباشرة وعندما وقفت أمامه انفجرت باكيا».

ولما إستعدت أحاديثهما تلك أحسست وكأنّهما يحددان لي الكيفية التي ينبغي أنْ اتصرف بموجبها عند سماع نعيهما. كنت أحسُّ بالحزن الذي قد يفضي إلى البكاء ولكني كنت اتماسك وكان ذلك أمراً معقولا حيث إنّ عمري الآن يتراوح بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة واتوقع أنْ اتصرف كرجل أكثر مما افعل كامرأة أو طفل.

قبل سنوات عديدة قرَّر البريطانيون أنّ الجنوب السوداني يحتاج إلى مدرسة ثانوية إلى جانب المدارس التبشيرية التي كان غرضها الأساسي الدعاية الدينية. ولما طرح النقاش لتحديد موقع المدرسة على مديري مديريات الإقليم اقترح مدير الاستوائية، رمبيك لإعتبارات عملية من بينها أنّ موقع المدينة مناسب ويسهل الوصول إليه كما أنّها تستطيع إمداد المدرسة باحتياجاتها الغذائية. كما أوضح أيضاً نوعية الهدوء الفريد الذي تنعم به المدينة الأمر الذي سيكون مثالياً لتلقي الدراسة. وهكذا تمّ إختيار رمبيك وتقرَّر إقامة المدرسة في أحد أطرافها قريباً من الطريق الرئيسي في نهاية الشارع الذي تحفه أشجار المانجو، وهي عبارة عن تلك المباني التي تتباين علواً وانخفاضاً. وفي هذا المكان في رأس شارع أشجار المانجو رأيت

المهندس يقف هناك بعد غيابه الذي استغرق عدة أيام.، كانت المسافة بعيدة لأتبينه بوضوح ولكني لَمْ أخطئ هيئته النحيلة، كان يقف ورأسه يرتفع قليلاً ليتأمل الكتابة الباهتة في أعلى المدخل الرئيسي للمدرسة. كنت معتاداً على رؤيته على هذه الحالة. وفي داخل المدرسة يقضي المهندس وقته يتفقد المباني، وفي بعض الأحيان كان يحاول تقدير الأضرار التي لحقت بها ليرى ما إذا كان هناك أمل في صيانتها ولكنه في معظم الأحيان كان يتذكر تلك المباني في ماضيها الزاهر حين كان طالباً، وعندما تأكدت من وجوده تبدَّدت مخاوفي وسعدت بوجوده حباً ومن ثَمَّ توجُهت إليه على الفور. وعندما خطوت قليلاً نحوه غادر المكان سالكاً طريقاً قصيراً إلى الفناء الأمامي ثُمَّ انعطف إلى اليمين ليختفي حول أحد الأركان، لَمْ أشأ أنْ أناديه تهذيباً ومراعاة لفارق السن بيننا ولكني أسرعت الخطى. وعندما وصلت إلى الفناء رأيت المنصة التي كان يقف خلفها ناظر المدرسة خلال الاجتماع الأسبوعي الذي يضم جميع الطلاب والمعلمين في الهواء الطلق كما رأيت عربة عسكرية من ناقلات الجنود مفرغة الإطارات مفتوحة الأبواب. ولكني لَمْ أقف على أيّ أثر للمهندس. ويبدو أنني لَمْ أسرع بصورة كافية فقد اختفى في أحد المباني العديدة أو المداخل التي تمكن من تجاوز الفناء كما لَمْ استطع أنْ أميز الطريق الذي سلكه.

مدرسة رمبيك واسعة وضخمة وليس فيها فناء واحد بل عدة أفنية تحيط بالفصول والداخليات التي كانت في يوم من الأيام تسع ألف طالب. وتمتد المباني لتشمل منازل المدرسين والموظفين والعمال والناظر ونائبه، ذلك بالإضافة إلى المرافق الأخرى كالمطابخ وقاعات الطعام والحمامات وبيوت الأدب وبعدها تمتد ميادين النشاط الرياضي بمختلف أنواعه، وكانت هناك كنيستان إحداهما كاثوليكية والأخرى بروتستانتية. ولمَّا كانت هناك عدة إتجاهات استطيع أنْ أسلكها إلا أني إخترت التوجُّه إلى الأمام مباشرة وكنت إنتقل من ظلٍ إلى مكان مكشوف حَتَّى تراءى لي مسجد كان قد شيَّده الشماليون بالطوب الأحمر. وقف الأستاذ على بعد

عبدالله الطيب - أقال الله عثرته - في رثائه.

عبدالرحيم فقدناه فوأسفا أخا المعارف والرأي الذي حصفا

اللوذعي الدقيق الحس ذا البصر اللماح والمثل العليا بها اتصفا

أما يوسف مصطفى التني فمازالت قصيدته «في الفؤاد ترعاه العناية» تبدِّد القلق السّياسي وتشيع الاطمئنان كلما ألمت بالبلاد جائحة من الجوائح. ثُمّ كان هناك عبدالله عبد الرحمن نقد الله القيادي المبدع والشاعر النحرير الذي حمل سجايا أمته ومناقبها في الشجاعة والبذل وإباء الضيم، وعبدالله خليل العسكري المثقف والإنسان العامر بالخير والمودة - لَمْ يتمكن معاصروه من رؤية قدراته الإنسانية حجبتها عنهم المكايدات السّياسية. وهناك أيضاً أمين التوم الذي ضرب سهماً وافراً في الاستقامة وحسن الخلق.

غير هؤلاء كثير -إذا أردنا حصرهم- عمروا المحافل بالمعرفة والأدب ونبل الأخلاق متجردين من الهوى متعففين عن لعاعات الدنيا ما اغتنموا - حين تسنموا المناصب- ولا مكنوا أبناءهم من نهب ثروات البلاد ولا حكّموهم في رقاب الناس.. قضوا واحداً تلو الآخر - دونما ضوضاء - وتركوا حسن الأحدوثة. الآن أبناؤهم وأحفادهم متفرقون في شعاب الأرض يبتغون الرزق الحلال رغم مؤهلاتهم العالية.

مكتبة مصطفى سعيد التي ورد وصفها في رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» ما هي إلّا مكتبة القانوني الضليع محمد صالح الشنقيطي التي أهديت إلى جامعة الخرطوم. روى كاتب الرواية أنّه رآها ذات يوم خلال زيارة لمنزل الشنقيطي بأم درمان فنقل صورتها كما هي في عمله الروائي، تنوّع وغنى في المعارف ومخطوطات نادرة قلّ أنْ تجدها في مكتبات الأفراد. خالها بعض النُقّاد العرب أنّها تُعبّر عن ثقافة الكاتب وثراء المعرفة التي اغترف من معينها.

أمتار منه. اعترتني الدهشة لمرآه مثلما حدث حين رأيت المهندس يقف تحت مدخل المدرسة وكان إلى جانبه جابرييل الذي أميزه بقميصه الـ «تي شيرت» الذي يرتديه ويتدلى في جسمه الضئيل حَتّى يغطي سرواله القصير.

كانا لا يتبادلان الحديث، فالأستاذ ينظر إلى مكان خلف المسجد، أما جابرييل فقد كان يواجهني. ولمّا كان المهندس قد ضاع مني أردت أنْ أركض نحو الأستاذ حَتّى لا يختفي عن ناظري هو الآخر، ولكني ترددت. فعند منتصف المسافة كانت هناك بئر مفتوحة ذات فوهة واسعة تبتلع سيارة، وعميقة إلى الدرجة التي يمكن أنْ تغيبها إلى الأبد لذا تفاديت الركض في تلك المنطقة الخطرة، فإذا سقطت لن يكون بوسع أحد إنقاذي. وفي خلال المعارك التي جرت في المدينة تلوث عدد من الآبار بالجثث التي ألقيت فيها لذا بدلاً من الركض لوحت لجابرييل وظننت أنّه إذا لوح لي أيضاً فإنّ الأستاذ سيلتفت ناحيتي ويراني، وربما يكون سعيداً برؤيتي كما أكون أنا أيضاً. فخطرت لي فكرة أنّه ربما يكون من وجهة نظر الأستاذ أنا هو المفقود خلال الأيام الماضية، ولكن جابرييل لَمْ يلوح لي، ليس ذلك فقط، ولكن بعد لحظة تلويحي تحرك الأستاذ مثلما فعل المهندس وبعد ثوان قليلة كان قد اختفى خلف المسجد وتوارى عن الأنظار.

عبرت الفناء حَتّى اقتربت من جابرييل حيث استطيع أنْ أكلمه دون أنْ أرفع صوتي، فسألته عن سبب إحجامه عن الرد عليَّ بالتلويح.. ولكنه أجاب بكلمات غامضة ثُمّ أردف قائلاً «إذا كنت تريد المهندس فقد لمحته الآن يتوجّه نحو قاعات الطعام».

تحركنا سوياً حيث لَمْ يكن لدى جابرييل خيار أفضل من السير معي. لَمْ أكن اتوقع أنْ أجد المهندس في قاعة الطعام، وكما أسلفت القول إنّ الهم الأساسي للمهندس هو صيانة المباني ولكن قاعات الطعام كانت تحتاج لما هو أكثر من ذلك..فقد كانت بلا سقوف وجدرانها مدمرة تماماً وحَتّى إذا كان الحنين قد إستبد

بالمهندس فلم يكن المكان مناسباً لاجترار الذكريات. أما الأرضيات فقد إستخدمها الأطفال مكاناً لقضاء الحاجة.. فلا يستطيع المرء أنْ يتحركَ دون أنْ ينظر إلى الأرض متلمساً طريقه. كما كانت رائحة المكان لا تحتمل. وعندما وصلنا إلى قاعة الطعام كانت خالية، وكان كلُّ ما يستطيع المرء رؤيته هي رسومات بالفحم لأشخاص يتبادلون الضربات بالكاراتية رسمها جنود تملكهم اليأس والضجر.

هل أنت متأكد أنَّك رأيت المهندس يسلك هذا الطريق؟. سألت جابرييل فهزَّ رأسه ولَمْ يجب لأنه كان يغطي أنفه وفمه بساعده تفادياً لتلك الرائحة. فأعدت السؤال ضجراً «أنت لست متأكداً أنَّك قد رأيته؟»، فأجاب «رأيت شخصاً ولكني لست متأكداً ما إذا كان هو المهندس، ربما يكون شخصاً آخر».

تحدثت إلى جابرييل بحدَّة، ولكن في اللحظة التي أكَّد فيها أنَّه لَمْ ير المهندس رأيت الأستاذ للوهلة الأولى بدا شكله من خلال نافذة قاعة الطعام. وعندما حاولت أنْ اقتفي أثره لَمْ أعثر عليه، كما أنَّ الفناء كان خالياً. وللحظة كنت فيها مصاباً بخيبة الأمل رأيت ظلاً يتسلل داخل إحدى الداخليات. كان المدخل يؤدي إلى غرفة تمتلئ جدرانها بالثقوب التي أحدثتها آلاف الطلقات، كما كانت أغلفة الرصاص تتناثر على الأرض.

خرجنا من الغرفة وتحركنا قليلاً وبدا ينتابني هاجس بأنَّ ما شاهدته كان شبحي العجوزين إلاَّ أنني رأيتهما فجأة مرَّة أخرى يقفان سوياً ويتحدثان. حينذاك لَمْ اتمالك نفسي فركضت نحوهما، حاولت أنْ الفت انتباههما، يشدني شوق عارم إلاَّ أنَّهما كانا منهمكين في الحديث، ولكن كان يكفيني من السعادة أنهما لا يزالان على قيد الحياة. كان حديثهما ينحصر في غابة التيك وكيفية إعادتها إلى وضعها الأول حين كانت ملاذاً مفضلاً للطلاب أيام زمان يهرعون إليها للمذاكرة يتفيأون ظلال أشجارها الوارفة. اما الآن فالألغام الأرضية باتت عائقاً وضحاياها من الناس يتزايدون يوماً بعد يوم. وأخيرا إفترقا، المهندس إلى منزله ليتناول شيئاً من الطعام

والأستاذ جلس على كرسيه مولياً وجهه صوب المدرسة يراقب مبانيها في سكون وصمت.

نشرت صحيفة «الديلي تلجراف» هذه القصةفي الأسبوع الماضي بعنوان «مدرسة رمبيك الثانوية» كتبها أحد الصحافيين يدعى أليكس جارلاند. كان هو ومجموعة من زملائه قد زاروا جنوب السودان في أوائل هذا العام تلبية لدعوة يبدو أنَّ الصحيفة تلقتها من الحركة الشعبية للوقوف على الدمار الذي الحقته الحرب الأهلية بتلك المنطقة. لَمْ يشحن هذا الكاتب البريطانيِ قصته بكثير من الدلالات السِّياسية أو الانحياز إلى جانب. إتخذ فيها منحى إنسانيا وذروة المضمون تكمن في بشاعة الحرب وما تصنعه بالإنسان، زماناً ومكاناً، كما تكمن في الحنين إلى الماضي والأشياء التي ترتبط بالطفولة والصبا. لا ريب أنَّ هذه القصة ليست من نسج خيال كاتبها بل هي واقع رآه وعاشه خلال تلك الزيارة. ومدرسة رمبيك احتلت جانباً عزيزا في وجدان خريجيها من إخواننا الجنوبيين مثلما فعلت وادي سيدنا وحنتوب وخورطقت، وغيرها من المدارس العريقة التي تألقت في ذلك الزمن السعيد، في نفوس خريجيها من الشماليين.

الصحافيون البريطانيون الذين صحبوا أليكس جارلاند كتبوا قصصاً ومقالات تَمَّ جمعها الآن كما ذكرت «الديلي تلجراف » وصدرت في كتاب سيعود ريعه إلى أعمال الإغاثة في جنوب السودان.

13 نوفمبر 2001

موت حُلم



جراهام توماس وقرينته ازماي

جراهام توماس رجل بريطاني شاءت ظروفه أنْ تقوده يوماً إلى السودان. كان ذاك في أواخر أربعينات القرن العشرين والبلاد في أقصى درجات مزاجها الثوري تتهيأ لمخاض عظيم.. بعد أنْ تراكمت تجاربها ونضالاتها وباتت قاب قوسين من نصر وشيك.. ويبدو أنّ السيد جراهام كان قد بُعِث مستشاراً للتعليم فحزم أمتعته ودلف إلى القاهرة ومن ثَمّ إلى الخرطوم فانبهر بتلك العاصمة العربية - الإفريقية..ما دار بخلده أنّه سيرى مدينة بمثل تلك الأبهة داخل القارة بعد عاصمة المعز.. مدينة جميلة نظيفة ومنظمة تتمتع بجميع الخدمات الضرورية وأكثر. أدهشه معدن أهلها، وخاصة تلك الطبقة الوسطى - وصفها بالمخملية معجباً - والتي كانت منهمكة في تشكيل مجتمعها المدني. لَمْ يجد صعوبة في الولوج إلى مؤسسات ذلك المجتمع والاتصال بالقائمين عليه من شخصيات إجتماعية وسّياسية وثقافية - إلّا أنّ ارتباطه الأوثق كان بالإمام عبدالرحمن

المهدي الذي كان قد بلغ ذروة تألقه وعطائه الغيداق. أخذ يتردّد على مجلسه العامر الذي ضمّ الصفوة من كبار المتعلمين والمثقفين.

كان الإمام عبدالرحمن منذ يفاعته ولوعاً بالعلم والعلماء متصلاً ببقية الكرام ممن عاصروا الدولة المهدية وعملوا في دواوينها كالشيخ الطيب أحمد هاشم مفتي السودان وشقيقه أبو القاسم أحمد هاشم شيخ العلماء والشيخ محمد عمر البنا «الكبير» العالم الشاعر والشيخ مدثر الحجاز الفقيه الثبت والعالم الحجُة والشيخ بابكر بدري رائد التعليم الفذ والشيخ محمد البدوي.

وقد ضمّ مجلسه علماء وأدباء وشعراء ونحاة وفدوا ليعملوا بالسودان من مصر والشام وفلسطين والعراق من نوابغ الفكر والأدب كالإمام المراغي والشيخ ماضي أبو العزائم والأستاذ فؤاد الخطيب والشيخ عبدالرؤوف عبدالسلام والسيد نسيم قلدس وغيرهم.

وحينما تخرجت الأجيال الحديثة في كلية غردون التذكارية وجدت متسعاً وترحيباً بل واستقطاباً لتلك المجالس. كان يتوسم فيهم خيراً ويرى مستقبل الأمة رهن تطوُرهم فرعى النادي الذي أنشأوه عام 1918 والذي قُدّر له أنْ يلعب دوراً محورياً في الحياة الإجتماعية والثقافية والسّياسية.

برز في صفوف الحركة الإستقلالية التي رعاها الإمام عبدالرحمن نفر عزيز من مثقفي الأمة وقادتها السّياسيين مازالت أنفاسهم تعطر واقعنا الجديب. محمد أحمد محجوب تعدّدت مواهبه وقدراته فكان مهندساً وقانونياً وكاتباً وشاعراً ورائداً للدبلوماسية ورئيساً للحكومة، وعبدالرحمن علي طه الأديب والتربوي والوزير الذي لا تزال آثار صنعته الإبداعية في مجال التعليم ماثلة في التكوين الوجداني لأبناء شعبه جيلاً بعد جيل ونظيره المدرس اللامع والصحافي المجدد عبدالرحيم الأمين الذي يكفي ما قاله عنه صديقه الدكتور الشاعر

حجراته المزوّدة بالحمامات العصرية ووجدت في السيد الهادي شخصية ساحرة مولعاً بالاستشهاد بشكسبير.. ووصفته بأنّه كان أنيقاً بجلبابه و عمامته وشديد الترحيب بضيوفه. وتناول معهما وجبة الإفطار التي كانت سخية حسنة الإعداد لولا أنّ أفسد رونقها إنتشار الذباب بصورة مزعجة. أما وجبة الغداء فقد رأت أنّها لَمْ تُقدّم بشكل حضاري لأن أطباق البورسلين الفرنسي الفاخر لا يتناسب وجودها مع الخل المعبأ في الزجاج. كما شكت من حرارة الجو وعدم تشغيل المولد الكهربائي إلّا في المساء. كما تضايقت من وجود نوع ضخم من الجراد وصفته وكأنه قادم من «خيال والت ديزني». ولا بد أنّه جراد «أم جركم» المعروف بحجمه الكبير. إلّا أنّها في صباح اليوم التالي نعمت هي وجراهام برحلة إلى حدائق طيبة الواقعة في الركن الجنوبي الغربي للجزيرة حيث تناولا وجبة الفطور تحت ظلال الأشجار الوارفة المثمرة وعرائش العنب التي ساروا تحتها مسافات طويلة. وكان السيد الهادي في كلّ مكان يحظى بتحيات السكان في محبة واحترام. وعندما طافا بجوانب القصر أعجبهما متحف ملحق به شاهدا فيه آثاراً من المهدية مثل جبب بعض الأمراء وحراب وسيوف وسروج جمال وجرار ماء ووحدة تسجيل من نوع «أديسون بل » في حالة جيدة - لَمْ تنس أنْ تعلق على ما اعتبرته مفارقة. وعندما زارا مدرسة البنات فوجئت إزماي بوجود إحدى تلميذاتها من بين أفراد مجموعة المعلمات.. كانت قد بدأت حياتها العملية للتو، فسرها ذلك.. كما أعجبها وجود أشغال الإبرة والتطريز في أحسن مستوياتها في إطار المقرّر المدرسي. بشكل عام أعجبتها الجزيرة رغم ما وصفته بنزعة التطهر والأرثوذكسية، حيث لا يوجد أثر للسجائر والكحول. وقد أكّد لها السيد الهادي أنّه لَمْ يحدث أنْ شوهد أحد المواطنين يتعاطى التبغ لا في الشوارع ولا في الأسواق.

منذ وصولهما إلى الخرطوم للعمل في حكومة السودان في مجال التعليم

جراهام توماس اتصل بهؤلاء وبغيرهم فامتدت تلك العلاقات خمسين عاماً.. ما توقفت. ثُمّ عاد إلى الخرطوم عدة مرات زائرا وبات وشيج الصلة بتطوُّرات السِّياسة السودانية حَتَّى عهد جعفر النميري وجهود المصالحة الوطنية.

أما قرينته السيدة أزماي فقد إحتفظت بعلاقات ود عميقة مع سيدات بيت المهدي حيث عملت ناظرة لمدرسة أم درمان الثانوية للبنات وتخرجت على يديها فتيات ناهضات لعبن أدواراً مقدرة في الحياة الإجتماعية والسِّياسية في البلاد. وكان من بينهن أوائل من التحقن بكلية الخرطوم الجامعية جنباً إلى جنب مع رصفائهن الشباب كالدكتورة خالدة زاهر السادات وفاطمة طالب وحاجة كاشف وغيرهن.

«موت حلم» هو عنوان الكتاب الذي أودعه ذكرياته عن السودان.. وعبر فيه عن لوعته وحزنه لضياع الصورة التي كان يتمناها لمستقبل البلاد. لَمْ أتمكن من قراءته إلّا أني تصفحته قبل سنوات على عجل وما زالت بعض سطوره مطبوعة في الذاكرة.

قبل أسابيع رحل في صمت وكان السيد الصادق المهدي في زيارة لأبوظبي فسارع بالتوجُّه إلى لندن للمشاركة في تشييع جنازة الرجل الذي ظلّ صديقاً وفياً لجده ولأسرته ولشعب السودان.

وما كان وحده جراهام الذي ارتبط وجدانه بالسودان بعد نهاية خدمته.. فمعظم البريطانيين الذي عملوا فيه -إنْ لَمْ يكونوا جميعهم- ظلّ عشقهم له متقداً وثابروا على صلات متنوّعة مع أهله. ما كان أبلغ صلاح أحمد إبراهيم حين وصف شعبه: كالبشاري يقوده الصغير بالمعروف إما اهتاج دق العنقا

هؤلاء القوم ما استطاعوا إحتلال السودان إلّا بعد أنْ مشوا فوق أجساد عشرة آلاف شهيد في معركة واحدة وواجهوا مزيداً من المقاومة طوال عهدهم.. إلّا

أنهم تصرفوا على نحو مغاير عندما علموا أنَّ هؤلاء الرجال في تاريخهم كانوا يتقاتلون نهاراً ويتهادون القرى ليلاً. فاختاروا لإدارة السودان أفضل العناصر وأكثرها كفاءة وزودوها بالدراسات اللازمة والنصائح الضرورية للتعامل مع هذا الشعب على نحو خاص. لذا تجد أسلافاً لنا من البسطاء كثيراً ما كانوا يرددون في الأيام القاتمة الصعبة «يا حليل الإنجليز»

20 يوليو 2000

يوميات إزماي توماس في السودان



إزماي توماس

فوجئ الزوجان البريطانيان جراهام وإزماي توماس وهما جالسان في شرفة قصر السيد عبد الرحمن المهدي بالجزيرة أبا بأصداء لأنغام موسيقية مألوفة لديهما تتناهى من بعيد.. فلم يصدقا آذانهما فأخذا يشرئبان بعنقيهما يستطلعان جلية الأمر وقد عقدت الدهشة لسانيهما حَتّى اقتربت فرقة مكوَّنة من ستة من الفتيان يعزفون موسيقى القرب الاسكوتلندية كأفضل ما يكون. وكادا لا يصدقان عيونهما أمام ذلك المشهد الفريد في ذلك العمق الأفريقي. كانا قد عادا من جولة ممتعة شاهدا خلالها إسطبلات الخيل يصحبهما السيد الهادي المهدي الذي إستضافهما في قصر والده ومن ثَمَّ قادهما إلى منزله الملحق بالقصر. حيث إستقبلتهما زوجته الشابة السيدة رقية عبد الله الفاضل التي وصفتها إزماي بأنَّها كانت امرأة ذكية في الثالثة والعشرين تتحدث الإنجليزية بطلاقة وقد زارت إنجلترا قبل سنوات.. أعجبت السيدة إزماي بهدوء قرية الجزيرة أبا وما يبدو عليها من مظاهر الدعة كما فوجئت بفخامة القصر وحديقته الواسعة واتساع

شاركت بالكتابة في الدوريات وقدمت أحاديث في الإذاعة والتلفزيون عن النساء في السودان ومصر وأفريقيا. وقد توفيت في عام 1995. ذكر زوجها جراهام الذي حرر اليوميات بأنّها حين عادت إلى السودان بعد عطلتها حبلت إزماي بوحيدهما رضوان الذي ولد في 25 مارس 1954. وفي أغسطس إنتقلا إلى نيروبي. أما جراهام الذي أصدر كتاباً بعنوان «موت حلم» قبل سنوات وأسهب في الحديث عن تجربته في السودان بمحبة واحتفاء فقد توفي في العام الماضي. وكنت قد كتبت مقالة عنه في ذلك الحين. أما يوميات زوجته إزماي فقد صدرت في سسيكس.. لا أدري قبل أو بعد رحيله بقليل ولَمْ أسمع عنها حَتَّى عثرت عليها في الشهر الماضي في المكتبة الخاصة بصديقنا الشاعر راشد سيد أحمد في لندن، وهي جديرة بالقراءة حيث تعكس جانباً من واقعنا الإجتماعي والسّياسي بعيون أجنبية. وذلك خلال السنوات القليلة التي سبقت إعلان الإستقلال. أتمنى أنْ تتم ترجمة هذا الكتاب وتوزيعه بصورة تجعله متاحاً للقارئ السوداني.

18 سبتمبر 2002

أبدى جراهام توماس وقرينته إزماي إهتماماً بالحياة السّياسية وعقدا صلات وثيقة مع عدد كبير من السّياسيين والمثقفين وخاصة في أوساط حزب الأمة. والتقت بالسيد عبد الرحمن المهدي الذي وصفت زيارته وما صاحبها بالأبهة والفخامة التي يتميّز بها الملوك. وقالت إنّه كان رجلاً ارستقراطياً يمتلك عدداً من القصور الواسعة ويبلغ دخله السنوي مليوناً من الجنيهات. كما التقت بابنه الصديق عندما توجّهت إليه هي وزوجها لتهنئته بعيد الفطر حيث كان يستقبل زواره في قصر والده بالخرطوم في حجرة واسعة وصفتها بقاعة النبلاء والدوقات الإنجليز «إلّا أنّه رغم السجاد الفاخر المفروش كانت تفتقر للإضافات الضرورية كالتحف والدقة في تنظيم الأثاث» ولَمْ تتخل إزماي عن سخريتها التي تصل أحياناً لدرجة الوقاحة – حيث أشارت إلى أنّ هؤلاء القوم كانوا قد فطروا على حياة بسيطة ولَمْ يأخذوا بأسباب الحضارة الغربية إلّا مؤخراً. وكثيراً ما تغمز إزماي في يومياتها الماضي الثوري لهذه العائلة وتحاول من طرف خفي أنْ تقارن ما آل إليه الحال بعد خمسين عاماً من الزمان.

وتحدثت عن محمدأحمد محجوب – الذي لَمْ يكن قد انتمى لحزب الأمة بعد – ووصفته بالاشتراكي الذي يطمح لإنشاء «حزب العمال السوداني».

وفي إحدى الأمسيات تمكنت إزماي وزوجها جراهام من زيارة السيد علي الميرغني –الذي تردد كثيراً قبل السماح لهما برؤيته– في منزله بالخرطوم بحري يصحبهما ميرغني حمزة. ووصفت إزماي السيد علي بأنّه كان رجلاً قصير القامة يميل جسمه إلى الإمتلاء، إلّا أنّه شديد الحيوية سريع الحركات. وكان يسعل بعصبية بسبب ما يعانيه من الربو.

وقد تحدث إليهما في كثير من المواضيع الدينية والتعليمية. واستمتعا بتناول مشروب الليمونادة والقهوة. وبعد فترة لبى السيدان محمد عثمان وأحمد الميرغني دعوة موجّهة من الزوجين البريطانيين لتناول الشاي يصحبهما ميرغني

حمزة وأحد خلفاء الختمية. وكان الجو حاراً والصبيان يرتديان جاكيتين طويلين من الصوف رفضا خلعهما رغم إلحاح مضيفيهما.

وصفت إزماي السيد محمد عثمان الذي كان في السابعة عشرة من عمره، بأنّه كان حازماً يتميّز بوجه نحيف ويرتدي نظارات طبية ويتحدث الإنجليزية بطلاقة ويهوى التصوير. أما السيد أحمد الذي كان في الثانية عشرة من عمره فكان شخصاً لطيفاً مبتسماً بوجهه المستدير، ويبدو خجولاً لا يشارك في الحديث. وأشارت إزماي إلى أنّهما كانا يتعلمان على أيدي معلمينِ خاصين ويحظر عليهما الإختلاط بأترابهما من الفتيان الأمر الذي اعتبرته خطأً فادحاً.

تحدثت إزماي عن زيارات كثيرة لعدد من بيوت السودانيين وحضرت حفلات للزفاف تفاوتت في مستوياتها الإجتماعية وكانت تنتقد كلّ المظاهر التي لا تروق لها.

جاء هذان الزوجان البريطانيان للسودان في عام 1950 وباشرت إزماي التعليم في كلية المعلمات بأم درمان ثُمّ أصبحت ضابطاً لتعليم البنات والنساء في منطقة الخرطوم. وأحبت اللغة العربية وتعلمتها بسرعة قياسية وإستطاعت كثانية إمرأة بريطانية أنْ تجتاز امتحانها العالي. وإلى جانب وظيفتها الرسمية شاركت إزماي في النشاط العام حيث سعت لإنشاء أول ناد للنساء السودانيات كما حاولت مساعدة الفتيات المعاقات ودعمت مشاريع لصالح الصم والبكم. وفي عام 1954 إنتقلا إلى كينيا حيث أمضيا خمس سنوات وبعد عودتهما النهائية إلى المملكة المتحدة عملت إزماي في عدد من مواقع التعليم حيث انضمت إلى كلية سلاو للتعليم (الآن جامعة تيمس فالي). وفي عام 1961 شغلت منصب محاضر أول في تدريب المعلمين وظلّت فيه حتّى تقاعدت. وبعد ذلك بدأت في تقديم محاضرات عامّة وعملت مستشارة لمجلة عربية تصدر في لندن كما

إنجليزية.. على الرغم من أنها أبدت تعاطفها مع القضية المصرية.

لَمْ تصمد الديمقراطية كثيراً أمام الطموح غير المشروع للعسكريين فأطاح عبود بالحكم المدني وغيّر وجه الحياة السّياسية ودخل السودان في ليل طويل.. إبتعد عبد الفتاح المغربي عن السّياسة وآثر التقاعد في مزرعة أخرى اشتراها في بري. إستمرت الأحوال السّياسية في التدهور وبلغت ذروة انهيارها في السنوات الأخيرة لدكتاتورية نظام نميري فقرّر الزوجان المغربي مغادرة السودان نهائياً في عام 1984 م إلى إنجلترا وأقاما في نيوتن أبوت.. وفي عام 1985 م إنتقل السيد عبد الفتاح المغربي إلى رحمة مولاه.

24 أكتوبر 2000م

فيليبا.. ممرضة بريطانية زوجة لأول رئيس سوداني

في أغسطس الماضي نعت صحيفة «الديلي تلجراف» وفاة السيدة فيليبا المغربي عن عمر بلغ السادسة والتسعين أنفقت خمسين عاماً منها في السودان بعدأن تزوجت من أول رئيس لمجلس السيادة بعد الإستقلال. كانت هذه السيدة قد هاجرت إلى السودان في عام 1933 بعد عام واحد من إكمالها دراسة التمريض. وكان الدافع لإختيارها لهذا البلد هي القصص الشيقة والمثيرة التي كان يرويها خالها الميجور مايكل بيترز الذي عمل في الجيش الإنجليزي وشارك في حملة إحتلال السودان عام 1898م. وبعد وصولها إلى الخرطوم بأربعة أعوام تزوجت فيليبا من عبد الفتاح المغربي أستاذ مادة الرياضيات الذي كان قد تخرَّج في جامعة بيروت الأمريكية ضمن أول بعثة حكومية إلى لبنان في سنوات العشرين من القرن الماضي.

يبدو أنَّ صحيفة «الديلي تلجراف» كانت قد التقت بفيليبا قبل وقت وجيز من وفاتها وأجرت معها مقابلة تضمنت ذكرياتها في السودان فتحدثت عن زوجها وتجاربها ونظرت للأمور بعيون أوروبية يبدو أنّها لَمْ تتأثر كثيراً بالواقع السوداني. وأغلب الظن أنّها كانت بعيدة عنه روحياً.. إلَّا أنّها لَمْ تنتقد أي مظهر من مظاهر الحياة بدا سلبياً أمام ناظريها.

ولدت فيليبا لانجستاف كاستل في 25 فبراير 1904م وكانت الابنة الصغرى

للطبيب الممارس في منطقة مناجم الفحم بدارفيلد في وست ريدنج بيوركشير. قبلت بمدرسة سليد للفنون برئاسة بروفيسور هنري تونكر - إلّا أنّها لَمْ تواصل الدراسة وأثرت الابتعاد لتخفّف الضغوط المالية التي كانت تنوء بها عائلتها.. وأنفقت عامين في التدريس ومن ثَمَّ التحقت بمستشفى سانت توماس في عام 1928م وبعد أنْ تَمَّ تأهيلها بمعهد نايتنجيل للتمريض أكملت دورة في القبالة بأدنبرة.

لَمْ يمض وقت طويل بعد وصولها إلى العاصمة السودانية حَتّى التقت بالأستاذ عبد الفتاح المغربي الذي كان يعمل مدرساً في كلية غردون التذكارية. وذلك عندما توجّهت إليه تطلب المساعدة في تلقي دروس في اللغة العربية وأفضت هذه العلاقة إلى الزواج في عام 1937م.

كُنّا كثيراً ما نسمع ما يردده قدامى الخريجين بأن المغربي كان ضمن أول بعثة حكومية إلى الخارج واقتنى أول سيارة خاصة، كما كان أول من اقترن بامرأة أوربية.

تحدثت فيليبا للصحيفة البريطانية وقالت إنْ محمد مصطفى المغربي - والد عبدالفتاح - إختاره الإمام المهدي ليكون رئيساً لكتبة عمالة دنقلا... إلّا أنّ الخليفة عبد الله أمر بسجنه في أعقاب هزيمة توشكى في عام 1889م ولَمْ يستطع إستعادة حريته إلّا بعد أنّ مدح الخليفة بأربعين بيتاً من الشعر.

في الفترة ما بين 1937 و 1948 م إتخذ عبد الفتاح المغربي وزوجته فيليبا منطقة الجريف سكناً لهما حيث أفلحا في إنشاء مزرعة عامرة بأشجار الفاكهة والخضروات. وكانت فيليبا تستمتع بقيادة السيارة المحمّلة بعلف البرسيم متجهة إلى سوق الخرطوم تحت حرارة شمسها اللاهبة. وعندما تبلغ الحرارة أقصى درجاتها خلال أشهر الصيف كانت فيليبا تستجير بمياه النيل فتسبح في

منطقة زعمت أنها كانت تأوي ستة من التماسيح.. لذا كان لزاماً عليها أنْ تتوخى الحذر الشديد. وفي تلك الفترة قالت فيليبا إنَّها كانت تعمل متطوعة في التمريض بالقرى المجاورة للخرطوم.

وأثناء الحرب العالمية الثانية أبدت فيليبا إستعداداً كاملاً للدفاع عن أم درمان من أيِّ غارات جوية إيطالية محتملة. كما التحقت كممرضة متطوعة في عدد من المستشفيات. ومنذ سنوات الخمسين الباكرة إعتاد الزوجان على قضاء عطلتهما السنوية في بريطانيا.. وفي معظم الأحيان كانا يستمتعان بقيادة سيارتهما يتجولان من منطقة إلى أخرى.

وفي عام 1952 م عادا بالسيارة من إنجلترا عبر شمال أفريقيا من واي في ديفون حَتَّى الشلال في صعيد مصر يناما داخل السيارة ويطبخان طعامهما في موقد «بريموس» صغير.

وفي موقع معركة العلمين تتذكر فيليبا كيف تقاسما طعامهما مع كلبة صغيرة أودعت جراءها داخل دبابة محترقة. وعند الشاطئ المغمور بمياه الفيضان قرب مدينة أسيوط اعترضتهما عصابة لصوص.. إلَّا أنَّ المغربي تخلَّص منهم بعد أنْ هددهم بأن السرقة من هذه السيدة البيضاء لن تمر بسلام.

ومن خلال نشاط زوجها وعائلته أضحت فيليبا وثيقة الصلة بالحركة الوطنية واستعدت بشكل جيد لتصبح زوجة لرئيس مجلس السيادة الذي شغل المنصب لمدَّة ثلاث سنوات بعد إستقلال السودان. وجدت فيليبا نفسها سيدة أولى في القصر الجمهوري الذي تدفق نحوه سفراء عشرات الدول لتقديم أوراق إعتمادهم لرئيس الدولة الوليدة. وفي أثناء حرب السويس في نوفمبر 1956م التهبت المشاعر العربية وارتفعت الأصوات منددة بالعدوان البريطاني - الفرنسي على مصر- كان موقف المغربي لا يخلو من حرج حيث كان متزوجاً من سيدة

إليها من وقت لآخر.. حيث إكترى داراً في حي المرابيع كانت مهوى لطلاب الحاجات والمساكين والباحثين عن تجديد ذواتهم بالدين والفكر.. ولا يزال كثير من أهل المدينة يرددون قصصاً أغرب من الخيال عن كرمه وإنفاقه وإيثاره، الأمر الذي كان يعبر عن دخيلة تحرَّرت من الذاتي وسمت عن لعاعات الدنيا وزخرفها.

عاش الرجل عقوداً من الزمن منسجماً مع ذاته متوحداً.. بعد أنْ كدح في سبيل ذلك كدحاً يقعد عنه الرجال حَتّى إستطاع أنْ يقهر النفس وينفذ إلى حقيقة الأشياء.. كان لا يفتأ يرتقي ويدعو الناس إلى لباب الدين واقتفاء أثر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

بدأ حياته زعيماً سّياسياً ثورياً منذ منتصف سنوات الأربعين. كانت الحركة الوطنية في طفولتها.. يعوزها الفكر وتنقصها سبل الرشاد.. بدأت بالكيد والتنابذ وفَجر كثيرون في ممارستهم السّياسية في محاولات للانتصار لذواتهم.. فأنبرى محمود يقدم نموذجه ويدعو للجمهورية.. إلتف حوله عدد من المثقفين.. كثير منهم أدباء وشعراء.. أحبطتهم أساليب الأحزاب وصغارها.. نذكر منهم محمد المهدي المجذوب، ومنير صالح عبدالقادر، وأمين صديق.. كان يملؤهم الحماس فيوزعون المنشورات السّياسية ويخطبون في الأندية والمجتمعات.. وما لبث الحال أنْ أدرك الأستاذ محمود أهمية التربية لتقديم النموذج للأنسان من خلال فهم متقدّم للدين وممارسة تسيجها أخلاق النبوة بالإقتداء بها.

طرح الأستاذ محمود محمد طه فكراً جديداً ما أحوج البشرية إليه الأن في ليلها الداجي هذا.. في الأيام التي سقط فيها مشروع الإرهاب والمزايدات السّياسية باسم الدين.

قبل حوالي أسبوعين تابعت برنامج «مواجهة» الذي يقدمه تلفزيون أبوظبي.

واقفاً تحت حبل المشنقة..

وما زال يحدجهم بنظرته فيرتعدون



الشهيد محمــود

«لاحجر أثمن من الرغبة في الثأر للبريء

لاسماء أسطع من صباح يسقط فيه الخونة

لا سلام على الأرض إذا اغتفرنا للجلادين»

«بول إيلوار»

حين جيء به يحيط به حراسه يرسف في قيوده مغمض العينين يسعى إلى المشنقة بخطو ثابت وقامة منتصبة كان هناك حفنة من قضاة نكرات وقفوا لتوهم ليشهدوا تنفيذ حكم الإعدام فيه.. اعتلى المنصة.. هدرت الجموع.. تعالى الهدير منبعثاً من السجن، من حناجر السجناء والمعتقلين السّياسيين، كأنّما كان يصدر من جهات الأرض الأربع.. «لن ترتاح يا سفاح». كشفوا الغطاء عن

وجهه فنظر إلى الجماهير المحتشدة منذ الصباح الباكر ذات اليمين وذات اليسار وابتسم.. ومن ثَمَّ ألقى بنظره على القضاة الواقفين في صف إلى جانب المشنقة فطأطأوا رؤوسهم ونكسوها.. ما احتملوا نظرته تلك وهو راحل عن عالمهم الفاني إلى رحاب الخلود.. طأطأوا رؤوسهم وارتجفوا وما رفعوها حَتَّى الآن.. ولا يعلم إلا الله ما كان يدور بأخلادهم في تلك البرهة النادرة في تاريخ السودان.

بعد خروجه من المعتقل مباشرة في 19 ديسمبر 1984- أي قبل شهر من إعدامه- أعلن الأستاذ محمود محمد طه موقفه بقوله «نحن أخرجنا من المعتقلات لمؤامرة. نحن أخرجنا في وقت يتعرَّض فيه الشعب للإذلال والجوع بصورة محزنة. ونحن عبر تاريخنا عرفنا بأننا لا نصمت عن قول الحق وكل ما يحتاج أنْ يقال إليه في نفسه قلناه. و«مايو» تعرف هذا الأمر عنّا.. ولذا أخرجتنا من المعتقلات، لتسوقنا مرَّة أخرى، ليس لمعتقلات أمن الدولة، وإنَّما لمحاكم ناس المكاشفي، ولكن نحن لن نصمت».

في ذلك الضحى الرمادي الشتائي الأغبر القادم من ظلمات القرون الوسطى أقيمت مشنقة خصيصاً في قلب العاصمة الخرطوم ليتمَّ تنفيذ حكم الإعدام في واحد من أشرف وأعظم المفكرين الإسلاميين المعاصرين.. رجل ما عرف منذ غضارة الصبا إلَّا بالخلق الكريم والذكر الحسن. يذكره أضرابه طلاب كلية غردون القديمة في الثلاثينيات ويقولون إنَّ نسيجه كان مختلفاً وسلوكه كان نموذجاً للآخرين. ما عهدوا فيه نزقاً ولا التواء. وحينما تخرَّج وعمل مهندساً في مختلف أنحاء الوطن كان قدوةً وملهماً وقائداً وصديقاً للفقراء والمساكين وأبناء السبيل والدراويش العابرين.

كُنَّا نسمع عنه ونراه في طفولتنا بمدينة كوستي.. كان يتردد عليها حيث عمل لفترة من الزمن يخطط مشاريع القطن الواقعة جنوب المدينة.. التي صار يختلف

بهذه الذكرى إلّا في الخرطوم حيث حالت السلطات دون ذلك.. لأنّه لا يزال يحدجهم بنظرته فيرتعدون.

ليس لدينا ما نقدمه سوى أنْ ننشد مع صلاح أحمد إبراهيم:

ما انحنت قاماتنا من حمل أثقال الرزايا

فلنا في حلك الأهوال مسرى وطرق

فإذا جاء الردى كشر وجها مكفهراً

عارضاً فينا بسيف دموي ودرق

ومغيراً بيد تحصدنا

لم نبد للموت ارتعاداً أو فرق

نترك الدنيا وفي ذاكرة الدنيا لنا ذكرى وذكرى

من فعال وخلق

ولنا إرث من الحكمة والحلم وحب الكادحين

وولاء حينما يكذب أهليه الأمين

ولنا في خدمة الشعب عرق.

92 يناير 2002م.

الدكتور عبدالصبور شاهين والدكتور سيد القمني كانا ضيفي الحلقة. منيت نفسي بلحظات من المتعة الفكرية ولكن آمالي خابت.. فقد كانت المواجهة أشبه بحوار الطرشان.. القضية كبيرة والإثنان يمثلان التيارين المتخاصمين الآن. وعبدالصبور شاهين مواقفه معروفة.. خاصة فيما يتعلق بقضية الدكتور نصر حامد أبوزيد وما تمخض عن ذلك بموقف أقرب إلى تكفير الرجل والحكم بالتفريق بينه وبين زوجته حَتَّى اضطر إلى الهروب من مصر والالتجاء إلى أوروبا.

وسيد القمني يكتب الآن عن الإسلام في إطار ما يعرف بالتيار العلماني.. تمنيت لو كان لديه علم بفكر الأستاذ محمود محمد طه أو لو قرأ «الرسالة الثانية» ولخُص حجته بالدعوة للإسلام الذي يتسق مع حاجة وتطوُرات البشرية وفكرها.. وليس ما كان مطروحاً للخارجين من الجاهلية في أول القرن الهجري. تلك الدعوة التي إذا إستطاع المسلمون فهمها وطرحها لهرعت إليها الحضارة الغربية – التي تزدري المسلمين في هذه الأيام– وما أرادوا بعدها بدلاً.

ما كنت بعيداً عن الجمهوريين، في أيام تألق الفكرة وعنفوانها وحَتَّى الآن.. فقد كان فيهم أصدقائي الخلصاء وجزء عزيز من عائلتنا.. أبناء عم أثيرون لدي.. كنت اختلف معهم وأجد في الحوار معهم سعادة ما عليها مزيد.. وكُنَّا نتبادل كثيراً من الاحترام والمودة والمشاعر الطيبة.. تأسرني أرواحهم الجياشة وقلوبهم العامرة وسلوكهم الحميم إزاء الآخرين.. مروءتهم ونجدتهم وأثر التقوى البادي على سيماهم.. وقد حاول نفر منهم أنْ التحق بالركب وألا يفوتني ذلك العرس الجليل. كانوا يتحركون كالنحل البري يقدمون الشهد.. شهد المعارف.. يطوفون المدن والقرى والبوادي يحملون الكتيبات التي تتضمن فكرهم ويخوضون مع الناس مساجلات تثرى الحياة وتعمر الوجدان.

وقف الفكر الجمهوري ترياقاً يدحر فكر المتأسلمين.. وأقام المنابر والأركان وأرسى تقاليد الحوار الديمقراطي في أوساط الجامعات والأماكن العامَّة.. وقدُم

متحدثين محاورين بارعين أتلفوا أعصاب مناوئيهم بالحجُة تلو الحجُة فكانوا يلجأون إلى العنف حين يخسرون النقاش أمام الحاضرين الساخرين وينكشفون جاهلين بقضايا الفكر والدين.

وفي بدايات تشكُل وعيناً وإهتمامنا بقضايا وطننا كُنّا نغشى الندوات والمحاضرات.. يستهوينا النقاش. نحمل زادنا القليل من الفكر، وكُنّا به جد مزهوين. نتردّد على ندوات الجمهوريين وأحياناً ندخل في حوار مع الأستاذ محمود محمد طه فنجد فيه روحاً متسامحة وصدراً متسعاً.. وكثيراً ما كان يردّد قوله «نحن متفقون» مهما شجر الخلاف واستعر. فقد كان فكره العميق ونظرته الشاملة المحيطة يتجاوزان ما هو ثانوي فيرى ما لا نرى حيث تتوحد الرؤى في اتجاه خير الإنسانية. مرّة كُنّا حضور ندوة له بمدينة كوستي واحتشد المهرجون المتفيهقون المتنطعون يعارضون. كان من بيهم أحد المدرسين.. قيل إنّه حائز الماجستير في اللغة العربية.. وكان ذا صلف وعجب بالنفس كبير.. وقف يتحدث لا بأسلوب الفضلاء والعلماء وإنّما بأسلوب الباحث عن نصر رخيص أمام مؤيديه. فحاول أنْ يقدح في علم الأستاذ محمود بالقرآن الكريم وأراد أنْ يصحح ما ظنه فكره القاصر خطأ. وعندما توقف عن حديثه الصاخب ذاك نهض الأستاذ محمود بهدوئه المتسامي يفند آراءه حَتّى تناول إدعاءاته بشأن اللغة.. وتبحر في القول.. ما أراد بذلك أنْ يفحمه ولكن علّمه برفق ما فاتته معرفته في مجال تخصصه.. فانفعل الحضور وصفقوا طويلاً وطأطأ الأدعياء رؤوسهم خجلاً.

قبل أيام مرّت الذكرى السابعة عشرة لاغتيال الأستاذ محمود.. سنوات ليست بالقليلة ولكنها لَمْ تمح أثر الصدمة التي أصابت المثقفين بصفة خاصة وعامّة الناس في السودان الذين عرفوا قدر تلك الشخصية التي ستبقى خالدة إلى جانب شهداء الإنسانية الذين سعوا نحو تشكيل عالم أكثر وعياً وعدلاً وإهتماماً بمصير الإنسان. واحتفل كثير من المهتمين في كثير من مدن العالم

الفتى ضمير المدينة

يونس الدسوقي[1]



تحية لأصدقائي أبطال الملحمة

ليونس الدسوقي – الفتى ضمير المدينة –

يزأر الآن في منفاه

كالأسد الحبيس بالقاهرة

ولأحمد إبراهيم الذي – فقد ساقه في المعمعة

ما زال مرابطاً يناصر المظلومين

بحرز العرضحالات أمام المحكمة

للعيد عاص وهو يجتر ذكرياته

بقريته أم رهاني

يحلم باتحاد حقيقي للمزارعين

وصولة جديدة في سبيل الكادحين.

من قصيدة (زغاريد الغضب). لكاتب هذه السطور بمناسبة الذكرى الخمسين لانتفاضـــــة جودة. فبراير 2006م

---

1. توفي بأمدرمان بعد أن عاد من القاهرة في عام 2006

هؤلاء الرجال الثلاثة الذين وردت أسماؤهم في هذا المقطع من القصيدة هم أصدقائي حقاً وليس مجازاً كما يتبادر إلى الذهن. لَمْ يضمني معهم تنظيمٌ سًياسي واحد. ولَمْ نتوحد حول قناعات فكرية معينة.. إلاّ أنني نعمت بقربهم وبمودتهم وصدقهم وعظمتهم الإنسانية. وخبرت معادنهم في أنبل المواقف وأشرفها. شاركوا ثلاثتهم بشكل أو بآخر مع من شاركوا في أحداث انتفاضة جودة. لا يتحدثون عن أنفسهم بما فعلوا. ولكن يتحدثون عن تضحيات الآخرين وبطولاتهم. غيَّب الموت يونس الدسوقي في نوفمبر الماضي. فكان وقع ذلك علينا كسقوط جبال شنكيانج على الصدور. كما عبَّر الشاعر الصيني كوموجو عن صديق له عظيم اخترمه الردى. غاب يونس فانطوت صفحة مشرقة وعامرة بالمآثر الجليلة. وحياتنا بعده قفر يباب ولا عزاء لنا في فقده.

قال إنَّه يتمنى أنْ يرانا قبل الرحيل. أحسَّ بأن أيامه آخذة في الزوال. أبلغ إبننا أشرف مأمون بذلك فنقل إلينا الرسالة. قرَّرنا من فورنا زيارته وشدُّدنا إليه الرحال. أسامة أبوقرجة من الخرطوم وأنا من أبوظبي. كان ذلك في صيف عام 2004م أخبرناه بميعاد وصولنا إلى القاهرة فرتب شئون إقامتنا بنفس الفندق الذي كان يقيم فيه. كانت قد مضت حوالي عشرين عاماً منذ افتراقنا في منتصف الثمانينات. توجُهت أنا للعمل بمنطقة الخليج. ثُمَّ لَمْ يلبث هو أنَّ اختار القاهرة منفى له في أوائل التسعينيات حين حلَت القارعة وتبدد شمل الجميع.

بعد ساعتين من وصولنا دقَّ جرس الغرفة، ففاجأنا شيخ قد كفَّ بصره وهده المرض، يعتمد على عصا ويسعى بخطوات بطيئة عاجزة. ليس ذلك الرجل الذي عهدناه في عنفوان كهولته قوياً متماسك البدن. إلاّ أنّه ظلَّ رابط الجأش، مشتعل الفكر، متقد الفؤاد، قابضاً على أزمة الأمور، متابعاً. لَمْ تفارقه روحه الوثابة ولا قدرته التي لا تجارى في صناعة الكلام وربط مفاصله بالحكمة ومأثور الحديث والشعر والمعنى الحصيف. قضينا أياماً لا تنسى في ضيافته. أشرف

على كلّ ما يتعلق بشؤوننا في الفندق رغم أحواله الصحية غير المستقرة. يدعو أصدقاءه المثقفين لزيارتنا ويغمرنا بكرمه الفياض. محمود صالح جاء من أصيلة حيث حضر مع الطيب صالح المهرجان الثقافي السنوي. حيدر إبراهيم علي عاد من باريس. مصطفى عبادي من أثينا بعد نهاية دورة الأولمبياد ثُمّ الدكتور فاروق محمد إبراهيم من الخرطوم، فالدكتور أسامة عبد الرحمن النور من ليبيا. التقينا بالمرحوم مبارك محجوب لقمان الذي دعانا لمأدبة غداء سخية في داره بحدائق القبة. حضرها لفيف من المثقفين في مقدمتهم المرحوم علي التوم ورحمة الله عبد الله وصلاح أحمد محمد صالح ومحمود صالح عثمان صالح ومصطفى عبادي والسر وعمر أحمد قدور. كان يونس واسطة العقد رغم ضعف النظر والوهن الذي إعتراه. وقد دارت بين الحاضرين أحاديث عذاب لا يزال صداها يتجاوب في النفس.

أقام يونس في فندق هابيتون حوالي خمسة عشر عاماً زاده القراءة والتأمل حَتّى كفَّ بصره وامتنع عنه الكتاب الذي ظلّ رفيق حياته الزاخرة الثرية. إلّا من نفر كريم من الأصدقاء يقرأون عليه من وقت لآخر ما يراه مهماً. غير أنّه لَمْ يفتقد في أيّ لحظة من اللحظات لياقته الفكرية وقدرته على المتابعة. كان أصحاب الفندق من الأقباط. تفاءلوا بوجوده وأحاطوه بكثير من الرعاية والإهتمام. لَمْ يفتهم أنْ لاحظوا أهمية الزوار الذين كانوا يترددون عليه. ينفحون العاملين بعطياهم الجزيلة. يفدون من مناطق الخليج في عطلاتهم الصيفية، وفي مقدمتهم القانوني الضليع محجوب إبراهيم. ومن السودان وعلى رأسهم الصادق شامي المحامي. يقبل الفتية الجمهوريون من الولايات المتحدة وكندا وأوربا والخرطوم. يزورون القاهرة ويتفقدون أحوال يونس فقد كان صديقاً حميماً للأستاذ محمود محمد طه (وكلّ صميم لصميم بديل). كما عبّر ود الرضي.

كان واحة يستجير بها المثقفون عند احتدام الهاجرة وتفاقم العسف والاستبداد.

يتحدث إليهم بصوته الصافي العميق. يبثهم أحاديثه الشجية فيخفف كثيراً من غلواء الحزن والمكابدة.

ظلَّ الكاتب الروائي الطيب صالح منذ سنوات يزور القاهرة من عام لآخر في عطلته الشتوية. إلا أنّه بعد وصول يونس إليها بات يزورها سنوياً بصورة منتظمة ليلقاه. وقد صرح بذلك مغتبطاً بتلك الصحبة الفكرية التي لا يجود الزمان بمثلها كثيراً. كان العاملون والعاملات بفندق هابتون يسعدون برؤية الطيب صالح ويشعرون بكثير من الفخر والإعتزاز لزيارته. أما هو فقد كان يغمر المكان بتعليقاته الذكية وأوصافه الساخرة يزجيها همساً ليونس الذي كان مولعاً بكلّ ما هو طريف.

عاش يونس تجربة الحركة الوطنية في إبانها منذ منتصف أربعينيات القرن الماضي. انفعل بها وانغمس في خضمها وذلك بعد أنَّ أعدَّ نفسه بالقراءة الصادقة العميقة المستمرة. فقد كان عصامياً لَمْ ينل من التعليم النظامي إلَّا مراحله الأولى. ولكنه غدا موسوعياً جمّ المعارف. كانت تشده الثقافة الرفيعة والأدب العظيم ويحتفي بالتاريخ يوظفه في تطوُّرات الحاضر.

انتمى لليسار وعمل في أوساطه منذ بواكير الخمسينات وحَتَّى السبعينات في أم درمان وكوستي. إلا أنَّ طبعه المتمرد ونفوره من الانضباط الحزبي جعله ينأى نوعاً ما عن التنظيم، وإنْ لَمْ يفارق الجماعة. شغل منصب السكرتير للجبهة المعادية للاستعمار في مدينة كوستي. وقال مؤرخو تلك الفترة إنّه على الرغم من صغر حجم الحزب الشيوعي إلَّا أنّه غدا ضخماً مهيباً لارتباطه بيونس. كان يضيق ذرعاً ويتبرم ببعض قيادات حزبه من القاعدين ومحدودي الذكاء والمفتقرين لسعة الخيال فيتصرف بما يمليه عليه ذكاؤه وفطرته اللماحة.

عاش يونس حياة لَمْ تتح له فرصة الإنطلاق الفكري والسّياسي التي تناسب

قدراته. وعلى الرغم من أنّه تفتح في زمن التحوّلات في الحياة السّياسية والإجتماعية إلّا أنّ تعليمه المحدود وقف أمام طموحاته في الزعامة ورغبته في العطاء. تزوج مبكراً وعمل مع والده في التجارة التي لَمْ تتوسّع فتحد من شهوته للثورة والإصلاح. فكر في الهجرة إلى السعودية في عام 1955 وتعاقد مع إحدى الشركات الحجازية وكتب رسالة لوالده في هذا الشأن. إلّا أنّ تلك الرغبة لَمْ تتحقق لأمر لَمْ ندركه ولَمْ يتحدث لنا عنه حَتّى ولو بصورة عارضة. ولكنه توجّه إلى مصر وأقام فيها مدّة من الزمن. وربما كان ذلك في بدايات النصف الأول من القرن العشرين.كان أحاياناً يتعرض لتلك التجربه ولقاءاته مع المثقفين اليساريين المصريين.كما يبدو أنّه قد قرأ كثيراً هناك وعاد ممتلئاً بالثقافة والفكر. وقد وصفه لي أحد أصدقائه الذي إلتقيت به في تندلتي بأنّه عاد شخصاً آخر في ما يتعلق بالتوجُّهات الفكرية والسّياسية.

قبل أنْ يتفتح وعينا في مدينة كوستي رأيناه زعيماً جماهيرياً قائداً يتقدّم التظاهرات ويخطب بطلاقة ما عهدناها في غيره ممن كانوا يعدون خطبهم ويقرأون على الناس ما يكتبون. كان بحرارة صدقه وجرأته وسمته المهيب يحرك المشاعر فنركض خلف موكبه وهو يستغل سيارة جيب ممسكاً بمكبر للصوت. لَمْ يكن يعنينا ما يقول. كُنّا نرى أماماً بطلاً صارم القسمات يتطاير شعر رأسه بفعل الريح مما يضفي عليه مظهراً أخاذاً كأحد أبطال الأساطير الإغريقية، كما رسمهم هوميروس. كان خطيباً مفوهاً منقطع القرين. حين يخطب يستدعي خيالك مارتن لوثر أو ميرابو أو تروتسكي.. أديباً متمكناً من القول، مؤثراً، صاحب قضية كونية ولا ريب، أركانها الحق والعدل والحرية وكرامة الإنسان. كان رجلاً قوي الشكيمة، صعب المراس، سمحاً، كريماً، متلافاً لا يحسب للأيام حساباً ولا يدخر مالاً لغده. يتعامل مع الحياة اليومية وكأنّه مسافر أبدي. لَمْ يكن يأبه كثيراً للحديث النظري والنصوص. كان يطرح طرحه الخاص، ثقافة مهضومة يعيد

إنتاجها بأسلوبه الساحر الفريد. إستخدمت إحدى الشركات الزراعية تلاميذ المدرسة الصناعية الوسطى بكوستي – بتوجيهات من السلطة الحاكمة – لجني القطن في أحد مشاريعها الزراعية في العطلة الصيفية لأحد أعوام الستين. وقد وقع حادث مؤسف لإحدى العربات التي كانت تقلهم مما أسفر عن مصرع تلميذين صغيرين وإصابة آخرين بجراح. كُنَّا صبية صغاراً بالمدرسة الوسطى ولكنا شاركنا في تشييع الجثمانين.. حيث خرجت المدينة بأسرها. فقد هزَّها الحادث وأدمى قلبها. فالتلاميذ كانوا غرباء عن المدينة يقيمون في السكن الداخلي. الحاكم العسكري بجبروته وما يحيط به من مظاهر القوة كان في مقدمة الجميع، ونظام عبود في أسوأ مراحل تسلطه واستبداده. وبعد أنْ فرغ الناس من دفن جثماني الصغيرين برز يونس من بين المشيعين غاضباً محمر العينين، ممسكاً بمكبر للصوت. إعتلى سيارة واقفة وبدأ يخطب في الناس ويندد بنظام الحكم جهرة غير هياب ولا وجل. خاف كثير من المشيعين من هول الموقف. إستقلوا سياراتهم وتسللوا عائدين قبل أنْ يشهدوا عملية الإعتقال في نفس اللحظات، الأمر الذي كان يتوقعه يونس بطبيعة الحال. ذلك مشهد واحد من سلسلة مشاهد وقفنا عليها في حياة يونس في تلك المدينة التي بات ضميراً لها.

كان خبيراً عارفاً بأقدار الرجال. تهزه سيرهم وتشجيه. وكان يكن إعجاباً خاصاً للإمام محمد أحمد المهدي. أذكر مرَّة كُنَّا نتحدث عنه وأشرت في سياق الكلام إلى أنَّ المهدي رحل وهو في الثانية والأربعين من عمره. فانتفض وتغير وجهه والتفت إليّ محتجاً وكأنّي قد ارتكبت خطأً. إذ كيف يستطيع شاب في مثل هذا العمر أنْ يتقدّم شعباً كشعب السودان ويقوده في أكثر المنعطفات حلكة في تاريخه فيوحد البلاد ويقيم دولتها الوطنية. وحينما راجعته واقتنع زفر زفرة عميقة وانتصب قائماً وغادر مجلسنا. غاب عنا أياماً وعاد ليخبرني بأنّه لَمْ ينم ليلتها. كان حينذاك يقترب من الستين. ما فاته ذلك. إلّا أنما راعه حقاً هو مضي

العمر قبل أنْ يحرز نصراً رغم الآمال التي كانت تنطوي عليها نفسه المترعة بروح الزعامة.

تمتد علاقاتنا إلى زمن بعيد. كنت أراه في مأتم والدي – عليه رحمة الله – وأنا حدث يافع. يحضر يومياً وينفق الساعات جالساً بين المعزين. كنت أعجب لذلك الزعيم اليساري بزيه الأفرنجي ويتوسط شيوخ الأنصار. زال العجب حين كبرت وعرفت منه الصداقة التي جمعت بين والدينا منذ بواكير الثلاثينيات. وكثير ما كان يروي قصة البندقية التي أهداها والدي لوالده ويردد – حَتّى آخر أيام حياته – أنّه سيعيدها إليّ بعد خمسة وسبعين عاماً – تحفة أثرية تزين صالون منزلي. ولتلك البندقية قصة جديرة بأنْ تروى في يوم من الأيام.

في طفولتنا كانت «المكتبة الوطنية» لصاحبها مصطفى صالح هي الوحيدة في مدينة كوستي. تنقلت في السوق من مكان إلى آخر حَتّى إستقرت قرب مكتب البريد. ثابرنا على التردُّد عليها لاقتناء مجلات «الصبيان» «والسندباد» ثُمّ «سمير» والقصص التي كان يصدرها «مكتب النشر». وتلك المجموعات التي كانت تفد من مصر. ثُمّ لَمْ يلبث الحال أنْ إفتتح يونس «مكتبة الفكر الحديث» – لا أدري في أيّ عام حدث ذلك. وجدنا فيها ضالتنا من الأدب الإنساني فقد تجاوزنا مرحلة الطفولة في أول مدارج المرحلة الثانوية. واتسعت إهتماماتنا بالقراءة وباتت أكثر عمقاً وتنوُّعاً. في ذلك الوقت توطدت علاقتنا به نحن مجموعة من طلاب الثانويات الباحثين عن المعرفة والحقيقة، فوجدنا فيه أباً براً وأخاً كريماً وصديقاً مخلصاً. عاملنا كأنداد له. وسمح لنا بالإختلاف معه بكلّ سماحة وأريحية رغم طبعه الحاد في مواجهة السذج والمتنطعين. وظلّت كلما تقدّمت السنون تزداد علاقاتنا توهجاً وبريقاً. يزينها حضوره المشبوب وتدفقه الفكري الذي لا يغيض.

قبل سنوات ونحن بدولة الإمارات أهدى إليّ صديق الطرفين الأستاذ مأمون

محمد عيسى المحامي نسخة من رواية لعبد الرحمن منيف بعنوان «عروة الزمان الباهي». تناول فيها سيرة صديق له من المناضلين الموريتانيين، تنقل ما بين باريس وبيروت مدافعاً عن قضايا المغرب الكبير وخاصة الجزائر. رأى فيه مأمون صورة من يونس لجرأته في إقتحامه للمحافل وشجاعته ومروءته وتعامله المختلف مع الناس والحياة. ما أحوجنا الآن لنكتب عن هذا الفتى ضمير المدينة الذي كان يختزل الكون في حناياه ويمشي في شوارعها.

أمبراطورية رابح فضل الله

مازالت كتابات الأوروبين تطفح بالمرارة حين يتحدثون عنه.. غاظهم أنْ يقف قائد أفريقي حجر عثرة أمام محاولات توسعهم المحموم في أفريقيا.. وكاد أنْ يفسد عليهم ما قرّروه في مؤتمر برلين لعام 1885 بشأن تقسيم القارة التي حسبوها خلاء ففوجئوا بوجود جيش منظم وشجاعة لا تأبه بتفوق الأسلحة الحديثة.. وعندما احتدمت المعارك واشتد أوارها انسحب البريطانيون والألمان. أخلوا الساحة للقوات الفرنسية تقاتل رابح فضل الله.. عكّر مزاجهم وأباد فيالقهم ومشى على جثث جنودهم حَتّى الرمق الأخير من حياته.. وفي معركته الأخيرة لَمْ يشأ أنْ يموت وحده فقتل الجنرال لامي قائد القوات الفرنسية الذي فاضت روحه بعد ساعات قلائل من موت رابح على ضفاف بحيرة تشاد في الثاني والعشرين من أبريل 1900. لَمْ يستطع الفرنسيون هزيمة رابح إلّا بشراء مروءة سلاطين باقيرمي ووداي (تشاد) السابقين.. وبعد مصرعه لَمْ يذوقوا طعماً للراحة.. أقلقهم إبنه فضل الله الذي قاد حرب عصابات لمدّة عامين حَتّى لقى مصرعه.

في كتاباتهم وصفه المؤرخون الأوروبيون «بنابليون الأسود» و«نابليون الصحراء» إعتبروه غازياً أجنبياً جاء من سودان النيل إلى تلك البقاع التي أطلق عليها الجغرافيون أفريقيا شمال خط الاستواء. نفثوا عليه بطولاته.. سموها مغامرات عسكرية إمتدت من النيل حَتّى حوض بحيرة تشاد.. انطلقوا من عاطفة غربية هوجاء ما هي إلّا إمتداد لرؤية الاستشراق.. إلّا أنّ مؤرخين أفارقة محدثين يحاولون جادين أنْ يردوا للقومية الأفريقية إعتبارها.. فحالة رابح نموذج ساطع لما يحاولون.

نحن في السودان مازلنا نجهل الكثير عن رابح.. لانذكره إلّا حينما نتحدث عن الزبير في الوقت الذي لاتزال آثاره ومنازله قائمة في دكوة عاصمة امبراطوريته الضخمة التي شملت بلاد برنو والباقيرمي وجزءاً من تشاد.. دكوة هذه تقع جنوبي بحيرة تشاد.. والناس في تلك المناطق لا يزالون يتحدثون عن شجاعته الأسطورية وعدله وصرامته.

ارتبط اسم رابح بالزبير باشا.. فقد كان واحداً من قادته العسكريين.. بل كان أبرزهم وأكثرهم مضاء وعزيمة. صحبه إلى بحر الغزال بعد تجارب عسكرية سابقة.. وقيل إنّ أباه كان جندياً في الجيش المصري بالسودان وعمل هو بفرقة للخيالة بمصر ليعود إلى السودان ويعمل أيضاً بالجيش. وتردّد بعض الروايات مشاركته في الانتفاضة العسكرية التي قادها الجنود السودانيون في حامية كسلا في عام 1865 بسبب الظلم وتأخير المرتبات.. وشهد إعدام عدد من رفاقه في السلاح وسجن الكثيرين بعد إحباط الانتفاضة وبات أحد الناجين القلائل من تلك التجربة.

ولد رابح في عام 1840 وأغلب الظن أنْ يكون ذلك قد حدث في حلفاية الملوك حيث كان والده يعمل في صناعة الطوب بعد تركه الخدمة العسكرية. ويبدو أنّ عائلته انحدرت من سلالات الفونج أو الهمج القاطنين بمنطقة جبال إدريس الواقعة في الجنوب القصي لمنطقة الجزيرة. أُدخِل رابح الخلوة فحفظ شيئاً من القرآن ونال قدراً يسيراً من التعليم.

في التاريخ السّياسي للأمة السودانية لعبت الشاعرات والنساء دوراً لَمْ يجد حظاً في البحث والتوثيق فالحاجة بت مسيمس نظمت قصائد غنائية تحريضية تزخر بصور في غاية البراعة والابداع في أيام الحكم التركي وإبان الثورة المهدية.. إلّا أنّ ثلاث من أبيات الشعر خاطبت بها الزبير باشا في منعطف

تاريخي مهم باتت أشبه بالمانفيستو السّياسي.. جسّدت وعياً غاب حَتّى عن الزبير نفسه الذي لَمْ يدفع بالأمور إلى درجة قطف ثمار إنتصاراته وإعلان مناطق بحر الغزال ودارفور دولة وطنية - بعيداً عن سلطة الأتراك- قدّمها للخديوي في طبق من ذهب في حالة من الغفلة السّياسية دفع ثمنها غالياً باحتجازه في القاهرة لأكثر من ربع قرن.

قالت بت مسيمس:

جنك تلات ورقات جيب ردهن

صقور الجو حلّقن قوم غدهن

يا منع الكاشفات لي حدهن

كان النفوذ التركي لَمْ يبلغ بحر الغزال بعد.. وكانت الشركات التجارية الأجنبية ترتع بلا رقيب وتعمل في تجارة الرقيق وسن الفيل وريش النعام.. وكان الزبير جزءاً من هذا الواقع.. إلّا أنّه إستطاع أنْ يتجاوزه ليخلق قوة عسكرية تحدت سلطة الخرطوم حينما هزم قوات البلالي وفرسان الرزيقات وأخيراً أسقط أقدم مملكة في المنطقة وهي مملكة الفور ووقف حائراً أمام تلك التطوُّرات فقرَّر الذهاب إلى القاهرة.

بات الزبير منفياً في مصر، وترك وراءه سليمان إبنه الذي كان في الحادية والعشرين.. غراً قليل التجربة وإنْ كان إلى جانبه قادة عسكريون ذوو تجربة وقدرات وفي مقدمتهم رابح فضل الله.

كان عدد الطامعين في إرث الزبير كبيراً فأوغروا صدر غردون على سليمان فعمل على إضعافه وتقسيم جيشه وعين إدريس أبتر مديراً على بحر الغزال.. فلمْ يجد سليمان مناصاً من قتاله، وهكذا إنزلق في سلسلة من الاشتباكات قادت إلى

إستسلامه الأمر الذي رفضه رابح وناشده مناشدة عاطفية حارة للعدول عن موقفه الذي أسفر عن مصرعه وتشتيت جيشه.

توجُه رابح جنوباً عبر دارفور يقود ألفاً من المسلحين الأشداء إلى بلاد البرنو ففتحها وأسس إمبراطورية واسعة شملت بلاد الباقيرمي وجزءاً من تشاد. ولما اندلعت الثورة المهدية في السودان في عام 1881 كتب إليه الإمام المهدي يدعوه للعودة إلى بلاده إلا أنه تردَّد كثيراً.. وكذلك فعل الخليفة عبدالله لكنه لمْ يستجب، ورغم ذلك رفع رايات المهدية في جميع معاركه واعتبر المهدي إماماً ومرجعية لنشاطه.. وذكرت المصادر الأوروبية أنّه كان يتبادل بعض الرسائل مع الزبير باشا في منفاه بالقاهرة.

وبعد هزائم مريرة تجرعتها القوات الفرنسية جرد الكونت لامي حملة عسكرية ضد قوات رابح مزودة بالأسلحة الثقيلة والمدافع وخاض معها معركة عنيفة كانت الأخيرة- أبلى خلالها رابح وقواته بلاء عظيماً إلا أنَّ قواته انهزمت وتبدَّد شملها بعد مقتله وبقى ابنه فضل الله يقاتل الفرنسيين حَتَّى قُتِل أيضاً.

لا أحد يعرف شيئاً عن مصير من تبقى من قوات رابح من السودانيين الذين خرجوا معه.. فقد صحبه عدد من أبناء الجعليين والتعايشة والهبانية الذين رفضوا الهزيمة وخرجوا من البلاد.. وقد رصد المؤرخون الفرنسيون عدداً من هولاء القادة الذين حكموا تلك الأقاليم الأفريقية وطوتهم غياهب النسيان.

أدهشتني كثيراً الصور الفوتوغرافية التي تضمنها كتاب لمؤرخ فرنسي يدعى (هلم) ذهب إلى دكوة- عاصمة رابح- ووجد قصره الذي لا يزال شاخصاً كأن لَمْ يخل من أهله.. كما عثر على مواقع المعارك الحربية وبعضاً من آثارها التي تثير أشجان المهتمين بتاريخ السودان وعظمة أبطاله.

17 اكتوبر 2000م

من العفاض إلى براغ

إبراهيم زكريا.. زعيماً لعمال العالم



كنت جالساً في صالة المسافرين العابرين بمطار إسطنبول يسيطر عليّ سأم كثيف.. فهذا الانتظار سيدوم خمس ساعات. جعلت أقلب كتاباً بين يديّ.. «كيف صنعنا القرن العشرين» لروجيه جارودي- مترجماً إلى العربية- كنت في حالة لا أطيق فيها القراءة ولا أحتمل دونها. والأرائك ليست بوثيرة، تؤلمك صلابتها أنى اتكأت عليها. أقبل رجل وزوجته.. عجوزان تجاوزا السبعين وربما إقتربا من الثمانين. إلّا أنّهما كانا متماسكين.. جلسا غير بعيدين مني. تبادلنا النظرات التي تحوّلت إلى ابتسامات وإيماءات بالتحية.. ثُمَّ لَمْ يلبث الرجل أنْ تناول الكتاب الذي وضعته جانباً وسألني بأيّ لغة يكون. ولما أجبته تشعب الحديث بيننا وأدرك من أيّ بلد أنا. فباغتني بالسؤال، «هل تعرف إبراهيم زكريا، لَمْ ألتق بسوداني إلّا وسألته عنه». وأخذ يتحدث عن الرجل الذي ظلّ شاخصاً في ذاكرته لأكثر من أربعين عاماً. قال إنّه لَمْ يلتق في حياته بكثير من الرجال في هيبته المتواضعة وبساطته وعلمه الغزير وإجادته للحديث وقدراته المتعدّدة. كان الرجل دبلوماسياً شاباً بوزارة خارجية بلاده حين زارها إبراهيم زكريا في أوائل سنوات الستين من

القرن الماضي فتمّ تكليفه بمرافقته لمدّة سبعة أيام لمس خلالها من السجايا والصفات ما أدهشه فظلّت ذكراه حيّة متقدة لَمْ تمحها السنون. كان إبراهيم زكريا عهد ذاك شاباً أيضاً يعمل في سكرتارية إتحاد العمال العالمي.

كان الرجل سعيداً حين ودعني هو وزوجته ليلحقا بطائرتهما فيتحقق حلم حياتهما بزيارة بعض مناطق الشرق الأقصى. أما أنا فعدت ولَمْ يفارقني صدي حديث الرجل. فإبراهيم زكريا سمعت عنه الكثير كأحد أبرز الشخصيات السودانية التي عملت في المنظمات الدولية ووقفت في محافلها يحفها الوقار والرأي السديد. كما إنني التقيت بعدد من أقاربه أهالي قرية العفاض وبعضهم أصدقائي في مقدمتهم ابن أخيه النقابي الجسور الصادق زكريا. من واجبنا أنْ نكتب عن إبراهيم زكريا وأضرابه من الذين رفعوا هامة الوطن وقدموا نموذجاً رائعاً للشخصية السودانية.. مهما اختلفنا أو اتفقنا مع ما رأى أو إعتقد.

عدت أبحث عن كتيب أصدره إتحاد النقابات العالمي في الذكرى الثالثة لرحيل إبراهيم زكريا. جاءنا مديحه من الخارج.. ليس منّا، ومن حق الأجيال الجديدة أنْ تعرف شيئاً عن عظماء يغيبهم الجهل السائد الآن حيث يفشو الإدعاء والتنطع والتسلط وتخبو العظمة الإنسانية وتتراجع.

كتب الكسندر جاريكوف السكرتير العام لإتحاد النقابات العالمي يقول إنَّ إنطباعاته عن إبراهيم زكريا ليست مستمدّة من لقاءات أو اجتماعات عرضية قصيرة، ولكنها مستمدّة من علاقات تطوَّرت بثبات خلال فترة طويلة حافلة بالأحداث. ووصفها بأنها أقرب إلى اللقطات السينمائية في الأفلام التاريخية التي تغص بالذكريات.. تبدو فيها أشكال معينة بعيدة في الأفق كالصور الظلية التي تقترب تدريجياً حَتَّى يتبين المرء قسماتها. يظل الشكل ماثلاً هنيهة قبل أنْ ينجرف بعيداً فيختفي مخلفاً وراءه انطباعاً قوياً ثابتاً في الذهن يدفع المرء لأن يتذكره مراراً حَتَّى يستبين التفاصيل التي تصبح في النهاية جزءاً من الإنسان نفسه.

قال جاريكوف إنَّ إبراهيم زكريا كان يسحر كلَّ من يقترب منه بشخصه البسيط في مظهره ونظرته وسلوكه بفطرته الخالية من التعمل والتكلف. تلك البساطة كانت لرجل أدرك القيم الحقيقية للحياة فعاش وفق ذلك. رجل إستطاع إستيعاب التجربة التاريخية للبشر فأخذ يدرك بوعي عميق أفراح وأتراح الواقع. واسترسل جاريكوف في حديثه الذي لا يمل عن عظمة ذلك الرجل. فقال: «لَمْ تكن هناك حاجة للاستفسار عن الخلفية الثقافية والتعليمية لمثل هذا الشخص واسع المعرفة. لقد كان يشعر بالراحة والطمأنينية سواء كان في رفقة العمال العاديين أو في رفقة رؤساء الدول. وكان قادراً على المعالجة العميقة لأيّ مشكلة يمكن تصورها. بدءاً بالعقبات الصغيرة وإنتهاء بالتطوُّرات الدولية الأكثر تعقيداً. لقد كانت أبعاد ذهنه واسعة بدون حدود سواء اتفقت معه أم لَمْ تتفق.. أحببته أم كرهته. إنَّ كلَّ من التقى به لا يمكن أنْ ينساه فشخصيته الرفيعة مهيبة ومحببة». ظلَّ جاريكوف يتحدث بحرارة وصدق يصف جوانب العظمة في ذلك الأفريقي المهيب القادم من قرية نائية بالسودان.. إلَّا أنَّه يعود فيقول إنَّ حديثه ليس من باب الإثارة والمغالاة. فقد كان زكريا يتعامل مع الناس بروح متساوية فلا يأسره ذوو المناصب ولا يستأثرون بإهتماماته أكثر من البسطاء. فقد كان ينجذب دائماً للمحتاجين للمساعدة والذين أضر بهم واقع الحياة المرير. وصفه أيضاً فقال إنَّه كان رجل مبادىء وقناعات، كان العمل معه سهلاً حيث لَمْ يكن يلقي بالاً أو ينشغل بأيِّ نوع من المناورات أو التآمر.. يستطيع المرء أنْ يعتمد عليه في كلِّ الظروف فقد كان ينأى بنفسه عن الخيانة والنفاق والرياء والكيل بمكيالين. وختم حديثه بقوله «وفي الواقع إنني مقتنع بأن شخصية وظاهرة إبراهيم زكريا الذي يصنف بين أعظم البشر ستظلان بيننا إلى الأبد».

كان إبراهيم زكريا أحد قادة نقابيين شباب تخرجوا في مدرسة جبيت الصناعية وعملوا فنيين وعمالاً مهرة في ورش مصلحة السكة الحديد السودانية بعطبرة. وقد أظهروا ميلاً نضالياً إبان عنفوان الحركة الوطنية في أواسط سنوات الأربعين. ولَمْ

يلبث هؤلاء الشباب أنْ التقوا بطلاب قادمين من مصر وموظفين صغار ومثقفين فشكّلوا تنظيماً يسارياً عُرف في البداية باسم الحركة السودانية للتحرر الوطني وفي أوقات لاحقة أصبح الحزب الشيوعي السوداني. كان من بين هؤلاء النقابيين الشباب إلى جانب إبراهيم زكريا، الشفيع أحمد الشيخ وقاسم أمين والجزولي سعيد وآخرون. أصبحوا وهم في باكورة شبابهم قادة أساسيين في الحركة النقابية السودانية ولعبوا دوراً مهماً في تنظيم الحركة العمالية وانتصروا بتظاهراتهم وإضراباتهم عن العمل على الإدارة الاستعمارية وانتزعوا إعترافها بحقهم في التنظيم، كما انتزعوا قانون العمل الذي صدر في عام 1948. تَمّ فصل إبراهيم زكريا من مصلحة السكة الحديد بسبب نشاطه السّياسي والنقابي وعمل لفترة قصيرة في مصنع أسمنت عطبرة الذي فصل منه أيضاً لنفس الأسباب، فتفرغ للعمل الحزبي سكرتيراً تنظيمياً للحركة السودانية للتحرر الوطني. كان ذلك في عام 1950 ولَمْ يكن قد تجاوز الحادية والعشرين من عمره. وفي نهاية عام 1956 تَمّ إختياره ممثلاً للحركة النقابية السودانية في إتحاد النقابات العالمي حيث بات منظماً دولياً، ولَمْ يلبث أنْ أصبح أحد سكرتيري الإتحاد. وفي عام 1978 تَمّ إنتخابه سكرتيراً عاماً مساعداً في المؤتمر التاسع في براغ. وبعد عامين أصبح السكرتير العام بالإنابة. وبعد عامين آخرين إنتخب سكرتيراً عاماً في المؤتمر العاشر الذي انعقد في هافانا. وفي عام 1990 إنتخب إبراهيم زكريا رئيسا لإتحاد النقابات العالمي ليصبح أول نقابي عربي-أفريقي يتقلد هذا المنصب الرفيع المستوى.

إستطاع إبراهيم زكريا خلاله عمله النقابي على مستوي العالم لأكثر من ثلاثة عقود أنْ يحقق نجاحات واسعة لهذا التنظيم الدولي المرموق الذي يضم أكثر من ثلاثمائة مليون عامل في مختلف بقاع الأرض، وذلك بتركيزه ومثابرته في إختيار أفضل السبل لتوحيد المنظمات النقابية بسيادة التفاهم والتعاون والحيلولة دون وقوعها في فخاخ الحرب الباردة. فقد جاء في كلمة له حول الحقوق النقابية

ومكافحة البطالة «عندما تُصبح القنابل بدلاً من فرص العمل، وعندما تُمنح الأولوية لمجمعات الصناعة الحربية دون تغذية ملايين الأطفال الجوعى في العالم، يمكننا أنْ نتصور ما هو نوع المستقبل الذي يقدمه لنا رأس المال الكبير والشركات المتعدّدة الجنسيات».

هذه الكلمات تكتسب اليوم مزيداً من التوهج بعد أنْ انكشفت حقيقة الجشع الكامن في سلوك الدول الكبرى والشركات المتعدّدة الجنسيات، وبعد أنْ بات واضحاً تدهور الأحوال الإقتصادية والإجتماعية والصحية في جميع دول العالم الثالث واتسعت الهوة بصورة لا تسمح بمجرد الأمل.

كان إبراهيم زكريا منشغلاً على الدوام بقضايا العمال في دول العالم الثالث، وبصفته عربياً وإفريقياً عمل على تطوير العلاقات الأخوية بين إتحاد نقابات العمال العرب ومنظمة الوحدة الإفريقية، وانهمكت المنظمات الثلاث في تعزيز التضامن العالمي دعماً لحقوق الشعب الفلسطيني وانسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية المحتلة والنضال من أجل التحرر الوطني في ناميبيا وأنجولا وموزمبيق وبلدان أفريقية أخرى. ودعماً للنضال ضد العنصرية وحكم الأقلية البيضاء في جنوب أفريقيا. وكان إبراهيم زكريا يبدي إهتماماً كبيراً بالقضية الفلسطينية ويقدّم المساعدات للعمال الفلسطنيين ويحيطهم بروح التضامن. كما أتاح لهم منبراً دولياً مناسباً لدعم ومساندة قضيتهم العادلة. وبالطبع لَمْ ينس وطنه رغم سنين غربته الطويلة فقد كان حاضراً دائماً في فكره ووجدانه.. كان يوظف كلُ مقدراته للوقوف إلى جانبه حين يدلهم ليله ويحدق به الخطر بتولي العسكر للسلطة ومصادرة الديمقراطية وكبت الحريات، وطالما تصدى إبراهيم زكريا للديكتاتوريات وفضح طبيعتها، فقد عاصر التجارب الثلاث.

وكتب الدكتور حالد المبارك عن إبراهيم زكريا يقول إنَّ الكثيرين لا يعرفونه فقد غادر السودان وعمل لعشرات السنين في الإتحاد العالمي لنقابات العمال برئاسته

في براغ. درس في مدرسة الصنائع الشهيرة في جبيت لكنَّ أوربا فجرت طاقات ذكائه الوقاد فالتحق بمختلف الدراسات التي لا تستلزم تفرغاً. وصار عندما التقيته ناطقاً بالألمانية والتشيكيه والفرنسية والإنجليزية. وذلك بالإضافة إلى أنَّه بات خبيراً في الشئون العمالية العالمية والأجور وقوانينها بمستوى رفيع. ومن المفارقات أنَّ رئاسته الحزبيه التنظيميه كانت داخل السودان، لكنه كان في مواقف كثيرة أقرب إلى النقابيين الفرنسيين والإيطاليين والإنجليز الليبراليين لدرجة أنَّه لَمْ يؤيد الغزو السوفيتي لبراغ عام 1968.[1]

ولد إبراهيم زكريا في قرية العفاض بشمال السودان في 17 مارس 1929، وكان والده يعمل ناظر محطة في مصلحة السكة الحديد السودانية. وظلَّ زملاؤه في المدرسة الوسطى ببورتسودان يتوهون بذكائه واجتهاده وبروزه في النشاط المدرسي بمختلف ضروبه. وكان شقيقاً لثلاث بنات وثلاثة أولاد يتنقلون مع والدهم من محطة لأخرى، إلَّا أنَّه حين اشتد عوده أخذ يعود لقريته في الشمال يساعد عائلته الكبيرة في أعمال الزراعة إلى أنْ تخرَّج من القسم الثانوي بالمدرسة الصناعية. وبعد أنْ تخرَّج وبدأ العمل كوَّن جمعية لأبناء العفاض، يجمعون التبرعات بانتظام لصالح قريتهم.

وفي عام 1964 تزوج إبراهيم من السيدة فاطمة النعيم التي عرفت كقائدة طلابية في جامعة الخرطوم وعضوة نشطة في الإتحاد النسائي. فأنجبا خليل - الذي توفي فجأة قبل عامين أو ثلاثة- ولميس التي أظن أنَّها لاتزال تقيم مع والدتها في براغ. وقد توفي- عليه رحمة الله - عام 1993.

22 أكتوبر 2002م

1. الرأي العام الخميس 18 يناير 2007

مدرساً بجامعة الخرطوم

إحسان عباس



كانت محض صدفة تلك التي أتاحت للناقد العربي المعروف إحسان عباس أنْ يعمل مدرساً للغة العربية بكلية غردون التذكارية- فقد قدَّم له صديقه محمود الغول طلباً للعمل بتلك الكلية التي لَمْ تبرح أنْ غدت جامعة الخرطوم خلال سنوات قلائل من إقامته. ولَمْ يكن يعلم أنَّ الأستاذ أحمد أمين مساعد الأمين العام للجامعة العربية للشؤون الثقافية والذي أخفق في تعيينه بالجامعة قد رشحه لتلك الوظيفة من خلال تلميذه الدكتور محمد النويهي، الذي كان يشغل منصب رئيس قسم اللغة العربية بكلية غردون في الخرطوم. تسلَّم الأستاذ إحسان برقية من المستر بل وكيل حكومة السودان بمصر يستفسره عن قبول العرض بالعمل في الخرطوم فوافق واتفق معه على موعد السفر إلى العاصمة السودانية. تفاءل إحسان خيراً عندما قبلت السلطات السودانية جواز سفره الصادر من حكومة عموم فلسطين بالقاهرة - ذلك الجواز الذي كان مرفوضاً لدى الدول العربية الأخرى.

وصل إحسان إلى محطة السكة الحديد بالخرطوم بعد رحلة استغرقت نهارين وليلتين تصحبه زوجته وطفلاه في 18 يناير 1951. وكان في طريقه إلى الخرطوم بحري حيث سكنه الذي استأجرته له الكلية في سيارة للأجرة حينما برز له ثلاثة من زملائه الأساتذة بقسم اللغة العربية هم محمد النويهي وعبدالمجيد عابدين ومحمد عبدالعزيز إسحاق بسياراتهم الثلاث. قضى إحسان بقية العام الدراسي حَتّى مارس حيث قام بتدريس التاريخ الإسلامي. وفي العام الدراسي الجديد إنتقل إلى منزل بحي المطار وصفه بأنه كان دارة جميلة حولها حديقة تضم أشجار الموز والباباي والليمون والنيم وغيرها.

سجَّل الأستاذ إحسان إنطباعاته وذكرياته عن الفترة التي قضاها في السودان في كتاب له صدر عام 1996 بعنوان «غربة الراعي» وهي لا تخلو من طرافة خاصة وقد كتبها بعد خمسين عاماً من تلك التجربة. قال إنَّ الدكتور النويهي كان خريج مدرسة الدراسات الأفريقية والشرقية بلندن وقد نال منها شهادة الدكتوراه في موضوع «الحيوان في الشعر الجاهلي» ولذلك كان مجال تدريسه قصائد مختارة من الشعر الجاهلي. وقد نشر فيما بعد حصيلة دروسه في هذا الموضوع في جزأين. وكان قد تزوج من امرأة أجنبية واكتسب الدقة في المواعيد والنفور من المبالغة في القول. وكان خارج العمل الجامعي مهتماً بإلقاء محاضرات أكثرها عن المرأة وحقوقها. وعبر إحسان عما كان يعتريه من دهشة لإختياره هذا الموضوع لأنه يعلم تمام العلم أنَّ أمام المرأة السودانية - التي كانت لاتزال تخضع للخفاض الفرعوني- مراحل كثيرة لا بدَّ لها أنْ تقطعها. وأنَّ الرجل السوداني كان لديه وقتذاك من المشكلات ما يستنفد جهده كله لينال حقوق الإنسان في مجتمعه. وكان إحسان يلاحظ أنَّ بالخرطوم مجموعة من المثقفين العميقي الثقافه الذين يعرفون شؤون بلادهم أكثر من النويهي يتحدثون عن موضوعات تهم مستقبل بلدهم ولا يتعرَّضون لما يتحدث عنه النويهي ويتخذه مجالاً لنشاطه الفكري. لاحظ إحسان أنَّ كلية غردون كانت

تشبه الكلية العربية بالقدس إلى حدٍ ما حيث يتمُ إختيار طلابها من النخبة في المدارس السودانية، ولذلك كانت مهمة المدارس أكثر صعوبة وأكثر مسؤولية وأكثر إمتاعاً. ولكن الفرق الأساسي بين الكليتين هو انغماس الطلاب السودانيين في العمل السّياسي وبُعد طلاب كلية القدس عن الانتماء السّياسي، ونوه إلى أنّ الحزب الشيوعي في السودان كان قوياً وحسن التنظيم وأنّ العمال فئة يحسب حسابها. بينما إستطاع تنظيم الإخوان المسلمين أنْ يستقطب عدداً غير قليل من الطلاب. وأشار إلى حادثة - لَمْ نسمع عنها من قبل- وهي أنّ الأستاذ محمد عبدالعزيز إسحاق تورط في حديث اعتبره الطلاب ماساً بالعقيدة فثاروا وحركوا الشارع السوداني في يوم الجمعة التالي بعد الصلاة حيث تظاهر الناس وطالبوا برأس «الأستاذ الزنديق»، وخضعت إدارة الكلية لهذه الثورة وأبلغت الأستاذ بعدم تجديد عقده في العام المقبل.

لَمْ ينس الأستاذ إحسان ساعات الدوام التي كانت تبدأ في الساعة السابعة صباحاً حَتّى التاسعة حيث تناول الإفطار حَتّى العاشرة، ولَمْ ينس طبق الفول الذي كان يتقاسمه مع جمال محمد أحمد وسعد الدين فوزي. ووصف الأول بأنّه كان من أكبر أدباء السودان والثاني في طليعة المفكرين السودانيين درس في جامعة لندن الاقتصاد وتمكن من التحصيل الفلسفي. وأعجبته قناعة المثقف السوداني الذي لا يترفع متعالياً عن واقع الناس البسطاء.

قال الأستاذ إحسان إنّه وجد إنتاجاً أدبياً غزيراً في السودن وخاصة الشعر إلّا أنّ الدراسات حوله كانت شحيحة للغاية فأخذ يكتب لبعض المجلات للتعريف بالأدب السوداني ولَمْ يكن يعلم بأن بالأستاذ عبدالمجيد عابدين كان يعد كتابه «الثقافة العربية في السودان» الذي لَمْ يلبث أنْ صدر للناس. وروى إحسان أنّه أخذ يشجع نشر الشعر السوداني والقصة القصيرة في بيروت، وكان من ثمرة هذه الجهود ظهور ديوان «غابة الأبنوس» لصلاح أحمد إبراهيم ومجموعة «البرجوازية الصغيرة»

القصصية لصلاح وصديقه علي المك، ثُمّ «غضبة الهبباي» لصلاح - كتب ذلك رغم أنّ ديوان «غضبة الهبباي» صدر عام 1965 بعد مغادرة إحسان للخرطوم، إلّا أنّه ربما اطلع عليه من خلال صلاته بالشاعر التي إستمرت لوقت طويل، وديوان «الصمت والرماد» لكجراي. وعندما أصبح محمد إبراهيم أبو سليم– أحد طلابه– مسؤولاً عن المحفوظات والوثائق السودانية تمكن إحسان من خلاله من الإطلاع على كثير من الوثائق الخاصة بتاريخ المهدية ونسخ كثيراً منها لدراسة أساليب الكتابة في ذلك العهد.

كان إحسان يشارك في النشاط الثقافي الذي انتظم العاصمة ويرتاد معظم الأندية في الخرطوم وأم درمان والخرطوم بحري يقدم المحاضرات إلّا محاضرة واحدة كان مُقرّراً إقامتها في يوم انقلاب 17 نوفمبر 1958 حالت الشرطة بينه وبين الوصول إلى مكانها.

اصطفى إحسان أربعة عشر طالباً كان يلتقي بهم في داره أو في دار إتحاد الطلاب ليتحدثوا في شتي الموضوعات على الرغم من انتماءاتهم المختلفة، فبعضهم من اليساريين وآخرون من الإخوان المسلمين. وكان الحوار يحتدم بينهم وترتفع درجته إلّا أنّهم يعودون إلى صفائهم أحباء. ولاحظ إحسان أنّ هذه الظاهرة شملت السّياسيين في البرلمان الذين كان يشتد أوار معاركهم خلال الجلسة وبعدها يخرجون سوياً كأصدقاء. ولقد أعجب هذا السلوك الحضاري إحسان وكان يردد «حقاً إنّ الديمقراطية تليق بهم».

في خلال السنوات العشر التي قضاها إحسان بالخرطوم حدثت تطوُّرات مهمة في المؤسسة الجامعية حيث تغير اسمها إلى كلية الخرطوم الجامعية عام 1954 ثُمّ أصبحت جامعة الخرطوم عام 1956. ورافق تلك التطوُّرات سودنة المناصب الإدارية بالجامعة حيث إستقال النويهي وخلفه الدكتور عبدالله الطيب وأصبح نصر الحاج

علي مديراً للجامعة كما انضم إلى قسم اللغة العربية مصطفى عوض الكريم ومحمد المجذوب. نصح جمال محمد أحمد وسعد الدين فوزي صديقهما إحسان بالحصول على الجنسية السودانية إلّا أنّه اعتذر ولَمْ يرد أنْ ينافس أهل البلاد في مناصبهم.

وصف إحسان الحياة في الخرطوم خلال تلك السنوات بأنّها كانت مريحة وتتميّز بالنظام في جميع الشؤون والمجالات ويتوفر للمرء كلّ ما يحتاج إليه من لباس وطعام ودواء «فإذا جمعت إلى ذلك لطف الشعب السوداني ودماثة الخلق لدى أبنائه وصدق العلاقات بين الناس كنت تصف جواً مثاليا للعيش». هذا الجو الإجتماعي المثالي وتلك العلاقات الودودة دفعت الأستاذ إحسان لأن يخفي خبر مغادرته النهائية للخرطوم بعد أنْ رفض تجديد عقد العمل مع الجامعة بشروط. ولَمْ يرد أنْ يثير بسفره جواً عاطفياً لَمْ ير مبرراً له.

بدأ الدكتور إحسان عباس نشاطه الأدبي مبكراً فكتب الشعر، إلّا أنّه عُرف بكتاباته النقدية وخاصة تناوله للشعر العربي الحديث حيث كان يركز على تجربة الشعر العراقي الحديث. وقال إنّه تسلّم ديوان «أباريق مهشمة» لعبد الوهاب البياتي في عام 1954 في الخرطوم وأعد محاضرة حوله حشدها بكلّ إمكانياته المعرفية والثقافية في ذلك الوقت. ولا يزال بعد خمسين عاماً من تلك البدايات يساهم الدكتور إحسان بكتاباته النقدية العميقة والثرية رغم بلوغه الثمانين فقد أصدر خلال السنوات الثلاث الماضية ثمانية مؤلفات هي: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، اتجاهات الشعر العربي المعاصر وعبدالحميد بن يحيى الكاتب والوزير المغربي أبوالقاسم الحسين بن علي وتاريخ الأدب الأندلسي في (جزءين) وفن الشعر وفن السيرة.

توفي في وقت لاحق من كتابة هذا المقال عليه رحمة الله.

17 ابرايل 2001م

ابن عمر التونسي.. وتاريخ دارفور

في مشهد أقرب إلى مشاهد قصص ألف ليلة وليلة وقف فتى تونسي في حوالي الرابعة عشرة من عمره حزيناً يائساً أمام رجال قافلة من الحجيج السودانيين أدوا الفريضة وأخذوا يتهيأون للعودة إلى بلادهم فأحضروا البضائع وأعدوا الركائب.. فسألهم عن والده الذي انقطعت أخباره في السودان منذ سنوات. كان ذلك في نهار يوم في أوائل القرن التاسع عشر. ولما أفصح عن اسمه فاجأه صاحب القافلة التاجر السوداني الشيخ أحمد البدوي بمعرفته لوالده وما بينهما من صداقة وتعهد باصطحابه إلى دارفور حيث يقيم والده. كان ذلك الوالد قد جاء إلى السودان أيضاً بحثاً عن والده الذي وفد إلى مملكة سنار وطاب له المقام بعد أنْ تزوج من أهل البلاد وأنجب عدداً من الأبناء.

أقام الفتى محمد بن عمر التونسي منذ عام 1803 في إقطاعية لوالده في قرية «أبو الجدول» بدارفور حوالي سبع سنوات كأول رحالة عربي. وأتيح له الإلمام بأحوال السلطنة الإجتماعية والإقتصادية وبنظمها السّياسية والإدارية والحربية وعلاقاتها بجيرانها. وبات مؤلفه «تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان» أهم مصدر للتعريف بأحوال ذلك الإقليم، الذي يعتبر حلقة في سلسلة الممالك الإسلامية السودانية التي امتدت من البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الاطلنطي غرباً.. وشملت ممالك سنار وكردفان ودارفور ووداي (تشاد الحالية)، وباجرمه، وبرنو (الكانم)، وممالك الهوسا، ثُمّ مالي.

كانت المعلومات عن تاريخ دارفور قليلة واعتمدت أساساً على الروايات الشفاهية التي أخذ يتداولها الناس قصصاً جيلاً بعد جيل كدأب الافارقة. شعب

الفور هم أهل البلاد الأصليون ويسكنون المنطقة الجبلية وخاصة جبل مرة. وقد وفدت عليهم هجرات القبائل العربية الرئيسية من مصر وشمال أفريقيا عبر السهوب والبراري الواقعة بين النوبة وإقليم تشاد. ورغم هذه الهجرات بثقلها الثقافي لَمْ يصبح الإسلام الدين الرسمي للسلطنة إلا حين تولى سليمان صولون عرش دارفور في عام 1640. وذلك بعد أنْ تسلل الدم العربي للبيوتات الحاكمة.

لَمْ تشهد دارفور رحالة أجانب كثيرين كما حدث لمناطق السودان النيلية.. وكان أول من زارها الرحالة الإنجليزي براون (دبليو.جي.براون) وذلك في عهد السلطان عبدالرحمن الرشيد. وقد سلك براون في رحلته إلى دارفور طريق درب الأربعين من أسيوط إلى الفاشر.. وأقام في دارفور ما بين 1793 و1796، إلا أنَّ السلطان ارتاب في نواياه كأوروبي مسيحي ولَمْ يسمح له بالتجول وجمع المعلومات.. كما أنَّه لَمْ يعثر على تاريخ مدون لذا جاءت معلوماته سطحية ومضطربة. وفي الفترة ما بين 1849 ـ 1855 قام الرحالة المعروف هنري بارت برحلته المشهورة من طرابلس الغرب إلى بحيرة تشاد وارتاد خلال هذه الفترة المنطقة بين تمبكتو وباجرمه.. إلا أنَّه لَمْ يقم بزيارة دارفور أو ودَّاي.. ولكنه إستطاع أثناء إقامته في برنو أنْ يجمع نتفاً قليلة عن تاريخ هذه الأقاليم معتمداً على بعض الروايات الشفاهية وكتابات بعض المؤلفين العرب القدامى.

وفي عام 1874 زار الرحالة الألماني جوستاف ناختيجال دارفور عن طريق بحيرة تشاد وباجرمه وودَّاي وجمع معلومات عن المنطقة بمساعدة السلطان إبراهيم محمد حسين (إبراهيم قرض): الذي كانت دولته في أيامها الأخيرة حيث سقطت في يد الزبير رحمة في العام التالي ودخلت دارفور في نفوذ الأتراك حَتَّى اندلاع الثوة المهدية.

كان محمد بن عمر تونسي الأب مصري الأم أفادته عروبته في اكتساب ثقة واحترام الناس في دارفور بقبائلها العربية وثقافتها الإسلامية فاحتضنته وهيأت له مكانة مرموقة. واستطاع بقدرته الفذة ودقة ملاحظاته وانغماسه التام في الحياة الإجتماعية أنْ يقدِّم صورة متكاملة لما رآه. وقدر له أنْ يطوف معظم مناطق الإقليم وخاصة جبل مرة فكتب عن جغرافية المنطقة بتفاصيل مذهلة، وسبل كسب العيش فيها وعادات الناس وأخلاقهم وثقافاتهم بمختلف طبقاتهم الإجتماعية. ووصف مجالس السلطان وزيّه وعاداته وتقاليد حكمه، وقوة شوكته وسلطانه المطلق.. «فهو الأول والأخير لا يسأل عن قرار إتخذه ولا يراجع إلاّ من قبيل الشفاعة.. ويجد من التعظيم والإجلال ما لَمْ يحظ به الملوك الآخرون.. فبطانته تحيط به تراقب في خشوع جميع تحركاته وتبدي الإستعداد التام لإظهار كلّ مظاهر التكريم والتوقير. وحينما يكون في مجلسه يهزون مراوح ريش النعام فوق رأسه. وإذا خرج للصيد يظلونه بشمسية وأربع مراوح كبيرة من الريش مبطنة بالجوخ الأحمر وتنشر أمامه سجادة يتبادلها الغلمان. ومن مظاهر تكريمه أنّه إذا جمع جواده وألقى به أرضا يلقي الجميع بأنفسهم من على ظهور جيادهم على الأرض. وإذا جلس في ديوانه للحكم لا يكلم الناس مباشرة، إلاّ من خلال سبعة من التراجمة ـ يسمونهم خشم الكلام ـ يصطفون من بين يدي السلطان حَتَّى يصل آخرهم لدى أصحاب الدعاوى والعساكر حوله والناس جاثون على ركبهم واضعين أيديهم على التراب. يترقب الناس يوم جلوس السلطان في الديوان في الفاشر حيث يأتي الكماكلة (المستشارون) والعقدة (ولاة الأقاليم) والأمراء بمختلف طبقاتهم والقضاة وأشراف الناس والعلماء والتجار.. يجلسون تحت ظلال أشجار السيال الوريفة.. ويخرج «خشم الكلام» من خلال سلم من داخل البيت ليجلس على مسطبة أعدت له خصيصاً ومن ثَمّ يفتح المجلس قائلاً: «السلطان يسلم عليكم يا أهل الفاشر، السلطان يسلم عليك يا قاضي، السلطان يسلم عليكم يا علماء»، وهكذا يمضي في حديثه.

ووصف التونسي عادة السلطان حين يخرج مرّة في كلّ عام لبذر البذور في مزرعته الخاصة.. وتخرج في معيته الجواري الحسان تزينهن الحلى ويحملن الأواني الملأى بأنواع الطعام الفاخر. وتمشي خلفه جوقة موسيقية والجواري يغنين بأصواتهن العذبة. ومن أطرف بطانة السلطان التي وصفها التونسي جماعة من المهرجين يطلق عليهم اسم الموجّيه.. يلبسون لباساً خاصاً أقرب لزي المهرج التقليدي ويعتمرون عصابة تحدث رنيناً موسيقياً. وهم لا يتحرجون من الحديث أمام السلطان.. ويتحدثون ما شاء لهم أحاديث موحية للفت نظر السلطان لما ينبغي أنْ يعرفه عن خاصته وكبار المسؤولين في دولته وما يجري فيها.. وأحياناً يتولون قتل من يرغب السلطان في إعدامه.. يغنون ويرقصون ويقلدون نباح الكلاب وأحياناً مواء القطط. وحين يركب السلطان في حالة السفر أو الصيد يكِفون عن الغناء ولكن يصدرون صيحة عظيمة في وقت واحد بقولهم «ايايا».. وهكذا يفعلون ما دام السلطان راكباً.

وكتب التونسي عن المرأة في دارفور ومكانتها وسطوتها ومشاركتها للرجل في العمل والحياة الإجتماعية والحريات التي تتمتع بها. وأشار إلى مجموعة من النساء المسنات يكوّن طائفة عظيمة لهن رئيسة تسمى «ملكة الحبوبات» يشاركن بطقوس معينة في تنصيب السلطان.

وكان من أغرب الظواهر التي تعرّض لها التونسي في مؤلفه معرفة بعض الناس بالسحر واستخدامهم للجن وروى تجارب ذاتية في غاية الغرابة. وقد قرأت قبل سنوات كيف أنّ هذه الظواهر التي أوردها التونسي في مؤلفه الذي ترجم إلى اللغة الفرنسية منذ منتصف القرن التاسع عشر أثارت إهتماماً بالغاً لدى الأوساط العلمية في باريس.. الأمر الذي دفع بمجموعة من الطلاب الجامعيين وبعض أساتذتهم لزيارة تلك المنطقة لتقصي تلك الظواهر بعد أكثر من مائة عام من صدور الكتاب.

حين أقام محمد بن عمر التونسي في دارفور كان يتولى العرش السلطان محمد الفضل الذي خلف أباه السلطان عبدالرحمن الرشيد وكان لا يزال حدثاً صغير السن. فاستأذنه التونسي للسفر إلى تونس وسافر عن طريق ودّاي التي إضطر للإقامة فيها حوالي ثمانية عشر شهراً. ولما وصل إلى تونس في عام 1813 لَمْ يقم طويلاً وتوجّه إلى القاهرة حيث التحق بخدمة الجيش المصري في وظيفة واعظ بإحدى فرق المشاة التي شاركت في حرب المورة في عام 1827. ولما عاد منها اشتغل التونسي بمراجعة الترجمة العربية لكتب الطب التي كانت تدرس في كلية البيطرة بأبو زعبل. وهناك التقى بالدكتور بيرون الفرنسي الذي أخذ يتلقى عنه دروساً في اللغة العربية، ولما علم الدكتور بيرون برحلته إلى بلاد السودان شجعه على كتابة مذكراته، وقد كان. ولما تَمّ تعيين بيرون مديراً لمدرسة الطب بالقصر العيني عام 1839 أوصى بتعيين التونسي كبيراً للمراجعين فيها. فأتاحت له هذه الوظيفة فرصة الإسهام في خدمة اللغة العربية في عصر الترجمة بمصر في منتصف القرن التاسع عشر. فإنّه فضلاً عما قام به من تصحيح الكتب المترجمة إلى العربية، أو الموضوعة في العلوم الحديثة. ساعد على استخدام كثير من المصطلحات العلمية المتعلقة بعلوم الطب والنبات والحيوان.

ومن مؤلفاته في هذا الشأن «الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية». وقام بمراجعة وتحرير «الدر اللامع في النبات وما فيه من الخواص والمنافع» و«كنوز الصحة ويواقيت المنحة» و«روضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى»، و«الدرر الغوالي في معالجة أمراض الأطفال».

وللتونسي فضل في مراجعة بعض المؤلفات العربية القديمة التي طبعت في مصر على عهده منها «مقامات الحريري». و«المستطرف» للأشبيهي، ثُمَّ أنّه أشرف على طبع «القاموس المحيط» للفيروز أبادي. ودأب في أخريات أيامه على إلقاء دروس في الحديث بمسجد السيدة زينب في يوم الجمعة من كلّ أسبوع

حَتَّى توفاه الله في القاهرة عام 1857 وهو في السبعين.

وكان الأصل المعتمد لكتابة «تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان»، هو النسخة المطبوعة بالحجر التي كتبها المستشرق بيرون بخط يده ونشرها في بارس عام 1850. وللتونسي كتاب آخر حول رحلته إلى ودّاي قام بيرون أيضاً بترجمته إلى الفرنسية ونشره في عام 1851، إلّا أنّ النص العربي ظلّ مفقوداً حَتَّى الآن ولا يعرف أحد عنه شيئاً.



محكمة السلطان تحت ظلال الأشجار

نعوم شقير.. كما رآه أبو سليم



د.أبوسليم

ظلَّ كتاب «تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته» لمؤلفه اللبناني نعوم شقير رغم مرور الزمن وتقلباته والمتغيرات التي طرأت على أساليب البحث وتقدُّم الدراسات السودانية، مرجعاً راسخاً ومهماً تتداوله أيدي الباحثين والمهتمين.. وذلك لغزارة معلوماته وشموليته وتناوله لتاريخ السودان منذ أقدم العصور حَتَّى نهاية القرن التاسع عشر. كان للصدفة دورها في توجُّه ذلك الرجل لكتابة التاريخ حيث توفَّرت لديه معلومات سِّياسية وإقتصادية وجغرافية تَمَّ جمعها كتقارير لخدمة المخابرات في سعيها للتمهيد لغزو الدولة المهدية التي انتصرت على القوى الأجنبية وأقامت كيانها الوطني. كان ذلك الأمر متزامناً مع صدور عدد من الكتب التي جرى تأليفها على عجل من أجل الدعاية وتبرير الغزو.. كتبها رجال موتورون تملكتهم مشاعر الحقد والضغينة فتجاوزا الموضوعية في جميع الذي تناولوه.. أمثال سلاطين النمساوي وأهروفلدر الألماني وريجنالد ونجت البريطاني. وكان نعوم أحد موظفي المخابرات.. لَمْ يكن مؤرخاً إلاّ أنَّ وفرة

المعلومات دفعته لأن يكون كذلك.. وبما أنه شرع في الكتابة عقب سقوط أم درمان وزوال العدو باتت كتاباته أقل مرارة واستفاد من كلّ ما تَمّ جمعه من مادة عن تاريخ السودان قديمه وحديثه واستعان بإفادات من ألمع الشخصيات السودانية والمصرية التي كان لها دور مباشر في الأحداث أمثال الزبير رحمة باشا، والأمير عثمان دقنة، وعبدالقادر حلمي باشا أحد أهم العسكريين المصريين والذي عمل حكمدارا للسودان إبان اندلاع الثورة المهدية.

ولد نعوم شقير بالشويفات في لبنان عام 1864 وتخرّج في الكلية الإنجيلية السورية عام 1883 والتي عُرفت فيما بعد بالجامعة الأمريكية ببيروت. وقد تخرّج فيها للمصادفة في أوقات لاحقة المؤرخ السوداني اللامع مكي شبيكة والرئيس إسماعيل الأزهري وغيرهما من شخصيات سودانية كان لها دور بارز في الحياة السودانية في القرن العشرين. هاجر نعوم بعد تخرجه إلى مصر شأن جماعات أخرى من الشوام عارضوا الحكم العثماني فوجدوا مستقراً في أرض الكنانة.

وبعد وصوله إلى مصر بقليل التحق نعوم بخدمة الجيش الإنجليزي في 20 سبتمبر 1884، في الوقت الذي كانت تتهيأ فيه الحملة البريطانية لإنقاذ غردون بالتحرك نحو الخرطوم التي حاصرها ثوار المهدية. أخفقت الحملة في مسعاها حيث وصلت بعد أيام ثلاثة من سقوط المدينة فعادت أدراجها حيث تمت تصفيتها ليحل مكانها جيش الحدود الذي إتخذ من أسوان مقراً لقيادته.. وقد أسندت قيادة هذا الجيش للجنرال جرانفيل وكانت مهمته حماية حدود مصر الجنوبية.. ريثما تكتمل الأسباب للوثوب على السودان.

بدأ نجم نعوم في الصعود منذ التحاقه بمخابرات الجيش بقيادة «ونجت» وبات يصحب السردار جرانفيل في معظم رحلاته التفقدية لمناطق الحدود ولمدينة سواكن. ولما تولى ونجت قيادة الحملة على طوكر في فبراير 1891 رافقه نعوم

وشاركه الإهتمام بالوثائق التي تَمَّ العثور عليها في معسكر الأنصار في عفافيت بعد الواقعة. كما اشترك نعوم في الإعداد لهروب سلاطين من أم درمان الأمر الذي شكَّل إنتصاراً باهراً لإدارة المخابرات فأنعم عليه برتبة البكوية التي لا يحصل عليها موظف إلّا بإنجاز كبير.

وحضر نعوم سلسلة المعارك التي خاضها جيش الإحتلال منذ تحركه في عام 1896 نحو أم درمان حَتَّى معركة كرري التي وقعت في الثاني من سبتمبر عام 1898 والتي يورد بعض مشاهداته الخاصة منها. وأخذ يتردد على السودان في عدد من المرات حيث أصبح رئيساً لقسم التاريخ بإدارة المخابرات التي بقيت رئاستها في القاهرة.

وبعد سقوط أم درمان شرع ونجت ونعوم في جمع وثائق المهدية، مثلما فعلا خلال المعارك التي سبقت ذلك. وقد تزايد إهتمام ونجت بعد أنْ بلغه اختفاء خاتم الإمام المهدي من محفوظاته فهرع يرافقه نعوم لوضع الوثائق تحت الحراسة بعد جمعها من منازل مدثر إبراهيم الحجاز، وأبو القاسم هاشم، والأمير يعقوب - شقيق الخليفة - وبيت الأمانة. وتم حفظها بمنزل الأمير يعقوب الذي تحوَّل إلى قومندانية.. حيث عبثت في زكائب ووضعت داخل أخراج الصمغ ومن ثَمَّ نقلت إلى إدارة الحربية بالقاهرة.

اعتمد نعوم في مؤلفه عن تاريخ السودان على مراجع قديمة عربية وأجنبية كالموسوعة البريطانية والتوراة وتواريخ هيرودوتس وديودور الصقلي واسترابو ويوسيفوس والمسعودي وابن الأثير وابن خلدون وابن اياس والمقريزي وأبو الفدا.. وغيرهم. كما اعتمد على مصادر سودانية كمخطوطي إبراهيم عبدالدافع، والزبير ود ضوه، وقرأ مؤلفي إسماعيل عبدالقادر الكردفاني «سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي» و« الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش»،

واطلع على دفتر وقائع عثمان دقنة. إلّا أنّ البروفيسور محمد إبراهيم سليم يرى أنّ معرفته بمطبوعات المهدية كانت ضعيفة، كما أنّه لَمْ يشأ أنْ يستفيد كثيراً من الوثائق التي أتيحت له، حيث إنّ تركيزه كان على الرواة. ففي تناوله لسلطنة دارفور إعتمد على رحلة التونسي في نصها الفرنسي وعلى كتاب «السيف والنار في السودان» لمولفه سلاطين وأخذ من رواة آخرين منهم على ود الخبير، ومحمد الطيب التنبكتي الملاوي. وفي كتابته عن تاريخ المهدية إعتمد على ثلاثة أنواع من المصادر والمراجع فلقد توفّرت له مؤلفات تكلمت عن المهدية مثل كتاب «المهدية والسودان المصري» لريجنالد ونجت، و «عشر سنوات في الأسر» لأهروفلدر، و «السيف والنار..» و«تاريخ الحملة النيلية» للكولونيل كولفل، و«تاريخ الحملة السودانية» لجبرائيل حداد، و«تاريخ مصر الحديث»لجورجي زيدان.

ويذكر نعوم بعضاً من الرواة الذين أخذ منهم من أمراء المهدية وأعيان السودان والضباط والعساكر والأعيان المصريين الذين كانوا بالسودان وهم: عبدالقادر حلمي باشا، ومحمد نصحي باشا، وخشم الموس باشا، ومحمد بك السيد الشايقي، وعثمان بك لطيف، والبكباشي أحمد أفندي الحلاوي، والأستاذ محمد شريف نور الدائم، والمضوي عبدالرحمن، ومحمد خدام (شيخ قبيلة الحمر)، وإسماعيل الأزهري (القاضي ونجل السيد أحمد الأزهري). ولاحظ أبوسليم أنّ جميع هؤلاء الرواة كانوا من المعارضين للمهدية، الأمر الذي أضعف صوت المهدية عند نعوم، وذلك رغم الأهمية القصوى لرواية الأشخاص ذوي الشأن والإرتباط المباشر بالأحداث.

وقد أشار أبوسليم في مقالته الواردة في مؤلفه «أدباء وعلماء ومؤرخون في تاريخ السودان» إلى أخطاء فادحة وقع فيها نعوم فيما يتعلق بتاريخ السودان. وحدّد تلك الأخطاء التي أوردها بالتفصيل وقام بتصويبها. ورأي أنّ نعوماً لَمْ يكن مؤرخاً

لَمْ تلبث الأحداث أنْ تلاحقت في تلك الفترة نفسها حيث أعلن المهدي ثورته في الجزيرة أبا وهزم أول حملة عسكرية للحكومة. وغداة إنتصاره عبر النهر متوجّهاً غرباً يصحبه بضع عشرات من الناس. وفي خلال عامين وعقب إنتصارات أسطورية على قوات الحكومة اتنى بجيش لجب نحو الخرطوم إختلف المؤرخون حول عديده. إلّا أنّ يوسف ميخائيل إستطاع أنْ يجسّد صورة حيّة لضخامة ذلك الجيش بسرده الشيق للأحداث اليومية لتحركه. فأسراب الغزلان والدجاج البري لا تجد سبيلاً للفرار فأينما تتجه تسقط تحت الأقدام فتخطفها الأيدي وتسارع إلى ذبحها.. والأسواق تقام كلما أوقف الجيش تقدُّمه.. وغير ذلك من الصور التفصيلية النادرة.

تحوّل يوسف ميخائيل من مسيحي قبطي إلى أنصاري متحمس وأبدى روحاً زعامية أهلته لأن ينال رضا الخليفة ويصبح مقدّماً على أهله الأقباط ومسؤولاً في ديوان الأمير يعقوب ـ هذا الموقع أتاح له فرصة التعرف على الأحداث ومجرياتها فكتب عنها كما رآها وفهمها. فلولاه ما كان يتسنى لنا أنْ نعرف الشيء الكثير عن الوفد الأثيوبي الأول الذي زار أم درمان للإعراب عن الصداقة وصون حقوق الجوار. فاهتم الخليفة بذلك وأمر بإستقبالهم ومرافقتهم في الطريق حَتَّى وصولهم إلى أم درمان حيث أنزلوهم في دار للضيافة وبات أمين بيت المال إبراهيم رمضان مسؤولاً عن إكرامهم وتوفير أسباب الراحة لهم. وكان الوصف قد اشتمل حَتَّى على أنواع الطعام والشراب والسلوك الذي أبدوه أمام الخليفة.

لا تخلو كتابة يوسف ميخائيل من سخرية وخاصة عندما بدأت قوات الإحتلال في الدخول إلى البلاد وخط السكة الحديد يتقدّمها ـ ولكن المثير للدهشة أنّه بعد نهاية الدولة المهدية توجّه إلى مصر وقابل كبار أسافقة الكنيسة القبطية ومسؤولين مصريين ودافع حين اقتضى الحال عن الخليفة عبدالله ولَمْ يقبل أيَ انتقادات وجّهت إليه ـ ومن ثَمَّ عاد إلى السودان.

11 يوليو 2000

متخصصاً بحكم التأهيل الدراسي وإنّما إتجه لكتابة التاريخ بالهواية وإغراء المعلومات التي توفّرت لديه. وقد فهم التاريخ في إطاره العام من حيث تسجيل النشاط البشري واعتبره قارئاً جيداً يحسن عرض ما يتوفّر لديه من معلومات.. ومتمرساً في الكتابة يورد ما يصل إليه من معلومات بأمانة ودقة ولا يمكن لأيّ منصف أنْ يغمطه حقه في الجدارة ولا أنْ يتجاوز مساهماته في كتابة التاريخ. ولاحظ أنّه يميل إلى التاريخ السّياسي العام ولا يحفل بالنشاط الاقتصادي والزراعي والفكري والعمراني، ولا يمر خلال ذلك إلّا عابراً وفي إطار التاريخ العام. ومن بين ملاحظات أبوسليم أنّ نعوماً لا يكاد يدرك المضمون الإسلامي في قيام سلطنتي الفونج والفور ولا تأثير العرب بلغتهم ونفوذهم الإجتماعي ولا يدرك أثر التجارة على السلطنتين وعلاقاتهما الإجتماعية. وكان كلّ ما يعنيه فيما يكتب هو وصف الحوادث في حدود ما وقف عليه.. في سياق سردي دون البحث عن الأبعاد الإجتماعية والسّياسية التي تقف وراء الحوادث.

وفيما يتعلق بتاريخ المهدية لَمْ يستطع نعوم النفاذ إلى جوهر حقيقتها بل إعتبرها- بكلّ بساطة- خروجاً عن الطريق القويم وأنّ نجاحها ما كان ليتحقق لولا الإخفاق في إتخاذ الإجراءات السليمة. ونظر إلى الأمور نظرة في غاية السطحية فلم يسترع إنتباهه إنخراط مئات الألاف في الدعوة وإستعدادهم الخرافي للتضحية والإستشهاد. ولَمْ يفهم نعوم العمق الديني للثورة ولا الأبعاد السّياسية والإجتماعية للأحداث. وربما يكون لإعتقاده الديني بإعتباره مسيحياً دور في ضبابية الرؤية لديه. ذلك بالإضافة إلى أنّه عمل مع الأوساط البريطانية العاجزة بحكم موقفها السّياسي والديني عن الرؤية الموضوعية لطبيعة الثورة.

كتب نعوم عدة مؤلفات تناولت موضوعات مختلفة كالتاريخ والجغرافية بمعنييهما الطبيعي والبشري الشامل واللغات واللهجات والأمثال والعادات والخرافات والمعتقدات والصناعات والحرف. وهو يتجه في كلّ ذلك إلى

التعريف الشامل متتبعاً كل التفاصيل المتاحة له مع توخي الموضوعية والإبتعاد عن التأثير العاطفي أو الإتجاه الخاص. ففي جغرافية السودان- وهو جزء من مؤلفه الشامل- تناول نعوم حدود السودان السّياسية والمعالم الجغرافية والطبيعية كالنيل وروافده، والأراضي، والمعادن، والطقس، وحالاته، والأمراض، والنباتات، والحيوانات. وتناول سكان السودان أصولهم ومواطنهم ثُمَّ مديرياته ومحافظاته واللغات والأديان والمعارف والحرف. وفي حديثه عن الإسلام قدَّم بيانات طيبة عنه وعن قواعده وأركانه ومذاهبه وطوائفه ونظمه السّياسية.

ويقول نعوم إنَّه فرغ من تأليف هذا الكتاب في يوم 27 أكتوبر عام 1903 «بعد إختبار نحو عشرين سنة في السودان وأهله وقضاء جل ساعات الفراغ الثمينة خلال سبع سنوات متتالية في جمع مواده وتمحيص حقائقه وسنة ونصف السنة في تبييضه وطبعه».

ومن مؤلفاته المهمة والمعروفة كتابه «أمثال العوام في مصر والسودان والشام»، الذي أشار فيه إلى أنّه بصدد طبع كتاب بعنوان «مرآة الأيام في مصر والسودان والشام» ويبدو أنّه لَمْ يوفق في طبعه. ولديه أيضاً «في تاريخ سيناء وجغرافيتها» الذي طبع مرّة واحدة عام 1916، وتوجد من كتاب الأمثال نسخة واحدة بمكتبة التجاني الماحي بجامعة الخرطوم. أما كتابه عن تاريخ السودان- وهو أشهر مؤلفاته وأكثرها أهمية- فقد طبع مرّة واحدة أثناء حياته، ثُمَّ أصدرت «دار الثقافة» البيروتية طبعة ثانية في عام 1967، ثُمَّ طبعة مصورة في عام 1973، وأصدرت «دار الجيل» البيروتية طبعة محققة في عام 1981.

مؤرخاً بمحض الصدفة

يوسف ميخائيل

كانت تلك سانحة نادرة الحدوث.. أتاحت لنا فرصة الوقوف على معلومات تاريخية وإجتماعية مهمة.. ولولاها لذهبت أدراج الرياح. فيوسف ميخائيل القبطي السوداني الذي ولد وعاش بمدينة الأبيض قدّر له أنْ يشهد فترة عاصفة من التاريخ السوداني. إمتدت من أخريات العهد التركي لتشمل الثورة المهدية ونهايتها بسقوط دولتها. وعلى الرغم من أنّه كان شاهداً ومشاركاً في أحداث تلك الفترة إلّا أنّه لَمْ يفكر قط في أنْ يؤرخ لها. وفي أخريات حياته أدار هو وأخوه إسحاق مطحنة للحبوب بالأبيض. ودأب إداري بريطاني شاب على زيارتهما في المطحنة ليلتقي بيوسف الذي وصفه بأنّه كان نحيلاً واهن البدن وأبيض الشعر ـ ليحدثه عن تاريخ المدينة قبيل الإحتلال البريطاني.

وفي ذات مساء من خريف عام 1924 كان المستر أقلين نائب مفتش المركز عائداً من مهمة خارج المدينة فدلف إلى مكتب البلاغات وحراسات الشرطة ليفاجأ بوجود صديقه يوسف ميخائيل وزوجته فيكتوريا معتقلين في الحراسة بتهمة صناعة «العرقي» ـ حيث كانت القوانين مشدُدة فيما يتعلق بالخمور البلدية ـ يعني أنهما كانا ضحيتين لعملية «كشة» حسب التعبير المتداول في أيامنا هذه. كان دفاع السيدة فيكتوريا واهياً حيث زعمت أنّ «العرقي» دواء ناجع للأزمة (الربو) الذي يعاني منها زوجها ـ لذا كانت تصنعه. ورغم وساطة الجالية القبطية والشوام المسيحيين الموجودين بالمدينة إلّا أنّ الحكم قد صدر بإدانتهما ـ هي بالسجن مع وقف التنفيذ، وهو بقضاء شهر كامل في الحبس. أشفق المستر أقلين على صديقه يوسف ميخائيل وخشي على صحته الواهنة من أعباء السجن فقرّر استبدالها بقلم رصاص

وعدد من الدفاتر ليحكي قصة حياته الغنية بالأحداث. وقد فعل.. ليصبح مؤرخاً لمدة ثلاثين يوماً وليقدم أفضل خدمة لبلاده.

كان يوسف ميخائيل ملماً بالقراءة والكتابة على حد معقول ويبدو أيضاً أنه كان قد توفر على قراءة الكتب المتاحة لأمثاله في ذلك الوقت كـ «ألف ليلة وليلة» و«أبو زيد الهلالي» و«الأميرة ذات الهمة».. يتضح ذلك من أسلوبه والعبارات التي كان يقحمها أثناء عملية السرد. وجمعت لغته بين الفصحى وعامية أهل كردفان بجماليتها وشفافيتها وقصر عباراتها ومخارج ألفاظها العذبة (أشد ما أخشاه اندثارها بدداً).

وكأي كاتب محترف ربط يوسف ميخائيل بين الأحداث اليومية وتفاصيل حياته وحياة أسرته والأحداث الكبرى أو التحوّلات التي شكّلت مستقبل السودان السّياسي في أوقات لاحقة. وتذكرني أوراق يوسف ميخائيل هذه برواية صدرت أخيراً للكاتب الاسباني أنتونيو غالا «المخطوط القرمزي» التي تناولت فترة انهيار وسقوط غرناطة مع التحفظ على الأسس النقدية لأوجه المقارنة.

كانت مدينة الأبيض قد إستوت بندراً عامراً واسع الأطراف لما تبوأته من مكانة تجارية وإنتاجية. وكانت مصدراً أساسياً لعمليات تصدير المحاصيل من حبوب وصمغ وريش نعام حتّى مدحها محبوها من العربان القاطنين من حولها بقولهم «الأبيض أب قبة فحل الديوم». كان ذلك حين تفتح وعي يوسف ميخائيل فتى على أبواب التخرج من كتاب الأقباط بالمدينة. وأخذ في التدرب على الأعمال الكتابية ليحتل وظيفة في ديوان المديرية. وبالتحديد حين زار الجنرال تشارلز جوردون المدينة في إطار مهمته الأولى (1877 ـ 1879)، فوصفها في مخطوطه وصفاً بديعاً في إطار رؤيته الخاصة المختلفة عما جاء في كتابات المؤرخين. ووصف تبرج المدينة لإستقبال المسؤول البريطاني وتمردهم على عريف الكتاب المصري الذي حاول منعهم من الخروج لمشاهدة الإحتفال فأمسكوا به وأوسعوه علقة ساخنة، وتعرّض

الكاتب إلى ما رافق الزيارة من مظاهر ذات مدلول عميق حين وصف تدافع العربان الرازحين تحت نير الظلم وفداحة الضرائب لكتابة العرائض وشيوخهم الذين أقاموا الخيام في فناء المديرية لمقابلة المسؤول الزائر.

وبتناوله لبعض الأمور التي تبدو هامشية أتاح لنا فرصة التعرف على بعض سمات الحياة الإجتماعية، فأخوه جورجيوس الموظف الحكومي المرموق باع هجيناً جميلاً للسلطات لإرساله إلى غردون الذي عاد إلى الخرطوم وكان الهجين بمثابة السيارة في ذلك الزمن، فتغنت به فتيات المدينة المرحات:

كير جورجيوس أبو غوفة

فجولي الصريف نشوفه

خمسين ريال دفوهن في المخلوفه

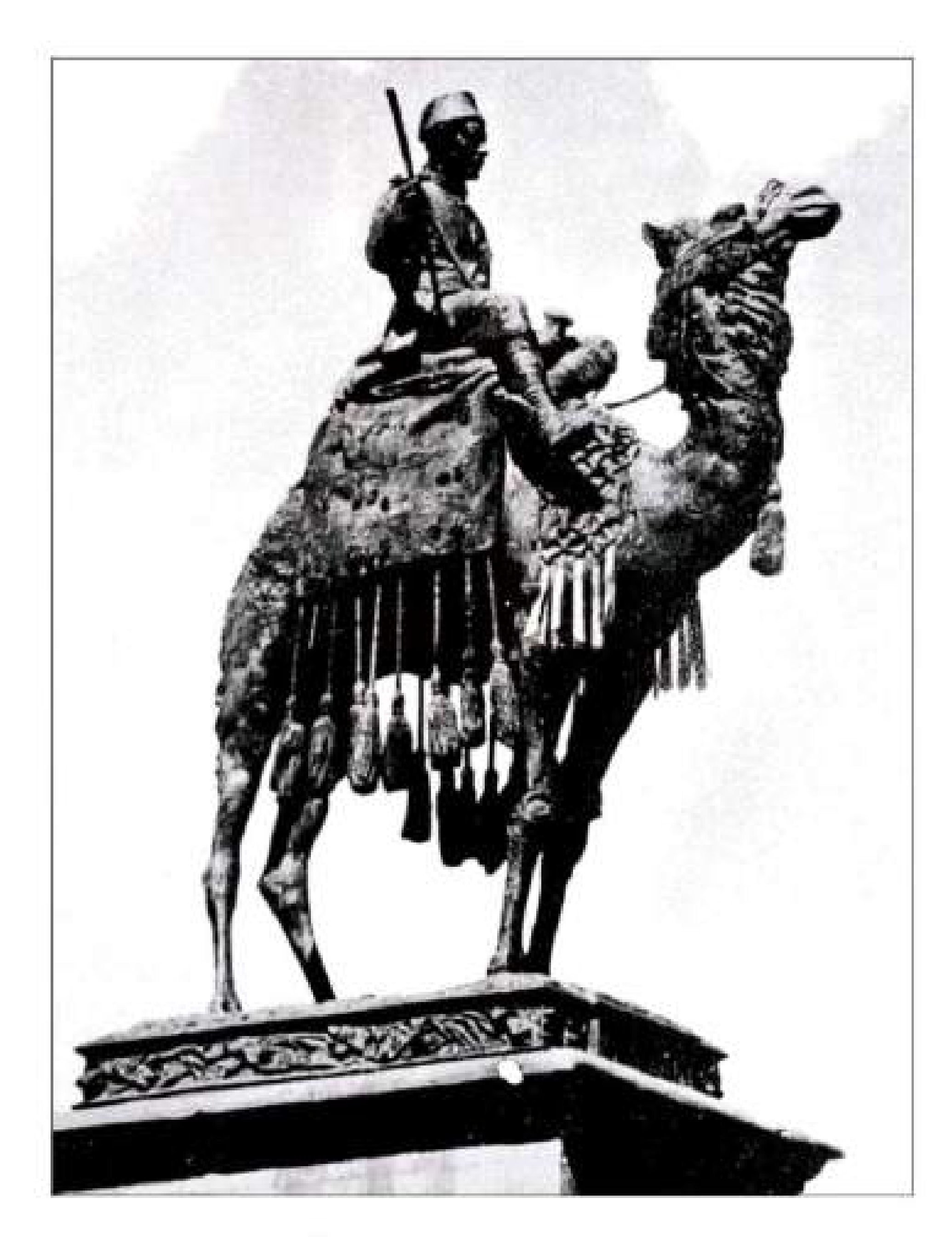
هذا الهجين إستخدمه غردون في رحلاته يجوب البلاد طولاً وعرضاً. وفي نهاية الأمر تَمّ نحت التمثال المعروف للرجل راكباً فوق ذات الهجين كما أكّد يوسف ميخائيل. لَمْ تمض بضعة أشهر على ذلك حَتّى زار الشيخ محمد أحمد «الإمام المهدي» الأبيض وأقام لفترة في إطار اتصالاته الواسعة بزعماء القبائل والمشايخ ورجال الطرق الصوفية وممارسة نشاطه التعبوي الذي كان له أبلغ تأثير في تعزيز الدعوة وترسيخ دعائمها تمهيداً لإعلان الثورة.

استمع يوسف ميخائيل كفتى غرير لَمْ يشتد عوده إلى ما تتناقله الألسن عن درويش شاب بهي الطلعة وسيم المحيا وعذب الحديث وصل إلى المدينة يصحبه عدد من تلاميذه يقيمون الليل بالأذكار ويطوفون أحياناً يرددون قولهم «الدايم هو الدايم الله». ثُمّ يعودون إلى حيث يقيمون في دار السيد المكي أو لدى آل سوار الذهب.

أمهاتنا اللائي نقلنه عن مصادره الحقيقية - جداتنا شهود العيان- ومازلت أذكر أنَّ المؤلم من تلك الأحداث كان يملؤنا رعباً وأسى في تلك الأماسي البعيدة.. ومما يدفعني لأنْ اكتب الأن عن تلك الحكاية هو إحساس عميق بالتقصير ظلَّ يلازمني لفترة طويلة من الزمن.. ذلك أنَّ مثل ذلك الحدث كان سيغيب عن ذاكرة التاريخ إلى الأبد إنْ لَمْ يكن هذا التناول. ألم يقل المؤرخ الدكتور محمد سعيد القدال، «إنَّ تاريخ السودان لا يزال في صدور الرجال».

قرأت ما كتبه شيخ المؤرخين الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم حين تناول سيرة الكردفاني وتحدث عن نهايته في كلمات قليلة جاءت بهذه الصورة «ويقال إنَّ مرفعيناً إختطفه وهو ملقى على عنقريبه لا يستطيع حراكاً من الجوع ولكن أقرباءه ينفون هذا الوجه من نهايته»!! وإني لأعجب لنفى عائلته لتلك الحادثة لأنَّ الأمير أبوقرجة الذي تلقفته العناية الألهية وخرج من هذا المنفى بعد سقوط الدولة المهدية كان أمامه طريقان للعودة إلى أم درمان، إما طريق ساحل شرق أفريقيا حَتَّى السويس أو التوجُّه غرباً من خلال أوغندا والكونغو وأفريقيا الوسطي ووداي «تشاد» ومن ثَمَّ الولوج إلى دارفور فالتوجُّه إلى أم درمان، فاختار الطريق الثاني إلَّا أنَّ السلطان علي دينار احتجزه حَتَّى عام 1907. وعندما انطلقت قافلته الصغيرة في ذلك العام شرقاً دلف إلى الأبيض حاضرة كردفان - قبل أنْ يواصل رحلته- وحلَّ ضيفاً على السيد المكي الشيخ إسماعيل الولي.. وهو خال إسماعيل الكردفاني ولا بدَّ أنْ يكون قد روي له النهاية الفاجعة لابن أخته.

تلقى إسماعيل الكردفاني- المولود بالأبيض عام 1844- المراحل الأولى من تعليمه في خلوة جده الشيخ إسماعيل الولي ثُمَّ اصحطبه خاله أحمد الأزهري إلى مصر حيث مكث هناك سنوات بلغ خلالها شأناً رفيعاً في النجابة والذكاء وبرع في الأدب العربي ونظم الشعر وحظي بمقام رفيع إلى جانب علماء الأزهر. وبعد أنْ أكمل دراسته عاد إلى بلاده في صحبة قافلة تجارية ولقي ترحيباً في



غردون على ظهر هجين جورجيوس (التمثال)

مأساة مؤرخ.. افترسته الذئاب

إسماعيل الكردفاني

تقع تلك الجزيرة محاذية لجبل الرجاف البركاني في المنطقة الاستوائية بجنوب السودان.. فكانت كأنّما أبقاها الزمن نموذجاً للخليقة الأولى.. تعج بحياة أسطورية وكائنات ونباتات غريبة وأدغال يتعذر اختراقها.. فالتماسيح تزحم شطآنها لا تترك موضعا لقدم.. تهاجم كلٍّ من يقترب منها وتسعى أحياناً لفرائسها من البشر في مراقدهم.. وذئابها تعوي في رائعة النهار وأفراس النهر ترتع بلا توجس أو وجل تتقافز صغارها من حولها.. وجموع النحل تشكّل سحابات داكنة لا تلبث أنْ تتبدّد لتتجمّع من جديد.. والبعوض يموج ليلاً ونهاراً ينشر داء الملاريا القاتل. والحيات تطلق فحيحها من بين أغصان الأشجار والفهود تتربص للإنقضاض بين حين وآخر.. والسلاحف العملاقة تتراكم في تكاسل في الأجمات والمطر ينهمر بلا انقطاع ليرفد المستنقعات بمزيد من المياه.. والرطوبة تتمدّد وتتخلل العظام فتزيد من أوجاعها والظلمة تلف المكان الخرافي التكوين.

في هذه البقعة التي تضاعف الرعب فيها الهزات الأرضية بفعل البركان في جبل الرجاف إختار الخليفة عبدالله المنفى الذي أودع فيه عدداً كبيراً من معارضيه السّياسيين منذ انفجار الخلاف بينه وبين الأشراف، ذلك غير التصفيات الدموية التي راح ضحيتها عدد كبير منهم.

هذا ما تواتر عن روايات سماعية جسّدت صورة الجزيرة في أُخريات القرن التاسع عشر، إلّا أنّ المؤرخ محمد عبدالرحيم الذي عمل موظفاً في مناطق

الجنوب في سنوات الثلاثين رأى الجزيرة من بعيد فوصفها في مخطوطاته بعبارة مقتضبة قال إنّها تبدو كحديقة ملتفة الأشجار.

لَمْ يكن يخطر ببال المؤرخ إسماعيل عبدالقار الكردفاني أنْ تكون أيامه الأخيرة ونهايته المأساوية في تلك الجزيرة اللعينة الغارقة في رعب الطبيعة البكر.. وهو الشاعر والكاتب الذي أنفق زهرة شبابه في تحصيل العلم بقاهرة المعز- أيام عزها وتبرجها في عهد الخديوي إسماعيل- فشهدت أمجاده العلمية وتفوقه في الدراسة. كان إسماعيل ضحية للمكايد والدسائس التي حفلت بها الأيام التي بطش فيها الخليفة بالأشراف فتم اقتياده منفياً إلى الجنوب ومعه عدد من الأسرى في مقدمتهم الأمير محمد خالد زقل تحت حراسة قوة بقيادة الأمير عربي دفع الله.. الذي وصفه المؤرخون بالشراسة والوحشية..وكانت المهمة الأساسية لعربي هي إعتقال الأمير محمد عثمان أبوقرجة الذي كان يمارس مهامه عاملا للمهدية في المناطق الاستوائية، منذ إستدراجه لها بتعيينه في مارس 1893.

في أواخر عام 1893 أقيمت أكواخ صغيرة على عجل من أغصان الأشجار والحشائش في طرف الجزيرة وأدخل فيها الأسرى مكبلين بالقيود، كان أبرزهم الأميران أبوقرجة وزقل والشيخان إسماعيل شجر الخيري وإسماعيل عبدالقادر الكردفاني.

وفي مساء يوم حزين - بعد ثلاث سنوات من الهول- زحف الأسرى كعادتهم نحو كوخ الأمير أبوقرجة- حيث كانوا قد فقدوا القدرة على المشي لثقل القيود- وتحلقوا حوله بعد أنْ أوقدوا ناراً لطرد الناموس وطلباً للدفء. كان أبوقرجة يخفف عنهم ويبث الأمل في نفوسهم التي أمضها العذاب وأرهقها المنفى والغربة الموحشة والإحساس بالظلم الفادح.

تناول الأسرى ما تيسر لهم من طعام وقفلوا عائدين زحفاً إلى أكواخهم قبل أنْ تحول دونها قطعان الذئاب، إلَّا أنَّ الكردفاني الذي ظلَّ متجدِّد الأحزان كثير الحنين إلى أهله تأخر قليلاً يتجاذب الحديث مع الأمير أبوقرجة ويبثه شوقه لعائلته معرباً عن يأس مطلق وإحساس مرير بخيبة الأمل. أخذ أبوقرجه يواسيه ويدعوه للتمسك بالصبر والاعتماد على الله وحده. ولكن الأسير التعيس كان متطيراً ذلك المساء مستسلماً لليأس يغالب الدموع والعبرات. زحف نحو كوخه ببطء يلتفت بين الحين والأخر ليتزود بأصداء الكلمات المشجعة «حتماً تعود يا إسماعيل إلى بلدك وأولادك بعد هذه الحالة» إلَّا أنَّ القدر كان يخبيء له مصيراً آخر حيث تراءي له ذئبان غير بعيدين عن كوخه فأسرع زاحفاً إلَّا أنَّها تكاثرت وأحاطت به وأخذ يتناول ما يصادفه في الأرض من أغصان جافة يحاول ردها.. حَتَّى بلغ كوخه بعد مشقة فاقتحمته عليه وأنشبت أظفارها في جسده النحيل فواجه الموقف بشجاعة وثبات، وأخذ يردد الشهادتين بأعلى صوته ويلعن جلاديه متوعداً إياهم بيوم الحساب.. تنبه رفاقه في الأسر لمحنته منذ أنْ بدأت الذئاب في مناوشته وسط الأكواخ وجميعهم مكبلون بأصفاد ينوءون تحت ثقلها.. فأخذ بعضهم ينشج بالبكاء تحرقاً لنجدته وآخرون يصيحون لذي مروءة.. ولكن لا صريخ.. فالحراس جميعهم كانوا يقضون الليل خارج جزيرة المنفى.. شقَّ الأمر على الأمير أبوقرجة وهو طريح «عنقريبه» مقيداً بسبع من «المكاكي» فحاول النهوض رغم ذلك، وهو الذي لَمْ يقف على قدميه منذ يوم إعتقاله فانكسرت قوائم السرير وغاص في كومة من الحبال والخرق البالية.

ولمَّا أيقن الجميع أنَّ رفيقهم في الأسر بات في بطون الذئاب أخذوا في التكبير والتهليل بأصوات واهنة ولزموا أكواخهم ثلاثة أيام ما التقوا خلالها.. حدث ذلك في أوائل عام 1897.

كان ذلك جزءاً من التاريخ الذي لَمْ يجد من يكتبه حَتَّى الآن.. وهو ما روته لنا

والثقافي ومختلفة في أساليب الحياة.

وروى يوسف بدري أنَّ الحياة في الكلية كانت تبدأ بجرس الصباح للنهوض والتوجُه إلى الحمامات والتمام للتأكد من أنَّ الجميع غسلوا أجسادهم بالمياه المندفعة من الدش. وذلك خلاف ما تعودوه في مناطقهم الريفية. ثُمَّ يتوجَّهون إلى غرفة الطعام (السفرة) لتناول الشاي ثُمَّ أداء الجمباز فالحصتين الأولى والثانية وبعدها تناول الفطور واستكمال الحصص الست. وفي الفسحة الثانية توزع على كلّ طالب أربع تمرات وهم وقوف في طابور.

أتحفنا يوسف بدري بإنطباعاته عن الإضراب الشهير الذي نفذه طلاب الكلية عام 1931 احتجاجاً على قرار الحكومة القاضي بتخفيض مرتبات الخريجين من ثَمانية جنيهات إلى خمسة جنيهات ونصف الجنيه، وكان ذلك بسبب الأزمة الإقتصادية وما رافقها من سياسات تقشفية ارتأتها الحكومة إلّا أنّه من الواضح أنَّ الأمر كان ينطوي على أمر سّياسي وأسلوب للتعبير عن إمكانية التمرد على السلطة بعد أنْ ران على البلاد من سكون وغيظ مكبوت نتيجة القمع والإرهاب، كانت القضية وطنية بلا ريب.. انفرد كاتبنا بالحديث عن بعض التفاصيل لذلك الحدث النادر، فوصف اجتماع السيد عبدالرحمن المهدي بالطلاب في محاولة لإثنائهم عن الإستمرار في الإضراب حَتَّى لا يجد الإنجليز فيه ذريعة لإغلاق الكلية وحرمان الطلاب من التعليم في هذه المؤسسة. احتشد الطلاب البالغ عددهم خمسمائة وخمسين في غرفة الطعام، حيث لَمْ يكن هناك مكان آخر يسعهم ودخل السيد عبدالرحمن منفرداً وجلس على كرسي وضع فوق إحدى المناضد وأخذ يتحدث عن التعليم وضرورته ومحاولة فصله عن الوظيفة. ولما أحسَّ أنَّ الطلاب مصرون على موقفهم أذعن لما ارتأوه بروح ديمقراطية وأبوية كانت محل تقدير الجميع.

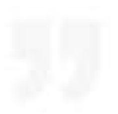
لَمْ يكن غريباً أنْ يرد اسم السيد عبد الرحمن المهدي في عدد من صفحات

سلطنة دارفور وعلم عدداً من الطلاب، ثُمَّ واصل رحلة العودة إلى كردفان حيث أصبح المفتي لتلك الديار وأقام حلقة للتدريس. وعندما اندلعت الثورة المهدية آثر الإنضمام إليها حيث كان خاله السيد المكي من أبرز مناصريها. ومن ثَمَّ إتخذت حياته مسارات أخرى. قربه الخليفة عبدالله إليه وأسند إليه وظائف قضائية مهمة، إلّا أنَّ المهمة الكبرى التي أوكلت إليه كانت كتابة تاريخ المهدية فأنجزها بصورة لا تزال تذهل المؤرخين المعاصرين بدقتها ولغتها الغنية الباذخة، ولا يزال كتاباه «سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي» و«الطراز المنقوش ببشرى مقتل يوحنا ملك الحبوش» مصدرين أساسيين للباحثين في تاريخ المهدية.

لَمْ يمض وقت طويل على إنجاز هذا العمل الذي نال رضا الخليفة حَتَّى سعى الواشون إليه بما أسخطه على الكردفاني فأمرٍ بنفيه إلى الرجاف واحراق كتبه، وقد بقيت نسخة وحيدة من كتاب السيرة تمكن نعوم شقير من شرائها في مصر عام 1895- كما روي، إلّا أنَّ ذلك يبدو في إطار نشاط المخابرات البريطانية حيث حصل عليها ريجنالد ونجت بعد ذلك ومن ثَمَّ وجدت طريقها إلى مكتب الدراسات الشرقية بجامعة درم ولا تزال هناك، وهي التي تَمَّ الاعتماد عليها في إصدار الكتاب.

كتب كثيرون عن إسماعيل الكردفان وعن نشاطه الفكري والأدبي ووجد تقديرا عظيماً لديهم حَتَّى أنَّ بعضهم وضعه في مصاف مؤرخين كابن الأثير وأبي الفدا وابن خلدون والمقريزي.

2 أكتوبر 2000م



الأمير أبوقرجة

من البداوة إلى مظاهر المدنية

مذكرات يوسف بدري



توّج العميد يوسف بابكر بدري حياته الحافلة بأفضل ما يمكن أنْ يقدمه أضرابه من عطاء.. مذكراته. كان لا بدّ له أنْ يفعل ذلك فقد كان والده رائداً في هذا المجال حين كتب سيرة حياته منذ تجربته في الرضاعة حَتّى أيامه الأخيرة.. فأصبح «تاريخ حياتي» أحد أبرز المؤلفات حول الحياة الإجتماعية في السودان. كان الرجل شخصية ديناميكية فاعلة.. جريئاً منفعلاً بما حوله. كما كان صريحاً في الحديث عن تجاربه وتجارب الآخرين.. صراحة ما تعودها السودانيون. وقيل إنّ مذكراته هذه أزعجت الكثيرين رغم تعرُّضها للحذف في مواضع كثيرة.. بابكر بدري وُلِد في العهد التركي وحين اندلعت الثورة المهدية كان شاباً في العشرين.. رأى الإمام المهدي قبل الدعوة في رفاعة، الأمر الذي ترك انطباعاً عميقاً في نفسه فشارك في حصار الخرطوم وما تلا ذلك من أحداث حَتّى تَمّ أسره في حملة ود النجومي بمصر.. كتب عن كلّ ذلك وأطنب في الوصف وقدم عملاً مدهشاً جديراً بالثناء. كما كتب عن تجربته الفريدة في التعليم والتي

بدأت منذ السنوات الأولى للقرن العشرين حَتّى بعد منتصفه بقليل. وبات ذلك السفر مرجعاً لكلّ المهتمين بالشؤون الإجتماعية والثقافية السودانية.

أما ابنه العميد يوسف بدري الذي رحل قبل سنوات قليلة فقد كان إمتداداً لحياة والده.. خلفه في نشاطه التعليمي وحافظ على تراثه.. وقد عاصر أحداثاً مهمة حيث وُلِد بُعيد الإحتلال البريطاني للسودان بأربعة عشر عاماً. شهد التحوُّلات التي مرَّت على البلاد في تلك الفترة وكتب أيضاً وفقاً لرؤيته الخاصة. وقد استأثرت تجربته في تطوير المؤسسات التعليمية التي تركها والده بمعظم المذكرات.. إلّا أنّنا نجد في ثنايا ما كتب صوراً جديرة بالتأمل عن الحياة في السودان خلال العقود الأولى للقرن العشرين.

قدِم يوسف بدري من رفاعة بصحبة والده إلى أمدرمان التي لَمْ تكن قد خلعت عنها رداءها الريفي.. كان ذلك في عام 1920 ولا يزال اليمانية الوافدون يحملون قرب الماء على ظهورهم يوزعونها على المنازل كما كان المكارية يتولون نقل الناس بحميرهم وقد إتخذوا زياً موحداً حسب ما ارتأت سلطات المدينة لتنظيم عملهم. ولاحظ أنَّ بعض المظاهر الحضارية التي تميَّزت بها أم درمان كانت تفتقر إليها بلدة رفاعة.. ولَمْ يمر زمن طويل حَتّى تمت إقامة كوبري النيل الأبيض الذي ربط بين أم درمان والخرطوم وأصبح الترام كهربائياً بعد أنْ تخلى عن البخار.. كما تَمَّ توصيل المياه بالمواسير إلى المنازل.

التحق يوسف بدري بالمدرسة الأولية ـ أو كتاب الطين ـ التي كانت مشيدة بالأجر وإتخذت موقعها غرب المدرسة الأميرية الحالية بطابقيها منذ ذلك الحين. وكان جلوس التلاميذ لا يزال على البروش. في تلك الفترة وقعت أحداث ثورة 1924 وشارك فيها التلاميذ يهتفون كما يفعل الكبار «تحيا مصر ويحيا سعد» وكانت الشرطة تكتفي بتفريقهم برشهم بالمياه من خراطيم كانت

تجرها عربات الخيل. وعندما إنتقل إلى المدرسة الوسطى وجد ناظرها معلماً مصرياً يدعى مصطفى السيد يرتدي البدلة والطربوش وكان يظهر في المناسبات.. كما وجد معظم المدرسين مصريين والقلة من السودانيين الذين كانوا يرتدون الجبة والقفطان.. رغم تخرجهم في كلية غردون ـ المدرسة النظامية الحديثة ـ وكان من بينهم إسماعيل الأزهري.. الذي كان يدرس الحساب ـ كان ذلك قبل ابتعاثه إلى بيروت ليدرس في الجامعة الأمريكية ويعود مدرساً بالكلية. كما كان هناك عوض ساتي ومحمد أحمد مختار اللذان كانا يدرسان الجغرافيا واللغة العربية. إثر أحداث ثورة 1924 تمَّ نقل المدرسة الوسطى ـ التي كانت ضمن مباني كلية غردون إلى رفاعة فعاد يوسف بدري إلى مراتع طفولته الأولى وقضى أوقاتا ممتعة وذكر بالخير عدداً من المعلمين السودانيين النابغين والجادين ونوه بعلمهم الغزير وخلقهم القويم أمثال علي حسني، وزين العابدين الطيب، ويعقوب أبوزيد، والشاعر عبدالله البنا.

كان التطلُّع إلى كلية غردون محط آمال النابغين من تلاميذ المدارس الوسطى الثماني الموزعة في مختلف انحاء السودان ـ بإستثناء الجنوب في ذلك الوقت ـ وهي مدارس أم درمان والخرطوم وعطبرة وحلفا والأبيض ومدني وبورتسودان ورفاعة. وكانت الكلية هي المرحلة الثانوية والأخيرة في السلم التعليمي. وكانت تسمى بالتجهيزي ـ أيّ التي تقوم بإعداد الموظفين الذين تحتاج إليهم مؤسسات الدولة.

وكان يتمُّ توزيع الطلاب في أول السنة الثانية إلى الأقسام المختلفة، وكان قسم المعلمين من نصيب يوسف بدري. كانت الوظيفة أملاً وحلماً بالوضع المادي المريح والإجتماعي المرموق. وكان العامَّة يطلقون عليهم «الكلياب» في مهابة وإجلال. كما كانت الكلية نفسها انتقالاً لمستوى أرقى من التعليم حيث الأساتذة الإنجليز والشوام والاندماج في مؤسسة رفيعة المستوى الإجتماعي

فيما بينهم ويشتركون في تأديب الصغار ورعايتهم.. ويبدعون حياة جديدة شكّلت جماع وجدان الأمة السودانية الحديثة.. وباتت نموذجاً يحتذى في جميع أقاليمها.

نظر الفنان إبراهيم الصلحي - المولود في العباسية عام 1930- بعينين تشكيليتين وتحسر على أيام أم درمان زمان ووصف وسطها في حوار مع مجلة - كتابات سودانية- انطلاقا من الظبطية (مركز الشرطة) حيث كان يقبع تمثال سلاطين باشا والمدفعان، وقال إنّ الشوارع والبيوت كانت في غاية النظافة والأناقة والمطاعم مثل المطاعم الأوروبية. ولَمْ ينس مطعم الأغاريق الذي كان - جرسوناته- من اليونانيين يرتدون بدلاً سوداء وأحذية نصف رباط بنفس اللون.

ووصف المقاهي بأنها كانت مثل مقاهي باريس تبرز منها الفونوغرافات الكبيرة (أبوسماعة) وأصحاب المقاهي جالسين مثل المعلمين في المقاهي المصرية. وتذكر المحطة الوسطى بمكاتبها واستراحاتها المزوّدة بمقاعد مطلية باللون الأخضر. وتحدث عن الناس والأماكن بعواطف سخية وقال: «إنّ كلّ ذلك ضاع لما رآه من تبدُّل في الأحوال قبل سنوات قليلة عندما زار أم درمان».

بعد مرور عقدين من احتلال البلاد وسنوات عجاف ران عليها صمت كثيف افتتح نادي الخريجين في عام 1918 ودبت فيه حركة أدبية وألحقت به مكتبة عامرة.. وكان للشعر دور واضح في تعبئة بواكير الوعي الوطني.. وبرز في النادي شعراء أمثال عبدالرحمن شوقي وأحمد محمد صالح وعلي نور وعبدالله محمد عمر البنا.. وتبع ذلك حركة نقدية كان في مقدمتها الأمين علي مدني الذي أثار معارك أدبية حادة تضمنها كتابه «أعراس ومآتم». لَمْ تلبث أنْ برزت مدارس فكرية احتضنتها أحياء أم درمان فاهتمت جماعة الأبروفيين بمطبوعات (نادي الكتاب اليساري) ومنشورات الجمعية الفابية والأدب الإنجليزي وقرأوا برناد شو وناقشوا

الكتاب فقد كان المؤلف، كما كان والده وأسرته من العائلات الأنصارية العريقة التي انخرطت في الجهاد بصدق وإيمان، وقد رحلت العائلة بكاملها في حملة الأمير عبد الرحمن النجومي المتجهة إلى مصر ومرت بتجارب قاسية ومريرة وقتل عدد من أفرادها في مشاهد مأساوية، وظلُ الشيخ بابكر بدري وثيق الصلة بالسيد عبدالرحمن وأحد الأعضاء الأساسيين في مجلسه، وقد وصف يوسف بدري ذلك المجلس بأنَّه كان يجمع بين الجد والإحساس بالمسؤولية وبين الظرف والفكاهة. وكان من أبرز الظرفاء الذين يضمهم المجلس الأستاذ عبدالله بشير سنادة والشاعر المنشد حامد العربي، والسيد أحمد حميدة المعروف بالزعيم.

روى يوسف بدري تجربة سفره إلى بيروت للدراسة في الجامعة الأمريكية بصحبة إبراهيم قاسم مخير، وأحمد المرضي جبارة، وعبدالحليم علي طه بالإضافة إلى مكي شبيكة، ونصر الحاج علي، اللذين كانا قد سبقاهم في الدراسة بلبنان. وكان الأربعة الأخيرون مبعوثين من مصلحة المعارف لإعدادهم كمعلمين يحلون مكان المعلمين المصريين الذين كانوا يعملون في كلية غردون بعد إجلائهم في عام 1924 وكانت الدفعتان الأوليتان تضمان عبيد عبدالنور، وعبدالفتاح المغربي، ومحجوب الضوي، ثُمَّ إسماعيل الأزهري، ومحمد عثمان ميرغني شكاك، والنصري حمزة. وأشار إلى أنَّ واسطة العقد لهذه المجموعة من الطلاب كان عبدالحليم علي طه لما يرويه من قصص طريفة عن الريف والبادية ولما ينشده لهم من الدوبيت.

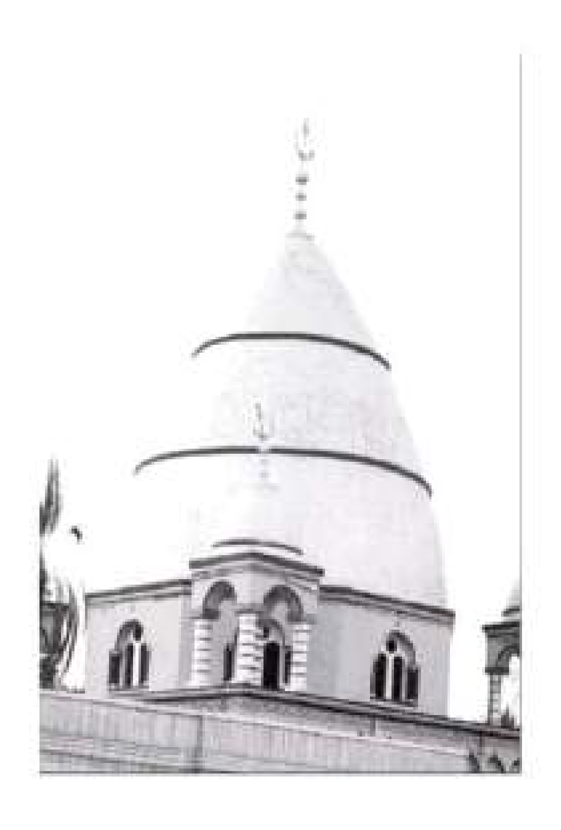
عاد يوسف بدري صيدلياً من بيروت في يونيو عام 1937 يشده حنين غامر لبلاده بعد أنْ أدار ظهره للعاصمة اللبنانية التي استمتع فيها بكثير من مظاهر اللهو إلى جانب التحصيل العلمي الذي أهله لنيل شهادته الجامعية. عمل في مستشفى ود مدني براتب قدره إثنا عشر جنيها في الشهر، وسكن في منزل

حكومي هو وموظف آخر كان لكلٍّ واحد منهما خادمه الخاص بالإضافة إلى الطباخ المشترك. وكانا يستطيعان في كلّ أسبوع شراء سلال من الفاكهة المستوردة كالبرتقال والتفاح والكمثري، ويستمتعان بسهرة مساء كل خميس زاخرة بكلّ مالذ وطاب.

وصف يوسف بدري غربة المتعلّم السوداني، وتأثره بالفكر الأوروبي واللغة الإنجليزية وتحدث عن الانقلاب الذي حدث لحياتهم وكيف أصبحوا بعد التخرج في كلية غردون يتناولون طعامهم على الطاولة ويسكنون في الغرف المبلطة ويسهرون تحت ضوء الكهرباء ويغتسلون بالماء المنبثق من الحائط وذلك بعد أنْ كانوا يلتمسون الضوء من فانوس الجاز والماء من الآبار العميقة. ووصف تبدُّل ثيابهم حيث لبسوا «الشورت» والفانلة في النشاط الرياضي، ولبسوا أزياء أخرى للدرس وللنوم، وذلك بعد أنْ كانوا يرتدون حتّى وقت قريب العراقي والسروال، وذكر كيف أنَّ أنواع اللعب تغيرت أيضاً فبعد «شليل» و«حرت»، و«العيتنوبة»، أخذوا يلعبون كرة القدم والتنس والبولو مع المفتشين والمديرين وغيرهم من زملائهم البريطانيين.

وهكذا بات الأفندي مرتبطا بالإنجليزي صباحاً في المكتب وبعد الظهر في الملاعب يتبادلان الحديث باللغة الإنجليزية «فنرى مأمور المركز والباشكاتب والطبيب ورئيس الحسابات «متنكلزين» بينما القاضي الشرعي وناظر المدرسة نراهما محتشمين أو منكرين، ويجتمع الكل في المساء بدار ناديهم وتبدأ قصص التندر وعبارات السخرية التي تصل إلى حد التراشق وفي الصباح يرويها زميلهم الإنجليزي، كأنه قد رأى وقد سمع أم أنَّ للحيطان آذاناً؟».

أم درمان.. صبية بين المدائن



لا يأتي الحديث عن المدن حتّى يلوح قول أبي يزيد البسطامي حين سئل عن أي المدن تلك التي أحب فلم يزد قوله عن «تلك التي فيها من اختطف قلبي»، وهذا حديث عرفاني نتجمل به عند الحديث عن مدينة أم درمان التي تكشف في كلّ يوم عن جمال خبيء طوال قرن من الزمان ويزيد. تزدهي بتاريخها المثير وتزهو بتلك الليالي المجللة بالفخار والمزنرة بالمجد الأثيل.. خطّت أساسها أسنة الرماح وأظلت بيوتها السيوف الراعفة غداة انتصارات أدهشت كلّ العالم.. وما فتئت عاصمة الشعب وملهمته التي احتضنت جمعياته السّياسية السرية ورعت بداياته الفكرية والثقافية وبلورت رؤاه الفنية وصقلت ملكات أبنائه الشعراء والظرفاء والفنانين والزعماء السّياسيين.

عندما اشتدت العلّة بالشاعر خليل فرح وأحسّ بقرب نهايته طلب من أصدقائه أنْ يطوفوا به مدينة أم درمان ففعلوا.. تجولوا في أحيائها وأسواقها وامتلأت عيناه بمرابعها للمرّة الأخيرة قبل أنْ يعود إلى مستشفاه بالخرطوم ويلفظ أنفاسه بعد أيام قليلة.. تلك القدلة التي تمناها- وهو بالقاهرة- حافياً مُحلقاً شعر رأسه- من فتيح للخور للمغالق.. حَتّى علايل أبوروف للمزالق.. بالطريق الشاقيه الترام.

عندما نزل فيها إسماعيل باشا بن محمد علي زاحفاً نحو سنار كانت أم درمان قرية صغيرة لبعض الصيادين.. ولما أسس الأتراك عاصمتهم في الخرطوم ظلّت أرضا خلاء لا تؤمها سوى القوافل التجارية القادمة من الغرب ريثما تعبر إلى الخرطوم.. وفي أثناء الحصار شيَّد فيها غردون طابية ظلت تقاوم قوات الأنصار حَتّى ركزوا عليها الهجوم فاستسلمت قبيل سقوط العاصمة، وغداة انتصار الثورة إتخذها الإمام المهدي عاصمة وباتت الخرطوم مدينة مهجورة.

أم درمان اسمها قديم ورد في وثائق «مملكة الفونج» وورد ذكرها أيضاً في «طبقات ود ضيف الله» لدى الحديث عن الشيخ حمد ود أم مريوم.. وبعض الروايات تذهب بها إلى زمان «العنج» وتقول إنّ امرأة من سلالة ملوكهم سكنت فيها مع ولد لها يدعى درمان، أقامت منزلاً مبنياً من الحجر محاطاً بسور متين قيل إنّ آثاره كانت لاتزال شاخصة في حي «بيت المال» إلى وقت قريب.. ولا يزال كثير من الناس يذكرون التنقيبات الأثرية في «خور أبوعنجة» حيث كان يتمّ العثور على فؤوس وسهام ومعدات حجرية.. تعود بالتأكيد إلى العصر الحجري.. أطلق عليها المهدي اسم البقعة وعرفت باسم دار الهجرة وهو الاسم الذي نقش على العملة التي ضربت أثناء حياته.

بعد فتح الخرطوم بأيام قليلة إنتقل الإمام المهدي إلى أم درمان وأرخى رسن ناقته حَتّى بركت في الموضع الذي عليه القبة الآن فأقام بيته وشيَّد خلفاؤه وأصحابه الكبار منازلهم حوله. وأقام الأهلون منازلهم بالقش والجلد والشكاب

حَتَّى تحوَّل المكان إلى معسكر كبير. وفي عهد الخليفة إستمر توسع المدينة وأخذت المنازل المبنية بالطين والطوب الأحمر والحجر تحل مكان المنازل القديمة. اهتم الخليفة بالمعمار وانشأ مؤسسة سماها «مصلحة العمارة» أشرف عليها مهندسون محترفون ذكر المؤرخون منهم إسماعيل حسن ومحمد حمد حسن وحامد النور وبترو. نفذوا مبانيها مثل بيت المال، وبيت الأمانة «مخازن الأسلحة»، وسجن الساير ومنزل الخليفة نفسه بطابقيه وسور المدينة وقبة الإمام المهدي ومنزل الخلفاء والحرس والمصالح العامَّة. كما تَمَّ إنشاء المدرسة الوحيدة فوق مستوى الخلاوي.. وكان يدرس فيها الحساب إلى جانب العلوم الدينية وكان مشرفا عليها عثمان فريد - جد آل فريد الموجودين حالياً بأم درمان- إستخدم الخليفة شبكة التلغراف للاتصال من منزله بمختلف المصالح كالترسانة وكارة الجهادية وبيت المال العمومي كما شيد مصنعاً للصابون وآخر للبارود بالحلفاية. وكان هناك مخزن كبير للبارود في جزيرة توتي.

وعندما زار مراسل صحيفة «التايمز» أم درمان في عام 1901 انتقد سلوك كتشنر الهمجي عندما حطم القبة وحوَّل المسجد إلى ملعب رياضي واتهمه بمحاولة القضاء على ملامح القومية السودانية.

في مذكرات له وصف القس الايطالي روزنيولي- الذي كان أسيراً- سكان أم درمان في أول نشأتها بأنَّهم كانوا من مختلف العناصر والقبائل التي يعرفها السودان بالإضافة إلى المصريين والهنود والعرب الحجازيين والشوام والاغاريق والايطاليين والترك والإثيوبيين. وقال إنَّ ألوان البشر كانت تتدرج من السواد الشديد حَتَّى الأبيض. وهناك النموذج السامي بالأنف المدبب واللحية الكثيفة إلى جوار الزنجي الوسيم بجسمه القوي وأنفه الأفطس وشفاهه الغليظة. كلَّ هذه العناصر مضت إلى سبيلها في الانصهار على مرّ السنين واندمجت في عائلة كبيرة واحدة في سلوك اجتماعي فريد يعتمد الحياة الجماعية.. يتهادون الطعام

شديد مخترقاً سكة العرضة حَتَّى يبلغ موضعها وهو راكب على هجينه ويمر أمامه الأنصار عائدين في إتجاه المدينة في مقدمتهم الراية الزرقاء بطبولها المحمولة على الجمال وهي تدق بعنف شديد تليها الراية الخضراء - للخليفة علي ودحلو- ثُمَّ الراية الصفراء للخليفة محمد شريف حامد.

وكان من المواكب المهمة ذلك الذي يقام عند خروج جيش كبير إلى أحد الأقاليم حيث توزع الرايات والسلاح من بيت الأمانة، ويقوم كاتب الأمير بصرف أدوات الكتابة بينما يقوم وكيل الجيش بإعداد دواب النقل والمؤن. وعنداستكمال الإستعدادات يتحرك الجيش إلى الجهة المقصودة، فإذا كانت شرقاً عسكرت القوات قرب قبة الشيخ خوجلي وإذا كانت شمالاً عسكرت في الهجرة في الطرف الشمالي، وإذا كانت جنوباً تجمَّعت قرب شجرة المهدية، ثُمَّ يخرج الخليفة في موكب مهيب تحيط به مظاهر السلطة ومعه قائد الجيش حَتَّى المعسكر فيودع القوات ويبارك مسعاها.. وفي حالة حضور جيش كبير أو أمير مهم كان الخليفة يستقبله بعرض كبير خارج المدينة ثُمَّ يعود معه.

إختفي المغنون والمغنيات الذين عمروا الحياة الإجتماعية في الخرطوم في العهد التركي. فدلم بت سليمان وشريفة بت بلال لَمْ يعد أحد يسمع عنهما.. لَمْ تجدا مكاناً في العهد الجديد. فالحماسة الدينية والزهد والتطهر تسود المدينة.

وبدأ الناس وخاصة الأعيان يحيون لياليهم وأفراحهم بالمديح النبوي.. فالشيخ أحمد أبوشريعة وإبراهيم كراع النعامة وعلي طلبة وغيرهم من المادحين كانت تتلقاهم الدور حفية مرحبة في تلك الأيام.. إلا أنَّ المدينة لَمْ تخل من العابثين الساهرين.. يختلسون جلسات خاصة في منازلهم بعيداً عن الرقباء يحتسون فيها ما تيسر لهم من مشروبات.. وقد كانت تجربة يوسف ميخائيل والأمير النور عنقرة طريفة ممتعة.. يسهران في العشيات نديمين ثرثارين معارضين لنظام الخليفة

المثل العليا والأخلاق. وكان من أبرزهم حسين أحمد عثمان «الكد» وشقيقه حسن وإبراهيم يوسف سليمان وخضر حمد وغيرهم. أما مجموعة الهاشماب فقد ضمت محمد أحمد محجوب وعبدالحليم محمد وعرفات محمد عبدالله ويوسف مصطفى التني ومحمد عشري الصديق وعبدالله عشري الصديق وغيرهم. كما كان كبار طلاب المعهد العلمي يعقدون ندوة أدبية في منزل الشيخ إبراهيم أبو النور بحي «السوق الكبير». وكان الشعراء أبناء المعهد العلمي يتخذون من دار خلوة الكتيابي منبراً لهم وهم التجاني يوسف بشير ومحمد عبدالوهاب القاضي ومحمد عبدالقادر كرف، قبل أنْ ينتقلوا إلى الأندية.

أعلن سلاطين عندما دخل مع الجيش الغازي وأصبح مفتشاً عاماً للسودان أنّه سيملأ مدينة أم درمان بالعناصر المنبتة قبلياً.. يري أنْ عدم الانتماء القبلي يصرفها عن القضايا الوطنية.. ولكن بحلول عام 1921 بدأت الحركة السّياسية بأم درمان تتلمس خطاها سراً فنشأت (جمعية الإتحاد السوداني) ثُمّ اللواء الأبيض التي قادت نضالاً عنيفاً ضد قوات الإحتلال حَتّى بلغ درجة الصدام المسلح. وخاب ظن سلاطين فقد كان معظم هؤلاء الزعماء ممن ظن أنّهم لن يشاركوا في القضية الوطنية.. وظلّت هذه الوقفة الباسلة جزءاً عزيزاً من تاريخ الوطن وإلهاما عظيماً لوقفاتها اللاحقة.

إنبثق مؤتمر الخريجين كحقيقة كبرى في فبراير 1938 ليتوج كل هذه الجهود ويصبح المنبر الوحيد المعبر عن الأماني الوطنية واستقبلته البلاد بحفاوة بالغة لخّصها علي نور شاعر المؤتمر بقوله

كُنّا ننميه سراً في جوانحنا حَتّى استحال إلى الإجهار والعلن

21 أكتوبر 2000 م

أم درمان.. صبية بين المدائن - ٢

لَمْ تجد الحياة الإجتماعية بأم درمان أيام المهدية عند المؤرخين كبير إهتمام بتوثيقها.. فالأحداث السّياسية العاصفة والمتلاحقة طيلة فترة الثلاثة عشر عاما التي تربع فيها الخليفة عبدالله على دست الحكم لَمْ تترك مجالاً للالتفات للتجليات الأخرى. كما كان لأسلوب الحياة الذي وسمته النزعة الدينية والغلو والتطرف أثره في تحويل المدينة إلى ما هو أشبه بالثكنة العسكرية.. إلا أنّ النسيج الإجتماعي الجديد الذي صنعته المجموعات الأثنية كان قد بدأ في التشكل وبروز القسمات. ففي فترة وجيزة أخذت المدينة تبرز عمرانياً ونشأ مركز السلطة في وسطها.. فحول قبة الإمام المهدي بني الخليفة منزله وشيدت بطانته من الأمراء والقادة من ذوي قرابته منازلهم.. وفي الجانب الشمالي قامت منازل الخليفتين علي ود حلو ومحمد شريف حامد وعدد آخر من الأمراء وعلية القوم.. إتخذت المجموعات القبلية أحياء خاصة بها ونشأت المصالح الحكومية حول منطقة السلطة وأهمها بيت المال الذي كان بمثابة وزارة المالية ومخازن الدولة.. كان موضعه قرب النهر ليسهل نقل البضائع الواردة بالسفن والمراكب.. وكان أهم ما في بيت المال مصنع سك العملة. ويقع جنوب بيت المال العمومي سوق الرقيق المشيد بالطوب الأحمر. ومن الضروري أنْ نعرف أنّ الخليفة كان قد حظر بيع الذكور من الرقيق إلا للدولة بينما حظر قنصه بشكل بات ومنع تصديره للخارج. كما كان هناك بيت مال خاص بالملازمين وشيدت منازل خاصة بكتبته قريباً من المكان.. ومن المصالح المهمة بيت الأمانة لحفظ الأسلحة والذخيرة..

(دار الرياضة الحالية) وبالقرب منه مبنى دائري صغير تحفظ فيه رايات الجيش وطبوله، وإلى جانبه مصنع الذخيرة والأسلحة الخفيفة. وكانت لمدينة أم درمان محكمة خاصة هي محكمة السوق التي تخصصت في نزاع البيع والشراء وقضايا الأسواق وكلّ ما هو واقع تحت سلطات ما يعرف بالمحتسب في النظم الإسلامية - أما غير ذلك من القضايا فكانت تُنظر في محكمة المسجد. وكان الأمير محمد حسين وهبي مكلفاً بأمن المدينة ويتركز نشاطه في السوق والأماكن العامّة بقوة يبلغ عددها 25 جهادياً وإلى جانبهم مجموعة عرفت بالمبشرين مهمتهم شبيهة بما تقوم به قوات النظام العام التي إبتدعتها سلطة «الانقاذ» الحالية - فكانوا يلاحقون المشتبه بهم سّياسيا ومتعاطي الخمور والتمباك. أما الأمن في الأحياء السكنية فكان يقع على عاتق أهل الحي الذي يتولون الحراسة ليلاً. كان تجار السوق يغلقون محالهم عند الغروب فيغدو ساكناً مهجوراً إلاّ من الجهادية الذين كانوا يتولون حراسته.. وكان محظوراً على الناس أنْ يوقدوا النار أو يحملوا المشاعل فيه.

كان الإمام المهدي قد أمم بعض المؤسسات الإنتاجية والتجارية -التي تعلّقت بمصالح الناس- كعصارات الزيوت والوكالات والغابات وحدائق الميري وأطيان الأجانب والمشارع العامّة «المرافىء النهرية». كما احتكرت الدولة صناعة الصابون والأسلحة وسك العملة والصناعات الخفيفة المتصلة بالمجهود الحربي كالسيوف والحراب والصناعات الجلدية كسروج الدواب وأغماد السيوف.

تنوّعت أشكال المعمار بالمدينة.. وكان الحوش هو السمة المشتركة في منازل الأهالي والمصالح العامّة.. فتجد الكرنك «المبني على شكل ظهر الثور» والداتقة وهي الحجرة المشيدة بالجالوص والقطية والراكوبة. وكانت دور الأغنياء وعلية القوم محاطة بأسوار من الطين والأخرى أحيطت بزرايب من الأغصان الشوكية.

برز الخليفة عبدالله كرجل دولة لا يمكن التقليل من شأنه محكوماً بظروفه التاريخية وإمكانياته الشخصية وقناعاته ودرجة الوعي التي توفرت له. إستطاع أنْ يؤسس دولة مركزية مرهوبة الجانب ظلّت القوات البريطانية تتربص بها عند الحدود الشمالية ثلاثة عشر عاماً قبل أنْ تتمكن من الانقضاض عليها.. رصدت مخابراتها كلّ نأمة وصوت صدرت من أم درمان حَتّى غدا رصيدها من المعلومات التي استقتها مؤلفات ومراجع للتاريخ مثل «جغرافية وتاريخ السودان لنعوم شقير.. تجربة جديرة بالإهتمام رغم ما أحاط بها من سلبيات أملتها ضرورة الظروف في معظم الأحوال. فالخليفة قد أقام دولة لا يستطيع أحد أنْ ينكرها إذا نحى المرء العواطف جانباً وأجهد نفسه شيئاً ما لقراءة ذلك التاريخ.

حدثني مرّة شيخ المؤرخين البروفيسور محمد إبراهيم أبو سليم أنَّ صلته بالمهدية كانت واهية جداً.. حيث أنّها لَمْ تبلغ مواطنهم الحدودية في أقصى الشمال في كلّ الأحوال ولَمْ يتأثروا بها.. إلاّ أنَّ عمله في دار الوثائق أتاح له فرصة القرب منها والتعرف عليها.. وأكّد أنّه في كلّ يوم جديد يزداد إعجاباً بتلك التجربة التي نجح زعماؤها في توثيق أحداثها بشكل نادر الحدوث.

كانت مدينة أم درمان تتزين وترفل في أبهى حللها في أعيادها الدينية وترفع الرايات وتخرج قوات الجيش للإستعراض وتدق الطبول ويخرج الخليفة في موكب عظيم. وكان في أول عهده يستخدم إحدي مركبات الحكمدارية التي آلت إلى الدولة الوطنية بعد سقوط الخرطوم.. ولكنه لَمْ يلبث أنْ إستبدل ذلك بركوب الجمل أو الحصان ولدى خروجه في موكبه الرسمي كان يحيط به كبار رجال الدولة من الخلفاء والأمراء والقضاة والقواد، ويسير خلفه حرسه الخاص (الملازمون) في أعداد كبيرة. ويمشي أمامه محمد بشير كرار العبادي - قائد هجانة البريد- ممسكاً بحربة كبيرة في يمناه بينما يمسك بيسراه سيفاً كبيراً يتدلى من جانبه بالشمال. ويبدأ الموكب مسيرته من بيت الخليفة ويمشي ببطء

بسيوفهم وسكاكينهم الطويلة. ولما هبطوا عليهم تخطفوهم كالطير.. وصف المراقبون فتكهم بهم بأنهم كانوا كمن يعرضون في الحلبة حَتَّى أفنوا جانباً كبيراً منهم.. أعادوا تجارب معاركهم معهم في شرق السودان حين كسروا لأول مرَّة في التاريخ مربع الفرسان.. وحين دخل الغزاة أم درمان لَمْ تستقبلهم بالخضوع والإستسلام بل واجهت القلّة القليلة الباقية العدو ببسالة وإقدام إلّا أنَّ نيرانه أسكتت تلك الانتفاضة اليائسة. ولما استبيحت المدينة وقف الرجال أمام بيوتهم يذودون عن أعراضهم وممتلكاتهم وقتل منهم الكثير. ولَمْ تضع قيادة العدو وقتاً جمعت من تبقى من الأمراء والقادة وقضت بإعدامهم فاقتيدوا غرب المدينة - موقع ميدان الربيع الحالي - وتم التنفيذ.

حين عاد الشاعر المادح أحمد أبو شريعة من ميدان القتال توجُّه إلى بيت الخليفة وهناك علم بخروجه من أم درمان فأخذ ينشد الشعر والدموع تنهمر من عينيه «السادة الخيرة فاتوني.. وخلوني في حيرة»، كلمات عبَّرت عن حالة الضياع التي إكتنفت البلاد والمجهول الذي بات يتهددها. وصف المؤرخون الخليفة في تلك اللحظات بأنَّه كان ثابت الجنان لَمْ يهتز لما حاق به من كوارث إلّا عندما بلغه نبأ مقتل أخيه يعقوب. وكان مشرفاً على سير المعركة ومجريات الأمور لصيقا بتفاصيلها. لَمْ يهرب لينجو بنفسه كما عبرت جواري المدينة في أغانيهن الشامتة «ما قلنا الخليفة بفز.. أوقف الحدود يا سعادة الوز» و «الليلة هاي قلبوها تركية.. ود تورشين شرد رقدوا الملازمية» وإنَّما كان خروجه خياراً وقراراً إتخذه في اللحظة الأخيرة بعد أنْ كان الاتجاه السائد هو البقاء داخل أم درمان للدفاع عنها.. وفي وقفته الأخيرة بأم دبيكرات وموته الرائع لَمْ يملك عدوه اللدود ريجنالد ونجت إلّا أنْ يقول «مهما كانت نظرتنا للخليفة فإنَّنا لانملك إلّا أن نعجب بميتته الشجاعة».

تدافع الناس للخروج من المدينة لحظة دخول الجيش وما بعد ذلك بساعات

يتحدثان في السّياسة ويشتمان السلطة.

من المؤكد أنّ دولة الخليفة تدخلت في حياة الناس الإجتماعية وألغت كثيراً من العادات التي إرتأت أنّها تجافي الدين ومن بينها أنّها حدُدت المهر للبكر والثيب.فإسماعيل عبدالمعين كان يردد في ألحانه الزنجرانية «المهدي جاء من دنقلا.. قال الفتاة بفد ريال.. والعزباء بالفاتحة». وفي مذكراته «تاريخ حياتي» يروي الشيخ بابكر بدري تجربة زواجه من السيدة نفيسة «أم أحمد» وكيف تصرف كأنصاري ملتزم واصفاً نفسه بالحنبلي المتطرف فحاول أنْ يسكت مغنية عمياء ورفض حضور حفلة الرقص التي أقامتها النساء وحدهن دون حضور أيّ رجل آخر. إلا أنّه أصدق العروس أربعين ريالاً قوشلياً وقدّم جهازاً من الملابس الغالية والعطور.. كان ذلك خلال السنوات الأخيرة لعهد المهدية.

14 نوفمبر 2000م



بوابة عبدالقيوم

أم درمان.. مأساة الفتح



ظلّت نساء أم درمان لسبع ليال متتابعات يتسللن متلفعات بالصمت والظلام ثاكلات بائسات مثقلات بالفجائع.. والمدينة يلفها الردى ورائحة الدماء والبارود.. وأحذية الغزاة الثقيلة الجهمة لا تزال شاخصة في أزقة المدينة وشوارعها بعد أنْ أستبيحت ثلاثة أيام بلياليها وتعرَّضت للقصف بحوالي ثلاثمائة دانة من عيار خمسين رطلاً - وهي مكتظة بالمدنيين خالية من الجنود- خلال يومي الخميس والجمعة الأول والثاني من سبتمبر 1898م. وكانت النساء يحملن الزاد والماء يخرجن في جماعات صغيرة يقصدن ساحة المعركة في كرري يتفقدن الجرحى يواسينهم ويضمدن جراحهم ويبللن شفاههم بقطرات من الماء.. كانوا لا يزالون أحياء يتمدَّدون بين آلاف الجثث المكدسة الممزقة برصاص «دم. دم» المحرم

استخدامه دولياً. كان الجنرال الفاتح غاضباً من سلوك الجرحى.. حيث كان الواحد منهم – في أعقاب المعركة– يهب من رقدته وهو في الرمق الأخير يسدد طعنة أو يصوب طلقة إلى صدر جندي عدو ليموت بعدها راضياً لذا أمر الجنرال بتصفيتهم لا بنقلهم للعلاج – كما تقتضي العهود والمواثيق – كما أمر بتصفية الأسرى أيضاً. ذلك الأمر الذي أثار ثائرة الصحف الأوروبية. رأت فيه وحشية وبربرية لا تناسب إستهلالات القرن العشرين. كانت نساء أم درمان أيضاً يحاولن التعرف على الجثث لدفنها فقد كان الرجال أزواجهن وآباءهن والمرخيات تردد صدى نشيجهن المكتوم في ليالٍ مفعمة بالأسى والقنوط وتفاقم الإحساس بتفاهة الحياة.

عندما حسم معركته مستخدماً أحدث منتجات مصانع بريطانيا من الأسلحة.. تلك التي إستخدمت لأول مرّة في كرري على أساس التجربة ومن ثَمّ باتت الأسلحة الرئيسية التي تفوقت في الحربين الأولى والثانية – توجّه الجنرال الغازي جنوباً – تحيط به كلّ مظاهر الغطرسة والغرور – عبر شارع أم درمان الرئيسي (شارع الهجرة).. وطوال خط سيره كان المشهد واحداً لا يتغير.. الجثث والأشلاء وأنات الجرحى ورائحة الموت.. فالحيوانات من كلّ الأنواع والبشر من كلّ الأعمار كانوا مستلقين في شمس الظهيرة اللاهبة وهم في النزع الأخير. كان كتشنر قد خلف وراءه في ميدان القتال عشرة آلاف شهيد وصف حالهم المراسل الحربي الشاب ونستون تشرشل بقوله «وحيث سقط العدو ولَمْ تكن هناك مراسم الدفن والموسيقى ولا الإحتفالات التي تمجد عظمة الرجولة الصامدة.. ولكنهم كانوا أشجع من مشى على وجه الأرض، دُمروا ولَمْ يقهروا بقوة الآلة». لَمْ تكن معركة أم درمان بالنسبة للقائد مجرد نزهة فقد رأى هو والمراسلون والمراقبون العسكريون رجالاً يندفعون نحوهم للالتحام وأيديهم خالية من السلاح.

كثيرون ظنوا أنَّ الدفاع عن أم درمان كان إندفاعاً أخرق نحو جيش العدو الغازي. انتقدوا الهجوم النهاري.. رأوه مجافياً للخطط العسكرية في مثل تلك المعارك.. إلَّا أنَّ الواقع الذي محصه المحللون العسكريون من وطنيين وأجانب يدحض ذلك الزعم.. فخطة الدفاع عن أم درمان كانت دقيقة ومحكمة وتشكَّلت من مرحلتين إلَّا أنَّ تنفيذها تعثر في الواقع كما أنَّ الأسلحة الحديثة الجبارة - والتي إستخدمت لأول مرَّة في تلك الحرب ما احتلت حيزاً مناسباً في تقديراتهم. ورغم ذلك أبلت قوات الدفاع السودانية بلاءاً ظلَّ حديث الصحف العالمية لفترة من الزمن وبات جزءاً مهماً في التاريخ العسكري جسَّد جسارة الرجال واسترخاصهم للموت في سبيل الوطن. كتب ستيفنسون يقول «والعدو لقد حاز هو شرف اليوم.. وصل رجالنا درجة الكمال إلَّا أنَّ السودانيين فاقوا حدّ الكمال. لقد كان ذلك أعظم وأشجع جيش خاض حرباً ضدنا، وأبيد وقتل جنوده بشجاعة جديرة بالإمبراطورية الهائلة التي أقاموها وحافظوا عليها طويلاً. أحاط الموت بحملة بنادقهم من كلِّ جانب وهم يجاهدون عبثاً لإطلاق ذخيرتهم القديمة والرديئة عديمة الأثر في وجه أقوى وأحدث أسلحة التدمير». مرَّت لحظات في جانب من المعركة كان هناك ثلاثة رجال يحملون الراية الزرقاء ويتقدَّمون بثبات نحو تسعة آلاف جندي مدججين بأحدث الأسلحة، كان المدافعون يتساقطون حول الراية التي أصبحت هدفاً واضحاً لنيران الغزاة ومن ثمَّ مصيدة للموت وهي ترفرف عالياً حَتَّى سقط آخر من كان يحملها بعد أنْ غرسها على الأرض. كانت ساحة المعركة واسعة مثالية لنيران العدو المتقدّمة ومدافعه بعيدة المدى والمقاتلون السودانيون يحاولون جاهدين الوصول إلى صفوفه للالتحام بها لتتحقق عدالة النزال.. ولكن كان ذاك بعيداً والنيران تحصدهم حصدا وتزيحهم بالمئات من على وجه الأرض حَتَّى بلغ عدد القتلى عشرة آلاف قتيل. عثمان دقنة وحده الذي شفى غليله باستدراج قوة من فرسان الجيش البريطاني إلى خور شمبات حيث كان يقبع رجال الهدندوة الأشداء

بتجاربها الثرية، وقدمتهم عطبرة إلى العالم فزينوا محافله، فإبراهيم زكريا – الفتى القادم من قرية العفاض – أضحى رئيساً لإتحاد نقابات العالم.. كلّ العالم.. والشفيع إحتل منصب نائب الرئيس.. وقدّمت غيرهم ممن شارك في إثراء التجربة في بلاده وعلى مستوى العالم.

عطبرة الآن لا تستجدي أحداً أنْ يرد إليها بهاءها وتاريخها ولكنها تدرك أهمية السكة الحديد كمؤسسة قومية ذات ضرورة قصوى للنقل في بلد شاسع مترامي الأطراف قدره أنْ ينفذ برامج مكثفة للتنمية للنهوض من كبوته. ومازالت السكة الحديد رافداً حيوياً لاقتصاديات الدول التي تعمل جاهدة لتحديث القطارات وتطوير أدائها بعيداً عن هوى النفوس والمنطلقات الذاتية، فأساطيل النقل التي يمتلكها المحاسيب – يحتكرون بها الحركة أو يحاولون – لا تستطيع أنْ تعوض فاقد نشاط السكة الحديد وقدراتها العالية.

12 سبتمبر 2000



أول قاطرة متجهة نحو السوادن إلى الفتح

وإتجهوا جنوباً.. وأغلب الظن أنّ هؤلاء كانوا من المتصلين بالسلطة والذين تخوفوا من إنتقام الجيش الغازي. كانت أبرز المجموعات مجموعة الخليفة شريف- الذي ساهم في المعركة وقيادة الجيش رغم معارضته السّياسية، ومعه أبناء المهدي ومعظم الأشراف الذين توجّهوا إلى أم غنيم ثُمَّ الفشاشوية التي عبروا منها إلى الجزيرة أبا. تلتها مجموعة كبيرة من الفور والرزيقات في طريقهم إلى دار فور ليلحقوا بعلي دينار. كما خرجت مجموعات أخرى وأغلبهم من أبناء الغرب للحاق بالخليفة أو العودة إلى أوطانهم. سيظل هذا اليوم محفوراً في ذاكرة مدينة أم درمان.. فقد كان مليئاً بأحداث لا تتكرر كثيراً في تاريخ الشعوب.

12 نوفمبر 2000م

عطبرة مدينة الحديد والنار

«ياعطبرة .. هل تهبي مثل أمس من جديد»

من قصيدة لصلاح أحمد إبراهيم

جلس الملازم البريطاني جروارد في خيمته بوادي حلفا ذات يوم من عام 1897 يعد قائمة شاملة بالاحتياجات اللازمة لإقامة خط الصحراء الحديدي لنقل الجنود ومدافع المكسيم إلى أم درمان. كان الهدف قهر قوات الخليفة عبدالله وإزالة دولته الوطنية التي شكلت نموذجاً متمرداً يعرقل حركة التوسُّع الاستعماري في القارة. كانت القائمة طويلة والمشروع مشكوك في جدواه. قدَّر الخبراء أنه قد يقود إلى كارثة إلّا أنَّ الجنرال كتشنر قائد قوات الفتح أصرَّ على تنفيذه في عناد وبعث جروارد إلى إنجلترا لشراء لوازمه من القاطرات والعربات وقطع الغيار وما يتعلق بإنشاء الورش الجديدة وهكذا بدأ العمل في المشروع الذي ظلَّ مؤجلاً منذ عهود الحكم التركي السابق. كانت بداية العمل متعثرة بلا شك.. موظفون يتمُّ تدريبهم تحت ظلال النخيل، وعمال غير مهرة من مختلف الجنسيات إنهمكوا في صناعة الآلة التي حملت الموت والتسلط، فقط كانت الحرب حرب نقل في المقام الأول وقد هُزِم الخليفة على السكة الحديد كما عبَّر ونستون تشرشل في كتابه «حرب النهر».

بعد إستقلال السودان ظلَّ الإداريون البريطانيون الذين حكموه يتفاخرون بثلاث مؤسسات أقاموها، مشروع الجزيرة، والخدمة المدنية، والسكة الحديد، وقد حقَّ لهم ذلك فتلك المشروعات التي لَمْ يكن لها مثيل في أفريقيا حاق بها

الدمار نتيجة لما فعل السفهاء منّا.. أعملوا فيها فؤوسهم بعد أنْ غلبهم الهوى السّياسي وأعمى بصائرهم.. وحَتَّى الآن ما اعتذروا لشعبهم عما اقترفوا ولا أحسّوا جرماً.. وكان لدكتاتورية مايو نصيبها فيما حدث من دمار وخاصة في السكة الحديد التي أضحت ورشها وقاطراتها وعرباتها جاثمة دون حراك يعلوها صدأ كثيف.. كأنّما هي كائنات خرافية نافقة.. وأجهز الباقون على ما تبقى منها وظلوا سادرين في غيهم يتمنون خصخصتها لتعود ملكاً خالصاً لذواتهم الفانية.. ما راعوا في ذلك مصالح الوطن.

ما تشرفت بزيارة مدينة عطبرة من قبل إلّا عبوراً بمحطتها نحو مصر في زيارات خلال سنوات الدراسة، ولكن حين رأيتها في أغسطس الماضي أحسست كأنّي أقمت فيها لألف عام.

كان الطريق إليها من الخرطوم أسفلتيا جديداً ممهداً وناعماً لا يقترب من بحر النيل ولا يبتعد، ولكن خضرة الضفة اليمنى كانت تتراءى يانعة عميقة ومخضلة. وكلما أوغلنا في الشمال تتابعت صور الماضي البعيد بعهوده المختلفة.. فهل يا ترى مرّ عيزانا -الإمبراطور الأثيوبي- من هنا يطارد فلول النوبة الحمر.. كما سجّل في لوحة انتصاراته ؟ وهل هذه الحمرة الداكنة التي تلون الحصى صخور بركانية تفتتت أم بقايا قطع الحديد التي خلفتها حضارة مروي القديمة في أيامها الزاهرة؟ ومن أين توجّه المك نمر بعد قتله إسماعيل، وأيّ طريق سلك. تساؤلات تترى وما من مجيب.

بعد الفتح إمتدت خطوط السكة الحديد شرقاً وجنوباً حَتَّى أواسط القطر ثُمَّ بعد ذلك إتجهت غرباً وأضحت مدينة عطبرة واسطة العقد تنافس كرو البريطانية.. ضمت رئاسة المصلحة وورش الصيانة الضخمة.. وتكاثرت أعداد العمال والموظفين من مختلف الأنحاء ونشأ مجتمع جديد أقرب إلى الحداثة من التجمُعات الحضرية الأخرى ذات الطابع الريفي. لعبت السكة الحديد دورها

الجديد في نقل المنتجات السودانية وخاصة القطن لمصانع لانكشير والسوق العالمية ونشطت التجارة وتبرعم وعي جديد بالواقع غذته أحداث القرن العشرين العنيفة والمتلاحقة، وبرز دور العمال يطالبون بتحسين ظروفهم المعيشية وبإنشاء تنظيمات خاصة بهم، وشاركوا في كثير من الأحداث التي أعقبت الحرب الأولى.. وخاصة خلال ثورة 1924 وما رافقها من تظاهرات بمختلف المدن.

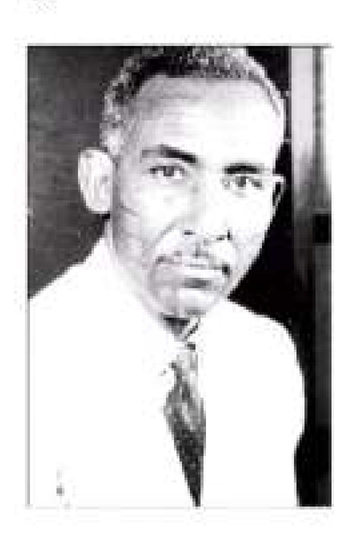
كان لمدرسة الصنايع دور بارز في مجتمع مدينة عطبرة فآثرت سلطات الإحتلال نقلها إلى جبيت لتكون بعيداً عن تطوُّرات الأحداث.. إلَّا أنَّ خريجيها الذين عادوا يعملون في مرافق المصلحة المختلفة ما لبثوا أنْ انضموا إلى التنظيمات الأولية لمؤتمر الخريجين في أوائل سنوات الأربعين. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية وما رافق ذلك من هبوب الرياح العاتية للحرية التي أصبحت مطلباً حيوياً لجميع المستعمرات. نضجت الحركة النقابية واشتد ساعدها وأخذت تجاهر بمطالبها السّياسية والإقتصادية وشكّلت ذراعاً قوياً للحركة الوطنية.

حين جلست أتلقى العزاء في وفاة صهري بإحدي الزوايا بحي الحصاية في عطبرة كان المجلس عامراً يغص بأهل المدينة عمالاً وموظفين.. جاءوا من كل حدب وصوب.. يحملون زادهم علي دراجاتهم الهوائية.. تبدو عليهم السماحة والتصميم وروح التضامن، التي ظلَّت تقليداً مجيداً يزين مدينتهم. ما لمست فيهم ضعفاً ولا إستسلاماً رغم قسوة الظروف وشظف العيش.. تحسبهم أغنياء يتسربلون بالعفاف والإباء.

كان من بينهم نقابيون قدامى – يتوسطهم شقيق الفقيد وهو القائد النقابي المخضرم تاج السر حسن آدم يحتشدون بالتجارب والذكريات، يتحدثون عن قاسم أمين، والشفيع أحمد الشيخ، وإبراهيم زكريا، وغيرهم. يملؤهم الفخر والاعتزاز، يودون ألا ينقطع الحديث عن هؤلاء الذين تخرجوا من مدرسة عطبرة

«كفاح جيل»

أحمد خير المحامي



في كتابه الذي احتل موقعاً متميّزاً في أدبيات تاريخ السودان الحديث «كفاح جيل» قدّم أحمد خير صورة قلمية نادرة ووصفاً أدبياً مؤثراً لنشأة مؤتمر الخريجين فقال: «جاء المؤتمر كالطفل المدلل في أسرة عريقة الحسب موفورة النسب محرومة من الذرية والولد فأولاه جميع الخريجين عطفهم وحنوهم وحماسهم. ومن فرط الحب والحنان إختلفوا في فجر حياته اختلافاً كبيراً على أمثل الطرق لتنشئته وتهذيبه وتدريبه حتّى يتمّ إعداده وإستعداده للقيام برسالته الخطيرة على خير الوجوه وأتمها. ومن فرط حبهم للوليد ورغبتهم الصادقة في عمل كل ما يحقق مصلحته لَمْ يتعد اختلافهم طور تبادل الرأي والاقناع. فقد رغب فريق أنْ ينهج على سنن المؤتمر الهندي، فيدرج الوليد السوداني في إسلوب نقابة للموظفين، تعني بمصالحهم وشؤونهم. ومن ثَمّ يدلف بعد أنْ يشتد ساعده ويقوي زنده، إلى ميدان النضال الوطني. وأمل فريق آخر أنْ يقفز فوراً إلى مكانة الوفد المصري في أوليات أيامه ويكون مؤتمر السودان. واتجه فريق ثالث موقفاً

منهج الطغاة اللئيم في تدمير التربية والتعليم

جسّدت الحرب الأمريكية ضد العراق ذروة التراجيديا العربية، وغدت الأحداث تأتي في كلّ يوم بجديد يكشف عن أزمة الأنظمة الإستبدادية والثمن الفادح الذي تدفعه الشعوب. ولا شكّ أنّ الدهشة قد إعترت الذين شاهدوا لافتات المتظاهرين العراقيين بعد الحرب مرفوعة فوق رؤوس زعمائهم باللغتين العربية والإنجليزية تغص عباراتها بالأخطاء التي يجب ألا تجوز حتّى على الصبية الأحداث. مستوى ينمّ عن خلل جسيم وما آلت إليه أحوال التعليم في بلاد أبي عمرو الجاحظ ومهد دار الحكمة. فقد إرتدت إلى الأمية أجيال من العراقيين خلال الأربعين عاماً العجفاء. وكان ذلك عَينْ ما يريده الطاغية ويبتغيه. فالأمة التي يغيّب وعيها الجهل تكون أسلس قياداً من تلك التي يسيجها الوعي والمستوى التعليمي والثقافي المتقدّم. وكان هدف الطاغية منذ البداية أنْ يصيب العراق في كبده فبدّد شمل علمائه ومثقفيه بالقتل والتدمير والقهر والتشريد. فقبل أربعة عشر قرناً ظلّت بغداد لمئات السنين عاصمة الثقافة في العالم والحاضرة السّياسية والإجتماعية الأولى بلا منازع. فبرعت في كلّ ضروب الإبداع، وجاءت بكلّ فن مستطرف وفريد. كان يرفدها تاريخها القديم الذي حفل بحضارات الإنسانية الأولى من فنون العمارة التي تجلت في حدائق بابل المعلقة، وفي القوانين التي تحفظ حقوق الإنسان تمثلت في تشريعات حمورابي، وفي الكتابة المسمارية التي قد تكون سابقة للهيروغليفية.

ها هم سادة الدنيا قديماً يعودون ليخطئ زعماؤهم السّياسيون اليوم في هجاء

المفردة، وفي إختيار العبارة المحكمة الصحيحة التي تشف عن مواقفهم. وذلك بعد أنْ نفذ صدام حسين برنامجه في اجتثاث المعرفة التي كانت تؤرق مضجعه. وما كان قادة البعث بمن فيهم صدام نفسه أكثر علماً واقتداراً حين دهمتهم القارعة فانكشفوا كمجموعة من الجهلة المستبدين.

ونحن في السودان لنا من ذلك نصيب وافر ونمر على نفس الطريق منذ أنْ شمر نظام مايو عن أظلافه واقتحم مستودع الخزف. كان نظام التعليم في عنفوانه وثورته التي تفجرت في بخت الرضا، أخذت تؤتي أكلها.. وما كان يتعين علينا سوى أنْ نراجع ونثري لِزوم التجويد. أقول ذلك بعد أنْ تلقيت رسالة ملتاعة من قارئ سوداني كانت كل كلمة فيها تعبر عن عمق المأساة وهول الفاجعة. اعتذر فيها كاتبها الذي أكمل دراسته الثانوية -وقد بلغ الآن الثالثة والثلاثين- عن أخطائه النحوية والإملائية وعن ضعف قدرته على التعبير عن رأيه. تلك المرحلة الثانوية التي ظلّت عندنا ممثلة في كلية غردون حَتَّى سنوات الأربعين مصنعاً يتخرج فيه أفذاذ الرجال. كانت رسالة القارئ غاضبة عاتبة عليّ لأنني كتبت عن الإنجليزي برامبل الذي كان مفتشاً لمركز أم درمان -ظن-ويا للرثاء- أنني أكتب عن الإنجليز معجباً وأتجاهل الثقافة الوطينة.. حَتَّى القدرة على التمييز عند القراءة افتقدها. فمن لا يحسن القراءة لا يحسن الكتابة.

وأخذ يكيل السباب لجيل الإنجليز الذي حسبني منه، وندّد بما وصفه بالحنين إلى الماضي، والخرطوم في أيامها الزاهرة، إلّا أنه لَمْ يستطع أنْ يوضح ما يريد. وقد كان شجاعاً ومدركاً بصورة نسبية لما هو فيه ولأزمة جيله -أولئك الذين ولدوا منذ مطالع سنوات السبعين.. أرضعتهم مايو من غثاثتها وتنطعها وزيف شعاراتها وأجهزت عليهم «الإنقاذ» بتكريس القطيعة بينهم وبين المعرفة بصورة منهجية وسافرة. أضرمت النار في عشرات الألاف من الكتب - ليس مجازاً وإنَّما حقيقة يعرفها كلُّ الناس. وأغلقت البلد في وجه الكتب ومنعت

دخولها وصادرت ما كانت تجده في حقائب المسافرين.. وبثت عيونها في الجامعات والمعاهد تئد كلّ ما تراه يعبر عن بواكير وعي واستنارة.. حسبه لا ينسجم مع «المشروع الحضاري». والمدارس نفسها خلت من المعلمين الأكفاء ومن المناهج المجودة والمجربّة التي كانت تنعقد حولها ورش التربويين الثقات.

جزع القارئ في رسالته من الديمقراطية القادمة وكأنّها خطر داهم وتوجس منها، ونحت تعبير «الاستبداد الديمقراطي».. -يا لها من جسارة- وما أدرك أنّ السبب في كلّ ما حاق به وبجيله هو غياب الديمقراطية الراشدة المستنيرة والمناخ الحر المعافى وسيادة الرأي الواحد الإقصائي الذي يزدري كلّ المعاني والقيم التي راكمتها البشرية خلال مسيرتها الدامية الطويلة.

ما دفعني للإعتقاد بأنّ كاتب الرسالة من جماعة «الإنقاذ» -رغم نفيه البات لذلك الانتماء- جرأته في الباطل والاتهامات المعدّة والجاهزة دون سند من معرفة، ومحاولات النيل والانتقاص مما يعتقده الآخر بعلامات الاستفهام والقوسين والتنصيص حول كلمات معينة. يفعل ذلك ويعتذر عن ما يسميه بتخطي حدود اللياقة والأدب.. يقول ما يريده ويدرك عدم موضوعيته فيعود ويطلب المغفرة.. يندفع ويتراجع. هذا السلوك لا يخفى على أحد.. هذا سلوك جماعة الإنقاذ.. تشوهات أصابت عقول ووجدان كثير من أبناء تلك الأجيال.. ضاعوا وسط الهرطقات والسفسطات والوعود الزائفة.. والأمال الكاذبة.. وها هو المعبد ينهار على رؤوس الجميع.

ومن المؤكد أنّ هناك إستثناءات بارزة من هؤلاء الشباب -ولكنها قليلة- إلتقينا بنماذج منها فغمرتنا بالدهشة والإعجاب.. شباب صهرتهم تجارب القهر والعنت وجفاف الحياة ونضوب ينابيعها فتجاوزوا محنتهم وطوروا ذواتهم وتفوقوا في كثير من المجالات.. لَمْ ينتظروا حَتّى تأتيهم رُخاءً، أبحروا في مختلف الاتجاهات وأحرزوا كثيراً من النجاحات.

رددت على صاحبي القارئ رسالته بصورة حاسمة وحازمة ومترفقة فتلقيت منه أخرى اعتذر فيها وأكّد عدم صلته بالإنقاذيين وأعرب عن حبّ عميق لدينه ولوطنه.. وطالب بمساعدة ذلك الجيل الذي أضاعته الأهواء السّياسية. إنّ خسارتنا لا تعوض في تلك الأجيال التي جارت عليها سلطات الاستبداد وأخلت بنظمها التعليمية وحرمتها من الحرية والديمقراطية.



مدرسة سنار الأولية في عام 1908

أبله البسمة كالقرد الصفيق

في منتصف سنوات السبعين ونعال النظام المايوي على جبين الشعب اندفع جنود مخمورون من حامية ربك القريبة من مدينة كوستي يطلقون النار على الناس.. فأصابوا بعضهم.. وربما قتلوا واحداً أو إثنين.. فنازعت السلطة القضائية في كوستي ضباط حامية ربك تريد إعتقال الجناة للتحقيق والمحاكمة.. والضباط يصرون على الاحتفاظ بهم في حراساتهم. نشأت أزمة وصلت أنباؤها إلى الخرطوم وسمع الأستاذ أحمد خير وكان شيخاً قد تجاوز السبعين ولكنه تجشم مشقة السفر إلى كوستي للوقوف على جلية الأمر وللدفاع عن حق الضحايا. ولما دخل مكتب القاضي، عبدالمحمود حاج صالح، وجد المحامين والضباط جالسين يبحثون كيفية الخروج من الأزمة، فسلم على المحامين وتجاهل العسكريين وامتنع عن مصافحتهم ولما حاول القاضي أنْ ينبهه بلطف بوجود الضباط اعتذر بقوله: «يا بني لقد كبرت وكلّ بصري وبت لا أرى الكاكي»!!

28 مايو 2002



وسطاً ورأى أنْ يستنير بالتاريخ ويهتدي بالسوابق دون أنْ يتقيد بها. والعبرة بقيام هيئة تضم الخريجين أما المستقبل فهو من شأن الأجيال اللاحقة».

كان أحمد خير هو صاحب الدعوة لتأسيس مؤتمر الخريجين في السودان. ولَمْ يعتبر دعوته هذه ناتجة عن فكرة عبقرية أو إلهام. وإنّما هي محصلة طبيعية لما تراكم من نشاط وتجارب أسهم فيها المفكرون والكتاب والشعراء، كما لَمْ يتجاهل التأثيرات الإقليمية كالحركة الشعبية في مصر والشرق العربي وحركة التحرُّر العالمية وفي مقدمتها «المؤتمر الهندي». كانت دعوته لهذه المؤسسة التي لعبت دوراً خطيراً وحاسماً في تشكيل مستقبل البلاد قد ظهرت لأول مرَّة في يونيو 1935 على صفحات جريدة «السودان» في خطاب مفتوح إلى «طوبجي» ـ خضر حمد ـ من أحمد خير. لكنها لَمْ تثر إهتماماً في أوساط المهتمين وقادةالرأي. ولكنه عاد وطرحها مرَّة أخرى على صفحات مجلة «الفجر» في مايو 1937 في محاضرة قدَّمها في نادي ود مدني عن «واجبنا السّياسي بعد المعاهدة» يعني بها معاهدة 1936. وفي هذه المرَّة لقيت إستجابة وإستعداداً من جانب أعضاء المدارس الفكرية التي كانت تقود الرأي العام في مدن العاصمة. فعقدوا اجتماعات وبحثوا المشروع حَتّى برزت الفكرة إلى الوجود.

إسترعى انتباهي قول أحمد خير «إنَّ الوطنية والأدب متلازمان» وهو قول دقيق من الناحية التجريدية.. عميق من الناحية الموضوعية.. حيث ظلّت الثقافة والمعرفة ـ والأدب جزءٌ من ذلك ـ عنصرين أساسيين لتطوير الوعي بالذات والإحساس بالمسؤولية تجاه الوطن والإنسان. وقد تميَّز قادة الأمم والشعوب عبر التاريخ بالإهتمام العميق بالثقافة والفكر وحركة التاريخ.

كان أحمد خير أحد الأعضاء المؤسسين لجمعية ود مدني الأدبية التي نشأت في صيف عام 1936 بعد أنْ نقل تجربة مدرسة أبوروف الفكرية عدد من أفرادها

الموظفين الذين نقلوا إلى تلك المدينة. نشأت في قلّة محدودة كأنّها مجموعة من الماسونية كما وصفها أحمد خير. وكان هدفها الأساسي هو التثقيف الذاتي وتطوير ملكات الكتابة والخطابة والحديث. ولَمْ يلبث الحال أنْ ازدهرت وترددت أصداء نشاطها في الصحف والأندية الأخرى وباتت محط الأنظار وموضع الإعجاب من جانب المشتغلين بالأدب والقضايا العامّة.. كما أصبحت مصدر إعزاز وفخر للمدينة لا يغفل عن زيارتها كبار المسؤولين والزوار. إلّا أنّ السلطات البريطانية رأت فيها خطراً فعمدت إلى اختراقها لتلمس الاتجاهات العامّة وقياس درجة الوعي. فكلفت ضابط التعليم بمراقبتها فكان يضيق ذرعاً بمناقشة الشؤون المحلية والنظريات السّياسية كالشيوعية والفاشية والديمقراطية. ومن أهم إنجازاتها التي باتت جزءاً من التاريخ الفكري والثقافي في القرن العشرين أنّها أقامت مهرجاناً أدبياً كان بمثابة العيد القومي للبلاد. فازدحمت مدينة ود مدني بوفود الأدباء المشاركين والأعيان الزائرين من الشيوخ والشباب وانهالت برقيات التهاني بالمئات من بينها برقيات من السادة زعماء الطوائف الدينية. واندفعت سلطات المدينة مهرولة حَتّى لا يفوتها شرف المشاركة في ذلك المهرجان وطلب مدير المديرية أنْ يلقي خطاباً خلال حفل الافتتاح. ووصف أحمد خير ذلك المهرجان بأنّه أصبح عيداً وطنياً وصارت شعلته مثل شعلة الأولمب عند قدماء اليونان تنتقل من مدينة لأخرى فمن ود مدني إلى أم درمان ثُمّ الخرطوم فالأبيض وعطبرة. من هذا المناخ الفكري العارم والوعي المتعاظم بقيمة الثقافة انطلقت الدعوة لقيام مؤتمر الخريجين.

صدر كتاب «كفاح جيل» في عام 1948 بعد أنْ خاض أحمد خير تجربة مؤتمر الخريجين كاملة حَتّى قيام الأحزاب السّياسية. ولقي الكتاب رواجاً وإستقبالاً حاراً.. فلغته كانت ملتهبة وعباراته مصادمة لا تساوم.. وقد شنّ فيه هجوماً عاصفاً على الطائفية وعلى زعيميها.. وعلى شيوخ الأفندية الذين شكّلوا التيار المعتدل.

ولَمْ تصدر للكتاب طبعة أخرى إلَّا في عام 1970، إلّا أنّه ظلّ بغية الباحثين والدارسين المتخصصين وحديث الناس في المجالس وإنْ كان معظمهم لَمْ يحصل عليه لندرة نسخه وصعوبة التوصل إليها.

يعتبر أحمد خير أحد أعلام الحركة الفكرية والوطنية في السودان. كان ذكياً فطناً ذا عقلية متقدة وعاطفة حارة وحماسة صادقة دفعته لأن يدخل السجن مرات أثناء فترة الإحتلال البريطاني. وقد ولد بمدينة ود مدني في نحو عام 1905 وتخرج في كلية غردون مترجماً في عام 1925. ولما افتتحت مدرسة الحقوق التحق بها بعد أنْ تقدَّم به العمر قليلاً وتخرج فيها عام 1944 واشتغل بالمحاماة. وكان أحمد خير من الروُّاد الأوائل بين الإتحاديين الذين إتخذوا التعاون مع مصر وسيلة لتحقيق الإستقلال وظلّوا يناوئون الإستقلاليين الذين كانوا يتشككون في نوايا السّياسيين المصريين وشعار وحدة وادي النيل تحت التاج المصري. ولما كان أحمد خير فردي النزعة متميِّز الشخصية حاد الطبع لَمْ يستمر ملتزماً بالعمل في صفوف المجموعات الإتحادية فصار إتحادياً مستقلاً يخاصم المعسكرين مستخدماً قدراته الفكرية والسّياسية. وقد صدرت له سلسلة مقالات شهيرة انتقد فيها الإدارة البريطانية تَمَّ جمعها فيما بعد في كتاب سماه «مآسي الإنجليز في السودان» لقيت صدى في الأوساط الوطنية إلّا أنّها كانت تنعي عليه مظاهر الفردية وحدة المزاج.. وقد حال ذلك الانطباع دون مشاركته في الحكومات التي أعقبت الإستقلال والتي استوزر فيها من هم أقل منه قدرة وتضحية وإسهاماً في الحركة الوطنية.

وعند وقوع انقلاب نوفمبر تَمَّ إختياره وزيراً لخارجية النظام الجديد الذي بات صديقه محمد أحمد أبورنات رئيس القضاء عرابه ومهندسه القانوني. رأى الوطنيون في شغله لهذا المنصب خاتمة محزنة لتاريخه ووصمة في سجّله الوطني، خاصة بعد مصادرة الحريات وملاحقة الوطنيين وتكميم الأفواه واتجاه

جميع القوى السّياسية لمعارضة نظام عبود.

وبعد وقوع مأساة الكونغو واغتيال لوممبا وافتضاح موقف حكومة عبود المخزي وجد الأستاذ أحمد خير نفسه في موقف لا يحسد عليه، كأحد دعاة الحرية والمنافحين عنها. وقد لخّص الشاعر صلاح أحمد إبراهيم غضبة الشعب السوداني على هذا الموقف في مقدمة ديوانه «غضبة الهبباي» بقوله «ما من قضية هزّت إنسانية أفريقيا وإنسانها، وأقلقت ضمير الحرية ووجدانها مثل مقتل لوممبا وامتحان الكونغو. ونحن في السودان نعرف كجوع بطوننا. الخيانة السافرة التي ارتكبتها باسمنا حكومة التآمر العسكري من خذلان للوممبا باسم الأمم المتحدة ومحاصرة لأنطونين جيزنجا باسم الحياد.. إنّ لنا قسطنا من العار.. ومسؤوليتنا في كلّ شقاء مرّ به الكونغو وكلّ شقاء جديد، في كلّ دم يسفح وكلّ خيانة تظفر، لقد أخرنا قضية الحرية في الكونغو، أخرناها أعواماً وأعواماً بما فعل عبود وأحمد خير وحسن بشير وبقية البله والانكشارية بياذق الأمريكان. سيذكر لنا التاريخ بالخزي واللعنة منع جنودنا لرئيس وزراء بلاده الشرعي من مخاطبة شعبه بأمر همرشولد. وسيذكر لنا التاريخ صدنا للوممبا عن المطار ومعاندته باسم الأمم المتحدة. وسيذكر لنا التاريخ إستسلامنا الحقير الجبان لموبوتو في متادي. وسيذكر لنا التاريخ حبسنا الدرب وقطعنا خط الشمال ـ خط الإمداد الوحيد حتّى ماتت حكومة ستانليفيل صبراً». وفي إحدى لوممبياته يقول:

النعام الدبلوماسي الأنيق
يدفن الهامة في كوم من اللفظ رشيق
راجفاً عن قولة الحق التي تنقذ شعباً
في نيويورك ضمير «العالم الحر» الدنس
في نيويورك التي ردت لوممبا
وحمت ـ فيمن حمت من قبل ـ ذئباً

ومما لا شكُ فيه أنْ مصر ظلُت مهداً للحضارة طيلة عشرة آلاف سنة بينما كان بقية العالم يرزح في ظلمات الوحشية والحياة البدائية. ورغم ما تعرُضت له من عمليات احتلال متتالية إلا أنّها ظلّت لأمد طويل تلقن شعوب المتوسط من أغريق ورومان مبادئ التنوير الحضاري.

وذكر فيجاك شامبوليون - أبو علم المصريات - «أنّ القبائل الأولى التي إستقرت في مصر -بين شلال أسوان والبحر- جاءت من الحبشة أو سنار. وكان قدماء المصريين ينتمون إلى جنس بشري مشابه تماماً لذلك الجنس الذي يعيش حالياً في النوبة. وتشير الكتابات التاريخية إلى أنّ النوبيين هم أسلاف معظم سكان القارة الأفريقية».

وجاء في تاريخ ديودور الصقلي أنْ السودانيين يقولون إنّ الآلهة كافأتهم على تقواهم بامتيازات عظيمة وجنبتهم السقوط في أيدي الغزاة الأجانب، فحافظوا على حريتهم بفضل الوحدة العظيمة التي سادت بينهم دائماً. وقد فشل قمبيز الفارسي في غزو السودان وهلك جيشه بالكامل - فيما هو أشبه بالأسطورة- ونجا هو من الموت بأعجوبة. والملكة سمير أميس المشهورة بذكائها ومضاء عزيمتها توجست شرا حين وطأت أرض كوش وأحسّت أنّها لن تنال مبتغاها فعادت أدراجها.. وربما كان إمتناع الأجانب عن غزو النوبة ناتجاً عن الخوف من قوتهم - فهم رماة الحدق - أو تقديرا لتقواهم.. فقد جاء في الياذة هوميروس أنّ «جوبيتر اليوم.. وبرفقة كلّ الآلهة يتقبل القرابين من الكوشيين «وجاء فيها أيضاً» وبالأمس.. ومن أجل زيارة كوش المقدسة إنتقل جوبيتر إلى شواطئ المحيط». ومن فرط إعجاب الأقدمين بهم إعتقد ديودور الصقلي أنّهم لَمْ يأتوا من أيْ جهة أخرى وإنّما نبعوا من الأرض قبل بقية البشر لموقعهم المباشر تحت مسار الشمس.

ويعتقد المؤرخون أنّ كوش كانت مصدرا لرجال يتفوقون على بقية الجنس البشري بارتفاع قامتهم وجمال تقاطيعهم وإمتداد أعمارهم، وقال المؤرخ الصقلي «لا يوجد

البارية ورثة الحضارة السودانية القديمة

«وبالأمس.. ومن أجل زيارة كوش

المقدسة إنتقل جوبيتر إلى شواطئ المحيط»

" إلياذة هوميروس"

وصف الرحالة الألماني الجنسية فرديناند فيرن أفراد قبيلة البارية في جنوب السودان - حين زار منطقتهم في 20 يناير 1840 مرافقاً للبكباشي المصري سليم قبودان في حملة لاستكشاف منابع النيل- وقال « إنَّ ملامح هؤلاء البارية كانت لطيفة بصورة ملفتة للنظر وأنَّهم طوال القامة أقوياء البنية، أنوفهم عريضة بعض الشيء ولكنها ليست مفلطحة، بل على العكس من ذلك مرتفعة قليلاً، كما هو ملاحظ في أنف رمسيس الثاني، والفم كبير ممتلئ يماثل أفواه قدماء المصريين كما يبدو في تماثيلهم، والجبهة عريضة ومقوسة، والعيون بريئة معبرة». وكشف فيرن عن نواحي الحياة التي كان يحياها هؤلاء البارية وأوجه النشاط الاقتصادي التي كانوا يمارسونها، وأشار إلى حسن استغلالهم لموارد بلادهم الطبيعية المعدنية والنباتية والحيوانية. وقال إنَّهم كانوا يستخرجون الحديد الخام من المرتفعات ويصهرونه ثُمَّ يسبكونه في كتل متوسطة الحجم على شكل كرات - كما كان يفعل أهالي كردفان في غرب السودان - ومن هذه الكتل كانوا يصنعون الآلات القاطعة والمعدات التي يحتاجون إليها في كدحهم اليومي. وقال فيرن إنَّ هؤلاء البارية كانت لديهم علاقات تجارية واسعة النطاق مع القبائل والشعوب المجاورة. ولاحظ أنَّ الدين والمعتقدات الدينية

لا تشغل حيزا من تفكيرهم، إلَّا أنَّ علاقاتهم ومعاملاتهم تقوم على أُسس متينة من المحبة والإخاء والتعاون والسلوك الراقي. ورآهم يقبلون بعضهم بعضاً في مختلف الظروف والمناسبات، وتجد الواحد منهم يأخذ بيد الآخر عند صعوده القارب أو عند نزوله منه، ووصف الرحالة الألماني لقاءه مع سلطان البارية بقوله « وقد حضر السلطان لاكونو لمقابلة سليم على ظهر السفينة تصحبه زوجته السلطانة أشوك وبعض أفراد حاشيته، وفرقة من الموسيقى ظلّت تعزف حَتَّى وصول موكبه إلى الشاطئ. وعند وصوله أطلقت سفن الحملة مدافعها تحية للضيف الكبير. وكان السلطان يرتدي قميصاً طويلاً واسعاً من القطن أزرق اللون وله أكمام واسعة طويلة، وفي وسطه حزام من القماش الأبيض والأزرق وحول رقبته عقود من الخرز الزجاجي وأطواق من الأسلاك الحديدية الرفيعة ويضع في قدميه صندلاً من الجلد السميك أحمر اللون، وفي أصابعه خواتم من الحديد اللامع».

لَمْ تفارق مظاهر العز والسلطان والأبهة الحقيقية عاهل البارية لحظة، فقد جلس إلى مأدبة البكباشي سليم قبودان يؤاكله متخذاً أرقى أنواع السلوك الملوكي والترفع متمسكا بآداب المائدة ومتعاملاً مع حاشيته أثناء ذلك بنوع من الاحترام والعطف والتقدير.

هذا جزء من كلٍّ.. فهؤلاء لَمْ يكونوا جزيرة منعزلة بحضارتها وإنَّما يجسّدون حالة تاريخية تجاهلها الأوروبيون حين غزوا القارة.. زعموا أنَّهم وجدوا شعوباً بدائية رغم ملاحظتهم بقايا حضارة زائلة تبدت في السلوك الإنساني الراقي ونظم الحكم المتقدّمة.. التقوا بملوك رعاة وليسوا طغاة – أنكروا ذلك كله وزعموا بوسائل الدعاية المختلفة أنَّ أفريقيا بحاجة إلى مدنيتهم المفروضة بالحديد والنار. وسعوا لتشويه شخصية الأفريقي المعنوية وإستعداداته الفكرية لتبرير عدوانهم عليه.

اللافت للانتباه – فيما تقدّم من حديث– وصف فيرن لهؤلاء البارية وتشبيهه إياهم بالفراعنة، وليس هذا بغريب على كتابات المؤرخين الأقدمين، فقد ذكر المؤرخ

اليوناني ديودور الصقلي «أنَّ السودانيين يقولون إنَّ المصريين من بين جالياتهم التي أقامها أوزيريس في مصر، بل أنَّهم يزعمون أنَّ مصر لَمْ تكن في بداية التاريخ سوى بحر غمره طمي اثيوبيا الذي جرفه النيل وحولها إلى جزء من القارة».

ويقول ديودور الصقلي «إنَّ السودانيين يزعمون أنَّ أبناءهم المصريين نقلوا عنهم جانباً كبيراً من قوانينهم وأنَّهم تعلموا منهم تبجيل الملوك كآلهة ودفن موتاهم في إحتفالات مهيبة وإن النحت والكتابة نشأتا لديهم». ويقول الكاتب السنغالي شيخ أنتا ديوب في كتابه المثير للجدل « الأصول الزنجية للحضارة المصرية»، إن المصريين والسودانيين إنْ لَمْ يكونوا من نفس الجنس الأسود لنوه المؤرخ القديم ديودور باستحالة إعتبار المصريين من جالياتهم- أي سودانيين إستقروا في مصر فكانوا أسلافا للمصريين »، وكشاهد عيان أفادنا أبو التاريخ هيرودوت أنَّ المصريين كانوا أفارقة سمر الألوان ثُمَّ أثبت بعد ذلك بنزاهة نادرة (وهو الإغريقي) أنَّ اليونان أخذت من مصر كلّ عناصر حضارتها بما في ذلك عبادات الآلهة وإن مصر هي التي كانت مهد الحضارة.

إنَّ تاريخ مصر بأسره يدل على أنَّ اختلاط السكان الأصليين مع عناصر بدوية بيضاء من الغزاة والتجار كان يتزايد أكثر فأكثر كلما أقتربنا من نهاية التاريخ القديم. وجاء في كتاب « أبحاث فلسفية حول المصريين والصينيين بقلم م.دي باو أنَّ مصر كانت مكتظة في العصر المتأخر بجاليات أجنبية من الأجناس البيضاء، فالعرب كانوا في قفط والليبيون في موقع الإسكندرية واليهود على مقربة من مدينة هراكليس والبابليون في منطقة المحاجر الكبرى الواقعة شرقي النيل والكاريون والأيونيون عند فرع دلتا النيل الشرقي، كما كان هناك الطرواديون الهاربون. وقال دي باوز إنَّ هذا الغزو السلمي بلغ أقصى مداه حين عهد الفرعون بسامتيك إلى فرق أجنبية ومرتزقة يونانيين مهمة الدفاع عن مصر ». وبعد فتح الأسكندر لمصر اتسع مدى انصهار اليونانيين البيض مع المصريين السمر ليتخذ شكل سّياسة إستيعاب في عهد البطالسة.

الموظفين السودانيين بعد مفتش المركز البريطاني.

ومن الطرائف التي أوردها السيد عبد الرحمن عبد الله في كتابه ذلك الحديث المشاغب للسيد محمد محمود الشايقي وكيل وزارة الداخلية في عام 1954 للدفعة الجديدة من نواب المأمير - وكان من بينهم كاتبنا ابن القاضي الشرعي- فقد حذرهم مداعباً بضرورة اتخاذ الحيطة والحذر عند التعامل مع القاضي الشرعي الذي وصفه بأنه كفء وقوي الملاحظة، ولكنه دائماً ما يكون كثير المطالب فيما يتعلق بصيانة المنزل أو رعاية حديقته أو تسهيل مأمورياته. وكانت النصيحة باختصار أنْ يمدوا له يد العون وأن يحاذروا في الوقت نفسه من مواجهة مشاكل إجتماعية!!

لا شكَّ أنَّ كاتبنا قد نعم في طفولته بحياة سعيدة متنوِّعة كابن أحد كبار الموظفين فقد ركب القطار - الذي أحبه - في زمن مبكر في الدرجتين الفاخرتين «الأولى» و«النوم» واستمتع بتلك الخدمات التي كانت تقدَّم في قطار ذلك الزمن الاستثنائي. وأتاحت له ظروف التنقل أنْ يرى مدناً كثيرة. وصف القطار وصف محب كانت الدهشة تملأ أقطار نفسه الغضة. وحق له أنْ يفعل ذلك فقد كان القطار يشكل عالماً مختلفا في ذلك الوقت.

وما زلت أذكر القطار وهو يمر أمام دارنا بمدينة كوستي حين تهدأ سرعته شيئاً فشيئا فنحيي الركاب ملوحين بأذرعنا النحيلة ونركض حفاة مسافات تطول وتقصر في موازاته حتَّى ينال منَّا التعب.. لقد ملأ عالمنا في الطفولة وكان يستحوذ على جزء من حياتنا اليومية رائحاً وغادياً.. رأينا من خلاله وجوها وسحنات... رجالاً ونساء وأطفالاً.. أعراساً ودفوفاً وزغاريد.. ووفيات ونساء ثاكلات.. وطلاباً يهتفون متظاهرين قادمين في إضرابات من خورطقت أو الفاشر، أو عائدين في الإجازات في جمعيات مسرحية وموسيقية أو فرق رياضية. رأينا جنوداً عائدين من عطلاتهم ومساجين يتمُّ تحويلهم إلى سجون أخرى. كان يسعدنا حين يحمل إلينا أحياناً بعضاً من أفراد أسرتنا وأهلنا الذين يعملون في مناطق الغرب. وما زلنا نعيش في ذكرى أسر ذلك

موقع آخر في العالم غير كوش صادفنا فيه حضارة بدت لنا مسيرتها مؤكدة ومحاطة بمعالم الأسبقية التي لا نزاع فيها، لان معاصريها أفادونا حَتَّى بمحاولاتها الأولى وتطوُّرها ونضوجها».

فالملوك الذين طردوا مغتصبي عرش مصر الليبيين في عهد الأسرة الخامسة والعشرين في حوالي عام 750 قبل الميلاد كانوا بالفعل ملوكاً سودانيين. فقد إعتلى شاباكا عرش مصر بعد أنْ طرد بوخوريس الغاصب، وقد استقبله الشعب المصري بحماس بإعتباره منهم وباعثاً للتقاليد المشتركة في إطار تلك القربى التي تجمع بين الشعبين، ونقل هيرودوت عن الكهنة المصريين قولهم إنَّ من بين الفراعنة الثلاثمائة منذ عهد نعرمر (مينا موحد القطرين) حَتَّى الأسرة الثامنة والعشرين كان ثمانية عشر فرعوناً من أصل سوداني، وقد اعتبر المصريون دائماً بلاد النوبة وأغوار أفريقيا أرضاً مقدسة جاء منها الأسلاف - وذكر ديودور الصقلي أنَّهم كانوا يخرجون كلَّ عام تمثال آمون ملك طيبة باتجاه النوبة(أي السودان) لبضعة أيام ثُمَّ يعيدونه بعد ذلك للتدليل على أنّه عاد من النوبة.



إثنان من زعماء البارية في منقلا عام 1926

الشفافية وأنفاس الحكمة

عبد الرحمن عبد الله



كتب كثير من القيادات السودانية الذين تبوأوا مواقع في العمل العام عن سيرهم الذاتية وعبروا عن رؤاهم وقرأنا جلّ ماكتبوا لمعرفة خصائصٍ تجربة بلادنا وأسباب الإخفاقات التي لا تني تحاصر حاضرنا وتهدد مستقبلنا. إلا أني ما قرأت تجربة إتسمت بالشفافية ووضوح الرؤية مثلما لاقيت في مؤلف السيد عبد الرحمن عبد الله «السودان.. الوحدة أم التمزق». والرجل عالم إداري بارز وخبير دولي مرموق المكانة تسنم عدة مناصب في بلاده وعلى الصعيد الإقليمي والدولي وقدّم نموذجاً متماسكا لقدرات المثقف السوداني في المثابرة والكدِح المعرفي. بدأ مؤلفه بموجز عن جغرافية وتاريخ السودان بصورة مكثفة مكتنزة شكلت خلفية متسقة مع السياق الآتي. والواضح أنّ الرجل قرأ كثيراً جداً.. قراءة عميقة صبورة متأنية شملت ضروباً شتى من المعارف قبل أنْ يمسك بالقلم. لَمْ تكن قراءة ليلة وضحاها ولا «علوقا للشدة» وإنّما إستيعاب مهضوم لقارئ كادح لا يضن بنفسه على السهر الطويل. ذلك

بالإضافة إلى تجربته الغنية المتنوّعة في العمل الإداري في الداخل والخارج. إستشهد بمن كتب عن السودان وأورد مواجز جامعة تنمُّ عن حسن إختيار وتبصر.

قال في شفافية نادرة - خلت منها كتب الآخرين - في حديثه عن الديمقراطية « وفي أي محاولة لمنح الديمقراطية فرصة حقيقية فأنَّ المهم أساساً هو إدراك أنّه لا يمكن أنْ يكون هناك مجتمع ديمقراطي من غير ديمقراطيين فإنَّ ذلك النفر ولا استثني كاتب هذه السطور - الذين قدموا يد المساعدة لتعزيز أو إستمرار حكومات غير ديمقراطية مهما كانت أهدافها وانجازتها ينبغي أنْ يتحملوا المسؤولية التاريخية أمام ما لاقى ويلاقي شعبهم من قهر وتخل. يكتب ذلك بالشفافية، والتي هي لفظ مخفف إبتدعه جورباتشوف بديلا للتعبير اللينيني التنظيمي الصارم « النقد والنقد الذاتي».. يشير إلى تجربته دون ريب.. فقد كان أحد المسؤولين الكبار الذين تقلدوا مناصب وزارية مهمة في نظام نميري..جاءوا به من موقع الإداري الحاذق وموظف الخدمة المدنية الكفء.. طاهر اليد واللسان، ليسهم في صنع سودان جديد.. آمال قعدت بها إمكانيات الزعيم المتواضعة وأهل الباطل الذين احتووه. جاءت مقدّمة الكتاب لطيفة وجذابة زانتها عذوبة الحكي ورصانة اللغة.. فتحدث عن طفولته ومرابع صباه بشوق وتحنان، فقد كانت ثرية متنوّعة في كنف والده العالم الإسلامي والقاضي الشرعي مولانا عبد الله أحمد يوسف الرباطابي الذي قرأت عنه في مؤلف الدكتور محمد إبراهيم أبوسليم «أدباء وعلماء ومؤرخون في تاريخ السودان». ما كنت أعلم أنّه والد السيد عبد الرحمن عبد الله. وقد كان الرجل أديباً قارئاً نهماً ومنذ يفاعته اشتهر بين أترابه في الدراسة بـ« المختصر». ربما كانوا يعنون «مختصر خليل». وقد ألف كتاباً موسوعياً عن «النخيل» أشار إليه أبوسليم أيضاً وأسهب في وصفه. وقد تخرّج في كلية غردون التذكارية من قسم الشريعة في عام 1913، حين كان خريجو ذلك القسم يُفضلون على أقرانهم في الأقسام الأخرى ويرمقهم المجتمع السوداني بنظرة فيها كثير من التوقير والإعجاب. وكان القاضي الشرعي والمأمور من أبرز

السودان حروب الموارد والهوية



د. محمد سليمان

«الحرب القادمة ليست بالحرب الأولى

فقد سبقتها في التاريخ حروب وحروب

انتهت الحرب السابقة.. بمنتصرين ومهزومين

عند المهزومين جاع عوام الناس

وجاعوا أيضاً عند المنتصرين»

برتولت برشت

«ترجمة الدكتور محمد سليمان»

القطار الهادر الوقور وصافرته التي تعلو عند المنحنى متجها نحو المحطة.

حين بات على أبواب التخرج في مطلع الخمسينات كان يداعب السيد عبد الرحمن عبد الله حلم العمل في الإدارة الميدانية الذي كان حلم طفولته «نسبة لما كنت أشاهده من مميزات يتمتع بها الإداريون وأنا ارافق والدي، موظف الخدمة المدنية الذي عمل في عدد من المواقع المختلفة. وكان هناك منزل المأمور الواسع الأرجاء بأشجاره الوارفة والخدم يجوبون أنحاءه والمساجين يعتنون بحدائقه ورجال الشرطة وموظفون آخرون بملابسهم الرسمية يهرولون وراءه في كلّ مكان، أما المفتش الإنجليزي فهو دنيا كانت قائمة بذاتها، يعيش في عزلته المختارة في منزل فسيح في طرف المدينة وكأنه إقطاعي كبير».

وقد رصد في حديثه عن تاريخ الإدارة في فترة الحكم الثنائي تجربة المفتش الإنجليزي التي لا يفتأ كثير من السودانيين يذكرونها كلما التفتوا ورأوا جيشا جراراً من الإداريين اليوم يتزاحمون في الحصول على الامتيازات والسيارات والترقيات يجعجعون كثيراً ولا طحناً يرى ولا غبار دقيق.. يذكرون المفتش ذلك الشاب الإنجليزي الصارم النظرات الذي له في كلّ مشهد حضور وفي كلّ موقف رأي قاطع.. يواجه المخاطر ويعقد المحاكمات ويفض الخصومات.. يجوب البوادي ويتفقد الأسواق غير آبه لما يلاقي من متاعب وما يغشاه من رهق.. وكأنه بطل الغرب الأمريكي الذي لا يقهر ولا يموت.

التقى الإداري الشاب بعدد كبير من نظرائه الإداريين الذين سبقوه في الميدان وتركوا لديه إنطباعات عميقة لا تزول. وقد استأثر حسن دفع الله وداؤود عبداللطيف بكثير من إهتمامه. وقد وصف داؤود بحدة الذكاء وسعة الإطلاع وروح المرح والدعابة والحنكة في العمل وعدم الالتفات لأساليب البيروقراطية. وقال إنّه أطلعه مرّة على خطاب سري تلقاه من زميل له رفيع المستوى في الرئاسة يأمره فيه بلهجة عنيفة بعدم مراسلة وكيل وزارة أخرى مباشرة. وكان رد داؤود الساخر أنّه روى له

كيف كان ذلك الزميل لا يستطيع الآ الإمساك بالبندقية رأسا على عقب خلال التدريبات التي سبقت التحاقه بالعمل الإداري. وقال إنَّ داؤود كان يصف حاكم المديرية العسكري المعين آنذاك بأنَّه «العسكري الحاكم» ساخراً ومجرحاً. كما علَّق على شكوى من موظف صغير ضد مساعد له لا يحبه أحد بقوله بلهجته النوبية الفريدة «إنَّه مرؤوس جيد ولكنه رئيس رديء».

كانت تجربة عبد الرحمن الأولى بعد تخرجه في الجامعة عام 1954 في مركزيٍ الرنك وملكال بمديرية أعالي النيل ثُمَّ في فنجاك وسط قبيلة النوير التي أحبها وظلَّ وفياً لعدد من أفرادها حَتَّى بعد أنْ غادر إلى مناطق أخرى. ولَمْ يكن بعيداً عن مشكلة جنوب السودان وظلَّ لصيقاً ومتابعاً لتطوُّراتها، كما ظلَّ يؤمن إيماناً عميقاً بوحدة بلاده وإمكانية حلِّ النزاع إذا تَمَّ إحترام حقوق الإنسان الأساسية من خلال الممارسة الديمقراطية الصحيحة واقتسام السلطة. ويرى أنَّ العوامل الرئيسية التي تبدو شاخصة للعيان وتعرقل الوفاق هي بالضرورة عوامل عدم الثقة والجهل وضعف الإرادة السِّياسية لحلِّ الخلافات. ويدرك أنَّ موضوع حق تقرير المصير الذي بات مركز إهتمام متزايد لا يمكن تناوله باستخفاف أو تنفيذه من خلال إتفاقية جزئية أو حلول قصيرة الأمد قد تشق صفوف السودانيين. ويؤكد أنَّ حق تقرير المصير قضية بالغة الأهمية، ليس من حقِّ أحد سوى الشعب السوداني بأجمعه، أنْ يقرها أو لا يقرها، بصرف النظر عما يضمره الغيب. ويقدِّم رؤيته للنزاع الذي يعصف ببلاده ومقدراته بعمق وحكمة وبساطة خالية من التقعر والتنظير الأجوف ويرى في الدماء التي سالت والفرص التي ضاعت أساساً لوحدة محتملة.. فهجرة الجنوبيين الواسعة نحو الشمال وانتشار التعليم قد يخففان من الغلواء ويدفعان نحو الوحدة والانسجام. ويرى ضرورة أنْ يهتم السودانيون بجوانب التوحد وليس الانقسام وأنْ تتركز الجهود الفكرية على تشجيع التفاعل الإنساني وديناميكيته من أجل صهر الأمة.

كتب السيد عبد الرحمن عبد الله مؤلفه باللغة الإنجليزية فجاء نصاً متماسكاً

مشدود العرى محدَّد الكلمات والأهداف مما انعكس إيجاباً على الترجمة التي اضطلع بمهمتها أستاذنا المقتدر الفائح التجاني فأحسن الأداء.

25 يونيو 2002

الكتاب الذي صدر أخيراً بعنوان «السودان.. حرب الموارد والهوية» لمؤلفه المفكر والمثقف الموسوعي السوداني الدكتور محمد سليمان يضع جميع السودانيين أمام مسؤوليتهم التاريخية في هذا المنعطف الحاد والخطر.. إنّه صيحة من أجل وقف الحرب وتحقيق السلام.. ليس سلام التسويات المؤقتة والترضيات الفردية.. إنّما السلام القائم على العدل وتوزيع الثروة والسلطة.. وهو يحاول تقديم رؤية تحليلية جديدة غير ما ألفنا من الأفكار السائدة التي تتناول طبيعة النزاعات المسلحة والحروب الأهلية التي إستشرت في نواحي السودان.. كما أنّه اتسم بالفعل التوثيقي ليتجاوز النقص الذي صاحب المراجع التي اتصلت بالمحنة التي تهدد كيان السودان ووحدته.. كما يعتبر الأول من نوعه في مجال علم «الايكولوجي السّياسي».

تناول المفكر محمد سليمان قضايا الصراع في السودان في بساطة ويسر وأعاده إلى أسبابه الحقيقية وطالب أبناء شعبه بالتأمل فيها للخروج من دوائر الموت التي لا تنى تنداح وتتسع لتبتلع خيرة الشباب وتكرس مزيداً من المحن والضغائن وتزعزع الأمن القومي وتمزق النسيج الإجتماعي، وركز المؤلف جلّ إهتمامه على الإنسان السوداني وأبرز مصالحه الأساسية وحقوقه المشروعة.. كما طالب مثقفي وطنه أنْ يضعوا على عواتقهم واجب إزالة ظلامات شعبهم والمساهمة العملية في الخروج من دائرة الحرب والتخلف دون الإنغماس في التصورات الأكاديمية المجردة أو الانكفاء على الذات في الأبراج العاجية.

قدّم المؤلف صورة يائسة وواقعاً مضطرباً وفجائع ماثلة وأخطاراً إقتصادية وإجتماعية وثقافية وبيئية باتت تفرز نتائجها السلبية المدمرة، في كلّ منعطف وتتجلي في كلّ مظهر من مظاهر الحياة اليومية.

وقف الدكتور محمد سليمان في عدد من المنابر الأكاديمية ذات الاختصاص في العواصم والمدن الأوروبية خلال السنوات الماضية – وهو الخبير في شوون الإيكولوجيا السّياسية ومدير مركز البديل الأفريقي في لندن منذ عام 1990 –

يتحدث عن محنة بلاده ويساهم بفكره في كيفية الخروج من هذه الأزمة ويدعو للتفكير في إمكانية إعادة ترتيب أجندة الحرب والسلام في السودان عبر قراءة جديدة لبواعثها وتجلياتها في ضوء معايير تختلف عما هو متداول.

تناول الكتاب بشكل عام العوامل السّياسية والإقتصادية لمعطيات النزاعات والصراعات الأفريقية والمفاهيم السائدة لتفسير بواعثها وربط ذلك بأبعاد الواقع السوداني-كما أبرز آليات الصراع الإجتماعي الناشئة عن تلك التغيرات، وتحدث أيضاً من مرتكزات الواقع السوداني وانداياحاته على الأصعدة الإيكولوجية «البيئية» والإقتصادية والإجتماعية والثقافية- كما ألقى الضوء على القوى الإجتماعية المستفيدة من تأجيج نار الحرب الأهلية.

واشتمل الكتاب على الملامح الرئيسية لمسارح عمليات الحرب والنزاعات المسلحة في الجنوب وجبال النوبة والأنقسنا وشرق السودان ودارفور وآثار تلك الحروب والظروف المناخية وما نتج عن ذلك من اقتلاع ونزوح مجموعات سكانية كبيرة متباينة في خلفياتها الثقافية والإجتماعية. لذلك يعتبر هذا الكتاب محاولة لفهم النزاعات الدموية بين الجماعات بشكل عام بتجلياتها الأفريقية من خلال تقصي مظاهرها في بعض مناطق السودان، وليست هذه المساهمة سجلاً كاملاً لحالة الحرب والسلام في السودان وإنّما تسعى لتحديد السمات العامّة للظاهرة في كلّ جزء من أنحائه مع توثيق بعض الأمثلة المحددة. ويحاول الكتاب في الوقت نفسه أنْ يوجه كثيراً من الإهتمام للأثر الإجتماعي الذي ينشأ نتيجة للتحوُلات السلبية التي تتعرّض لها البيئة الطبيعية مما يشكّل عاملاً مُهماً لتأجيج الصرعات الدموية، ويرى أنّه ما دام التردي البيئي وشح الموارد يؤثران بصورة فعّالة على طريقة حياة الناس وعملهم لذا فإنّه من الضروري معالجة الشؤون الإقتصادية والقرارات السّياسية ذات الصلة لتقويم أثرها على العنف في المجتمع.

ويظل أفضل ما احتوى عليه هذا الكتاب القيم هو التركيز على مأساة الريف

السوداني الذي أزيلت غاباته وتدهور الغطاء النباتي فيه نتيجة للتوسع الجائر في الزراعة المطرية (18 مليون فدان زراعة آلية تملكها حوالي ثمانية آلاف أسرة مقابل تسعة ملايين فدان زراعة تقليدية يملكها أربعة ملايين مزراع صغير). وأكد الكتاب أنّه بحلول عام 2002 ستنقرض كلّ الغابات الممتدة في شمال السودان «ست مرات مساحة فرنسا».

وكشف الكتاب أنّ السودان فقد 17 مليون هتكار (40 مليون فدان) نتيجة لتعرية التربة جراء الزراعة المطرية الآلية -التي تتسم بالنهب- وأضحى أكثر من ستة ملايين شخص يعيشون تحت خط الفقر حتّى بالنسبة للمقاييس السودانية، بينما نزح حوالي أربعة ملايين شخص من مناطقهم إلى أواسط البلاد حيث الأمن الغذائي أفضل نسبياً، بالإضافة إلى ثلاثة ملايين شخص فقدوا أرواحهم بسبب الحرب والمجاعة. وجاء في الكتاب أنّ الحكومات المتعاقبة منحت ملايين الأفدنة للصفوة السودانية وشركائها الإقليميين والعالميين على حساب سكان الريف، وذلك في شرق السودان وجنوب النيل الأزرق وجبال النوبة وأعالي النيل وغيرها من المناطق في حزام السافنا الواقع بين خطي 7-15 شمالاً، ودون ضجيج تقوم حكومة الجبهة الإسلامية بتوزيع ملايين أخرى من الأفدنة على مؤيديها، وأورد مثالا لشخص واحد منح حوالي نصف مليون هتكار «1،040،000 فدان». بل وقبل الشروع في حفر قناة جونقلي بوقت طويل كلفت الحكومة شركة هولندية بإعداد دراسة جدوى إقتصادية للتخطيط الزراعي لمنطقة السدود مما أثار المخاوف لدى السكان المحليين الذي حملوا السلاح لحماية بيئتهم من النهب والتدمير وضمان بقائهم.. فقد بدأت الحرب الأهلية الثانية بالهجوم على حفارة قناة جونقلي وبضرب منشآت شركة شيفرون لاستخراج النفط. فهل الحرب التي تدور حالياً هي صراع بين العرب والأفارقة وبين المسلمين والمسيحيين أم هو نزاع على الموارد في المقام الأول؟! إنّ هذا الكتاب الذي يفبض بالمعلومات الموثقة يؤكد أنّ الأسباب الحقيقية لإمتداد

هذه الحرب هو الصراع من أجل الأرض والنفط والمياه.. ويقول إنّ عائد النفط أهم عند حكومة الجبهة الإسلامية في الخرطوم بما لا يقاس من دخول آلاف الجنوبيين الإسلام. ولَمْ يغفل الكتاب دور الهوية في الصراع حيث لاحظ أنّه يتعاظم مع إستمرار التناحر والقتال. فكلما طال أمد الحرب كلما أخذت قضايا الهوية مكانا متقدّماً في وعي وإدراك المقاتلين من الجانبين.

قدّم للكتاب باستهلالة ضافية الدكتور صلاح آل بندر- مدير مؤسسة المجتمع المدني السوداني بمدينة كيمبردج بالمملكة المتحدة وأثراه بالشروحات والحواشي كمساهمة رائعة في هذا العمل المختلف.

2 يناير 2001م

حروب الموارد.. المؤلف

لَمْ أجد مسوغاً للإستمرار في عرض الكتاب القيم «السودان.. حروب الموارد والهوية».. فما أوردته في الأسبوع الماضي يكفي فلسنا في حالة عرض لمحتوياته.. والمهتمون يسارعون لاقتنائه بإعتباره وثيقة لا غنى عنها.. احتوى أحداثاً متلاحقة لا تفتأ تترى ويظل الجرح مفتوحاً عميقاً نازفاً وماثلاً لا يغري حَتَّى الخلي بنسيانه.. كما أنه من الصعب اختزاله لأن كلّ سطر فيه بل كلّ كلمة جديرة بالتوقف والتأمل.. فالصراع المسلح المرير والحرب الأهلية الغاشمة تمتد وتشمل مناطق واسعة من بلاد السودان.. ترافقها المجاعات وانتشار الأوبئة والأمراض والتفكك الأسرى والمرارات التي تشكّل موقفاً لن تفلح سنوات طويلة من السلام في إزالته.. هذا الكتاب يؤكد أنّ كثيراً من المثقفين السودانيين لا يغمض لهم جفن والوطن يواجه خطر التمزق والتجزئة. وإنْ كان هناك ما يحمد لهذه السنوات العجاف التي احتشدت بالأهوال والأحداث الثقال هي اليقظة التي انتظمت قطاعاً واسعاً من المثقفين فكتبوا ووثقوا وأعادوا النظر في كثير مما كان يُعد ضرباً من المسلمات. وقدموا مساهمات جليلة من شأنها أنْ تشكل أساساً راسخا لإعادة بناء الوطن. وكاتبنا الدكتور محمد سليمان واحد من هؤلاء وإنْ لَمْ يغب عن ساحة الفعل الثقافي والفكري والسّياسي طيلة العقود الأربعة الماضية.. أي منذ أنْ كان في غضارة الصبا وتفتح الوعي في تلك السنوات العاصفة.. سنوات برشت الذي ترجم أشعاره هو من الألمانية:

وردت المدن زمن الفوضى

حيث تفشى فيها الجوع

وعم القحط

وجئت الناس أوان الثورة

زمن السخط

فسخطت، غضبت وإياهم

أعلنت الرفض

وأنكرت فساد الأحوال

في هذا الدرب، وعلى هذا المنوال

قضيت الوقت الممنوح إليّ على ظهر الأرض.

ولد الدكتور محمد سليمان بأم درمان في نفس العام الذي شهدت فيه العاصمة الوطنية نشأة مؤتمر الخريجين العام.. تلك المؤسسة التي لعبت أخطر دور في التاريخ السّياسي المعاصر بالسودان.. كانت تتويجا لكلّ ما اعتمل في النفوس منذ دخول الغزاة البريطانيين فاتحين.. ثمّ تزامنت مراحل طفولته مع تطوّرات الحركة الوطنية ونتائج الحرب العالمية الثانية، وما انبثق من أحداث وتطوّرات دستورية واحتدام الحركة الوطنية التي أفضت نتائجها إلى إستقلال البلاد.

كانت قد هبت رياح جديدة غداة الحرب ووفدت أفكار مختلفة مع انتصارات السوفييت في ستالينجراد ودحرهم للنازية.. وتشكّل وعي جديد غير الذي ألفته الجمعيات الثقافية التي تشكلت من نواها الأحزاب السّياسية.. ونشأت حركة نقابية عارمة.

كان محمد سليمان في تلك السنوات طفلاً غريراً يقضي أوقاتاً جميلة في غابة السنط المجاورة للحي بغرب أم درمان – كما تناول ذلك في كتابه مجسّداً التغيرات

الإيكولوجية العميقة التي طرأت على البلاد - يطارد الحيوانات الصغيرة ويجمع الثمار البرية والحشرات الملونة.. ويعود إلى الدار يظلع من أثر طعنات الأشواك في باطن قدميه الحافيتين.. يرعبه عواء الضباع الذي يتجاوب قبل المغيب.

عندما التقيته في العاصمة البريطانية في صيف عام 1999 فاجأته بأننا كُنّا نعرفه منذ سنوات الدراسة الثانوية في مدرسة المؤتمر بأم درمان حيث كان شقيقه الأصغر الدكتور فتحي يتقدّمنا بعامين.. وكيف أنّه فتح لنا كنوز مكتبته التي تركها بالسودان أيام دراسته بألمانيا. ورويت له كيف تملكتنا الدهشة والعجب ونحن نطالع - لأول مرّة - أشعار ناظم حكمت ولويس أراجون وبابلونيرودا وبول إيلوار وولت ويتمان وتي. اس. إيليوت ومايكوفسكي وعبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب وبلند الحيدري ومحمد صالح بحر العلوم وعبد الرحمن الشرقاوي وصلاح عبدالصبور وتاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن ومحمد الفيتوري وكتابات إرنست هيمنجواي وفرانز كافكا ومكسيم جوركي وشتاينبك وريتشارد رايت.. وغيرهم. كانت تجربة ثريه ملأتنا وقتذاك بالزهو والإحساس بامتلاك الحقيقة.. ما أنْ انهيت حديثي حَتّى اتصل الدكتور محمد سليمان بشقيقه فتحي المقيم بألمانيا وتبادلت معه بعضاً من ذكريات تلك الأيام.

كُنّا مجموعة من الأصدقاء حين لبينا دعوته للعشاء في داره العامرة بالكتب والشعر وحب الآخرين.. كان المطر يهمي حين استقبلنا بمودة وحرارة وجلس يتوسطنا مشيعاً جوا غنياً بالألفة والصداقة... كان يقضي فترة نقاهة بعد صراع مرير مع مرض لئيم قاومه بروحه المقدامة ومؤازرة أصدقائه الذين لازموه في كلّ لحظة.. وأخذ يقرأ علينا بعض أشعار برتولت برشت التي ترجمها إلى العربية - وكانت قد صدرت لتوها كأفضل ترجمة للشعر الأجنبي - ترجمة لا تتماهى مع النص وحسب وإنّما تكتسب روحا خصوصية متوثبة صادرة من ذات شاعرة ومبدعة.. كانت تلك الليلة ليلة للشعر والمطر والأصدقاء.. الثالوث الذي يسعد الكاتب.

تلقى محمد تعليمه الأولى والأوسط في حي العرب بأم درمان والثانوي ما بين وادي سيدنا وخور طقت أما تعليمه الجامعي فقد تقاسمته جامعتا الخرطوم وفريدريك شيلر بألمانيا، وقد حصل على درجة الدكتوراه في الكيمياء الفيزيائية. كما حصل على درجات علمية في التعليم واللغات التي يجيد منها العربية والإنجليزية والألمانية والفرنسية والروسية. وعمل محاضراً ثُمَّ محاضراً أول ثُمَّ أستاذا مشاركاً في جامعات الخرطوم وجوبا وألمانيا وإنجلترا.. وله ثمانية مؤلفات وقدم حوالي خمسين ورقة علمية (وكان مؤلفه الأول قد صدر عام 1961. باللغة الألمانية والأخير عام 2000 باللغة العربية» ويجري الآن أبحاثا حول الصراعات المسلحة في منطقة القرن الأفريقي حيث يعمل مديراً لمعهد البديل الأفريقي بلندن منذ عام 1991. ويعيش الآن في إنجلترا مع زوجته الدكتورة فاطمة بابكر محمود ووحيدتهما عزة التي تدرس الفنون التطبيقية في جامعة بيرمنجهام. كرس حياته للعلم والمعرفة والدفاع عن قضايا أمته. ولَمْ يؤثر حياة الدعة والراحة في بلاده أو في العواصم الأوروبية ولكنه انبرى يقاتل دون ما يراه حقاً للمستضعفين فدفع ثمن ذلك غالياً سجناً ونفياً وتشريدا.

اختتم مقدم كتابه الدكتور صلاح آل بندر ذلك الاستهلال بقول رائع «أما المساهمات الرصينة مثل ما يقدمه المفكر محمد سليمان في هذا الكتاب فهي كعملية النمو الواعدة الصابرة، رغم نشاطها الفائق لا صوت لها ولا يحس بها إلا القليل، فمن سمع يا ترى صوت نمو الشجرة السامقة الوارفة الظلال».

9 يناير 2000م

في حكايات كانتربري السودانية

برامبل.. المستبد العادل

كان الإعجاب برجال الخدمة المدنية والعسكريين البريطانيين قد بلغ ذروته مع بلوغ الإمبراطورية شأواً لَمْ يسبق أنْ حدث مثيله في التاريخ. وقد تضمن كتاب «فيكتوريون متألقون» لمؤلفه ليتون استراخي أربعة نماذج ساطعة عبرت عن تلك الفترة المهمة في تاريخ بريطانيا. كان الجنرال غردون أحدهم. وقد أماط استراخي اللثام عن حقيقة تلك الشخصية التي جمعت بين القسوة والتسلط وإن لم تخل من روح الأخلاقية المسيحية التطهرية. أما برامبل فقد كان طاغية صغيراً لَمْ يتألق إلا في حدود مدينة أم درمان التي لا تزال تذكره.. حكمها بيد من حديد.. كان رودولف سلاطين قد سبقه في الشهرة في تلك المدينة التي عاش فيها سنوات أسره ثُمْ إتخذها مقراً له حين عاد مفتشاً عاماً للسودان. إلا أنّ برامبل ترك بصمات أكثر غوراً في قسمات المدينة، الشارع والسينما وذكريات تسلطه وعدله وموكبه الصباحي في أحياء المدينة والسوق.

أسموه برامبل بيه -هكذا أطلق عليه العامّة إجلالاً ومحبة رغم قسوته وتشدّده في سبيل تطبيق القانون وفرض النظام. مات كلّ الذين رأوه وكانوا راشدين، وحَتّى إذا بقي منهم أحد قد لا يستطيع أنْ يقدم صورة كاملة عن ذلك الرجل الذي شغل ناس أم درمان لعدد من السنوات. إلا أنّ مستر إليوت بالفور -مفتش المركز السابق بحكومة السودان- قدّم لنا صورة حيّة وكافية عن شخصية برامبل الذي عمل معه فترة بمركز أم درمان. قال بالفور إنّ برامبل كان يعمل في البحرية الملكية حَتّى وصل

إلى رتبة رائد، ولكنه قضى معظم سنوات حياته العملية بعيداً عن الروتين العادي. وكما حدث للجنرال غردون فإنّ اسمه قد لمع في الصين حيث كان يعمل. وربما كان قد جاء عن طريق الجيش المصري حيث بدأ خدمته في السودان بين قبيلة النوير. و«وعندما عرفته كان يعتبر ملكاً غير متوج لمدينة أم درمان وكان أهلها يحبونه ويقدرونه لأنه على الرغم من ذلك القناع المتشدّد كان هو وزوجته قد نذرا نفسيهما دون حدود لتحسين أحوال الرعية. كان المستر برامبل يهتم حقيقة بالحرف المحلية ونجح فعلاً في تطوير أعمال الفضة والجلود إلى مستوى ما كان يمكن تحقيقه إذا ترك الأمر للجهد المحلي».

ووصف بالفور الموكب اليومي لذلك المفتش بعينين بريطانيتين لا كما كان يراه السودانيون بالطبع. وقال إنّه في تمام الساعة السادسة صباح كلّ يوم كانت تحتشد أمام منزل برامبل مجموعة من رجال الشرطة بزيهم الأبيض الناصع، وبعض الموظفين السودانيين الذين يمتطون الخيول كالمأمور وضابط الشرطة بالإضافة إلى عدد من شيوخ الحارات يركبون على الحمير. وعندما تعلن الساعة السادسة تماماً يخرج برامبل ممتطياً صهوة جواده ومرتدياً خوذة «ولزلي» التي وضع عليها شعار المديرية «رأس فيل من الفضة على أرضية حمراء لامعة»، وجاكتة من الجبردين مع أشرطة الرتبة على الكمين، والحذاء الميداني والمهماز. كان هذا هو الزي الرسمي المخصص لجولة المدينة. وكان يفترض أنْ يكون بالفور دائماً مرتدياً نفس الزي بانتظار برامبل مع الآخرين. ولكن في أحد الأيام وصل متأخراً فبادره برامبل بقوله «أنت يا خنزير الجحيم، لديك زرار فاتح»، ومنذ تلك اللحظة لَمْ يصل متأخراً. وروى بالفور أنّه قد حدث مرّة في إحدى الجولات بسوق المدينة أنْ مروا بمجموعة من النسوة اللائي ما أنْ رأينهم حَتَّى أطلقن الزغاريد. وتكرر المشهد لثلاثة أسابيع متتالية.. وما كان الأمر لينطلي على برامبل الذي أوقف حصانه في المرّة الأخيرة، ونادى «يا عوض الكريم» فأسرع إليه الباشجاويش عوض الكريم بزيه الرسمي الكامل

وسيفه يصّل على خاصرة الفرس. فأمره برامبل بالقاء القبض على النسوة وأخذهن إلى المركز. ولمّا عاد إلى مكتبه وقُدّمن إليه إستطاع أنْ ينتزع اعترافهن بأنّ الجزارين قدموا خمسة قروش للواحدة منهن حَتّى يصدرن تنبيهاً بالزغاريد لدى مرور موكب المفتش ليستعدوا بتغطية اللحم بالفوط حَتّى لا يصبح هدفاً للذباب. وكن قد إدعين في البداية بأنهن يزغردن إعجاباً به وبعدله، إلا أنّ ذلك لَمْ يقنع الرجل الداهية.

وقال بالفور إنّ لغة برامبل العربية كانت محدودة وكثيرة الأخطاء، إلّا أنّ ذلك لَمْ يؤثر على رباطة جأشه حين يتحدث للآخرين، وكان لديه ثلاث عبارات مفضلة يستخدمها دائماً «دا ممنوع» «مش ممكن»، و«أنت محبوس هسع». أما إذا استدعى الأمر الإستمرار في المحادثة فينادي مترجمه هاشم ويقول له: «كلمه يا هاشم كلمه»، فيتولى هاشم الترجمة بسيل من الكلمات العربية، فيقول برامبل: «تمام، فهمت الآن أذهب بسلام».

وروى مستر بالفور أيضاً أنّه حين انتشر مرض الجدري ذات عام بأم درمان كان الناس يتهربون من التطعيم. وحدث أنْ احتشد جمهور غفير في فناء المركز لمتابعة إحدى القضايا المهمة، فما كان من برامبل إلّا أنّ أمر بإغلاق أبواب المركز واستدعى ممرضين من المستشفى على عجل ومعهم معدات التطعيم. وعلى الرغم من المفاجأة التي كان يمكن أنْ تؤدي إلى نوع من الشغب إلّا أنّ الجمهور استقبل الموقف بضحك يشوبه نوع من الكآبة ومدوا أذرعهم جميعاً للتطعيم.

التقاه بالفور بعد فترة من نقله من مدينة أم درمان حيث عاد إلى العاصمة لأداء امتحان اللغة العربية الذي تعقبه الترقية، فقال له برامبل أنت تحتاج لكلمتين عربيتين فقط فتوقع أنْ يسمعه عبارتي «دا ممنوع» و« مش ممكن» إلّا أنّه في هذه المرّة قال له: «الشدّة مع العدل».

احتشد كتاب «حكايات كانتربري السودانية» بأكثر من عشرين رواية لبريطانيين

شغلوا وظائف في مختلف المهن بالسودان. وقد صدر في مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي بأم درمان في طبعة فاخرة تسر النفس وتسعد القلب وتفعم الروح. جمعها وحررها دونالد هولي -الإداري البريطاني السابق في السودان- وقام بترجمتها الأستاذ محمد أحمد الخضر التوم فأبلى وأحسن.

تحدث جميع من كتبوا بحب نادر وإعجاب شديد بالسودانيين وأكدوا أنَّ السنوات التي قضوها بالسودان كانت من أسعد فترات حياتهم. وقدموا لنا تجارب ناضجة وصوراً نادرة عن سودان ما قبل الإستقلال.

27 مايو 2003



سلاطين مرتدياً زي الأنصار بعد هروبه إلى مصر

الأميرة نصرة وحوريات مارنجان

ما كان يدور بخلدنا أنّ قرية السوريبة الواقعة بالقرب من مدينة ود مدني كانت تحتضن قصراً منيفاً شُيِّد على طراز أحد المعابد القديمة يزينه الأثاث والرياش الفاخر ويغص بالجواري الحسان وتقدَّم فيه أطيب أنواع الطعام التركي. كان ذلك قصر الأميرة نصرة بنت عدلان سليلة ملوك سنار الذين هوى سلطانهم بدخول الغزاة الأتراك في عام 1822. كانت الأميرة نصرة قد تجاوزت الأربعين بارعة الجمال ذات بشرة صفراء تشوبها حمرة ذهبية أخاذة إستطاعت بسهولة ويسر أنْ تنسجم مع نظام الحكم التركي الجديد وتستقبل سدنته في مقرها وتقيم مع بعضهم علاقات تجاوزت كلّ الحدود هي وابنتها رغم أنّهما كانتا مقترنتين برجلين من كبار الأعيان الذين تعاونوا مع الأتراك. وفي ذات ليلة قصد خمسة من الأوروبيين كانوا يقيمون بود مدني قصرالأميرة وبمجرد نزولهم من الخيول أحاطت بهم الجواري الفاتنات يحملن آنية القرع الجميلة المزينة بالنقوش والملأى بشراب الأبري وقدمنها وفقاً لطقوس معينة. وكانت الجواري يرتدين الرحط وهي سيور كثيفة من الجلد تستر ما بين السرة والركبتين. وكن يتزين بالأسورة والحجول وعقود ذهبية من الخرز وتتدلى من رؤوسهن على الوجوه ميداليات ذهبية زادتها رونقاً وجمالاً. ولما جنّ الليل حاولت الأميرة نصرة أنْ تبيع للأوروبيين اثنتين من هؤلاء الجواري المولدات إلا أنّ الصفقة لَمْ تتم لأسباب مالية خاصة بالزوار. وفي مارنجان كانت أيضاً الأميرة نصرة تمتلك منزلاً تحيط به حديقة صغيرة بالإضافة إلى غابة من أشجار السنط الكثيفة الخضراء تضفي على المكان منظراً خلاباً. وفي مشهد آخر دخل بعض الأوربيين تلك الغابة طلباً للصيد فقادتهم الصدفة إلى شاطئ النيل ليفاجأوا بعدد من الجواري المرحات يربو على المئتين يسبحن ويغسلن الملابس ويتوائبن في الرمال وبعضهن يتنقلن

خلف الأشجار مثل الحوريات. كانت تلك الفتيات من جواري الأميرة التي يبدو أنَّها احتفظت بعز الملك والسلطان حَتَّى في ظلّ تلك التحوُّلات السّياسية العميقة.

إستطاع رجل أوروبي مجهول الهوية أنْ يسجِّل تلك المشاهد من الحياة السودانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ما كنَّا نستطيع الوقوف عليها لولا العثور على مخطوطه الذي قام بترجمته من الإيطالية إلى الإنجليزية ريتشارد هيل وإلى العربية الأستاذ عبد العظيم محمد عكاشة. فنحن مازلنا نتوق لمعرفة المزيد عن التاريخ السّياسي والإجتماعي للأمة السودانية. ويبدو أنَّ المؤلف الإيطالي الجنسية عاش بسيطاً بين الناس منذ وصوله إلى السودان في بداية الفتح التركي عام 1822 م ولَمْ يتأثر بأوساط السلطة الحاكمة في رؤيته لتلك الأحداث التي صاحبت الفتح ومحاولات تجسيد مراميه فوصف رجال قبائل الدينكا والشلك بالثبات في مجابهة الجيش الغازي الذي ظلّ يشن غاراته لصيد الرقيق وانتقد بمرارة نماذج أخرى من السودانيين الذين تدافعوا بالمناكب للحصول على الزعامة وكسب المال بالنفاق وممالاة الحكام الظالمين الذين وصفهم بالقسوة والتسلط والاستبداد. تناول النص أيضاً الوقفة الأسطورية لأبناء شرق السودان أمام القوة التركية الغاشمة التي حاولت إخضاعهم بأحط الأساليب كما تناول تمرد عرب رفاعة أبوروف والشيخ أبو ريش (عرب الحمدة) كما تطرق المؤلف لوصف عادات السودانيين ومعتقداتهم وفنون الطبخ لديهم وإكرام الضيف.

ومن المعروف أنّنا لا نمتلك إلّا معلومات عامَّة عن الانتفاضة الشعبية العارمة التي فجرها السودانييون ضد الغزاة الأتراك عقب مقتل إسماعيل باشا بن محمد علي في شندي ولا نعرف سوى حادث الحريق ووصول الدفتر دار من كردفان ليثأر لصهره وليطارد المك نمر. إلا أنَّ الواقع أنَّ الانتفاضة هذه عمت أرجاء السودان وكادت أنْ تقضي على القوات الغازية لولا غياب القيادة المركزية الواعية فإستطاع الغازي أنْ يستفيد من العزلة التي صاحبت ذلك التحرك. كما إستطاع الكاتب أنْ يمدنا

بمعلومات ذات أهمية عن تلك الأحداث. وفي مشهد لَمْ يكن معتاداً في السودان كما أنَّ كتب التاريخ لَمْ تتطرق كثيراً لنوعه، وصف المؤلف الإيطالي موقف الشيخ رجب ود بشير الغول (أحد شيوخ الحمدة بالعطيش) في مواجهة الإعدام بالجلوس على الخازوق وذلك في عام 1836 وكيف ودع أهله في هدوء وشجاعة وأبدى ثباتاً نادراً أمام جمهرة من النساء ثُمَّ إتجه إلى آلة الإعدام العجيبة. وقبل التنفيذ ندَّد بسلطة الأتراك ودعا الناس للإطاحة بها. وتناول الكاتب سيرة أحد الأقباط والذي كان سكرتيراً للحكمدار خورشيد باشا إلَّا أنَّه كان مقرباً منه وذا نفوذ كبير إستطاع من خلاله أنْ يمتلك في سنار داراً فخمة تغص بالحشم والخدم من الجنسين. وكان من بين هؤلاء الخدم جارية شركسية أخفاها من الحكمدار لأنَّها من جنسيته إلَّا أنَّه اضطر بعد أنْ انكشف سره إلى الزواج منها بعد أنْ أعلن إسلامه وسمى نفسه محمد نور الدين. والطريف أنَّ سلالته لاتزال تعيش في مدينة الكاملين ومعروفة بأولاد الأفندي. اندهش الكاتب لما رآه في قرية طيبة بالجزيرة حيث كان الشيخ أحمد الريح الولي المعروف ووالد الشيخ حمد النيل يتمتع بمنزلة كبيرة ويتزاحم الناس لتقبيل يده. رأى الكاتب أنَّ الشيخ الريح كان يتكفل بإعاشة وإيواء الأسر الفقيرة في القرية. الواقع أنَّ التكية ظلَّت مكاناً معروفاً لإقامة الحيران واستضافة المريدين لدى معظم مشائخ الصوفية في السودان.

ووصف المؤلف مدينة ود مدني التي يبدو أنَّ العاصمة إنتقلت إليها من سنار في تلك الفترة بأن رؤيتها كانت تتعذر للقادم إليها بسبب الغابات الكثيفة. وقال إنَّ مبانيها شيدت دون تخطيط وإنه لا شيء فيها يسترعي الانتباه سوى الثكنات العسكرية وكذلك منزل قائد الفرقة الثامنة الذي تَمَّ بناؤه من طابقين بجدران صلبة. ووصف المستشفى وأقسامه المختلفة حَتّى غرفة العمليات والحجرات المخصصة للمرضى والممرضين والطبيب المناوب والكاتب والأجزخانة ثُمَّ المطبخ. وقال إنَّ سوق ود مدني كان يتكون من مجموعة من الأكواخ أقيمت على خطين متوازيين ولَمْ

ذلك بالإضافة إلى الإهتمام بأنواع الرياضة كالبولو وسباق الخيل وكرة التنس. وفي أيام أعياد الميلاد ورأس السنة يجد المزارعون والعمال مادة دسمة للحديث عن حفلاتهم الباذخة عندما يترنحون سكارى ويغيب بعضهم عن الوعي ويختلط الحابل بالنابل. كانت تلك الأخبار ينقل تفاصيلها السواقون والمراسلات. وكان يأتي بعد الإنجليز في المرتبة الباشكتبة والمحاسبون المسؤولون عن مسك الدفاتر وحسابات المزارعين وصرف مستحقاتهم. وكانوا جميعهم من الشوام والأغاريق والأقباط. منازلهم أقل درجة بكثير من منازل المفتشين وليس مسموحاً لهم مشاركة الإنجليز في أنديتهم فيتجمّعون في منازل عزابهم للسهر والمقامرة. وكانوا يرتشون ويفرضون أتاوات بأشكال مختلفة على المزارعين كتزويدهم بالعلف لخيولهم ولأبقار اللبن وغير ذلك مما فعل الباشكاتب القبطي رياض عبده الذي قرّر أنْ يبيع بقرته عن طريق اليانصيب (الكرتلة) ليقبض ثلاثين جنيهاً بينما قيمتها الحقيقية ثلاثة جنيهات فقط. وكان المفتشون الإنجليز تسرهم هدايا الديوك الرومية التي يقدمها بعض المزارعين في عيد الميلاد وينعكس ذلك في معاملتهم لهم والنظر بعين الرضا.

كان المزارعون رجالاً ونساءً يعملون في الغيط ويواجهون الكثير من الصعوبات إلّا أنَّ مجتمعهم في المشروع برز متماسكاً وذلك رغم اختلاف أعراقهم. فكانوا يجتمعون في أوقات صرف الأرباح والعلاوات ويناقشون المشاكل العائلية والإجتماعية والإقتصادية التي أفرزها قيام المشروع بالمنطقة.

كان المستر ريبي أخر محافظ أجنبي لمشروع الجزيرة - يتحدث مع مساعديه حول مستقبل المشروع بعد غيابه إذا تسلّمه نائبه السوداني مكي عباس. كان يتوقع له فشلاً ذريعاً فقد لازمتهم النظرة الدونية للعنصر الوطني. إلّا أنّ عالماً هولندياً إعتاد زيارة المشروع سنوياً ليتفقد بعض التجارب التي أقيمت بالجزيرة كتب عن مستقبل المشروع يقول «إذا أطلنا التفكير في مستقبل مشروع الجزيرة بعد تخلي البريطانيين عنه تبادر إلى الأذهان ما سينجم عن ذلك من مشكلة.فهل نلقي القول بإنَّ في

يكن فيها سوى بعض الأقمشة ذات الألوان الباهتة بالإضافة إلى الأحذية والخرز والسكر والبن والبهارات وغيرها. وأفضل ما في السوق كان ذلك المقهى الذي يحتل ركناً قصياً عند نهاية أحد الصفين. ووصف المؤلف المدينة بأنها كانت قذرة لدرجة البشاعة تنتشر فيها الأمراض والأوبئة بسبب مياه الأمطار الآسنة المتراكمة كما أشار إلى عدم وجود دورات المياه والمراحيض الأمر الذي يضطر السكان إلى قضاء الحاجة على ضفة النيل مما يحرم الناس فرصة التنزه على الشاطئ.

أعجب المؤلف ببلدة المسلمية التي ظلّت مزدهرة ومركزاً تجارياً تتدفق إليه السلع من الحبشة ومصر والحجاز ويزخر سوقها الذي يقام في يوم الثلاثاء من كل أسبوع بأقمشة الموسولين الهندي والمنتجات الأوروبية وغيرها بالإضافة إلى البضائع الواردة من مختلف المناطق السودانية. إلّا أنّه اتهم بعض تجار المسلمية بأنّهم كانوا يستخدمون قاطعي الطرق لقتل ونهب التجار الغرباء العابرين. وقال إنّ عدداً من المتهمين ومن بينهم الشيخ مدني شمبول شيخ المنطقة قد أوقفوا لمدّة من الزمن قبل أنْ يطلق سراحهم. أما في سنار فقد لفت إنتباهه أنّ الموسرين كانوا يمتلكون مساحات شاسعة من الأراضي بعيداً عن النيل ويقوم بفلاحتها الأرقاء الذين يعيشون في قرى آمنة مع أسرهم ويجدون رعاية إنسانية من مالكيهم الذين لا يحرمونهم أطفالهم عن طريق البيع. وعكس ذلك حمل المؤلف بشدة على الأوروبيين الذين كانوا يعاملون أرقاءهم بمنتهى الفظاظة ويسومونهم سوء العذاب إلى درجة قتلهم لأتفه الأسباب. الحقيقة أنّ تلك الفترة كانت من أسوأ المراحل التاريخية التي شهدها السودان حيث كانت أهداف محمد علي تتجسّد في صيد الرقيق لاقتيادهم للخدمة العسكرية ونهب ثروات الوطن وخاصة الذهب. وقد وصف زيارة محمد علي الكبير للسودان وتلهفه للحصول على الذهب إلّا أنّ محاولاته باءت بالفشل ولَمْ يستطع أنْ يحصل على ما كان يتمناه وترامى إلى سمعه من وفرته. وقد أسهب المؤلف الإيطالي في وصف حملات صيد الرقيق التي كان يقوم بها الأتراك

والقسوة المتناهية التي تلازمها. إلا أنه أكَّد أنَّ الأمور ماكانت تتم بسهولة لأن جسارة رجال القبائل وشجاعتهم وقدرتهم على تعقب القوافل وتلقين المعتدين دروساً لا تنسى بعد تخليص ذويهم.

كان هذا الكاتب المجهول جزءاً من مجموعة الأوروبيين الذين وفدوا إلى السودان لتنفيذ مشاريع محمد علي وكان منهم الأطباء والصيادلة والبياطرة والمهندسون، فرنسيين وإيطاليين ويونانيين وإنجليز وغيرهم. جاءوا من أحضان الطبقة الوسطى الأوروبية مثخنين بجراح حروبها وهزائمها وإخفاقات انتفاضاتها الثورية. جاء بعضهم بحثاً عن المال والبعض الآخر عن المغامرة وإثبات الذات. وهناك فرنسي آخر تعرَّض لنفس تجربة نظيره الإيطالي وكتب نصاً عبارة عن يوميات يلقي الضوء على تلك الفترة التي لا نعلم عن تفاصيلها الكثير. والجزءان يحملان عنوان «على تخوم العالم الإسلامي... حقبة من تاريخ السودان 1822-1841»

الكارب.. وقصة مشروع الجزيرة

عرف السودان القطن من قديم.. ما جاء به مشروع الجزيرة في القرن العشرين.. كان ينمو برياً في تلك المنطقة وخاصة على ضفاف النيل الأبيض. وكان من الصادرات الرئيسية في عهد الفونج القطن والدمور. كما عرفته مناطق في الجنوب أيضاً. وقد ذكر بيركهاردت أنّه في خلال وجوده بشندي عام 1814 رأي المنسوجات القطنية آتية من سنار. كانت منطقة الجزيرة إمتداداً واسعاً تغمره الغابات والحشائش الصالحة للمرعى من مشارف الخرطوم حَتّى الحدود الأثيوبية وعرفت المنطقة بجزيرة سنار، وجزيرة الخرطوم، وجزيرة مالك ود أبوروف - زعيم قبيلة رفاعة الهوي... التي كانت قطعانها هي وغيرها من القبائل تجوب تلك المنطقة في رحلة سنوية من أقصى جنوبها حَتّى الخرطوم. ومن الواضح أنّ الجزيرة كانت في الأزمان الموغلة في القدم جزءاً من الحضارة بالسودان. فلا يزال الناس يكتشفون بين وقت وآخر آثاراً تدلّ على ذلك.

ظهرت فكرة زراعة القطن بالسودان لأول مرّة في مذكرات كتبها الرحالة هولرويد عام 1839 حين مرّ بالجزيرة في طريقه إلى كردفان. وفي عام 1904 عقب الإحتلال البريطاني للسودان بسنوات قليلة بادر سير وليام جارستين المستخدم بوزارة الأشغال المصرية بنشر تقرير عن منابع النيل العليا نصح فيه بشدة بضرورة تشييد خزان أو قناطر في منطقة سنار على النيل الازرق لري جزء من أرض الجزيرة. وأخذت الحكومة البريطانية تفكر في تنفيذ المشروع بجدية بسبب ضغوط أصحاب مصانع الغزل بلانكشير الذين أتجهوا إلى تجارة الغزل للقطن الناعم تدريجياً. ولما كان إنتاج القطن المصري طويل التيلة يتعرّض للانخفاض إتجه التفكير لإقامة المشروع.

وفي عام 1913م بحث مجلس العموم البريطاني القرض الذي كانت تطالب به الإدارة البريطانية في السودان لتأسيس مشروع الجزيرة. ووافقت حكومة لندن على القرض الذي كان مقدراً بثلاثة ملايين من الجنيهات.

وفي عام 1911م فكرت حكومة السودان في تجربة الري بالجزيرة فطلبت من الشيخ عبد الباقي العركي أنْ تبدأ التجربة في قريته (طيبة) التي زوّدت بوابور كبير لري الأراضي الزراعية الأمر الذي أحرز نجاحاً أفضى إلى نتائج غيرت من واقع المنطقة. ومن ثَمّ تطوُّرت الإمتدادات بعد التجربة الإستطلاعية الأولى في طيبة لتشمل مناطق أخرى بالري بالطلمبات كالحاج عبد الله وبركات. وبدأت الحكومة في تشييد الخزان عام1914م ولكن العمل توقف بنشوب الحرب العالمية الأولى ليستأنف مجدداً ويكتمل في يوليو 1925م.

وتدرّج العمل في مشروع الجزيرة عبر تجارب عديدة ومتنوّعة حَتّى أضحى الركن الأساسي لاقتصاديات البلاد وحَتّى بات يعرف بالمشروع الأكبر من نوعه في المحيط الإقليمي العربي والإفريقي.

في بدايات العمل لَمْ يكن حظ السودانيين في العمل بالمشروع وافراً وكان حكراً للأجانب مع السيطرة التامة للعنصر البريطاني. وكان السودانيون الأوائل الذين إنخرطوا في وظائف بسيطة بالمشروع فتية ثلاثة... أكبرهم في بدايات العشرين من عمره وأصغرهم لَمْ يتجاوز السادسة عشرة. وكان عمر محمد عبد الله الكارب أحدهم. وجدوا أنفسهم في محيط زاخرٍ من الأجانب بريطانيين ويونانيين وشوام ومصريين.. كانوا غرباء في وسط بلادهم إلا أنّهم صمدوا وتحملوا المشاق والمكاره ومضايقة وعجرفة الأخرين.. بدأ الكارب مزارعاً عادياً ولما يزل بالمرحلة الوسطى وعند تخرجه منها التحق بالمشروع موظفاً صغيراً وتدرج حَتّى أصبح نائباً للمدير العام.. وأخيراً عضواً في مجلس إدارته.

أصدر المستر آرثر جيتسكل - وهو شقيق أحد أشهر زعماء المعارضة في بريطانيا- كتاباً في عام 1959 بعنوان «الجزيرة.. قصة تنمية في السودان». وأرسل نسخة منه إلى الكارب وسمح له بالرجوع إليه في حالة كتابة مذكراته عن تجربته بالمشروع، والتي تناولت الأحداث التي مرّت به طوال سني خدمته.

كان المستر جيتسكل قد انضم إلى خدمة مشروع الجزيرة فور تخرجه في جامعة أوكسفورد في عام 1932 وعين مفتشاً صغيراً بأحد تفاتيش الغيط بالمشروع.. وزاول عدة وظائف قبل أنْ يصبح مديراً للمشروع في عام 1945 (في عهد الشركة الزراعية) ثُمَّ صار بعد ذلك محافظاً لإدارة المشروع بعد تأميمه في الأول من يوليو عام 1950 وإستمر إلى أنْ تقاعد في عام 1952.

كتب السيد عمر محمد عبد الله الكارب مذكراته بعنوان " الجزيرة.. قصة مشروع ورحلة عمر " مزج فيه العام والخاص بشكل مختلف فتعرَّض لتجربة المشروع منذ قيامه في تداخل ممتع مع سيرته الذاتية. واهتم بإرفاق وثائق في غاية الأهمية تجعل من الكتاب مرجعاً إقتصادياً وإجتماعياً لا غنى عنه.

وصف الكارب الحياة الإجتماعية في المشروع بأنها كانت تغص بالطرائف والمفارقات.. فالمزارعون كانوا ينظرون إلى الموظفين الإنجليز كحكام وكانوا يطلبون منهم المساعدة في حلِّ قضاياهم أمام السلطات، الأمر الذي كان يثير كثيراً من المتاعب للحكومة المحلية.. إلا أنَّهم كانوا إذا أحسُّوا بأيِّ نوع من الإذلال لا يخشونهم ولا يتورعون عن منازلتهم. وكان للموظفين الإنجليز وضع متميِّز تخصص لهم منازل مفروشة ومزوَّدة بكثير من الضروريات، وخاصة الهاتف الذي يتمُّ توصيله عقب استلام المنازل من المقاول مباشرة. وكانوا يمنحون سلفيات لشراء الخيول التي كانت تستخدم بدلاً عن السيارات التي لَمْ تكن قد عرفت بعد. وأقيمت لهم الأندية الخاصة المجهزة بكلِّ أنواع التسلية والترفيه وكميات من الكتب التي ترد من إنجلترا مباشرة.

النهائية لجلاء القوات. واندفع بعضهم متهافتين يفحصون الموجودات بل تسابقوا لحجز المكاتب أثناء سير المفاوضات. وافق الأزهري على مقابلة المستر راو كأحد الخبراء الذين عمد حماد توفيق إلى الإستعانة بهم إثر زيارة له لنيودلهي. وقبل لحظات من مغادرتهما ـ هو وبحيري ـ لمكتب رئيس الوزراء طلب المستر راو من الأزهري فجأة أنْ يأذن له ليقول كلمات قليلة فخاطبه «يجب أنْ يعلم ضباط الجيش ويذعنوا لتحكم التنظيم السِّياسي المدني وهذه كانت واحدة من إعتباراتنا الرئيسية في الهند عندما حصلنا على الإستقلال. إذا لَمْ يحدث هذا الأمر سيأتي يوم يتجرأون فيه عليك ويلقون بك وبوزارتك في السجون» ضحك الأزهري ضحكة واثقة مميزة وانتهت المقابلة. ولَمْ يلبث أنْ مضت سنوات قليلة حَتَّى ألقى به العسكريون في السجن مرتين.. لَمْ يتحمل قلبه المهانة والقهر في المرَّة الأخيرة فأسلم الروح.

كانت التجربة الهندية على الدوام نصب أعين الخريجين السودانيين الذين تحملوا عبء النضال الوطني، حَتَّى أنَّ مؤسستهم الأولى أطلقوا عليها اسم «المؤتمر» تيمناً بالمؤتمر الهندي، وكانوا يتابعون بانبهار وإعجاب حركة الشعوب الهندية وتضحياتها والتعقيدات الإجرائية التي صاحبت مخاض الإستقلال. فالتجربة الهندية الآن رغم ما تواجهه من عثرات شأن دول العالم الثالث أثبتت رسوخاً ونجاحاً ومزيداً من الايمان بالديمقراطية. كما أحرزت انتصارات في مجالات الصناعة والإنتاج لَمْ تعد خافية على المراقبين. أما نحن في السودان فما زالت جراحنا نازفة بما فعل السفهاء منَّا.

قصة المستر راو مع الزعيم الأزهري وردت ضمن مذكرات السيد مأمون بحيري التي صدرت أخيراً في الخرطوم بعنوان «لمحات.. من تجارب رجل خدمة عامَّة من جيل الروَّاد السودانيين». وبحيري رجل خدمة مدنية معروف وإقتصادي مرموق تدرج في السلك الوظيفي بوزارة المالية وتولى مناصب مهمة.

إستطاعة القائمين بالأمر الآن الحفاظ على نفس المستوى من حيث الكفاءة والمقدرة؟ لا يخالجنا ظن من الشك في أنّ السيد مكي عباس الرئيس الحالي موظف من الطراز الرفيع، وهو في رأيي كسب صحيح لأيْ مؤسسة دولية. إنّه عملاق الروح والبدن.. مارد جامح الطاقة. متدفق الحماس. ثاقب النظر. سريع الفهم حاضر البديهة.. لا يحار في الإجابة مع ثبات القول.. شخصية طاغية.. مسيطرة. وهو في نفس الوقت رجل مهذب من قمة الرأس إلى أخمص القدم» هكذا وصف العالم الهولندي مكي عباس الذي تسلم منصبه في عام 1956م.

وبدأت عمليات السودنة تشمل وظائف المشروع.. وأثبت أولاد البلد جدارتهم وكفاءتهم فبلغ الأداء في المشروع ذروته في الحركة والنشاط والمقدرة والحماسة، حَتّى اعترف المستر جيتسكل بعظمة المستوى في أول زيارة له بعد سودنة الوظائف وعند زيارته الثانية عند قيام مشروع المناقل.

إستعرض الكارب عدداً من الشخصيات التي عملت بالمشروع وما قدموه من جهود. وانتهت مدّة خدمته في أواخر أبريل عام 1964 بعد أنْ أمضى 35 عاماً في رحلة بدأها في صبيحة التاسع من يناير عام 1929 عندما حضر إلى المشروع باحثاً عن عمل ممتطياً ظهر حمار والده. وأقيم له حفل شاي ضخم بميدان مكتب الرئاسة ببركات تحدث خلاله عدد من المسئولين وقدمت له الهدايا وفاء لما بذله من أجل المشروع الذي أفنى فيه زهرة شبابه. وهكذا إستطاع هذا الرجل العصامي أنْ يقدم لوطنه خدمة لا تقل عن مساهمته في تلك المؤسسة الشامخة بكتابة تلك المذكرات الثمينة. ولعل ذلك يكون باعثاً للقائمين على أمر المشروع الآن لانتشاله مما آل إليه من تدهور وأحوال تؤرق الحادبين على مصلحة البلاد.

لقد أحسن مركز الدراسات السودانية لمؤسسه الدكتور حيدر إبراهيم على نشر هذا الكتاب في إطار مجهوداته الرائعة في التنوير وإشاعة الوعي.



التجهيزات الأولية لتشييد خزان سنار

مأمون بحيري والخدمة المدنية



في ذات صباح قبيل إعلان إستقلال السودان بقليل، كان الزعيم إسماعيل الأزهري رئيس الوزراء ووزير الداخلية في أول حكومة وطنية منهمكاً في وضع الترتيبات النهائية المتعلقة بجلاء القوات الأجنبية من السودان. وكان ينتظر تقريراً عن سير المفاوضات مع قيادة الحاميات البريطانية التي كانت تقيم في ثكناتها ببري حول تسليم الموجودات غير العسكرية. وعندما حمل مأمون بحيري التقرير بتكليف من وزير المالية حماد توفيق رافقه المستر راو، أحد كبار موظفي الخدمة المدنية في الهند والذي كان في زيارة للسودان. كان ذلك الرجل يبدي رغبة عارمة في لقاء الأزهري منذ وصوله إلى الخرطوم. وكان يشكو بكياسة ولطف من التأخير في تلبية تلك الرغبة. ولاحظ مأمون بحيري أنّ مستر راو كان يكتنز خبرة ثرية تثير الإعجاب عندما كان يتحدث عن التجربة الهندية في استلام الحكم من البريطانيين. وقبل السماح لهما بالدخول إلى مكتب الزعيم الأزهري علما أنّ القيادات العسكرية السودانية كانت قلقة بشأن الترتيبات

إختياره في مهمة دولية دعا إليها السكرتير العام للأمم المتحدة المستر داج همرشولد، وكانت تلك المهمة عاجلة ومهمة شاركت فيها مجموعة قليلة من أشهر وأقدر الاقتصاديين عهد ذاك، من الغرب والشرق ودول آسيا. فقد كلفوا بالقيام بتقدير الفوائد الإقتصادية والإجتماعية التي تعود للبشرية من جراء نزع السلاح، فأنهوا المهمة بنجاح وفي الوقت المحدّد وأكدوا أنْ نزع السلاح يعود على البشرية بفوائد إقتصادية وإجتماعية لَمْ تخطر على البال. كان ذلك في مقر الأمم المتحدة بنيويورك في عام 1959.

21 مايو 2002م

وقد عمل وزيراً للمالية والاقتصاد خلال فترتين للدكتاتورية العسكرية (نوفمبر ومايو) حيث كان يتوهم أنْ نظام «المستبد العادل» هو نظام مثالي للسودان. إلّا أنّه توصل إلى قناعة نهائية بعد كلّ هذا الاستبداد العسكري الذي محق كلّ أوجه الحياة في السودان أنّ الديمقراطية هي الحق والمنطق والتاريخ مهما تعامى الطغاة وأرجف المرجفون.

ظلّ مأمون بحيري لمدّة خمسين عاماً معاصراً للأحداث والمنعطفات حيث برزت مؤهلاته وقدراته على المستويين المحلي والإقليمي والمستوى العالمي أحياناً. وعندما وجد وقتاً كافياً ليكتب في الولايات المتحدة التي ذهب إليها مستشفياً لَمْ يحاول أنْ يدعي بطولة أو يزين موقفاً.. وأخذ يتحدث عن تجاربه في العمل بروح المجموعة أو الفريق. والرجل ظلّ محمود السيرة لَمْ يتورط في شبهة ولَمْ يؤخذ عليه ما يشين تاريخه. كان يعمل بما يراه نافعاً لبلاده ويتصرف دائماً بروح موظف الخدمة المدنية التي خاض تجربتها وهي في ذروة تألقها وعظمتها. وعندما استشرى الفساد في سلطة مايو وأحكم المرابون الطوق حول نميري وزينوا له كلّ قبيح وأوهموه بالعصمة والخلود ودبروا مكائد سياسية وأبرموا صفقات أودت بكلّ مكاسب للوطن كان الرجل بعيداً.. فطبعه لَمْ يكن يؤهله للخوض في ذلك حتّى وصفه أحمد سليمان المحامي بأنّه كان «كالأطرش في الزفة».

والخدمة المدنية لا يذكرها السودانيون إلّا وتغمرهم مشاعر الأسى والقنوط.. لا لأنهم فقدوا بها هيبة الدولة وحمايتها وحسب. ولا الخدمات التي كانت تحرص على تقديمها.. ولكن لارتباطها بوجدانهم لأنّها كانت الحاضنة التي برزت منها الطبقة الوسطى، شريحة الأفندية المتميّزة التي ظلّت أملاً للأمّة وملأت فراغ القيادة في المجتمع المدني السوداني وأنجزت كثيراً مما نعتمد عليه الآن.

كان أول الدروس في انضباط الخدمة المدنية التي تلقاها مأمون بحيري حدث عند تعيينه لدى عودته خريجاً في أوكسفورد للعمل بالسودان عام 1949. كان قد درس الاقتصاد والعلوم السّياسية والفلسفة فتقدَّم بطلبه للالتحاق بمصلحة المالية. ورغم الحفاوة والترحيب بمقدمه من جانب إثنين من كبار موظفي المصلحة البريطانيين، إلّا أنَّ تعيينه لَمْ يكتمل لأنَّه كان أول سوداني جامعي يتقدَّم للعمل. وليس هناك وظيفة «على مقاسه» أو اعتماد مالي متاح لشغل مثل هذه الوظيفة تتضمنه الميزانية بالتالي.

لَمْ تكن مصلحة المالية خالية من الموظفين السودانيين الأكفاء، بل كانت تعج بالعشرات. إلّا أنّهم جميعاً كانوا قد تخرجوا في كلية غردون التي لَمْ تكن سوى مدرسة ثانوية عليا (تجهيزي). ولما كان التعليم الجامعي قد أخذ في التبلور خلال تلك السنوات إلّا أنَّ كلية الاقتصاد لَمْ يتمّ إنشاؤها إلّا في عام 1959. كما كان هناك تمييز واضح بين البريطانيين والسودانيين في الوظائف ومخصصاتها. وكان الإنجليز يبررون هذا التمييز بأن السودانيين يخدمون بلادهم وتلزمهم التضحية. وهو منطق يفتقر للياقة وروح العدل.

إستقر رأي المسؤولين في مصلحة المالية على أنْ يلتحق بحيري مؤقتاً معلماً بمصلحة المعارف إلى حين إكتمال إجراءات تعيينه في المالية بعد إعداد الميزانية الجديدة. فتوجّه إلى المعارف حيث استقبله وزيرها رجل التربية والزعيم السّياسي عبدالرحمن علي طه مرحباً وأحاله إلى مدرسة حنتوب الثانوية. وهناك إستقبله مستر براون الذي كان أحد نظار المدارس البريطانيين المتميّزين والذي عمل لفترة طويلة في السودان مدرساً للعلوم. وسره اللقاء الودود وروح الصداقة الذي تميّز به لقاؤه مع براون الذي كلفه بتدريس التاريخ الإسلامي. أتاحت له هذه الفرصة الوقوف على الحياة في مدرسة حنتوب الجميلة وهي لا تزال في عامها الرابع مزهوة بكوكبة من المعلمين الأفذاذ ذوي

المستويات الرفيعة كالنصري حمزة، وعبدالحليم علي طه، وهاشم ضيف الله، وغيرهم من الأساتذة المؤهلين، كما تميّز طلابها عهدذاك بالتفوق الأكاديمي والإجتماعي والرياضي. وعلى الرغم من ظهورالاتجاهات السّياسية في المدرسة إلّا أنّ الإنسجام كان تاماً والهدوء سائداً.

كان مأمون بحيري محظوظاً حين قدر له الالتحاق بكلية فكتوريا في مصر، التي كانت مدرسة ثانوية رفيعة المستوى تقبل أبناء الأعيان والأسر الكبيرة وتمثل نمطاً إنجليزياً ظلّ متوارثاً منذ العهد الفيكتوري. استكثرها عليه مفتش إنجليزي في حديث مع والده قائلاً: إنّ تلك الكلية خاصة بأبناء الباشوات والطبقة الارستقراطية، ولكن بحيري الأب أفحم المفتش بقوله: «وهل نسيت أنّ ابني هو حفيد السلطان علي دينار، آخر سلاطين الفور»، وبعد ذلك التحق بجامعة أوكسفورد التي برزت كإحدى أعرق الجامعات في العصر الحديث، وما كان ذلك التأهيل ليتوفّر لمأمون بحيري لولا أنّ والده كان أحد الضباط في قوة دفاع السودان الذين تَمّ إلحاقهم بوظائف إدارية في الحكومة.

بات مأمون بحيري أحد الكفاءات النادرة في الخدمة العامّة بالسودان وساعدت شخصيته الديناميكية في ترقيه وتسنمه كثيراً من الوظائف العليا. وإستطاع غداة الإستقلال أنْ يسهم في تأسيس النظام المالي للدولة الوليدة وإدخال عملة وطنية للمرّة الأولى وإنشاء بنك مركزي بكلّ ما يتطلبه من إدارة جديدة تتمتع بالكفاءة اللازمة، ذلك بالإضافة إلى تأسيس البنوك الحكومية المتخصّصة وبنوك القطاع الخاص لأول مرّة، على الصعيد المحلي. أما على الصعيد الإقليمي فقد برز للرجل دور فاعل ومساهمة رائدة في تأسيس أول بنك لعموم أفريقيا، الأمر الذي دفع القارة لأن تشرفه بتكليفه القيام بمسؤولية أول رئيس لتلك المؤسسة الوليدة وأعيد إنتخابه لنفس الموقع لدورتين.

وعلى الصعيد العالمي كان بحيري نجماً لامعاً في الفضاء الاقتصادي حَتّى تَمّ

هذا المعهد. فمكتب النشر ومجلة الصبيان احتلا مكتباً صغيراً ببخت الرضا قبل أنْ ينقلا إلى الخرطوم. وفكرة تعليم الكبار بدأت في قرية أم جر القريبة من مدينة الدويم تحت إشراف بخت الرضا.

هذه التجربة التربوية تجاوزت حدود السودان لتشمل المنطقتين العربية والأفريقية. ففي عام 1939 زار بخت الرضا الدكتور أحمد عبدالسلام الكرداني بك رئيس رابطة التربية الحديثة بمصر وأعجب أيما إعجاب بمنهجها وأسلوبها العلمي ونقل التجربة إلى بلاده حيث انشأت الرابطة مدرسة أولية ريفية في قرية المنيل خارج القاهرة.

كما دعت الحكومة المصرية عدداً من أساتذة بخت الرضا وفي مقدّمتهم الأستاذ عبدالرحمن علي طه الذي حاضر عن «بخت الرضا» وأسلوبها ومراميها وكان موضعاً للإعجاب والتقدير. كما اجتذبت التجربة أبناء حضرموت وعدن «وقتذاك» والصومال ونيجيريا فهرعوا إلى السودان طلباً للعلم.

كان أبوعوف وطنياً مهتماً بالشأن السّياسي منذ غضارة الصبا وانضم لحزب الأمة عام 1949 ودخل الجمعية التشريعية بحكم منصبه الوزاري وكان موضع ثقة الإمام عبدالرحمن المهدي ومستشاراً له. كما شارك في جميع وفود حزبه للمفاوضات التي دارت بمصر وإنجلترا بشأن الإستقلال.

وعندما تولي الأستاذ عبدالرحمن وزارة المعارف اهتم بوضع سّياسة ثابتة للتعليم في الشمال والجنوب قامت على مبدأ الإنصاف وتوفير الإستقرار للمعلم وتوسيع قاعدة التعليم مع مراعاة الكم والكيف. وفي أحد مواقفه الجهيرة تقدّم بإستقالته من المنصب الوزاري للحاكم العام البريطاني احتجاجاً على عدم الموافقة على سودنة منصب مدير التعليم بتعيين الأستاذ عوض ساتي فيه، فتراجعت الإدارة البريطانية وأذعنت لموقفه.

وُلِد الأستاذ عبدالرحمن علي طه في أول القرن العشرين -1901- في أسرة

التربوي المؤسس الأديب الشاعر والزعيم السِّياسي

عبدالرحمن علي طه



«أنت علمتني السِّياسة والشعر»

علي نور - شاعر المؤتمر

ظلّت حناجر الأطفال الغضة تردد لأكثر من خمسين عاماً نشيداً عذباً شجياً في كلّ المدن والقرى والبوادي السودانية.. تردده بحماس وغبطة وحبور في آخر كلّ حصة للجغرافيا في السنة الثالثة الابتدائية.. كان هذا النشيد الذي شدّ نياط القلوب - بأوتار لاترتخي- بكلّ بقاع الوطن من القولد حَتَّى يامبيو ومن محمد قول حَتَّى بابنوسة وفعل في النفوس فعل السحر ولا يزال يتوهج فينا نحن الكبار بعد مرور عشرات السنين.. ويبعث حنيناً وروحاً وطنية متأججة في كلّ الأجيال. كان هذا النشيد قد ألّفه التربوي المؤسس والأديب الشاعر عبدالرحمن علي طه الذي حمل عبء تربية النشء في السودان الحديث - هو وكوكبة من المعلمين

الأفذاذ. كانت مادتا الجغرافيا والتربية الوطنية قد وضعتا تحت إشرافه المباشر في معهد التربية ببخت الرضا، فأعد كتاب «سبل كسب العيش في السودان» الذي لا يزال يدرس بالمدارس الابتدائية مع تغييرات طفيفة. وقام برحلات حقيقية لمناطق السودان المختلفة يصحبه نفر عزيز من المعلمين منهم الأساتذة مكي عباس والنور إبراهيم وعثمان محجوب وأحمد إبراهيم فزع وسر الختم الخليفة. وشملت الرحلات القولد وريرة والجفيل وبابنوسة ويامبيو ومحمد قول وودسلفاب وأم درمان وعطبرة. تلك الرحلات التي صاغها الأستاذ عبدالرحمن- أبوعوف كما كان يحلو لمريديه أنْ يكنوه- شعراً سهلاً ينساب إنسياباً في الحناجر في قصيدته:

في القولد التقيت بالصديق　　أنعم به من فاضل صديق

كان لا يراه الناس في قرية «بخت الرضا» إلّا متأبطاً ملفاً من الأوراق أو مرجعاً من المراجع، وكانوا لا يرونه جالساً إلّا وهو منكب على عمل يجوده، كتابة أو مناقشة مع زملائه وتلاميذه في شأن من شؤون التربية والتعليم. نقل أبوعوف إلى بخت الرضا في عام 1935 بعد عام من إنشائها ليشغل منصب نائب العميد فأصبح «الدينمو» المحرك للعمل في التدريس والبرامج والتدريب وتأليف الكتب وأعمال الإدارة العامّة ووضع السياسات المتطوّرة. كما كان اللسان المُعبّر عن المعهد في كلّ المحافل والتجمُّعات ولدى كلّ مسؤول وأمام كلّ زائر.

وكان عميد المعهد آنذاك هو التربوي البريطاني مستر قريفث الذي ترك بصمات واضحة في أسلوب ومناهج التربية والتعليم إلّا أنّ القائد الفعلي لتلك التجربة بخصوصيتها السودانية وفرادتها كان الأستاذ أبوعوف. وقد وصف ذلك أحد عارفيه بقوله «كانا وجهين لعملة اسمها (بخت الرضا) إذا مسحت واحدة من الوجهين فقدت العملة صفتها المميزة».

كان أبوعوف عالماً في التربية ملماً بأصولها متابعاً وقارئاً نهماً لتطوُّراتها – وكان معلماً مطبوعاً سمح السجايا ساعدته على ذلك شخصيته المتماسكة وقدراته الفذة في الخطابة والإلقاء والتمثيل وأسلوبه الرصين في الكتابة باللغتين العربية والإنجليزية وشاعريته المتميِّزة التي نوه بها شاعر المؤتمر علي نور عندما رثاه قائلاً: «أنت علمتني السِّياسة والشعر».

لخَّص مستر قريفث دور أبي عوف في تجربة «بخت الرضا» في كتاب له أهداه إليه بقوله «إلى ذكرى عبدالرحمن علي طه نائب العميد لاثنى عشر عاماً وأول وزير للتعليم في السودان والذي بدون أمانته ووفائه لما كان لهذه التجربة أنْ تنجح». وتحدث عن أبي عوف بحفاوة فقال «وكان ذا نفوذ فريد بين المعلمين القدامى، أما بين صغار المعلمين فقد كان تقريباً الوحيد بين هيئة التدريس الذي «يخشون» – بالمعني الانجيلي السليم» وبالنسبة إلينا نحن الأجانب كان المرجع في أسلوب المعاملات اليومية ومثالاً في الإخلاص للعمل الذي قطعناه على أنفسنا»، وأضاف «تمكن نائب العميد السوداني من التأثير على الآخرين عن طريق أسلوبه في دروس النقد بأن يشير إلى نقاط الضعف فيه أمام تجمُّع المعلمين في دروس المعاينة التي أصبحت معلماً بارزاً في كلّ يوم خميس»، وكان أبوعوف من روُّاد المسرح السوداني بلا جدال وكان يجيد التمثيل ويؤلف المسرحيات ويدفع إليه الطلاب ولا يفتأ يردِّد أنَّ الذي يجيد التمثيل لا بدَّ أنْ يجيد التدريس لأن الفصل مسرح صغير بطله المعلم ومشاهدوه التلاميذ وإنْ أفلح المعلم في التمثيل إستطاع توصيل المعلومات إليهم دون عناء أو ملل. اطمأنت مصلحة المعارف ورأت النجاح الباهر الذي حققه معهد «بخت الرضا» في مجال التعليم الأولي إتجه التفكير إلى إصلاح المرحلة الوسطى، وصدر القرار بتكليفه بالقيام بهذه المهمة عام 1939.

أما الشهرة الواسعة والمكانة الرفيعة التي احتلتها «بخت الرضا» إنَّما تهيأت بفضل مشاريع رائدة للنهوض الشامل بالبيئة. وكانت الأفكار الخاصة بها تنبع من داخل

من عضوية المؤتمر وانقطعت صلته به وظلُ ينتخب عضواً في لجنته التنفيذية في كلّ دوراته إلّا في الدورة الثامنة حيث اقتصرت عضويته على الهيئة الستينية. وتولى رئاسة مؤتمر الخريجين في دورتين وذلك بعد إلغاء الرئاسة الشهرية وأصبحت الدورة كاملة. وفي أولاهما قدّم مذكرة المؤتمر الخاصة بمطالب البلاد في أبريل 1942. وعندما احتدمت الخلافات في أروقة المؤتمر بين معسكر الإتحاديين والإستقلاليين وفجر فيها البعض كان صوته الهادئ العميق يجلجل محذراً من عواقب الأمور ومؤكداً صعوبة تطبيق الديمقراطية في بلد متخلف كالسودان. ودعا المتعلمين للتخلي عن العجلة وتبادل الاتهامات بالخيانة الوطنية واكتساب القدرة على التفريق بين ما هو ذاتي وموضوعي. كما دعاهم للالتفات إلى شعبهم والعمل على تعليمه وتثقيفه وتأهيله ليحسن التصرف في ظلّ الديمقراطية. كان يتحدث كرجل دولة مسؤول مُسلّطاً الضوء على المشاكل التي لا تزال تعاني منها بلادنا.

كان الأستاذ إبراهيم أحمد واحداً من المؤسسين لحزب الأمة. بل أنّه كان أحد خمسة من أعمدته جلسوا يبحثون له الاسم المناسب حَتّى إستقر بهم الرأي لإختياره وكان إنضمامه لحزب الأمة متسقاً مع نشاطه ومشاركته في العمل العام بالإضافة إلى صداقاته التي لا ريب أنّها قد ألقت بظلالها على قناعاته. ولَمْ يكن الرجل بالذي يسعى للأضواء التي لا تناسب طبعه الهادئ الرزين النافر من الخطابة الرنانة والإثارة العاطفية والمترفع عن المشاحنات والسباب. قبل أنْ يكمل حزب الأمة عامه الثالث إستقال إبراهيم أحمد منه للتفرغ للتعليم وإنْ ظلّ ولاؤه قائماً للحزب ولخطه السّياسي.

تعود علاقة السيد إبراهيم أحمد بآل المهدي إلى أيام شبابه الباكر حيث كُلف بالإشراف على صيانة منزل السيد عبد الرحمن المهدي بالخرطوم (دار الوثائق حالياً) الذي اشتراه في سنوات العشرين من أحد الأجانب. وإستطاع المهندس

مرموقة بقرية عمارة الجعليين قرب الحصاحيصا، وتلقى تعليمه الأولي بمدرستي رفاعة والمسلمية والأوسط والثانوي بكلية غردون التذكارية. ولما جري إختيار بعض الطلاب للدراسة في جامعة بيروت الأمريكية تَمُ استثناؤه لأنّه - حسبما ورد في ملف خدمته- لا يحتاج لمثل تلك الدراسة لعلمه الغزير وإمكانياته الواسعة.

وكان قد تخرَّج في قسم المعلمين في عام 1922 وعمل بالمدارس الوسطى. وشهدت تلك الفترة نشاطه الباكر في المسرح والمحاضرات بنادي الخريجين بأمدرمان مع رصفائه حسين شريف وعبدالمجيد عبدالحميد وعبدالله خليل وصديق فريد وعرفات محمد عبدالله وعوض ساتي وعلي نور وأبوبكر عثمان.

كان آخر منصب تقلده هو وزيرالحكومة المحلية حَتَّى نوفمبر 1958 حيث عاد إلى قريته عمارة الجعليين (التي أعاد إليها اسم أربجي التاريخي) والتي عمل على إصلاحها بالتخطيط وتوفير مياه الشرب والكهرباء والخدمات الصحية والتعليمية حَتَّى أصبحت قرية نموذجية.

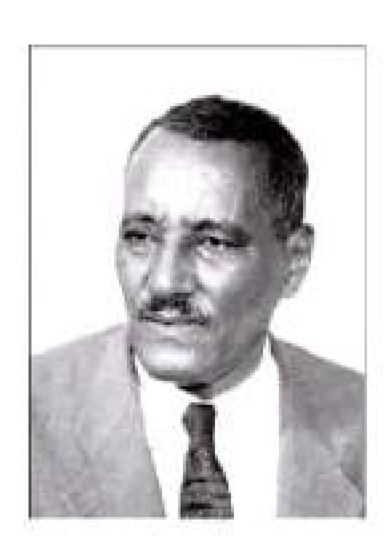
سارعت جامعة الخرطوم إلى تكريمه بمنحه درجة الدكتوراه الفخرية في القانون اعترافاً بفضله وبذله وريادته كما كرمته أربجي وأقامت له مهرجانا ضخماً وأطلقت اسمه على المدرسة الثانوية العامَّة للبنين بالقرية.

إنتقل الأستاذ عبدالرحمن إلى رحمة مولاه في نوفمبر 1969 بمستشفى الحصاحيصا إثر نوبة قلبية وشيع جثمانه الآلاف في موكب مهيب ورثاه عدد من الشعراء في مقدمتهم عبدالله محمد عمر البنا وعلي نور وعمران العاقب وتادرس يعقوب الفرشوطي.

27 مارس 2001م

عفة اليد واللسان

إبراهيم أحمد



عندما تَمَّ إختياره كأول رئيس سوداني لبلدية الخرطوم في عام 1946م كان إبراهيم أحمد أحد أبرز رجالات الخدمة المدنية والعمل العام ويقف على أعلى قمة صرح تعليمي في البلاد.. ولكنه حصل على قطعة أرض بالمدينة شأنه شأن الآخرين.. ولما لَمْ يستطع تشييد بناء عليها ردّها بعد عام من حيازتها إلتزاماً بالقانون.. قِلّة كانوا يفعلون ذلك وقتذاك.. دع عنك ما يحدث في هذه الأيام الغبراء.. وبعد التوصل إلى إتفاقية عام 1953 ووقع الإختيار عليه ليكون عضواً ممثلاً للإستقلاليين في لجنة الحاكم العام كان يتعين عليه أنْ يطلب التقاعد على الرغم من أنّه لَمْ يبلغ السن القانونية للمعاش فقد بقي له ما لا يقل عن العام ليستحق معاشاً كاملاً فرفض المعاملة الخاصة في هذه الحالة وطالب بتسوية تتناسب مع ما قضاه من سنوات في الخدمة. بل أنّه لَمْ يمانع إذا عومل وفقاً للمادة (32/ب) من قانون المعاشات. وما كان بالذي يحال عليها.. كان كما

وصفه عارفوه لا يشغله عن عمله لهو ولا هوى ولا أبعده عنه استهتار أو غرض ولا دفعه للتقصير فيه خمول أو مرض بل روي عنه أنّه لَمْ ينم في حياته قط في قيلولة أو ظهر. وبعد فوز الحزب الوطني الإتحادي في أول إنتخابات عامّة اختار الحزب السيد سيرسيو أيرو بدلاً منه في لجنة الحاكم العام فأنشأ إبراهيم أحمد مكتباً للاستشارات الهندسية وعرضت عليه كثير من الشركات الأجنبية أنْ يكون وكيلها بالسودان ولكنه آثر الرفض لأن كبار موظفي الدولة من طلابه الذين لا يتوقع أنْ يرفضوا له طلباً.. وقد لا يتفق الطلب مع مصلحة السودان.

وفي أول حكومة قومية تَمّ تشكيلها بعد الإستقلال تَمّ إختياره وزيراً للمالية واستمر في هذا المنصب حَتّى وقوع انقلاب نوفمبر 1958 حيث آثر الابتعاد عن الساحة السّياسية وقام بتأسيس أول بنك سوداني هو البنك التجاري - وأضحى مديراً له بعد إنتخابه من جانب المؤسسين- الذين لَمْ يمتلك أسهماً مثلهم وهو صاحب الفكرة.. وظلّ كذلك حَتّى تأميمه في عام 1970. وفي صباح اليوم التالي لإعلان التأميم جاء إلى مكتبه بالبنك ليلملم أوراقه الخاصة ويودع موظفيه.. ولما عرض عليه سائق سيارة البنك أنْ يأخذه إلى منزله رفض ذلك بإعتبار أنَّ السيارة أصبحت منذ ذلك اليوم ملكاً للدولة ولا يحق له استخدامها وعاد إلى داره في سيارة الأجرة.

كان إبراهيم أحمد من الأعضاء الأوائل في نادي الخريجين بأم درمان وحين انقسم الخريجون إلى فريقين متصارعين.. مجموعة الشيخ أحمد الفيل ومجموعة محمد على شوقي وإستقالت جماعة الفيل من النادي كان إبراهيم أحمد عضواً في تلك اللجنة التي سيطرت عليها جماعة شوقي.. وحين نشأ مؤتمر الخريجين العام في عام 1938 كان إبراهيم أحمد من المؤسسين وإنتخب في هيئته الستينية ولجنته التنفيذية. وظلّ ينتخب عضواً بالهيئة الستينية للمؤتمر ولجنته التنفيذية في كلّ دوراته حَتّى الدورة الثامنة لعام 1945 حيث إستقال مع آخرين

وهكذا يستمر الإمتحان.

لَمْ تستمر الدراسة في مدرسة رفاعة غير عام واحد استغرق حوالي عشرة أشهر، وأكملت حوالي شهرين في عامها الثاني، وقد صدر أمر إغلاقها عقب وفاة الخديوي عباس مباشرة، وتولي سعيد باشا بأسبوع واحد، وأمضى رفاعة الطهطاوي أربع سنوات بالخرطوم وقفل بعدها عائداً إلى مصر، بعد أنْ شكا مُرِ الشكوى من تلك التجربة التي إعتبرها منفى وكيداً سياسياً ومحاولة للتخلص منه بإعتباره واحداً من رجال العلم البارزين الذين لَمْ يطق عباس بقاءهم في القاهرة. واعتبر بعض المؤرخين أنَّ الأمر يعود إلى موقف رفاعة من ولاية العهد بأحقية سعيد على غير ما كان يخطط عباس لتولية إبنه.

عند زيارة الرحالة الإنجليزي هاملتن للمدرسة أدهشه القدر الذي استوعبه التلاميذ من المعارف في عام واحد، ولاحظ «أنَّ السنوات الطويلة التي تضيع في التعليم في الشرق حَتَّى يصبح المتعلمون شيئاً مذكوراً تختصر هنا في الخرطوم إلى حد كبير، وإنَّ السرعة الملحوظة عند الأولاد في الحفظ والإستيعاب قد تمت الاستفادة منها إلى أكبر درجة ممكنة».

وأشار رفاعة إلى أنَّ بعض تلاميذ المدرسة تَمَّ توظيفهم في المدارس التي انشأها الخديوي إسماعيل بالسودان في السنوات اللاحقة، وكان من بين تلاميذ المدرسة بساطي بك الذي عمل سكرتيرا لغردون أثناء حكمداريته الأولى التي إستغرقت ثلاث سنوات، ووصفه غردون بقوله «إنَّه تعلَّم في مدرسة الخرطوم على يد علامة مشهور، ووصل إلى درجة من العلم تجعله يقف على قدم المساواة مع خريجي أرقى معاهد أوروبا، فقلما يوجد موضوع لا يمكنه التحدث فيه بطلاقة، وهو يعرف حكومة البلاد وضرائبها وتاريخها، كما يمكنه الكتابة بعدة رموز دون النظر إلى مفاتيحها».

الشاب أنْ ينجز مهمته على أفضل وجه بل ويضيف من إبداعاته تلك الأعمدة الضخمة ذات الطراز الشرقي.. وهي أعمدة ديكورية لا تسند البناء في الواقع وإنَّما تحيط القصر بالهيبة والجلال.. وقد كان بين إبراهيم أحمد ومحمد الخليفة شريف - ابن عم السيد عبد الرحمن وصهره - صداقة ومودة منذ أنْ تزاملا في الدراسة وفي العمل بالكلية. ويبدو أنَّه هو الذي قدَّمه للسيد عبد الرحمن ولغيره من أقطاب بيت المهدي. ثُمَّ لَمْ يلبث أنْ تولى المهندس إبراهيم أحمد مهمة مسح مشاريع القطن الخاصة بدائرة المهدي الزراعية في الجزيرة أبا وغيرها من مناطق النيل الأبيض ولَمْ يكن يتقاضى أجراً نظير أعماله تلك بسبب تلك العلاقة. كما أنَّ صلته الشخصية بمحمد على شوقي ومحمد صالح الشنقيطي - والأخير توطدت علاقته به بسبب زواجه من أخته - ساعدت في تعميق صلته بالسيد عبد الرحمن حَتَّى بات من أقرب مستشاريه إليه. والمعروف أنَّ إبراهيم أحمد لَمْ يكن طائفياً ولم يعرف بولاء لإحدى الطائفتين - الختمية والأنصار - وأنَّه نشأ وسط أهله النوبيين المعروفين بولائهم للطريقة الختمية.. وقد عرف عن خؤولته وأصهاره أنَّهم من كبار الأسر الختمية بمنطقة النوبة.

وُلِد إبراهيم أحمد في حلفا دغيم في عام 1899 وبدأ رحلته مع العلم في خلوتها ثُمَّ إنتقل إلى المدرسة الأولية ثُمَّ الوسطى.. وقد حرص والده خلال تلك السنوات أنْ يبعث به إلى صديقه المرحوم محمد أحمد الفضل - أول ناظر لمدرسة أمدرمان الأولية والتي افتتحت عام 1899 - وهو أيضاً جد الشاعر الراحل صلاح أحمد إبراهيم لأمه - وذلك لتطوير قدراته اللغوية وتمكينه من اللغة العربية. وكان متفوقاً في جميع سني دراسته حَتَّى قبل بكلية غردون التذكارية في عام 1916 واختير في قسم الهندسة لبروزه في مادة الرياضيات. واتسمت أعوام دراسته في الكلية بالتفوق والامتياز حَتَّى اختارته معلماً بها فور تخرجه. وقد برز أيضاً في النشاط الرياضي ومارس ضروباً من الرياضة كالتنس،

وكرة القدم حيث كان حارساً للمرمى بفريق الكلية، كما شارك في التدريب العسكري « الكديت».

رغم إحتكار البريطانيين للوظائف العليا إلّا أنَّ إبراهيم أحمد بمثابرته وحسن أدائه ترقى فأصبح مراقباً لشؤون الطلاب بالكلية ثُمَّ نائباً لمديرها. وفي الأوقات اللاحقة أصبح أول رئيس لمجلس الجامعة التي عاصرها في أطوارها المختلفة.. كما أنَّ إتقانه لعمله كمهندس وكمعلم أكسبه كثيراً من الاحترام والتقدير بين زملائه الأساتذة - سودانيين وبريطانيين - وطلابه والكثير من المهندسين. كما أدى ذلك إلى تحسن وضعه الوظيفي وبصورة منتظمة حَتَّى غدا من كبار أساتذة قسم الهندسة بالكلية، وترافق ذلك مع تعاظم سمعته بين المهندسين مما أتاح له فرص إنجاز كثير من الأعمال الهندسية المهمة في شبابه الباكر.

وقد تَمَّ تعيينه عضواً بمجلس مديرية الخرطوم قبيل قيام المجالس المنفصلة لكلّ من المدن الثلاث، كما إنتخب كأول رئيس سوداني في أوائل عام 1946، وذلك في إبان الصراع الحزبي والخصومة السّياسية. وأعيد إنتخابه لنفس المنصب أكثر من مرّة حيث تَمَّ إنجاز الكثير في عهده وتم التخطيط لما هو أكثر وأعظم. ورغم انتمائه الحزبي فإنَّ السيد إبراهيم أحمد التزم بمعايير تتسم بالحياد والبعد عن التحزب خلال عمله بالمجلس البلدي.

إشترك إبراهيم أحمد في عضوية كثير من اللجان الحكومية.. فكان العضو السوداني الوحيد في لجنة التعليم الفني في عام 1943 وعمل في لجنة السودنة في الفترة ما بين 1944 و 1949 ولجنة تطوير القسم التجاري بالمعهد الفني في عام 1960. كما ترأس لجنة الشؤون الإجتماعية بالجمعية التشريعية واختارته لجنة المتاحف والآثار عضواً في فبراير 1942. وظلّ عضواً بمجلس أُمناء مدارس الأحفاد لأعوام طويلة.. وبعد إستقالته من النشاط السّياسي بحزب الأمة وعقب

قيام الجمعية التشريعية تَمَّ إختياره عضواً بمجلسها التنفيذي بلا أعباء مصلحية. والمعروف أنَّ كلٍّ عضو من أعضاء ذلك المجلس سوادنيين وبريطانيين تولى مسؤولية وزير أو وكيل وزارة.

رحم الله الأديب الأستاذ عثمان حسن أحمد الذي ظلّت الثقافة السودانية والتوثيق والترجمة لأعلام البلاد هاجساً له وهماً مقيماً. ما أدخر وسعاً في سبيل ذلك.. وحقق الكثير رغم حياته القصيرة. ومن بين ذلك كتابه القيم (إبراهيم أحمد.. حياة إنسان) كتبه رغم أنّه محسوب على معسكر الإتحاديين تاريخاً ووجداناً.. بذل فيه جهداً وجمع وثائق مهمة تتصل بحياة الرجل الثرية وتحدث إلى الكثيرين من معاصريه ومحبيه وعارفي فضله.. وكان الأمل فيه عظيماً أنْ يواصل عطاءه في هذا المجال لولا أنْ تخطفه الردى وهو في قمة نضجه وحيويته.

9 اكتوبر 2001



الطهطاوي في السودان



رفاعة الطهطاوي

كان الشيخ محمود القباني تلميذاً بمدرسة الخرطوم التي أنشأها وأصبح ناظراً لها رفاعة رافع الطهطاوي في منتصف القرن التاسع عشر فوصف يوم الامتحان الذي حضره الحكمدار وجمع من الموظفين. صدحت الموسيقى وتم تقديم الشربات والقهوة والسجاير، ثُمّ تقدَّم تلميذان فأنشدا قصيدة بصوت شجي، ثُمّ أثنى الحكمدار على النظام وفتش صفوف التلاميذ وانصرف. وتشكَّلت لجان لامتحان اللغتين العربية والفرنسية والحساب. وظلَّ الممتحنون بالمدرسة لا يغادرونها لمنازلهم للغداء الذي يتناولونه بالمدرسة خرافاً ودجاجاً وحلويات طيلة أيام الامتحان. وقال القباني إنَّ الامتحان كان شفهياً والحساب على التختة، والخط يقدَّم في كراسته التي تسمى «غرلمة». وكنت أنا قد إجتزت الامتحان بتفوق في الفرنسية والعربية والحساب، ولكن خطي لضعف في يدي لَمْ يكن جيداً فأرادوا أنْ يسقطوني في الامتحان. وكان الفائز إذا خرج تعزف له الموسيقى،

الرحيل المباغت

إبراهيم أحمد عبدالكريم



فجأة تواترت أنباء مقلقة عن مرضه وخطورته وتدهور حالته.. ولَمْ تمض أيام حَتَّى غيبه الردى وهو في عنفوان حياته وذروة عطائها. وعندما خرجت العاصمة في موكبها المهيب الأسبوع الماضي لتشيع جثمانه إلى مقابر فاروق بالخرطوم كانت ملتاعة ومباغتة. فهذا الوجه الأليف الذي ظلَّ يطل عليها مرَّة في الأسبوع من شاشة التلفزيون، من دون سائر الوجوه، كان يثير إهتمامها وأشواقها المؤودة لأيامها الخاليات.. كان يطل عليها بصوته المديد وكأنما يواسيها مشجعاً، ها أنت لك ماض عظيم وتاريخ مجيد، وهؤلاء المبدعون أبناؤك وأنت سيدة ولود. رأى هؤلاء المشيعون فيه مثقفيهم الغائبين ومبدعيهم الراحلين وفنانيهم الضائعين والصورة البهية للشخصية السودانية الممتلئة بالزهو والتواضع. رأوا فيه تعويضاً جزئياً عن جهامة الواقع ومرارة العيش وقتامة الليالي وشيخوخة الروح وانطفاء الأمل. كان يحاول أنْ يستمد قبساً من الخليل وكرومة وسرور ويوقد شمعة في عتمة النفق الطويل ليضيء مسارب النفوس اليائسة ويفتح نافذة إلى الماضي السعيد.

وبساطي بك هذا أضحى باشكاتب الخرطوم.. وهو سوداني من قبيلة المحس.. وقد صحب الجنرال هكس في حملته العسكرية كأحد الأعيان ولقي مصرعه في معركة شيكان الأسطورية المعروفة.

عاش رفاعة في الخرطوم حزيناً متبرماً بأحوال المدينة التي لا ترقى لأيام باريس التي أمضى فيها خمسة أعوام هي عمر بعثته التي اتسمت بنشاطه ومثابرته وكدحه في القراءة والترجمة والتأليف حَتّى أضحى أحد أبرز رموز المثقفين في الشرق. وأين هو من أيام مدرسة الألسن التي كان مديراً لها حيث وصفه أحد مؤرخي سيرته بأنه «كان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء أو عند الثلث الأخير ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات واقفاً على قدميه يدرس اللغة أو فنون الإدارة والشرائع الإسلامية والقوانين الأجنبية، وكذلك كان دأبه معهم في تدريس كتب فنون الآداب العالمية، ومع ذلك كان هو بشخصه لا يفتر عن الإشتغال بالترجمة أو التأليف، وكانت مجامع الامتحانات لا تزهو إلّا به»، وقال عنه تلميذه صالح مجدي «كان مجلسه رضوان الله عليه مجلس مسرات وأفراح، وطالما حضرته وسمعت فيه من لطيف المزاح ما يشهد له برقة المزاج بأن سحره الحلال يقوم للعليل مقام العلاج».

وعلى الرغم من شكوى رفاعة وتبرمه من الخرطوم التي إعتبرها منفى له إلّا أنّه كان نجماً من نجوم تلك العاصمة وكان يشارك في المناسبات المهمة. وقد حدث أنْ أقام حفلاً أمام منزله بمناسبة خطوبة ابنة سلطان تركيا إلى ابن والي مصر ودعا إليها أعيان الخرطوم من السودانيين والأجانب وفي مقدمتهم رئيس مجلس الدعاوى ومدير الخرطوم.

كما كان لرفاعة صالونه الذي كان يجتمع فيه المثقفون من شخصيات الخرطوم والعاملين في التجارة والرحالة الأجانب وممثلي القنصليات، وكان يلبي دعوات كبار رجال العاصمة ويشارك فيما يقام من إحتفالات. وقد حدث أنْ حضر مأدبة

عشاء دعته إليها الأميرة نصرة بنت عدلان كريمة آخر ملوك الفونج عام 1852 إحتفاء بمقدم الرحالة الأمريكي بايارد تيلور إلى الخرطوم. وقد أقام رفاعة صلات وثيقة وصداقات مع الأجانب المقيمين بالخرطوم والعابرين، من بينهم الدكتور بيني الفرنسي، كبير أطباء الحكومة والدكتور ريتز نائب القنصل النمساوي وخلفه هجلن والدكتور نوبلخر رئيس البعثة الكاثوليكية بالخرطوم، والرحالة جورج مللي وأندريه مللي وهاملتن ـ وهؤلاء إنجليز ـ وبايارد تيلور الأمريكي وشارل دديه الفرنسي ـ وجميعهم ذكروا رفاعة في مؤلفاتهم الخاصة برحلاتهم في السودان وأدركوا إمكانياته العلمية والثقافية. وقد تحدث شارل دديه عن سعة إطلاع رفاعة وموسوعيته وتمكنه من اللغة الفرنسية ومكانته عند العارفين بها.

كان رفاعة قد تخرَّج من الأزهر وعمل فيه مدرساً لمدَّة عامين قبل ترشيحه واعظاً وإماماً لإحدى فرق الجيش الجديد الذي أنشأه محمد علي، ولما تَمّ إيفاد أول بعثة كبيرة إلى فرنسا تَمَّ إختياره إماماً لها.. وهكذا تغير مجرى حياته حين اعتبر مبعوثاً شأن الطلاب الآخرين فأظهر تفوقاً بمثابرته وشغفه بالقراءة، وإستطاع أنْ يقرأ في كلِّ العلوم وإنْ كان أكثر ميلاً للجغرافيا والتاريخ.. فكانت ثقافته موسوعية. فقرأ الفلسفة والآداب الفرنسية، ومؤلفات فولتير ومونتسكيو وجان جاك روسو وراسين. وشملت قراءته علم المعادن والفنون العسكرية والرياضيات وغير ذلك، كما ترجم وهو في باريس اثنتي عشرة رسالة، معظمها رسائل صغيرة أو فصول من كتب كبيرة في شتى العلوم والفنون والتاريخ والجغرافيا والسِّياسة والأخلاق والفنون العسكرية والهندسية وعلمي المعادن والصحة.

عاد رفاعة من باريس يحمل إجازة الترجمة وفي يده الأخرى مؤلفه الشهير «تخليص الإبريز في تلخيص باريز أو الديوان النفيس بإيوان باريس» الذي وصف فيه باريس وأحوال الفرنسيين وعاداتهم ومظاهر الحضارة الغربية، والذي يعتبر أحد أهم كتب الاستنارة الداعية إلى الحداثة.

وكانت الرغبة في التأليف لدى رفاعة قد ظهرت في وقت باكر منذ أيام الطلب في الأزهر، فقد نظم في ذلك الوقت أرجوزة في علم الكلام، وأخذ عن أستاذة الشيخ حسن العطار ميله إلى العلوم العصرية. إلّا أنّ إهتمامه الأساسي كان متجهاً إلى التاريخ والجغرافيا، إلى الدرجة التي ختم مؤلفه الخاص برحلته بقوله «وإنْ شاء الله تعالى يصير التاريخ على اختلافه منقولاً من الفرنساوية إلى لغتنا.. فقد تكلفنا بترجمة علمي التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئة الله». وقد إستطاع بالفعل أنْ يترجم عدداً كبيراً من كتب التاريخ من الفرنسية إلى العربية.

وكان لرفاعة مجهودات مقدّرة في مجال التربية والتعليم بشخصيته الأزهرية التي صقلتها الثقافة الغربية الحديثة، كما كان أثره واضحاً في إصلاح تعليم اللغة العربية وإختيار أساتذتها وإعداد المناهج للتلاميذ. فقد وضع كتاب التحفة المكتبية في القواعد والأحكام والأصول النحوية بطريقة مرضية، وغير ذلك من كتب المقرّرات.

وإلى جانب تلك القدرات المتعدّدة برز رفاعة في مجال الصحافة الذي كان أول من ارتاده حيث أوكل إليه إصدار جريدة «الوقائع المصرية»، بعد أنْ صدر قرار بذلك من مجلس الشورى في يناير 1842، وعمل رفاعة منذ البداية على إنشاء الصحيفة على غرار الصحف الفرنسية فاختار لها محررين ومترجمين ومصححين ممتازين منهم نخبة من تلاميذه خريجي مدرسة الألسن ومن أبرزهم أحمد فارس الشدياق والسيد شهاب الدين.

كتاب «رفاعة الطهطاوي في السودان» ألفه الدكتور أحمد أحمد سيد أحمد وصدرت طبعته الأولى في عام 1973، وقد بذل المؤلف جهداً مقدراً في جمع المعلومات من مصادر متعدّدة. وقد سبق أنْ قرأت لهذا المؤلف كتاباً بعنوان «تاريخ مدينة الخرطوم.. تحت الحكم المصري 1820 ـ 1885» أهداني إياه أحد

أصدقائي المهتمين بثقافة وتاريخ السودان، ولَمْ استطع العثور على أيّ أثر لهذا المؤرخ الكدود. وقد ذكر ناشروه أنْ هذا الكتاب «تاريخ مدينة الخرطوم» هو في الأصل رسالة حصل بها صاحبها على درجة الدكتوراه من كلية الآداب قسم التاريخ، تحت إشراف أستاذين جليلين هما الدكتور محمد فؤاد شكري والدكتور محمد أنيس في عام 1963. وإنّما الذي عرفني على الرسالة أنني اشتريتها من سور الأزبكية من نحو عشرين عاماً، ونظراً لأهميتها رأيت نشرها في سلسلة «تاريخ المصريين» تكريماً لصاحبها الذي لا أعرفه ولا أعرف إنْ كان حياً يرزق أو صعدت روحه إلى بارئها؟».

19 فبراير 2002

الأعمال الحرة والتجارية والزراعية إلّا أنّه واصل الكتابة ومراسلة الصحف.. حَتّى قرّر السفر للإقامة بالخرطوم ليجد موضعاً ينطلق منه لتحقيق طموحه الذاتي. وهناك التقى بصديقه الفاتح النور الذي عرض عليه المشاركة في إصدار صحيفة إقليمية بمدينة الأبيض. ولما سافر إلى مصر للإستعداد لخوض هذه التجربة بالتدريب في دار «أخبار اليوم» حيث وافق الأستاذ مصطفى أمين قال إنّه التقى في مساء ذلك اليوم بمجموعة من الشيوعيين السودانيين الموجودين بمصر. وذكر أنّ من بينهم عبده دهب، وعبدالماجد أبو حسبو، ومحمد عثمان جودة، وصالح عرابي، وبعض الطلاب السودانيين الذين يدرسون بالجامعات المصرية. كان ذلك في مايو 1945. وقال إنّه توجّه إلى مكتبة «الميدان» التي يمتلكها هنري كورييل واقتنى مجموعة من الكتب الماركسية التي طبعت في موسكو ولندن واشترك في مجلة الأوقات الجديدة «الأزمنة الحديثة» التي كانت تصدر في موسكو باسم «الحزب والطبقة العاملة». وجاء في مذكراته أنّ عبده دهب هاجم أصحاب دار «أخبار اليوم» والمحرّرين العاملين فيها وقال له «إنّ هؤلاء سيعلمونك الديماجوجية والنفاق». فصرف النظر عن دار «أخبار اليوم» وزار مجلة «أم درمان» التي كان تصدرها مجموعة الشيوعيين بالقاهرة. وكان رئيس تحريرها المرحوم محمد أمين حسين المحامي. ويشارك في تحريرها الأديب الهادي العمرابي. وقال إنّ أبو حسبو شرح له البيان الشيوعي، إلّا أنّه لَمْ يقتنع بالموضوع.

ويمضي عبدالله رجب في مذكراته شارحاً أسباب مشاركة الأقلام اليسارية في صحيفته «الصراحة» التي أصدرها عام 1950 بأن الأمر لَمْ يتعد الصداقة وبعض الأهداف المشتركة التي تتلخّص في الخلاص من الاستعمار ومحاربة الطائفية. وأشار إلى أسماء هؤلاء الكتاب ومنهم عبدالرحمن عبدالرحيم الوسيلة وعبدالخالق محجوب، والتجاني الطيب، وقاسم أمين، وحسن الطاهر زروق، ثُمّ

لَمْ يكن إبراهيم أحمد عبدالكريم مجرد مقدِّم لبرنامج ومديراً عاماً سابقاً للشرطة، ولكنه كان موسوعة فنية وكنزاً للتراث.. يبتدر برنامجه بسمت هادئ وقور خال من التنطع والتعمل والإدعاء والمحاولات الجوفاء لتضخيم الذات.. يثري الحديث ويشقق الكلام وينفذ إلى أعماق مشاركيه وضيوف حلقته ويخرج بأفضل ما لديهم. ويصغى بكلّ مودة وانتباه لكلّ ما هو مدهش وجديد.. يقارن ويوازن ويطرح أفكاراً نقدية في منتهى الجدة والطرافة.

تميَّز إبراهيم بالتفوق والذكاء النادر وهو ضابط بالشرطة ولفت توقد ذهنه الأنظار خلال دوراته التدريبية في أوروبا.. وأخذ يترقى في مجاله حَتَّى نال رتبة الفريق وغدا مديراً للشرطة.. وكان محباً للأدب وحافظاً للشعر.. يحيط نفسه دائماً بالأدباء والفنانين. وكان ناقداً فنياً وأديباً لوذعياً حصيفاً تسعفه دائماً ذاكرة متقدة وبديهة حاضرة وواعية حافظة. وكان إهتمامه بالفن جزءاً من تكوينه الشخصي حيث كانت والدته المغفور لها الحاجة حليمة بنت الخفاجي امرأة جليلة الشأن برزة لسنة، عارفة بالتاريخ والأدب الشعبي.

بدأ إبراهيم نشاطه الثقافي بالمشاركة في برنامج التلفزيون حيث عرفه الناس وظلوا يتابعون برنامج «فرسان في الميدان» الذي كان يعده ويقدِّمه مع الشاعر الحسين الحسن والإعلامي حمدي بدر الدين. ثُمَّ لَمْ يلبث في السنوات الأخيرة أنْ أخذ يقدم برنامج «نسايم الليل» الذي إستضاف فيه عددا من المبدعين القدامى والجدد وشخصيات إجتماعية وأدبية وفنية. ولا ريب أنَّه إستطاع أنْ يراكم تراثاً من المعلومات والأغاني وأنْ يوثق لتاريخ الفن الأصيل.

إلتقينا للمرَّة الأخيرة في منزل صديق العمر الطبيب الأديب الدكتور نور الدين إبراهيم شلقامي بأم درمان في اغسطس عام 2000، وكنت في عطلتي السنوية، وذلك خلال حفل العشاء الذي ظلّ يقيمه الدكتور نور في كلّ عام احتفاء بنا. كانت الأمسية خريفية عليلة النسمات والدار الرحيبة تموج بعدد من الضيوف،

أدباء وصحافيين ومثقفين وصفوة من متعلمي مدينة كوستي. وصل إبراهيم متأخراً فألفى الدار غارقة في صمت جليل تصغي لشدو الفنان التاج مصطفى بصوته الهامس لأغانيه المترعة بالحنين. ثُمّ غنى صديقنا الفنان الأستاذ عباس تلودي بحنجرته النحاسية التي تضيف ألقاً وبعداً جديداً للأغاني النادرة العزيزة التي يتخيرها بحسه الفني الرفيع. كانت تلك الأمسية مشحونة بكثير من العواطف والشجن حيث تبادلنا الذكريات مع أصدقاء الطفولة والصبا الذين جاء بعضهم بكاميراتهم والتقطوا كثيراً من الصور وانفض السامر بعد تناول طعام العشاء، وقبل أنْ ننصرف اتفقت مع دكتور نور والأستاذ إبراهيم على أنْ نلتقي في دارنا في ميعاد حددناه. ولكن حالت دون ذلك ظروف طارئة.

لقد شقّ نعي إبراهيم على الكثيرين ممن عرفوه ولمسوا في شخصه لين العريكة ودماثة الخلق والبساطة وحب الآخرين.. نسأل الله له الرحمة وتعازينا الحارة لأسرته المكلومة في الخرطوم وكوستي.

7 مايو 2002

العصامية والمثابرة

عبدالله رجب



كنت أراه في سنواته الأخيرة يمشي في شوارع الخرطوم يظلع قليلاً وهو يحمل حقيبته الجلدية المكتنزة بما فيها من أوراق ومجلات وصحف وعصاه التي لا تفارقه. وأحياناً كُنّا نراه جالساً في «البيون» أو «الإستقلال» أو «أتينيه».. دائماً تجده منكباً على القراءة أو الكتابة، يترجم في أغلب الأحوال. وفي أمسيات لاحقة صرت ألقاه في «مكتبة أفريقيا» في أم درمان لصاحبها الزعيم الموسوعي يونس محمد الحسن الدسوقي.. أجدهما منهمكين في لعب النرد.. يتبادلان الدعابات والعبارات الساخرة. وأحياناً أجد مجلسهما عامراً يضم بعضاً من مثقفينا المخضرمين أمثال حسن أبو جبل، وعبدالله محمد فرح، وأحمد شامي وغيرهم.. يتحلقون أمام المكتبة بينما يتلوى صف طويل من روّاد السينما المجاورة زاحفين نحو شباك التذاكر.. ويونس يغتاظ ويتبرم من السلوك الفج الذي يبديه البعض منهم.

تغص بلادنا بنماذج من الشخصيات المتميِّزة التي تركت أثراً واضحاً في الحياة السودانية، فبلادنا لا شكَّ منجبة - وبرز من بينهم من واجه الحياة بلا عدة ولا تأهيل.. أيام كان التعليم هو جواز المرور للوضع الإجتماعي المتميِّز والحظوة. كانت فرصه جد قليلة لا تمكن إلا صفوة من الناس من الحصول عليها. والأستاذ عبدالله رجب كان واحداً من هؤلاء الذين صنعوا ذواتهم وشقوا طريقاً ممعناً في وعورته. فهو لَمْ يستطع أنْ يتجاوز المرحلة الأولية في تعليمه - رغم نجاحه وتفوقه - فاضطر لأن يتخذ سبيلاً آخر لإعالة أسرته التي فقدت عائلها. ولعل أفضل ما حققه بعد النجاح المهني الباهر الذي أحرزه، حيث ارتفع بذاته من طفولة معذبة ومرهقة بالعمل إلى أحد أبرز الصحافيين والكتاب والمترجمين في السودان وهو أنه خلف ثروة أدبية زاخرة من أدب السيرة الذاتية. فقد ظلَّ يكتب «مذكرات أغبش» منذ البدايات الأولى لسنوات الخمسين في جريدة «الصراحة» وحَتَّى مطلع سنوات الثمانين في جريدة «الصحافة».. كتب بصراحة وعفوية وصدق وإستطاع بشفافية نادرة أنْ يؤرخ لمنطقة النيل الأزرق وسنجة وحركة التجارة والثقافة فيها. بثَّ حرارة وحيوية في كلِّ الشخصيات التي كتب عنها.. وشحن مواقفها بدلالات موحية أشبه بما يبدعه الروائيون المقتدرون. وتناول في مذكرات أغبش قراءته المبكرة وتنمية مهاراته في الإطلاع وتجربته في العمل التجاري وافتتاحه لمكتبة بمدينة سنجة.. وكيف إستطاع أنْ يزوِّدها بالكتب والمطبوعات التي تصل من القاهرة فيتلقفها الموظفون ومثقفو المدينة. ولَمْ تلبث هذه المكتبة أنْ باتت منتدى لتجمُّع هؤلاء المهتمين وحلقة للنقاش وتبادل المعارف على غرار ما كان يحدث في مدينة أم درمان.

كان عبدالله رجب يراسل الصحف المحلية والعربية.. وكان جريئاً مقداماً لا يتردَّد في فضح ممارسات الإدارة البريطانية واستبداد المفتشين والحكام الإنجليز وكثيراً ما كان يتعرَّض للمضايقات والاستجوابات.. ورغم تنقله في

أعظم المواقف وأجلّها في صمت وسكون.

قال عنه الدكتور منصور خالد «بداية صحبتي الأكثر عمقاً براحلنا الكريم كانت في العهد المايوي.. أتلقاه في دار بدر الدين ومنتجع حسن مالك فكان كخطرات النسيم في ذلك المجلس.. هو أقل من عرفت من الناس عبئاً على جلاسه، أو ثقلاً على مقاعديه، استهوتني فيه يومذاك رزانة الطبع ورجاحة العقل وسماحة الخلق فسعيت وبدر الدين لإستدراجه للانخراط في ما كُنّا فيه - غفر الله لنا - تأبى محمود في سماحة جمة وكأنّه يقول «لكم دينكم ولي دين» تأبى الوزارة، وتأبى السفارة، وتأبى البرلمان،حَتّى كزعيم للمعارضة فيه. يومذاك كُنّا نسميه الرقيب، ولا رقيب إلّا رب العباد، ثُمّ ذهبت مايو وجاء عهد جديد.. وظلّ محمود هو الاسم الذي يطابق مسماه.. إلتقينا على إتفاق في جنيف لينبئني بمسعى إخوته الذين توسموا فيه خيراً لتنصيبه وزيراً للعدل وحامياً للقصاص الشعبي.. ذلك اصطلاح آخر ينتمي للمهداوي أكثر مما ينتسب للديموقراطية. قال محمود إنْ كان القصاص هو سيادة حكم القانون فأنا معكم أما إنْ كان هو الانتقام فهذا ليس من شرعي».

وقال الأستاذ محجوب محمد صالح، «ويوم أنْ جاء إلى سلك المحاماة، جاء يحمل تلك الخبرات المتميزة والفريدة من ميدان الصحافة، ومن منصة القضاء ومن إرث الثقافة والوطنية، فكان محمود في خدمة المستضعفين - يفتح لهم قلبه ومكتبه ويتبنى قضاياهم ويذود عن حقوقهم، - وما جعل المادة يوما أساساً لقبول قضية أو الدفاع عن مظلوم، ما جاءني مظلوم يطلب عوناً قانونياً ولا يملك تكلفته إلّا أحلته إليه ثقة في محمود ليتلقى شكواه ويتبنى مظلمته وينبري للدفاع عنه، لا يطلب جزاءً ولا شكوراً. وكانت حقوق الإنسان شغله الشاغل، ولا يقبل الضيم لأحد، ولا يتساهل في إنتهاك يقع على فرد في أيّ مكان وقد حوّل قاعة مكتبه إلى مقر إجتماعات لكلّ الهيئات الدفاعية التي تكونت للدفاع في قضايا الرأي والفكر يحمل الهم كلّه ويقود في تواضع جم ويسوق الحجج في صوت واثق لا يعلو

محمد سعيد معروف ومحمد الحسن أحمد في أوقات لاحقة. وكانت الصحيفة قد إتخذت خطا يسارياً متشدّداً وجد صدى عميقاً في أوساط الناس في تلك الفترة الملتهبة. وقد إستمرت في الصدور منذ أول يناير 1950 وحَتَّى 31 أغسطس 1961 صدر خلالها ألفا عدد وكتب فيها العشرات من الكتاب والصحافيين الشباب حيث رأى العديد من الأقلام النور لأول مرَّة فيها. وتخرج من مدرستها الكثيرون منهم جعفر حامد البشير. ومحمد الحسن أحمد، وعصمت يوسف، ومحجوب عبدالمالك، ومحمد عبدالرحمن شيبون، وصلاح أحمد إبراهيم، وعلي المك. كشف عبدالله رجب في مذكراته عن تجربة تعاونه الإعلامي مع نظام نوفمبر العسكري الذي إستمر حَتَّى عشية ثورة أكتوبر الشعبية حيث سبب له كثيراً من المضايقات وأضعف من تاريخه المشرف. وقال إنَّه بعد الانقلاب اشترط سدنته على الصحف قيوداً كانت نتيجتها توقف الصحف الحزبية الصريحة مثل «الاشقاء» و«الأمة» و«الميدان». وبقيت صحيفتا الطائفتين «النيل» و«صوت السودان» قبل أنْ تتوقفا أخيراً بدواعي القيود العسكرية. وبقيت صحف الأفراد «الرأي العام» و«السودان الجديد» و«الصراحة» و«الأيام» و«الزمان» و«الأخبار» -رحمي سليمان- ـ وبينما أوقفت صحيفة «الأيام» لبعض الوقت. واصل الشركاء العمل بصحيفة «المورننج نيوز» وبأعمالهم التجارية، وهاجر بشير محمد سعيد إلى نيويورك فعمل بسكرتارية الأمم المتحدة. وفي أواخر عام 1961 قابل هناك الفريق إبراهيم عبود ومرافقيه. وكان من بينهم صديقاه الوزيران أحمد خير وزيادة أرباب اللذان توسطا لعودة الأيام في أوائل عام 1962.

وكان مكتب الاستعلامات قد أصدر صحيفة «الثورة» في اغسطس 1960 وكلَّف عبدالله رجب ومحمد الحسن أحمد بتحريرها إلى جانب قيلي أحمد عمر، ومحمد فضل الله، إلَّا أنَّ عبدالله رجب انسحب من المهمة في ديسمبر من نفس العام.. وقال إنَّ الصحف المستقلة تعاونت مع الحكم العسكري بلا

إستثناء وأنَّ محمد سعيد معروف ومحمد الحسن أحمد صوتا إلى جانب محرري «الصراحة» الآخرين بالتعاون. ولَمْ ينفذا قرار حزبهما برفض الحكم العسكري. وفي تلك الأثناء تسلَّم محمود أبو العزائم جريدة «الصراحة» من وزارة الاستعلامات وسماها «الصراحة الجديدة» وأخذ عبدالله رجب يتسلم خمسين جنيهاً شهرياً مقابل حق الإمتياز. لَمْ ينكر الأستاذ عبدالله رجب تعاونه مع نظام الفريق عبود وقال إنَّه فعل ذلك «بإعتباره نظاماً سودانياً» وقال إنَّ وقوفه معه كان أشرف من التهافت وإدعاء البطولات كما حاول أنْ يفعل آخرون.

وتعرَّض عبدالله رجب لتجربته في التعلم الذاتي والقراءة الحرة وأورد عناوين الكتب التي اطلع عليها والتي تحوي شتى أنواع المعرفة.. وربما يكون قد ساعده أيضاً أنَّه أدار مكتبة في سنجة وارتبط بعلاقات واسعة مع المثقفين والمهتمين بالقراءة وتبادل الكتب والمعلومات. ولعل من أطرف تجاربه بداياته في اللغة الإنجليزية.. فقد روى أنَّ الشباب من آل قوته الذين كانوا - يجاورونه في السكن - شرعوا في تعلم تلك اللغة وقام بتدريسهم الأستاذ بشرى عبدالرحمن المقبول. وفي الشارع وبجوار الموقع الذي إتخذه مكاناً لبيع السجاير والكيروسين جاء بكرتونة بيضاء لأحد هؤلاء الشباب وطلب منه أنْ يكتب له الحروف الإنجليزية التي كتب إلى جانبها الحروف العربية المقابلة لمساعدته على نطقها والتعرف على مخارجها. ومن ثَمَّ أخذ يدرب نفسه على تعلم الهجاء ويتمرن بمفرده على قراءة عناوين السلع وإعادة كتابتها من صناديق السجاير والكبريت والحلويات وطرود الأقمشة وظروف الرسائل. وحينما تقدَّم قليلاً أخذ يطلب مناهج اللغة الإنجليزية من المدارس المتخصصة في مصر. ثُمَّ واصل كدحه في التحصيل حَتَّى تفوق في اللغة الإنجليزية وبات أحد القلائل الذين يترجمون في مستوى رفيع منها وإليها. وقد تَمَّ إختياره في سنواته الأخيرة كأحد كبار المترجمين في القصر الجمهوري. ونشرت له الصحف كثيراً من التراجم في شتى ضروب

المعرفة وخاصة في الشؤون العالمية وعلم النفس.. ويعتبر عبدالله رجب صاحب أول ترجمة عربية لوثيقة حقوق الإنسان. وقال عبدالله رجب إنَّ «مذكراته ستصبح من كلاسيكيات الشعب السوداني».. مثل «طبقات ود ضيف الله» وسوف تعيش في وجدان هذا الشعب تتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل». وما ذهب الرجل بعيداً فيما قال. فما كتبه جدير بالإهتمام بإعتباره سجّلاً وافياً للحياة الإجتماعية التي عاشها وتفتحت عيناه عليها منذ سنوات العشرين في القرن المنصرم. وكانت تجاربه المختلفة وتنقله من مكان لأخر وجرأته في محاولة التعرف إلى الناس والأشياء والاستزادة من المعرفة سبباً في ثراء وتنوُّع وأهمية تلك المذكرات، وهي بعنوان «مذكرات أغبش».

توفي عبدالله رجب في عام 1986 وهو في السبعين من عمره أنفق منها حوالي خمسين عاماً في العمل الصحافي.

16 إبريل 2002 م

رجلٌ من حسنات هذا الزمان

محمود حاج الشيخ عمر



«ما من خصلة تحمد في الرجال إلّا وكانت فيه».

د. منصور خالد

ما كنت أحسب أنْ نفراً من الناس الفاعلين ذوي القيمة والأهلية في مجتمعنا السوداني تفوتنا معرفته لأنّنا نزعم أننا نهتم بالأفذاذ من معاصرينا وأسلافنا، حَتّى فاجأني في العام الماضي أستاذنا الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه بنعي محمود حاج الشيخ عمر المحامي، فأثنى عليه وأطراه وبيّن مكانته ونوه بفضله إلا أني لَمْ أكن قد سمعت عنه رغم أني لا اعتبر نفسي غريباً على مجال القانون، فقد تخرجت في إحدى كلياته. زال عجبي الآن من تقصير توهمته في نفسي حين أدركت أنّ إحدى سجايا محمود كانت النفور من الضوء والضوضاء، واتخاذ

ولد الشيخ القدال في كسلا في مطلع القرن العشرين لأحد كبار رجالات الطريقة الختمية.. فقد كان والده خليفة للخلفاء قريباً من السيد محمد عثمان بن السيد محمد الحسن الميرغني.. حَتَّى لقد صحبه في منفاه إلى مصر حين خرج من السودان إبان الثورة المهدية.. فتشبعت روحه منذ ميلاده بذلك العبق الصوفي التليد الذي توشحت به مدينة كسلا.. ونشأ في كنف طاهر ساعد في تكوين شخصيته التي غدت نموذجاً في السلوك ومكارم الأخلاق. بعد أنْ أكمل تعليمه الأولي في كسلا تَمَّ إختياره للدراسة في مدرسة العرفاء بكلية غردون.. وكانت تلك المدرسة تقوم بإعداد الطلاب ليصبحوا مدرسين في المدارس الأولية.. تخرَّج في هذه المدرسة معلمون أفذاذ تركوا أثراً واضحاً في تاريخ التعليم الزمني الحديث أمثال مصطفى أبو شرف وحسن نجيلة وود عيسى زيادة وإمام الخضر الإمام وعثمان هاشم وغيرهم.

عمل الشيخ القدال مدرساً في شرق السودان منذ تخرجه.. وكانت تلك المنطقة تحتاج لمعلمين موهوبين قادرين على تفهم أحوال وظروف القبائل التي تعيش فيها.. وتحتاج إلى صبر وتحمل وقدرة لتستمر المدارس وتؤدي مهتمها بنجاح.. وقد إستطاع القدال أنْ يضرب مثلاً رائعاً لمثل هذا النوع من المعلمين الذين كانت تحتاج إليهم بلاده في تلك الفترة الباكرة والحرجة من تاريخها. وقد بزغ نجمه بالفعل في أواخر سنوات الثلاثين عندما بدأ شرق السودان يتحدث عن ذلك الفتى المدرس.. خريج كلية العرفاء.

وحين بدأ معهد بخت الرضا دوراته التدريبية المشهورة (الكورسات) للمعلمين كان القدال من أبرز النوابغ الذين إنتفعوا بها.. حيث توطدت صلاته مع المعلمين الذين أنجزوا الثورة التعليمية في السودان.. عبدالرحمن علي طه (نائب العميد) ومكي عباس وغيرهم من أساتذة بخت الرضا الذين خبروا معدنه مما أدى إلى ترشيحه للسفر إلى حضرموت حيث إستطاع أنْ يمثل بلاده بأروع

بالجلبة والصياح ولكنه يثبت الحق بالمنطق والحجة».

وقال علي محمود حسنين زميله في مهنة المحاماة. محمود كان فارس الحلبة في هذه المهنة، ومن ثَمّ فإنّ همه الأساسي كان إشاعة الحريات، لَمْ يكن يرى للحرية حزباً ولَمْ ير لها لوناً ولكنه رآها قيمة ينبغي أنْ يستمتع بها الجميع. ومنذ عهد مايو وحَتّى في ظلّ هذا النظام ظلّ محمود هو قائد مسيرة الدفاع عن الحرية في جميع القضايا، وما اعتقل إنسان إلا وتقاطرنا نحو مكتبه وحوله. نحتمي فيه ونسترشد برأيه، ونستهدي بحكمته ونستغل إمكانياته من أجل العدالة، ومن أجل الديموقراطية.

اما تيسير مدثر فقد وصف محمود حاج الشيخ بأنه لَمْ يكن مثقفاً طاووسياً متعالياً، وهو يتمتع بما لا يتمتع به جيش جرار من الصفوة النرجسية التي تنتمي لدائرة الثقافة والمعرفة وديدنها الضجيج والصخب والتهريج. كان غزير العلم في كافة العلوم الإنسانية ممتلئا بالتقدير و الاحترام للتقاليد الإسلامية، والسودانية الأصيلة، ولا غرو في ذلك فهو ابن الشيخ الجليل الورع حاج الشيخ عمر دفع الله أحد أبرز رموز الحركة الوطنية الحديثة في السودان.

كان أول من تبادر إلى ذهني حين أبلغني دكتور فيصل نعي محمود هو شخصية حاج الشيخ عمر أول من هتف بشعارات معادية للاستعمار البريطاني في مقابر أم درمان خلال تشييع جثمان المأمور المصري عبدالخالق حسن عام 1924م.وقد دفع ثمن ذلك حكماً بالسجن وبات أول سجين سياسي في معارك الحركة السّياسية الحديثة. وقد أعجبني وصف منصور خالد لذلك الشيخ المناضل حين قال «ومن ذا الذي لا يفاخر بحاج الشيخ «عمر» ذلك الشيخ شديد الفتل، منقطع القرين كان عالماً مبارزاً في باحات العلم وليثا هداراً في ساحات النضال، أذكره لأنه أورث محموداً وإخوته ميراثاً خلقياً جسيماً سما بهم إلى حيث ينبغي أنْ يكون الرجال».

وذكر الطيب حسب الرسول قصة حدثت في أيام رمادية كابية أطلت فيها رؤوس الفتن وغابت روح التسامح والتسامي فقال «كان قد قُبض على الأخ فاروق البربر بسبب خطاب جد خطير أرسله للإمام الهادي، رحمه الله، في الجزيرة أبا، فطفقنا نبحث عن أحد يتولى الدفاع عنه فأعيانا البحث حَتّى جئنا لمحمود وقلنا له، محمود هل تتولى الدفاع عن فاروق في المحكمة العسكرية التي شُكّلت على عجل؟ فقال بقوة نعم، ومن يدافع عنه إنْ لَمْ أفعل أنا!.. وقال أحد الحاضرين: هذا مسلك وعر! فرد محمود: إنْ لَمْ أفعل سأمزق هذه الوريقة، مشيراً إلى رخصة المحاماة المعلقة على حائط مكتبه. ذهب محمود ليدافع عن فاروق والآخرين على عجل فكان الحكم بالإعدام، ولكنه خفف وعاش فاروق ونشأت بينهما صداقة أبدية.

عمل معلماً في صباه الباكر، ثُمّ اشتغل بالصحافة، وكان مراسلاً حربياً وسّياسياً لصحيفة الرأي العام، من جبهة القتال في السويس إبان العدوان الثلاثي، على مصر عام 1956 ثُمّ عاد وأكمل دراسته للقانون في جامعة القاهرة فرع الخرطوم، واشتغل بالقضاء ثُمّ إستقال ليتفرغ للمحاماة التي نجح فيها وكرس حياته لإعانة المحتاجين وإغاثة الملهوفين ومناصرة الضعفاء.

وقع في يدي الكتاب الذي حمل عنوان «محمود حاج الشيخ عمر.. مواقف ومبادئ» والذي تضمن كلمات أصدقائه وعارفي فضله الذين أطنبوا وما تجاوزوا فأوفوا الرجل حقه في حفل تأبينه، فأردت أنْ أشرك القراء فيما قيل عن ذلك النبيل الذي عزّ أمثاله في هذا الزمان.

9 سبتمبر 2003

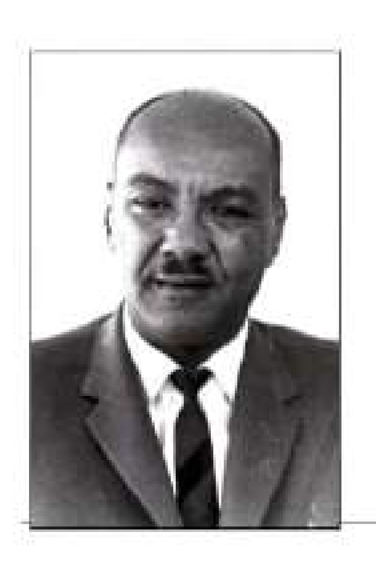
القدال رئيساً لحكومة حضر موت

لا أدري لماذا قفزت صور سيريالية إلى ذهني حين قرأت رثاء محمد عثمان ياسين للشيخ القدال بقوله: «ونحن إذ نودع القدال باشا سعيد القدال إلى مثواه الأخير نودع فيه آخر مثال لجيل العصاميين السودانيين الأوائل أمثال رابح الزبير في تشاد وسوركتي في أندونيسيا.. الذين تركوا بصماتهم في مصائر دول شقيقة ذهبوا إليها بمحض إرادتهم في ظروف قاسية فأدوا رسالتهم خير أداءً». ورابح هو القائد المعروف الذي شقَّ طريقه إلى غرب أفريقيا بعد أنْ رفض الإستسلام لجسي الإيطالي في بحر الغزال واختلف مع سليمان الزبير. وهناك حارب الفرنسيين ورفع راية المهدية وقتل في معركة فورت لامي الشهيرة بعد أنْ أسس دولة لا تزال آثارها شاخصة. أما أحمد سوركتي فقد كان يعمل مدرساً لعلوم الدين في مكة حين إستدعاه الحضارمة العلويون المهاجرون في أندونيسيا ليقيم لهم مؤسسات تربوية.. فأنشأ مدارس الإرشاد التي نالت شهرة واسعة امتدت من أندونيسيا إلى حضرموت عن طريق المهاجرين العائدين ومن خلال المدارس التي أنشاؤها على نمط مدارس الإرشاد التي أسسها سوركتي هناك.

جاء الشيخ القدال إلى حضرموت معاراً في عام 1939 ولا يزال شاباً في العقد الرابع من العمر ووصل إلى ميناء المكلا وحيداً لَمْ يتعرف إليه أحد ولَمْ يستقبله أحد.. غريباً عن تلك الديار التي لَمْ تشاهد كثيراً من السودانيين بعد.. وبعد ثمانية عشر عاماً خرج ذلك الفتى من حضرموت بعد أنْ تجاوز الخمسين في وداعه سلطان البلاد وأعيانها بعد أنْ عاش بينهم معلماً ووزيراً للمعارف وسكرتيراً للدولة (رئيساً للحكومة).

النطاسي البارع والعالم الموسوعي

التجاني الماحي



صديقنا الشاعر عبدالله إبراهيم موسى شابو، كان ريحانة أماسينا، يغيب عنا أحياناً فجأة فنجزع.. نعاتبه حين يعود فيعتذر بأن هوى الكوة غلب عليه فهرع إليها، يمازحنا ويقول:« نسهر على شاطىء النيل بالكوة نتحدث في كل المعارف، نغازل النجوم والمجرات وحين يستشكل أمر نتلفت فنرى شبحاً من بعيد يصطاد في النيل، لانعرف من هو فندعوه، نحتكم إليه، نعرض عليه ما غمض علينا، يتفجر متكلماً في أكثر مسائل الفكر غموضاً فنجد ضالتنا ويعود هو إلى حيث كان، وكأنّه لَمْ يفعل شيئاً. يضحك شابو ملء رئتيه ويؤكد أنّ شباب الكوة جميعهم هكذا علماء وفنانون ومبدعون منكبون على المعرفة والثقافة. وهذه هي روح التجاني التي لاتزال تضوع في فضاء البلدة ودروبها بأريجها الفواح. هذا المكان تناثرت على ثراه دماء الشاعر الشيخ إسماعيل الدقلاشي. صاحب الربابة، قبل أكثر من أربعة قرون.

ما يكون ويقدم نموذج الشخصية السودانية بجميع أبعادها.

إستطاع الشيخ القدال بقدراته الفذة أنْ ينقل تجربة بخت الرضا في الثورة التعليمية بما يتناسب مع ظروف حضرموت.. وبدأ منذ عام 1940 في تنظيم المدارس.. وكان بالمكلا مجموعة من المدارس في حصن الشيبة فكوّن منها ثلاثة فصول للمرحلة الابتدائية، وانتقى الطلاب المتميّزيين وشكّل منهم الصف الأول للمرحلة المتوسطة، وكوّن من طلاب المدرسة الإنجليزية الصف الثاني. وفي أواخر عام 1941 إفتتحت المدرسة الوسطى في المكلا.. أو في الواقع تحوّلت المدرسة الإنجليزية القديمة إلى مدرسة وسطى حديثة، إنتظمت الدراسة فيها مع الإهتمام بالنشاط حيث تَمّ تشكيل فرقة للتمثيل بالمدرسة قدمت مسرحيات متميّزة.. بدأها الشيخ القدال بمسرحية «حرب البسوس». ثُمّ توالت المسرحيات تحت إشراف الأستاذ عوض عثمان مثل «مجنون ليلى» و«الأمين والمأمون» وفي «سبيل التاج».. ويعتبر المعلم السوداني عوض عثمان مؤسساً للحركة المسرحية الحديثة في حضرموت.. كما يعتبر مؤسساً للفرقة الكشفية التي نظمها وأشرف عليها حَتّى أنّ أحد أعضائها الطالب صالح بن همام (يعمل الآن طبيباً بالسعودية) شارك في معسكر كشفي أقيم في فرنسا.

كانت المدرسة الوسطى في غيل ـ باوزير نموذجية.. والوحيدة في حضرموت.. ويتمُ إختيار التلاميذ لها بعد إمتحانات تنافسية يجلس لها المئات. وقد وفّرت لها الدولة إمكانيات كبيرة.. كان منهجها الأكاديمي رفيعاً، حيث يمتزج النشاط الذهني باليدوي.. مما يرقى بالعملية التربوية إلى ذرى عالية من التكامل، ويمارس الطلاب فيها نشاطاً ثقافياً واجتماعياً متشعباً.. الكشافة.. ونادي صغار المزارعين.. وجمعية التمثيل.. والجمعيات العلمية.. والصحف الحائطية ويسودها جو ديمقراطي راق يجعل تلاميذها في حالة مستمرة من التعليم والتعلم.. الأمر الذي يدفع بهم نحو الخلق والابتكار، فأصبحت ذات طابع

صفوي، معامل وفصول وداخليات. وكانت الجمعيات المدرسية تتنافس كجمعية النسيج بأنواعه وتجليد الكتب المدرسية ونادي صغار المزارعين.. الذي يقوم أعضاؤه بحرث الأرض وزراعتها وتعهدها بالري، ثُمَّ بيع المحصول، وكانت أعمال النادي تتوزع بنظام دقيق تحت إشراف إدارة من التلاميذ.. يجتمعون ويناقشون القرارات ويختلفون ثُمَّ يتفقون في جو تسوده الديمقراطية.

وعندما زار مستر قريفث ـ الذي كان عميداً لمعهد بخت الرضا ـ حضرموت بدعوة من المستشار البريطاني لتقويم ما تَمَّ انجازه من الخطة التي وضعها عام 1938 ومدى نجاح الشيخ القدال في تنفيذها، كتب عن التقدُّم الحقيقي الذي لمسه وسُر كثيراً وقال« ولكن لا غرابة إذا تذكرنا أنَّ الشيخ القدال كان هنا».

لَمْ يقتصر دور الشيخ القدال على أنْ يكون رائدا لجيل السودانيين الذين هاجروا لنشر التعليم في اليمن الجنوبي.. ولكن ارتفع به طموحه وذكاؤه إلى مرتبة الوزارة التي إرتقاها فصار وزيراً للمعارف.. وذلك بعد أنْ منحه السلطان رتبة الباشوية في عام 1945. ثُمَّ لَمْ يلبث أنْ تَمَّ إختياره رئيساً للوزراء وذلك في أكثر المقاطعات تعليماً وثقافة.

لَمْ يكن القدال وحده حين نهض بالعملية التربوية في حضرموت بل كان إلى جانبه معلمون آخرون حضارمة وسودانيين من بينهم الأساتذة عوض عثمان، خريج بخت الرضا، وحسين خوجلي معلم اللغة الإنجليزية الذي وصل إلى حضرموت عام 1944 وسعيد أيوب القدال، ومحجوب زيادة حمور، وإبراهيم مجذوب مالك وأحمد بابكر العمدة. والذين قال عنهم مستر قريفث «ومما يشجع أيضاً أنَّ الأساتذة السودانيين الستة يوائمون أنفسهم مع احتياجات البلاد».

وفي عام 1951 قدَّم المستشار البريطاني تقريراً شاملاً عن التطوُّر الإداري

والزراعي في حضرموت.. وذلك بعد عام من تولي الشيخ القدال منصبه الجديد. فقال: «إنْ سكرتير الدولة الذي عُيِّن حديثاً يمتلك مقدرات إدارية حقيقية ويحظى بالاحترام على إمتداد البلاد.. وهو رجل حكيم وذكي وله شخصية قوية جداً.. ومعروف بنزاهته واستقامته.. ولقي تعيينه ترحيبا من الجميع. وقد إستطاع أنْ يقبض على زمام الأمور بحزم وأظهر بصماته الإدارية التي كانت الحاجة ماسة إليها لسنوات عديدة». وما زال معاصرو القدال يتحدثون عن استقامته ويتحسرون على أيام حكمه النزيهة.

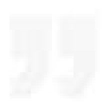
وعندما زار محمد عثمان ياسين حضرموت موفداً من قبل الأمم المتحدة في سبعينات القرن الماضي كتب عن النظام القضائي في حضرموت يقول «وقد أدهشني وملأ خيالي أثناء دراستي الإدارية لتلك المنطقة النظام القضائي الإسلامي فيها الذي شارك في وضع أساسه المرحوم القدال». كان القدال أيضاً قد إتخذ خطوات نحو تطوير النظام الإداري وانتدب إداريين سودانيين متميِّزين من بينهم الفاضل الشفيع الذي وصل إلى حضرموت مساعداً للسكرتير للشؤون المالية. كما ابتكر نظام المؤتمرات الإدارية واهتم بتدريب الإداريين الحضارمة لتولي الوظائف العليا في بلادهم. وتم بالفعل إرسال الأستاذ محمد عبدالقادر بامطرف إلى مدرسة الإدارة بكلية الخرطوم الجامعية. وعاد ليعمل وزيراً للسلطنة. وفي أثناء تولي الشيخ القدال رئاسة الحكومة ظهرت بشائر النفط في حضرموت.. وحاول الإنجليز توقيع اتفاق على عجل بين حكومة حضرموت والشركات الإنجليزية. وإستطاع القدال أنْ يقنع السلطان بأن توقيع مثل هذا الاتفاق سوف يطيل من بقاء الإنجليز في البلاد.. ونجح في عرقلة الأمر طوال فترة رئاسته للحكومة التي انتهت في عام 1957.

عاد القدال إلى السودان قبل إنتهاء عقده بعام وعمل في حقل التعليم مرَّة أخرى وخاصة في كسلا في كامل حيويته وتدفقه في كتابة الشعر الذي ظلّ

ملازماً له طيلة أيام حياته العامرة. وصفه صديقه أبو شرف بقوله: مسامر حلو النغمة، فكه اللسان، متفنن في الحديث متخير للفظ، فأنت في مجلسه لا تجسر على الكلام ولو كنت تشتهيه لأن متعتك الحقة أنْ تصغي بكلٍ جوارحك إلى هذا السرد، وكأنه أنغام البلابل. فهنا الشاعر الملهم، والمؤرخ المتمكن والخطيب المفوه، والمتحدث البارع، والسّياسي الحاذق، وهو قبل ذلك كله المسلم الصافي النفس، الطيب السريرة المتسامح دائماً، فهو على نور من ربه».

من المصادفات النادرة أنْ ينجب مثل هذا الرجل بحياته الثرية هذه وتجاربه المتعدّدة ابناً مؤرخاً هو الدكتور محمد سعيد القدال الذي إستطاع أنْ يرسم لوحة لوالده في غاية الروعة والاعتدال. لَمْ تجنح به عاطفة ولَمْ يهزه هوى.. وكانت الوثيقة حاضرة في كلٍ صفحات الكتاب الذي وضع له عنواناً هو «الشيخ القدال باشا» معلم سوداني في حضرموت.. ومضات من سيرته 1903 ـ 1975.

26 أكتوبر 2002



والطب النفسي بجنيف، كما استضافته كثير من الجامعات الأمريكية ليقدّم العشرات من المحاضرات عن الطب النفسي. إنتقل التجاني الماحي إلى رحمة مولاه وهو في الخامسة والستين مختتماً حياة تجسّد قدرة الإنسان اللا محدودة على نيل المعارف والتحصيل والسمو إلى أعلى القمم.

لَمْ يحظ التجاني الماحي بالتكريم الذي هو جدير به، شأن الكثير من العلماء والمبدعين في بلادنا، فهذه السيرة الأقرب إلى الأسطورة كان ينبغي أنْ تجد من يهتم بها حَتَّى تلهم مثقفينا وعلماءنا الشباب. لانملك إلّا أنْ نتقدَّم بالشكر والعرفان للقائمين على مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي في أم درمان، الذين قاموا بنشر كتاب «التجاني الماحي، سادن المعرفة»، الذي صدر أخيراً لمؤلفه الدكتور حسن أبشر الطيب وتقديم الدكتور محمد إبراهيم الشوش اللذين حاولا بحب وحفاوة أنْ يقدماً طرفاً من السيرة العطرة للراحل التجاني ويضيفا للمكتبة السودانية التي تفتقر كثيراً لسير الأفذاذ من أعلامنا.

24 ابريل 2001م



حين إدلهمت الآفاق في النصف الثاني من سنوات الستين في القرن الأفل وغامت الرؤية وانبهمت السبل وغاضت ينابيع الأمل بعد أنْ تصوحت أوراق أكتوبر الأخضر وعصفت بها ريح الصغائر وأحلام العصافير، ساد القنوط وبلغ اليأس مداه في أوساط المثقفين، فأعرب الكثير عن الضيق والتبرم من تلك الحالة التي أفضت إلى الراهن الكئيب. سّياسيون أفندية يتراكضون متهافتين على السلطة والجاه تحكمهم روح العلاوات والترقيات والتمرغ في تراب الميري دون جدارة واستحقاق. تعوزهم القدرات الفكرية والثقافية ويفتقرون إلى البرامج ووضوح الرؤى. تلفت هؤلاء المثقفون لَمْ يجدوا سوى التجاني نموذجاً يحتذى وشخصاً تهفو إليه النفوس فاستغاث عبدالله علي إبراهيم ملتاعاً، في مقالته الشهيرة تلك بـ«التجاني الماحي قارىء الألواح». رآه وحده الباحث عن الحقيقة والسادن للمعرفة والمتعفف عن لعاعات الدنيا. يقضي ليله متقلباً في متون الكتب والمخطوطات وسحابة نهاره في مواساة المرضى والنهوض بالواجبات وقضاء الحاجات. احتفى به مبتدراً بقوله و«إذ أجلس لأكتب عن العالم العلامة والحبر الفهامة وقطب زمانه وغوث أوانه، سيدي وذخري التجاني الماحي أحسُّ بالقافية الشرود التي لَمْ يسلك وعر دروبها إلّا فحول الشعراء تطرق بابي طايعة بأدب وامتثال. السجع الذي إبتذلته الركاكة والإدعاء والزخرف والوشي الخلب يسلس قياده ويمنحني نفسه مختاراً لأذيع فضل هذا الكاهن، سادن المعرفة والقائم بسقاية طلابها المجهدين المكدودين. وإذ أشرع في شكره أزيد طولاً وانتشر عرضاً وأتسامى كالأثير، كأفواف الزهر العطر، كزيفة مطلع الخريف كأريج بهار القهوة في جلسة مكسال في ظلّ الضحى، أندغم في الوجود، يندغم فيَّ الوجود، أنبهر وأستهتر وأستكبر كفتى ينحني لشبال من هو بها كَلِف مغرم بعد أنْ استحقه سيطاناً يزدان بها ظهره. بشكر سيدي التجاني الماحي أقرط آذان السامعين الصماء، وأحلى جيد الزمان العاطل وأزين وجه الحياة المبتئس، قال «إنَّ التجاني إذا تكلم تصاعد العلم من رأسه دخاخين دخاخين وختم كلَّ مقطع

من حديثه بلازمته «شيء غريب» فيعود للمعرفة بدهشتها القديمة التي ظلّت تدفع بالمكتشفين من الحمام عراة كما ولدتهم أمهاتهم. وكان يتحدث عن الطبري وابن خلكان وابن خلدون والقلقشندي والمسعودي، وعن ابن طباطبا وابن طراوة وخلف الأحمر وحماد الرواية وعن عبدالحميد وابن العميد والقاضي الفاضل وابن الأثير وعن علقمة الفحل والجاحظ وسيبويه وابن ماسويه وابن شهيد، وعن بعانخي وزوسر وتحتمس واخناتون والكنداكة، عن سوفكليس وشكسبير وويرزويرث وشوسر. كان يجيد اللغات الإنجليزية والفارسية واللاتينية والهوسا فضلاً عن العربية ويعتبر حجّة في اللغة الهيروغليفية ومرجعاً في تفسير ألفاظها. وفي أيامه الأخيرة كان يدرس الفرنسية والألمانية وبعد ذلك يجد وقتاً لعقد مجالسه الفكرية ينصت ويتحدث وسط مريديه وتلاميذه، كما يجد وقتاً لزيارة المرضى في منازلهم ومساعدة المحتاجين من المثقفين والسّياسين. ويمحض عائلته كل عطفه. تخصّص التجاني الماحي في الطب النفسي وبرع فيه حَتّى تجاوز صيته المنطقة العربية والأفريقية، حيث اختارته منظمة الصحة العالمية خبيراً إقليمياً لمنطقة شرق البحر المتوسط، وباتت أبحاثه ودراساته مراجع علمية موثوقة يتمُّ تدريسها في أقسام الطب النفسي في كثير من أنحاء العالم. إلا أنَّ التجاني كان مهتماً بالفلسفة والتاريخ والاجتماع والأدب والإدارة والحضارة الإسلامية. لقد كان موسوعياً، في جميع هذه العلوم ويؤمن إيماناً راسخاً بأن المعرفة الإنسانية بمختلف ضروبها تقود إلى غاية واحدة.

حينما زار المؤرخ والعالم الموسوعي المستشرق الفرنسي جاك بيرك الخرطوم توجّه إليه ذات مساء وخرج منه تملؤه الدهشة والإعجاب. قيل إنّه في مكتبة.. «أفريكانا»، كان يقدم إليه المشرف عليها آخر الكتب التي وصلت إليه عن الطيور. وقد بلغ ولعه بالمخطوطات القديمة أنّه كان يسافر إليها في روسيا وأفغانستان والصين والهند وبلاد القوقاز وأسبانيا. وانه حين كان عضواً في

مجلس السيادة زارت السودان الملكة اليزابيث الثانية فأهداها مجموعة نادرة من الرسائل كان فيها ما يثبت أنَّ الجنرال غردون إتسم بالشذوذ والفحش وسرقة أنواع نادرة من البلاط. كان يؤكد بذلك أنَّ أخلاق السودانيين لا تسمح لهم بالابتزاز. ذلك رغم ما كان يعلمه أنَّ بريطانيا لاتزال تنظر شزراً إلى السودانيين حين يأتي ذكر غردون الذي ظنوه قديساً إغتاله برابرة لئام.

كان الدكتور التجاني يمتلك أكبر مكتبة يمتلكها فرد في السودان، زاخرة بكتب التراث الإنساني بمختلف اللغات، كما احتوت على ستة آلاف مخطوط أثري نادر، وحينما عرض عليه بيعها بأموال طائلة رفض ذلك مستنكراً وآثر إهداءها إلى جامعة الخرطوم.

لَمْ ينغمس التجاني في العمل السّياسي كما فعل رصفاؤه الخريجون. كان لا يطلب مجداً. عندما أحسَّ بالضيق في مؤسسته الحزبية التي تكلست عظامها واستعصت عليه وهو العالم النفسي، هجرها بإستقالة كانت حديث الناس.

كان ميلاد التجاني في بلدة الكوة الواقعة على الضفة اليمنى للنيل الأبيض في عام 1911 وتخرَّج في كلية كتشنر الطبية عام 1935 وعمل في معظم مدن السودان، وفي عام 1947 توجَّه إلى بريطانيا مبعوثاً للدراسات العليا في جامعة لندن، وبعد عامين قضاهما هناك عاد ليؤسس عيادة للصحة النفسية عرفت بمستشفى التجاني الماحي للأمراض النفسية، والعصبية بأم درمان، وبات أشهر أطباء علم النفس على المستوى الإقليمي حيث اختارته منظمة الصحة العالمية مستشاراً في عام 1959 وأقام في الاسكندرية حَتَّى عام 1964 ومن ثَمَّ عاد إلى بلاده ليتمَّ إختياره عضواً بمجلس السيادة في حكومة أكتوبر. كان الدكتور التجاني يتميَّز بالحيوية والنشاط الجمّ. فقد شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والندوات وترأس أول مؤتمر عقد بإشراف الأمم المتحدة في التعليم

سقوط الخرطوم في يد الإمام المهدي وعدم معرفة مصير غردون.

واحتفظ الدكتور التجاني الماحي ببعض أوراق البردي، وهي من أقدم المواد التي إستخدمت في الكتابة قبل اكتشاف صناعة الورق، وقد كتبت عليها نصوص عربية. كلّ هذه القائمة عبارة عن إشارات لتلك الأسفار المتراكمة والدوريات والكتب النادرة والمخطوطات التي لا تقدر الآن بثمن والخرائط القديمة التي رسمت قبل تطوُّر علم الجغرافيا والرحلات الاستكشافية. حيث كانت معظم أجزاء أفريقيا ومناطق أخرى من العالم لَمْ يتمّ التعرف عليها. كما أنَّ هناك عدداً من التحف الأثرية النادرة واللوحات.

5 يونيو 2001م

مكتبة التجاني الماحي

لا بدّ أنّ الأمر سيكون طريفاً لو قدر لك أنْ ترى خريطة جغرافية للسودان القديم قد تعود إلى عام 1525 - كما هو مكتوب عليها- أو إلى ما هو قبل ذلك. فبدلاً من نهر عطبرة سترى نهر تاكازي وبدلاً من سهل البطانة ستجد جزيرة مروي. كما ستجد مدن قرّي والحلفاية ومروي وشندي وسواكن والأبيض وسنار «وود حيدر»! والعيلفون وقد كتبت «حيلفون»، إلى أنّك لا تجد الخرطوم ولا أم درمان اللّتين برزتا كمدينتين في القرن التاسع عشر. ويتضح في تلك الخريطة النيل الأزرق من منبعه في بحيرة تانا، التي ورد اسمها في الخريطة تزانا أو دينبا، إلّا أنّ منبع النيل الأبيض لَمْ يكن معروفاً آنذاك لذا تراه تائها في أواسط غرب أفريقيا من غير منبع. وقد كتب عليه النهر الأبيض، كما كتب على البحر الأحمر الخليج العربي. أما إمتداد الصحراء الذي يتاخم حدود السودان الغربية فقد كتب عليها بخط واضح «أماكن غير معروفة»، أما موقع بلدة الكوة الحالية فقد كتب عليها «أليس». هذه الخريطة النادرة من مخطوطات مكتبة الدكتور التجاني الماحي التي بلغت ألفين وستمائة وخمسين مخطوطاً في مختلف العلوم من بينها مصاحف وتفاسير وكتب سيرة وأحاديث شريفة ومدائح.

بمجرد دخولك المكتبة - التي تَمّ إهداؤها لجامعة الخرطوم في عام 1972 - يطالعك تمثال للتجاني وهو ممسك بالكتاب الذي أحبه وبات جزءاً من حياته حَتّى النفس الأخير. تحتوي المكتبة على تسعة عشر ألف مجلد من الكتب والمخطوطات والخرائط من بينها ألف كتاب عن الطب وألف كتاب عن علم النفس وألف وثلاثمائة كتاب عن السودان وألفان وخمسمائة عن التراث العربي وخمسمائة عن التاريخ القديم وثمانمائة وخمسون عن التاريخ الحديث وسبعمائة

وستون خريطة. وبقية الكتب شملت جميع علوم المعرفة، كتاريخ العلم والفلسفة والرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم الفلك وكتب الزراعة وعلم النبات وعلم الحيوان والتربية والعلوم الإجتماعية والعلوم السّياسية والإقتصادية والفنون التطبيقية والموسيقى والآداب والموسوعات والقواميس وكتب بالعبرية وغيرها.

أما مجموعة كتب السودان فتعد الأكمل حيث شملت جميع الكتب التي تناولت السودان باللغتين العربية والإنجليزية وغيرهما. ففيها نسختان من مجلد يحتوي على رسائل غردون بخط يده - وقد صدر هذا الكتاب في عام 1885 - وهناك أيضاً إحدى عشرة نسخة من كتاب سلاطين «النار والسيف في السودان»، منها نسختان باللغة الإيطالية طبعتا عام 1898 وأربع نسخ من طبعة إنجليزية صدرت عام 1898 أيضاً والطبعة التالية لها وتاريخها 1922، كما توجد نسخة باللغة الفرنسية طبعت بالقاهرة في عام 1898، ونسخة طبعت في لايبزج عام 1896 باللغة الألمانية.

وتضمنت مكتبة التجاني حوالي ثلاثين كتاباً مختلفاً عن غردون صيغ أحدها شعراً وصدر في لندن عام 1885. ووجدت نسختان من كتاب نعوم شقير «جغرافية وتاريخ السودان القديم والحديث». كما توجد مجموعة كاملة من «السودان في رسائل ومدونات» منذ عام 1918، ووقائع مجلس الحاكم العام منذ 1910 حَتّى 1925. ويوجد أيضاً كتاب عن بعثة لسنار ودنقلا صدر عام 1822، ولا توجد منه سوى نسخة أخرى واحدة بمكتبة الجامعة. كما توجد كتب الرحالة الذين إخترقوا القارة مارين بالسودان أيام الكشوفات الجغرافية والتكالب على المستعمرات أمثال ستانلي وبركهارت وجونستون وبروس وغيرهم. وهناك أربعة مجلدات تضمنت صوراً قديمة عن السودان عند زيارة الرئيس الأمريكي روزفلت للخرطوم في عام 1910، وذلك بالإضافة إلى قصاصات للصحف الأمريكية التي

تابعت الرحلة. وهناك طبعة خاصة نادرة من ببليوجرافية السودان لإبراهيم حلمي تحمل توقيعه، ومجلدة تجليداً فاخراً مزركشاً ومذهباً ومبطناً.

ويوجد كتاب إحتوى على مطبوعات المملكة المتحدة فيما يتعلق بمصر والسودان تضمن مكاتبات خاصة عن العمليات الحربية البريطانية في السودان والتي تمّ تقديمها للبرلمان البريطاني عام 1885، كما يوجد مطبوع يوميات عباس بك سكرتير الجنرال هكس والذي قتل معه في معركة شيكان عام 1883، وقد طبعته دار المعارف بمصر.

تشتمل مكتبة التجاني الماحي أيضاً على كتب للتاريخ القديم تبلغ خمسمائة مجلد منها أكثر من 250 مجلداً عن تاريخ مصر الفرعونية من مؤلفات بدج وماسبرو وفلندر بتري. وعن التاريخ الأوروبي هناك ثمانمائة وخمسون مجلداً منها جزء كبير عن تاريخ بريطانيا والتاريخ الأفريقي وتاريخ الشرق الأوسط. ومن كتب التفاسير هناك تفسير الرازي وتفسير الدر المنثور للسيوطي والكشاف للزمخشري وتفسير الثعالبي وابن الخطيب وابن تيمية وتفاسير أخرى. ومن كتب السيرة هناك ابن هشام وكتب أخرى بلغات غير العربية. ذلك بالإضافة إلى كتب الفلسفة الإسلامية كمؤلفات ابن رشد و«إحياء علوم الدين» للغزالي. وتوجد عدة طبعات من التوراة يعود تاريخ إحداها إلى عام 1549، كما توجد عدة نسخ من التوراة باللغة العربية يعود تاريخ بعضها إلى القرن التاسع عشر.

أما عن الأدب ففي المكتبة طبعتان من كتاب الأغاني ومختصر الأغاني، كما توجد طبعات من «ألف ليلة وليلة» بالإنجليزية. ولمْ تخل من دواوين الشعر كديوان المتنبي بشروحات العكبري والعلامة الواحدي والبرقوقي وسليم إبراهيم صادر وناصف اليازجي ولجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر إحتفالاً بألفية ميلاد الشاعر. وهناك نسخ من شرح «إخوان الصفا» لإبراهيم القاضي وبه حاشية من تفسير

العكبري والواحدي. كما تجد «رباعيات الخيام» و«سقط الزند» للمعري وشروحه..

وبالمكتبة عدد من الكتب الخاصة بتاريخ العلم لمؤلفين أمثال جورج سارتون وألدو ميللي وكتب الفلك لعلماء أفذاذ مثل البيروني وأبي الحسن الرازي. أما كتب الطب -الذي هو مجاله- فهناك حوالي الألف كتاب، منها مائتان وسبعون باللغة العربية، مثل كتاب «القانون في الطب» لابن سينا والذي يعود تاريخ طبعه إلى عام 1593 -وهو يحتوي على ألف وثلاثين صفحة بالحروف الدقيقة- وكتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، وقد نشر في عام 1883 وكتاب «المعتمد في الأدوية المفردة» ليوسف ابن رسول العباسي المجوسي - وقد ألفه صاحبه للملك عضد الدولة بن بويه، وكتاب «الطب النبوي» لابن قيم الجوزية المتوفى عام 751هـ. أما علم النفس، الذي اشتهر به الدكتور التجاني الماحي وذاع صيته فقد وجدت مذكرة بخط يده على غلاف كتاب في علم النفس جاء فيها «هذا الكتاب أهداه لي الصديق العزيز إسماعيل أفندي الأزهري يوم 1935/6/6، وهو كتابه الذي قرأه في علم النفس بالجامعة الأمريكية، وهو أول كتاب في علم النفس أقرؤه». وقد بلغ عدد الكتب الخاصة بعلم النفس في مكتبة التجاني ألف كتاب، معظمها لمؤلفين من القرن العشرين إلا كتاب «تعطير الأنام في تعبير الأنام» لابن سيرين، وقد تمّ تأليفه في عام 1096هـ كما يوجد كتاب «الفراسة» للرازي.

تضمنت مكتبة التجاني الماحي أيضاً سبعة «ألبومات» احتوت على عدة خطابات لغردون وليفنجستون وصموئيل بيكر وونجت وغيرهم، من بينها آخر ما كتبه غردون في حياته بأم درمان يوم 14 ديسمبر 1884 عبر فيه عن سعادته لأنه أدى الواجب المنوط به. وهناك قصاصات صحف منها قصاصة من عدد صحيفة «التايمز» اللندنية الصادرة في السادس من فبراير 1885، نشرت فيها برقية عن

للاحتجاجات وأساليب الرفض من قبل الأوساط المحافظة والمغلقة. لَمْ تكن الإدارة البريطانية تبدى حماساً للتعليم بصورة عامّة وتعليم الفتيات بصورة خاصة.. ولكن كانت تدرك خطورة الوعي الذي يمكن أنْ يتمخض عنه تعليم الأمهات. إلّا أنْ الأمر لَمْ يستمر طويلاً حَتّى بدأت الأوساط المستنيرة تطالب الحكومة بالتوسع في التجربة فافتتحت خمس مدارس للبنات في مدن مختلفة.. وكان ذلك في عام 1911. إستمر التوسع ببطء شديد حَتّى تَمّ إنشاء كلية معلمات المدارس الأولية في عام 1921. وفي عام 1948 أنشأ الشيخ أبوبكر المليك أول مدرسة أهلية وسطى للبنات بأم درمان.. وذلك بعد أربعين عاماً من إنشاء أول مدرسة أولية. ومن ثَمّ بدأ التعليم الأهلي في التوسع والانتشار بسبب الوعي الذي انتظم البلاد وخطا الإتحاد النسائي خطوات أزعجت الاستعمار حين أنشأ مدارس وسطى للبنات في عام 1953 بأم درمان، والخرطوم. وكان التعليم الثانوي قد بدأ بمدرسة أم درمان ومن ثَمّ أتيح للفتاة السودانية دخول كلية الخرطوم الجامعية فتخرجن بأعداد قليلة لَمْ تلبث أنْ ازدات بمرور السنين.

طيلة هذه الفترة ساهمت المرأة السودانية في النضال جنباً إلى جنب الرجل منذ ثورة 1924، وحَتّى نيل الإستقلال. كما أخذت تتسنم الوظائف المهمة وتكتب في الصحافة منذ بداية سنوات الأربعين.. وكن أحياناً يكتبن بأسماء مستعارة. وقد صدرت أول مجلة نسائية في السودان عام 1947 قامت بإصدراها الآنسة تكوي سركسيان– وهي سودانية من أصل أرمني– باسم «بنت الوادي». وشهدت منتصف الخمسينات صدور مجلة «صوت المرأة»، التي باتت تحررها أقلام سودانية برئاسة فاطمة أحمد أبراهيم، وكانت تمولها بالإضافة إلى التحرير عضوات الإتحاد النسائي. والسيدة فاطمة أحمد إبراهيم تعتبر نموذجاً رفيع المستوى في الإهتمام بقضايا وطنها واكتسابها لاحترام جميع الاتجاهات السّياسية لتمكسها بأخلاق وقيم بنات البلد السودانيات. وكانت إحدى

المرأة السودانية..

تاريخ طويل وتجربة خصبة



حاجة كاشف

«البنت تنجب الفارس.. تمنيت لو أن لي مئة بنت أفدي بهن القبائل»

محمد أحمد المهدي

«الرجل عظيم والمرأة عظيمة.. وليس أعظم من والدة الرجال»

وولت ويتمان

لا أحد يستطيع أنْ يتصور تلك الحادثة التي كانت تتكرر يومياً في إحدى سنوات الأربعين من القرن الماضي حين التحقت فتاة سودانية بالعمل كموظفة في مصلحة الاقتصاد والتجارة. كانت تخرج من دارها بأم درمان فتستقل الترام يرافقها أخوها حَتّى باب المكتب في الخرطوم ثُمَّ يعود بها بعد ساعات العمل بنفس الصورة.. كانت ترتدي ثوباً محتشماً وتغطي وجهها إلاّ العينين.. ومع ذلك كانت تتعرَّض للسباب والحصب بالحجارة من قبل

الدهماء الذين اعتبروا تجربتها تمرداً على الأعراف والتقاليد. وحَتَّى في داخل المكتب لَمْ تسلم من تزمت زملائها الموظفين الذين رفض البعض منهم مجرد التعامل معها في إطار العمل، وأقسم بعضهم بالطلاق على ألا يجلس في غرفة واحدة مع «حرمة». ومع ذلك لَمْ يمض أكثر من عامين حَتَّى بلغ عدد الموظفات تسع فتيات ممن أكملن تعليمهن الثانوي في المدارس الأجنبية والتحقن بمصلحة الاقتصاد والتجارة، ولَمْ تكن تلك تجربة الفتاة الأولى في العمل بالسلك الوظيفي.. فقد سبقت إلى ذلك فتاتان هما أسماء قرنفلي وأنيزي جمعة سعيد اللتان التحقتا بمصلحة التلفونات في عام 1920.

لَمْ يدرك هؤلاء الحمقى أنَّ للمرأة السودانية تاريخاً طويلاً حافلاً بالمآثر والمواقف الجليلة، ولَمْ يعلموا أنَّ الكنداكة، الملكة التي حمت مروي حَتَّى عام 25 ق.م إستطاعت أنْ تدحر الحامية الرومانية في كلّ من جزيرة الفيلة وأسوان. وأنَّ قائمة أركل احتشدت بملكات أخريات إزدانت بهن حضارتا نبتة ومروي، وإنَّ أمان رتس بنت الملك كاشتا (715-664ق.م) حكمت الوجه القبلي من مصر على عهد أخيها، وقد وصفها نعوم شقير بقوله:« ولهذه الملكة في متحف الجيزة تمثال من حجر الجرانيت بقد أهيف وقوام رشيق ووجه صبوح جميل يزينه التاج على رأسها والأساور العريضة في معصميها والحجول الكبيرة في رسغيها على مثال أساور السودانيات وحجولهن هذه الأيام».

وفي المجتمعات الرعوية القديمة في السودان القديم برزت المرأة إلى جانب الرجل بمشاركتها في الحياة الإقتصادية والإجتماعية للقبيلة. وقد تولت قيادتها الفعلية في المعارك والمصادمات مثلما فعلت شغبة المرغومابية في البطانة وبكرة بنت مكابر الجعلية التي كانت مقاتلة شرسة حَتَّى أنَّها تمنعت عن الزواج وارتضته بعد حين فانجبت عليّاً- ومازالت منطقة جبل أم علي تعرف باسمها. وفي مجال العلم برزت شيخات عالمات أدرن الخلاوي وعلمن النساء، يذكر

التاريخ كثيراً منهن أمثال فاطمة بنت جابر التي علمت القرآن في خلوتها بقرية ترانج القريبة من كريمة -إلى جانب أخويها إبراهيم وعبدالرحمن- وهناك عائشة بنت ود قدال التي درست بخلوتها بجهة جبل الأولياء. كثيراً من النساء والرجال. وفي الشرق بمناطق البجا اعتمد التدريس في الخلاوي أساساً على النساء. وفي الغرب يفترض أنْ تكون زوجة شيخ الخلوة مثله تحفظ القرآن وتدرسه في الخلاوي وبرزت هناك شيخات متفقهات أنشأن الخلاوي بأنفسهن وأكثرهن من قبائل الفور والبرقو والمساليت».

وحين إندلعت الثورة المهدية أطلقت طاقات النساء فشاركن في المعارك منذ الوهلة الأولى.. وصحبن أزواجهن وإخوانهن يحمين ظهورهم ويضمدن جراحهم ويقاتلن خلف الجيش يحملن العصي الغليظة ويهزجن بالأناشيد الحماسية. ويذكر التاريخ رابحة بنت مرعي الكنانية التي سارت على قدميها ثلاثة أيام بلياليها فشقت الفيافي والوهاد والغابات الموحشة. لَمْ تخش السباع ولا الضباع حَتّى وصلت إلى معسكر الإمام المهدي في قدير فأبلغته بتحرك قوات العدو من فشودة لقتاله..فاستعد لذلك وأذاق القوة مرارة الهزيمة في أقل من ساعة. وكذلك الحاجة ست البنات أم سيف التي حملت أمر التسليم إلى صالح ود المك في فداسي.. وواصلت مشاركتها في معارك الثورة حَتّى حصار الخرطوم حيث إستشهدت في أغسطس 1884 هي وعدد من إمائها المقاتلات. كما سقطت شهيدات أخريات أمثال خديجة بنت سوركتي، وفاطمة بنت أم الحسن، اللتين كانتا تعالجان الجرحى.

كان الإمام المهدي براً عطوفاً على النساء يحترمهن ويقدرهن ويمتلىء خطابه بتوقيرهن والعمل على حل مشاكلهن -وكان يتدخل حين يستشرنه في تفاصيل حياتهن. وكان يستبشر بميلاد البنات. وقد تمنى أنْ ينجب مئة من الفتيات ليصاهر القبائل، وذلك في سعيه نحو صهر الأمة السودانية وتحقيق

وحدتها الكبرى.

وفي المهدية تَمَّ إلغاء نظام التعليم المرتبط بثقافة الإحتلال التركي وتم تشجيع الخلاوي لتعليم الجنسين فانتشرت في أم درمان ومناطق الدامر، والعمراب بشندي والجزيرة إسلانج والجريف، وحلفاية الملوك، واستمر معظم هذه الخلاوي حَتَّى الحكم الثنائي، وقد برزت نساء شيخات متفقهات خلال سنوات المهدية كن يطفن بالبيوت لتعليم النساء.

في العهد التركي بدأ المبشرون المسيحيون نشاطهم في السودان عام 1846 وشمل مناطق مختلفة.. فأقاموا مدارس مختلفة للأطفال يعلمونهم القراءة والكتابة والحساب والنجارة والبناء والرسم والغناء والموسيقى. وأخذت المرأة بنصيب وافر من تلك التجربة فتعلمن اللغات الأجنبية وخاصة الإيطالية الأمر الذي مكن البارزات منهن من السفر إلى مصر وإيطاليا. وقد ذكر الأب اليأس.ف. طونيلوي في كتاب «دور الإرساليات الكاثوليكية في حركة الكشوفات الجغرافية وعلم الأجناس في السودان» أنَّ من بين هؤلاء الفتيات طريفة أوديت «من الدينكا»، وبحر النيل حسن «من دارفور»، وبخيتة ريحان من «دار مساليت»، وقد تلقين تعليمهن بمدينة فيرونا الإيطالية، وعلمت المبشرات المسيحيات النساء والفتيات في بيوتهن فن الطبخ والخياطة والتطريز ومبادىء القراءة والكتابة، كما ساعدن على تعليم كثير من الإماء بعد تحريرهن فن التوليد والتمريض.. دون أسس حديثة، ولكن ذلك شكَّل البدايات الأولى في هذا المجال.

كان الشيخ بابكر بدري طليعياً على مستوى القارة الأفريقية حين سعى في مطلع القرن العشرين لتعليم البنات في السودان، فأنشأ مدرسته الأولى عام 1907 وألحق فيها بناته وبنات الأسر القريبة من عائلته. ورغم ذلك ظلَّ هدفاً

مؤسسة نموذجية في المجتمع المدني

الإتحاد النسائي السوداني



فاطمة أحمد إبراهيم

كتبت الدكتورة فاطمة بابكر محمود بروحها الطليقة الوثابة وبجرأتها المشروعة وغضبها العادل المتسامح عن قضية المرأة فأوفت وزادت وأبدعت..كتابة ما عهدنا مثلها في هذا المجال.. في الدقة والتنوُّع والثراء والتناول الصارم.. وهي الأكاديمية الحاذقة بلا ريب والأديبة الكاتبة المتمردة.. طرقت الدروب الوعرة لازاد لها سوى الإيمان بإنسانية الإنسان وبقضية أختها المعذبة. أجبرتني أنْ أعود إليها.. وما كنت أظن أني سأفعل بعد تقديم كتابها في الأسبوع الماضي.. عدت هكذا بخطى ربما لا تكون منتظمة لأنّ مؤلفها «المرأة الأفريقية بين الإرث والحداثة» يلح عليك أنْ تعود إليه بين لحظة وأخرى.. أتحسسه في كلّ وقت وهو على مكتبي.. أحاول أنْ اقتنص شيئاً.. إلّا أنّه يحتاج لقراءة متأنية عميقة.. تستمتع بما فيه وتستزيد فتجد المزيد.. فما يحتويه يلح عليك يشكّل هاجساً وفرحاً مخبوءاً. إستوقفني تناولها لتجربة المنظمات التي إبتدعتها المرأة السودانية

قيادات الإتحاد النسائي البارزات، كما أصبحت رئيسة لإتحاد نساء العالم كأول عربية وأفريقية تشغل هذا المنصب الرفيع. كما كانت أول نائبة برلمانية في المحيطين العربي والأفريقي، وتقيم الآن في العاصمة البريطانية.

وقد خاضت المعلمة المقتدرة والأديبة البارعة الأستاذة ملكة الدار محمد عبدالله مغامرة باكرة وجديرة بالثناء حين أصدرت روايتها «الفراغ العريض». وذلك بعد أنْ باتت واحدة من كتاب القصة القصيرة المبدعين.

لقد استطاعت المرأة السودانية تحقيق ذاتها وأثبتت جدارتها وقدراتها في الإعتماد عليها.. وشغلت أرفع المناصب وتولت حقائب وزارية.. وظلّت تزود عن أسرتها وتحمي أطفالها في كلّ الظروف القاسية التي مرّ بها الوطن. وفي هذه الأيام الصعبة التي فرضت الهجرة على الرجل وقفت المرأة السودانية سندا له في غيابه وحضوره، كما إضطرت في كثير من الأحيان للهجرة أيضاً في سبيل تحسين ظروف العيش لها ولعائلتها. وإستطاعت أنْ تصمد في المنافي البعيدة وتكتسب خبرات جديدة وتنهل من المعارف في الجامعات ومجالات العمل المختلفة. وفي ظروف الحرب بالجنوب ظلّت المرأة السودانية تدافع عن وجودها وتعمل على إستمرار الحياة.

تعكف المثقفات السودانيات الآن على كتابة تاريخ المرأة السودانية.. فعقدن الندوات وقدمن المحاضرات، وأخذت مساهماتهن تترى في هذا الشأن. كما اتسعت حركة التوثيق لتضيف تجربة جديدة لنشاط المرأة وتنوّع اتهاماتها، وقد قدمت الدكتورة حاجة كاشف بدري مؤلفاً في غاية التماسك والثراء بعنوان «الحركة النسائية في السودان». إستطاعت من خلاله أنْ تنفذ إلى التجربة التاريخية للمرأة السودانية. وقدمت نماذج ساطعة للنساء السودانيات ودورهن في الحياة السّياسية والثقافية.

والدكتورة حاجة كاشف جزء أصيل من معارك شعبنا الوطنية، وهي من أوائل الخريجات الجامعيات، وقد إنغمست في العمل الوطني والنشاط الثقافي والإجتماعي والنقابي. واكتسبت تجارب في غاية الأهمية، الأمر الذي انعكس بشكل واضح على مؤلفها النفيس الذي صدر في الخرطوم عام 1984.

2 أبريل 2002م



ملكة الدار محمد عبدالله

« المرأة الأفريقية بين الارث والحداثة »

د. فاطمة بابكر محمود



صدر في العاصمة البريطانية أخيراً كتاب « المرأة الأفريقية بين الارث والحداثة» للدكتورة فاطمة بابكر محمود كمساهمة بارزة في الكتابة حول هذه القضية الشائكة والمعقدة والتي تشغل حيزاً كبيراً من الإهتمام. واشتمل الكتاب برؤيته الشاملة العميقة على نماذج ورؤى حول التجربة الإنسانية للمرأة بصفة عامّة. كما تناول تجارب النساء الأفريقيات في كينيا ومصر والسودان بصورة خاصة.

ويقول الدكتور محمد سليمان محمد مدير معهد البديل الأفريقي ومقره في لندن إنّ هذا الكتاب يلبي حاجة ملحة في نضال المرأة السودانية من أجل تحررها وإعلاء كرامتها الإنسانية، وهو يسد ثغرة في المكتبة العربية في مجال القضايا العلمية والنظرية لحركات النسائية الأفريقية عامّة والسودانية خاصة. إنّه حصيلة سنوات طويلة من العمل والدراسة والبحث.

والدكتورة فاطمة بابكر محمود ناشطة سّياسية سودانية معروفة وعاملة في مجالات العمل العام والدفاع عن المرأة. وهي أيضاً أكاديمية بارزة حاضرت في جامعة الخرطوم والجامعات البريطانية. وقد تلقت تعليمها في شعبة العلوم السّياسية كلية الاقتصاد والدراسات الإجتماعية بجامعة الخرطوم وجامعة «هل» بالمملكة المتحدة. منتخبة باللجنة المركزية للإتحاد النسائي السوداني منذ عام 1970 ورئيسة المنظمة النسائية لحركة «البان-أفريكان». كما أنّها عضوة مؤسسة لكلٍّ من إتحاد الكُتّاب السودانيين والمنظمة السودانية لحقوق الإنسان. لها عدة مؤلفات والعديد من الأوراق البحثية. من أهم مؤلفاتها «البرجوازية السودانية: هل هي طليعة للتنمية؟» ويتركز إهتمامها على قضايا المرأة والاقتصاد السوداني والإسكان. وهي تقيم حالياً في لندن مع زوجها الدكتور محمد سليمان وابنتهما عزة.

وقد تلقينا منها بكلّ امتنان نسخة من هذا الكتاب القيّم المليء بالمعلومات والوثائق والذي قام بتحريره الدكتور صلاح آل بندر بلغة رفيعة زانت المحتوى العميق لهذا العمل الفكري المتميّز. نتمنى أنْ تتاح لنا فرصة أوسع حتّى نتناول شيئاً يلقي ضوءاً على أهمية هذا العمل قبل توزيعه والذي سيتمّ بإذن الله خلال الأيام المقبلة.

1 أكتوبر 2002

كانت لمشاركة الدكتورة خالدة زاهر التي خرجت في أول مظاهرة ضد الاستعمار في عام 1946 والأستاذة فاطمة طالب اللتين سبق أنْ أسستا «رابطة الفتيات الثقافية» أثر بارز في دفع المبادرة لحشد المتعلمات لإنشاء تنظيم «الإتحاد النسائي»

ولا بدَّ أنَّ هؤلاء الرائدات قد تأثرن بالحركة النسوية المصرية وقائداتها مثل هدى شعراوي بالإضافة إلى حركة التحرير التي شملت المستعمرات الأفريقية والآسيوية خلال الحرب العالمية الثانية. كما كن قريبات من تطوُّرات الحركة الوطنية السودانية.. ولن نكون بعيدين عن الحقيقة إذا قلنا إنَّ هذا الإتحاد نشأ في أحضان تلك الحركة. كما أنّه تزامن مع بروز حركة اليسار السوداني - الذي كان أول تنظيم يفتح باب عضويته للنساء - وكانت خالدة زاهر من بين أعضائه البارزين. ولا شكَّ في أنَّ كثيراً من الأساليب التنظيمية التي إبتدعها اليسار تمت الإستفادة منها في بناء تنظيم الإتحاد.

في المرحلة ما بين 1952 و 1965 طرح «الإتحاد النسائي» برنامجاً يدعو للتقدُّم الإقتصادي والإجتماعي - كان متقدِّماً نسبياً على تقاليد المجتمع السوداني عهد ذاك وخاصة في الريف- حيث طالب بتعليم المرأة ومساواة الأجور وتغيير قوانين الأحوال الشخصية. كما دعا لمحاربة العادات الضارة مثل الشلوخ وغلاء المهور والإنفاق البذخي في المناسبات. وركز على مسألة نشر الوعي ومحاربة الأمية وأنشأ فصولاً مسائية لمحو الأمية في بعض مدارس العاصمة ومدن الأقاليم.. وبادر الإتحاد النسائي أيضاً بإنشاء مدرسة وسطى للبنات في حي الخرطوم جنوب.. كانت أول مدرسة للبنات يقوم بتأسيسها تنظيم غير حكومي. ومنذ ذلك الوقت بدأ التفكير في إضافة القسم الثانوي الذي صادرته سلطة نميري في عام 1969.

لتحرير ذاتها وتأكيد عزمها على تحديد مصيرها ومشاركتها في صنع مستقبل بلادها.

تحدثت عن تجربة المرأة السودانية منذ أنْ كانت شيخة تؤسس الخلاوي لتعليم الصبية والصبيات.. حين نهضت معلمة مثابرة أو «حوارة» متألقة في كلّ العهود التي تواترت الينا أخبارها حَتّى القرن العشرين الذي شهد طفرة الإنسان الكبرى. وحين بدأ التعليم الزمني إستطاعت المرأة السودانية ولوج المؤسسات التعليمية العليا وتخرجت فيها فبرز دورها المشهود.

شدني ماكتبته عن الإتحاد النسائي والدور الذي لعبه في الحياة السودانية كإحدى المؤسسات البارزة في المجتمع المدني، رغم ما تردَّد عن ارتباطاته بتنظيم حزبي معين. وأوضحت ملابسات تلك العلاقة بكلّ جرأة وشفافية.. فهي عضوة قيادية منتخبة باللجنة المركزية لذلك الإتحاد منذ عام 1970. تلك المؤسسة ذات الصوت الجهير والتي ماعدنا نسمع عن نشاط لها منذ زمان ليس بالقصير. ران عليها ماران على مؤسسات المجتمع المدني من سكون وموات ألحقته بها معاول الهدم والتخريب.

تناولت الكاتبة تجارب التجمُّعات النسوية الباكرة مثل «النادي النسائي» الذي نشأ بمدينة ودمدني في عام 1926 وجمع لفيفاً من زوجات كبار الموظفين بمشروع الجزيرة وبمبادرة من زوجات البريطانيين العاملين في خدمة الحكومة الاستعمارية عهذ ذاك. وكان هدفه لا يعدو التسلية والترفيه. ولكن سرعان ما انفض سامره حين رأى فيه الوطنيون خروجاً عن التقاليد والعادات فأثرت النساء السودانيات عدم إرتياده وتوقف نشاطه. وفي عام 1928 تكونت أيضاً جمعية المرشدات الكشفية التي أسستها البريطانيات واقتصرت عضويتها عليهن بالإضافة إلى بنات الجاليات الأجنبية الأخرى كالأرمن والاغريق والشوام.

إستمر كذلك حَتّى فتح باب عضويته للسودانيات في عام 1948.

نشأت «رابطة الفتيات الثقافية» في عام 1946 وضمت عدداً من بنات الموظفين والمتعلمين ممن كانت أعمارهن تتراوح ما بين 18 و 22 عاماً.. وذلك بقيادة مجموعة من متعلمات أم درمان برئاسة خالدة زاهر السادات التي أصبحت فيما بعد أول طبيبة سودانية وسكرتارية فاطمة طالب إسماعيل التي عملت حَتّى وفاتها بمجال التعليم. إستمرت هذه الرابطة لمدّة أربع سنوات أنشأن خلالها أول مدرسة مسائية لمحو أمية النساء وروضة للأطفال.

كان ذلك إرهاصاً لتبلور وعي المرأة السودانية وإحساسها بضرورة إشاعة التعليم وسط النساء لتأكيد انتشار ذلك الوعي حَتّى يستطعن الإمساك بقضايا تحررهن. تصاعدت الحركة الوطنية وبلغت ذورتها في سنوات الأربعين من القرن الماضي وساهمت المرأة السودانية بنصيب وافر في الأحداث السّياسية والحركة المطلبية للعاملين وشاركت الممرضات لأول مرّة في تنظيم تظاهرة مع زملائهن في نقابة عمال وعاملات وزارة الصحة. وفي عام 1955 فازت إحدى الممرضات بعضوية اللجنة المركزية للنقابة. أما «إتحاد المعلمات الثقافي» فقد تأسس في عام 1948 ثُمَّ لَمْ يلبث أنْ تطوّر بقيادة الأستاذة نفيسة المليك وأخريات وتحوّل إلى تنظيم مطلبي في عام 1949 هو نقابة المعلمات فاعترفت به السلطات وتم تسجيله رسمياً في ديسمبر 1951.

سبق تكوين الإتحاد النسائي السوداني في مطلع عام 1952 نشؤ تنظيمات نسوية أخرى مثل نادي ودمدني النسائي الذي تأسس في عام 1944 والجمعية الخيرية النسائية بمدينة الأبيض في عام 1951 و«إتحاد النساء الناطقات بالإنجليزية» – الذي أسسته الإدارة البريطانية عام 1947 وجمعية «نهضة المرأة» التي أسستها السيدة رحمة عبدالله جادالله (والدة السيد الصادق المهدي) عام

1949، ثُمَّ جمعية الثقافة النسوية والتي تكونت بعد الإتحاد النسائي عام 1954.

جميع هذه التنظيمات كانت محدودة العضوية والأهداف ولَمْ تسع لقضايا مثل تحرير المرأة أو تبلور أهدافاً سّياسية وإقتصادية وإجتماعية.

كانت صاحبة فكرة تكوين الإتحاد النسائي هي الأستاذة عزيزة مكي عثمان أزرق حين أشارت في بحث قدّمته في كلية الآداب بجامعة الخرطوم إلى أنّ مشاركة المرأة السودانية في الحركة الوطنية لا يمكن أنْ تتمّ إلّا في إطار تنظيم نسائي قومي جماهيري شامل. وبمبادرة مجموعة من المتعلمات ومن بينهن مؤسسات «رابطة الفتيات الثقافية» خالدة زاهر السادات وفاطمة طالب إسماعيل وعزيزة مكي أزرق بالإضافة إلى مجموعة أخرى بدأت المناقشات حول تنفيذ فكرة التنظيم.

وفي يناير 1952 إنعقد الاجتماع الأول بأم درمان في منزل الأستاذة عزيزة مكي حضرته 28 من المتعلمات بالعاصمة المثلثة وكانت أغلبيتهن من أم درمان.

وتشكّلت اللجنة التنفيذية الأولى للإتحاد النسائي السوداني من 15 عضوة هن: بتول أدهم (ممرضة)، وثريا أمبابي (معلمة)، وسعاد عبد الرحمن (معلمة)، وخالدة زاهر (طبيبة) وفاطمة طالب (معلمة)، وثريا الدرديري (طالبة جامعية)، ونفيسة المليك (معلمة)، وسعاد الفاتح البدوي (طالبة جامعية)، وحاجة كاشف (طالبة جامعية)، وعزيزة مكي(معلمة)، وخادم الله عثمان (ممرضة)، وفاطمة عبد الرحمن (معلمة) ومحاسن عبد العال (معلمة)، وفاطمة أحمد إبراهيم (معلمة)، وخديجة مصطفى (معلمة). وتم إختيار فاطمة طالب أول رئيسة للإتحاد.

كان من أبرز أهداف الإتحاد النسائي هي تحرر المرأة من حالة الإزدواج كأنثى في البيت وكمواطنة عاملة في المجتمع، والإهتمام بالطفولة والأمومة والدفاع عنها، والقضاء على الفقر ومحو الأمية بتحقيق التنمية الإجتماعية بالاعتماد على النفس.

كنت ألتقي بالعم ود القور أحياناً حين أكون جالساً في مكتب صديقنا وأستاذنا الراحل محمد ميرغني بركة عليه الرحمة. كان بركة قد تقاعد في أوائل سنوات الثمانين وإتخذ مكتباً له في المنطقة الواقعة شمال السوق. كُنّا نلتقي فيه أحياناً مع عدد من الأصدقاء. حين كان ود القور رئيساً للطباخين في داخلية مدرسة كوستي الأميرية الوسطى في أوائل سنوات الستين كُنّا طلاباً فيها. كما كان الأستاذ بركة معلماً يدرسنا اللغة الإنجليزية. كُنّا في القسم الخارجي إلّا أنّنا نعرف ونصادق جميع عمال المدرسة بمن فيهم طاقم المطبخ.. ود القور ومحمد ويحيى.

كشف لنا ود القور ذلك النهار أنّه عمل طاهياً للملكة آمنة وروى لنا ما رآه وما أتيحت له معرفته. لَمْ يكن حديثه ذاك جديداً على أذني فقد سمعت أطرافاً من أخبار تلك السيدة العجيبة من بين القصص والحكايات وأحداث التاريخ التي كانت ترويها لنا الوالدة التي كانت تتدفق ينبوعاً من الحديث في تلك الليالي السعيدة. وما زلنا مدينين لها –عليها الرحمة والمغفرة– فقد ظلّت مصدراً أساسياً في تكويننا المعرفي والوجداني، وطاقة ديناميكية شحذت ذواتنا وحددت توجُّهاتنا.

كانت قصة الملكة آمنة وما زالت جزءاً من تاريخ المدينة وما زالت الذاكرة تستعيدها كلما ساقتنا الظروف قرب دار العمدة ود التوم في الطرف الجنوبي لحي المرابيع. كما كنت قد قرأت –ما لا أذكره الآن– ما كتبه الدكتور مصطفى مبارك مصطفى عن الملكة آمنة وما اشتجر بينه وبين الراحل الطيب محمد الطيب من سجال حول هذا الشأن. ومصطفى باحث وقاص ظلّ يبدي إهتماماً عظيماً بمدينة كوستي التي نشأ وترعرع بين ربوعها في حي المرابيع الذي استضاف الملكة يوماً، وإنْ كان ذلك قبل ميلاده بسنوات. ومعظم القصص القصيرة التي كتبها مصطفى مبارك تدور أحداثها في تلك المدينة التي أحبها.

وكان الإتحاد النسائي في معظم الأحيان يستخدم المدارس الحكومية بعد اليوم الدراسي حيث تبدأ حصص محو الأمية في الرابعة بعد الظهر حيث تكون النساء قد فرغن من شؤون منازلهن.

تعاقبت على رئاسة الإتحاد النسائي فاطمة طالب ثُمَّ خالدة زاهر وحاجة كاشف بدري- لفترة وجيزة قبل الحكم العسكري الأول - ثُمَّ الأستاذة فاطمة أحمد إبراهيم التي ترأسته منذ عام 1965 وحَتَّى الآن.

لقي الإتحاد النسائي معارضة سافرة من قبل السلفيين منذ إنشائه وهجوماً منظماً من قبل أئمة المساجد والعناصر المتشدّدة التي رأت في طرحه خروجاً عن الدين والعادات والتقاليد. ولكنه في نفس الوقت لقي تعاطفاً ومساندة من القطاعات المستنيرة والمثقفين الذين ظلوا سنداً دائماً له.

دأب الإتحاد في سنواته الأولى على إقامة «أسبوع المرأة» في 28 يناير..وكان حدثاً مشهوداً تتلقاه جميع النساء حَتَّى الأميات منهن بكثير من الترحاب. وكان يؤم «أسبوع المرأة» الذي يقام بأم درمان كثير من النساء والرجال لحضور الندوات والمحاضرات والمشاركة في السوق الخيري. يمتد الإحتفال سبعة أيام: يوم للطفولة والأمومة و يوم للعائلات. ويوم للطالبات، ويوم للقضايا العامَّة، ويوم للمناشط الفنية، ويوم للمباريات الرياضية، والأخير لمحو الأمية. وفي ختام الأسبوع يقام حفل غنائي ساهر يشارك فيه كبار الفنانين.. يقدّمون أحدث الأغاني إلى جانب الأناشيد الوطنية وتلك التي تتناول قضية تحرر المرأة مثل اغنية الفنان حسن عطية «هيا ياسعاد وانت يا ثريا.. نعلن الجهاد ننشد الحرية». وكان الأسبوع يشتمل على المعارض للأعمال اليدوية والصور والشعارات الخاصة بتحرر المرأة، إلى جانب معارض الرسم والتطريز والخياطة والنسيج.

وكان الأطفال يشاركون بتقديم فقرات شعرية بالإضافة إلى الأغاني والأناشيد.

وكان الإتحاد النسائي أول من اهتم بالفنون الشعبية والرقص الشعبي بترويجه لرقصة الكمبلا المعروفة في جبال النوبة.

أصدر «الإتحاد النسائي» مجلته «صوت المرأة» التي شنت الحملات ضد الدجل والخرافة وعملت على تحرير النساء من كلّ أوجه التخلف. وقد لعبت دوراً سّياسياً بارزاً إبان دكتاتورية الفريق عبود وكشفت سياساته بالمقال والصورة والكاريكاتير. وكان يتمُ توزيعها بصورة واسعة ويتابعها كثير من الناس.

صورتان للملكة آمنة



مكان دار العمدة ود التوم بحي المرابيع، جنوب كوستي.
وقد قام مبنى جديد على أنقاضها

إقترب الطاهي المكلف من الدار. كان حراس من الجند واقفين. حيا هامساً وأعرب عن هويته. أفسحوا له فدخل. قاده رجل من الفناء إلى غرفة كبيرة. دفع الرجل بباب الغرفة وتأخر. تقدَّم الطاهي داخلاً. ولكنه لَمْ يلبث أنْ أجفل. تماسك ثُمَّ تقدَّم. كانت هناك سيدة مهيبة قد استوت جالسة على السرير النحاسي الضخم. بارعة الحسن ذات جلال وفخامة تبدو وقد تجاوزت الأربعين، ذهبية اللون، واسعة العينين، ذات ضفائر غليظة ترتمي على كتفيها. كانت تتزين بكثير من الحلي الذهبية.. أساور ضخمة وقرطين مستديرين يتدليان أسفل الخدين. ردت تحيته باقتضاب فهدأ روعه. وأخذت تتحدث معه في الشأن الذي جاء من أجله. وفي تلك الأثناء كانت هناك وصيفة تحمل مروحة من ريش النعام وتقف إلى جانب السرير الذي تتناثر فوقه المطارف والحشايا.

حين كان الطاهي المكلف يصف ذلك المشهد خلته يقرأ في صفحة منتزعة من كتاب ألف ليلة وليلة أو نص مكتوب عن إحدى الكنداكات في زمان مملكة مروي القديمة. أو كأنّه يعيد على مسامعنا ما كتبه الرحالة بروس حين زار شندي في القرن الثامن عشر ووصف الملكة ستنا. ذلك الوصف الذي جسّده الرسامان جحا وعلي عثمان حين رسما المرأة السودانية في ذروة أمجادها التاريخية. وكما عبُر المجذوب: «المرأة التي تغنت الحقيبة بأوصافها ومحاسنها».

كانت تلك هي الملكة آمنة التي حلت ضيفة على منزل العمدة محمد التوم – عمدة مدينة كوستي – في عام 1929 بأمر من سلطات المركز. وقد تَمَّ إخلاء الدار وتهيئتها بالصورة التي تليق بمقامها السامي الرفيع. كانت رهينة المحبس ويقوم على حراستها نفر من الشرطة ريثما تجري معها التحقيقات تمهيداً لمحاكمتها بالتهم الموجُهة إليها.

عاش الطاهي المكلف العم أحمد ود القور حَتَّى عام 1982 ليروي لنا ذلك المشهد الفريد ولولا تلك السانحة لذهبت به الأيام وانطوى إلى الأبد. حدثني العم ود القور كيف أنَّ السلطات الحكومية أسندت إليه مهمة الطبخ لهذه الشخصية الأسطورية. كان لا يزال شاباً ممتلئاً بالحيوية والعنفوان. فكان يحضر يومياً لإعداد الطعام الفاخر لجلالة الملكة. وكانت وجباتها في الغالب تتكون من الدجاج وأفراخ الحمام ولحم الضان والحساء والخضروات. وبعد الفراغ من مهمته عصراً يستأذنها في الخروج فتمد يدها إلى كيس قريب من وسادتها وتناوله جنيهات ذهبية دون أنْ تعدها فيأخذها وهو يتمتم بعبارات الشكر ويخرج ليعود في صبيحة اليوم التالي فيتكرر المشهد ثانية. وظلَّ على هذا المنوال حوالي ثلاثين يوماً حَتَّى تَمَّ ترحيلها إلى مكان سجنها. وتحدث ضاحكاً بأنّه لَمْ يضيع تلك الثروة بل شيد بها داراً في الحلة القديمة بالطوب الأحمر وادخر ما تبقى حيث انتفع به خلال سنوات ماحلة.

كبير من الرجال والنساء من ربقة العبودية فخرج بعضهم من سلطان سادتهم وأقامت لهم الحكومة مستوطنات لإيوائهم.

وكانت الحكومة قد أنشأت لجنة عرفت بقلم تحرير الرقيق وأسندت رئاستها للمستر أركل الذي جاء إدارياً ثُمَّ ما لبث أنْ تحوّل إلى عالم آثار قدَّم خدمات جليلة وفتح طريقاً للدراسات الأثرية في السودان.

شاهد الناس في تلك الفترة مستر أركل يزور القرى حاملاً أوراق الحرية متحدثاً عن ضرورة القضاء على استعباد الناس حيث لا فرق بين أسود وأحمر وأبيض. ولكن كثيراً من هؤلاء الأرقاء رفضوا إستلام تلك الأوراق بإعتبارهم أحراراً يقيمون مع سادتهم السابقين بكامل إرادتهم كأهل لهم. وأقامت الحكومة مستوطنات للأرقاء السابقين أو الأحرار الجدد مثل أسودا وأم هباب وبابنوسة. وتجمَّع غيرهم في قرى أطلقوا على بعضها أسماء بذيئة للإساءة لهؤلاء السادة. وقد أطلق الأهلون عليهم «رقيق أركن» يقصدون مستر أركل الذي أشرف على تحرير الكثيرين منهم.

وتم إعتقال عدد كبير من المالكين الذين ينتمون إلى ثلاث من القبائل التي تقيم في بادية النيل الأبيض. ولَمْ يستطع البعض منهم تحمل ظروف السجن القاسية فماتوا وهم الذين إعتادوا على حياة الدعة. يتناولون كميات من الحليب والزبدة والقشدة بالإضافة إلى لحوم الطرئد كالزراف والغزلان والأرانب ودجاج الوادي التي كانت تعج بها غابات المنطقة في ذلك الزمن البعيد.

وفي تقرير كتبه مدير مديرية النيل الأبيض في 15 مارس 1929 إلى السكرتير الإداري جاء «أنّه في وقت مبكر من عام 1928 تَمَّ في المركز الجنوبي للمديرية إكتشاف عدد من الأرقاء من قبائل البرتا المستوردين حديثاً من أثيوبيا ونتج عن ذلك إستعادة 500 رأس رقيق وأطفالهم، وبينهم عدد كبير جرى استيراده منذ

وأذكر أنَّ الطيب محمد الطيب أشار أيضاً إلى أنَّ مصطفى لا بدَّ أنْ يكون قد استقى كثيراً من المعلومات من عمه الإداري الشهير مكاوي سليمان أكرت الذي كان عليه الرحمة كنزاً من المعارف والمعلومات.

أما المستر جاكسون مفتش مركز حلفا فقد قدَّم صورة أخرى للملكة آمنة. رآها في الحبس حين قدِم منقولاً إلى المركز. كانت تقيم في دار مكوَّنة من ثلاث غرف تقضي فيها عقوبتها بالسجن. كتب عنها انطباعات عابرة في كتابه «السودان.. أيام ومسالك» لَمْ يحاول أنْ يتناول قضيتها ويغوص في تفاصيلها. ذلك على الرغم من أنَّه أدرك أنَّها شخصية مختلفة لا تماثلها امرأة أخرى من نساء بلادها. امرأة تتميَّز بالجرأة والشجاعة ذات جبروت وسطوة. قال إنَّها كانت تخيف جميع سكان تلك المنطقة حَتَّى أنَّها أمرت بطرد جميع سكان قرية أثيوبية كانت في الجوار. وصف حالها عند إعتقالها حين أطبق عليها مستر مكلارين وجنوده يحاصرون دارها ذات ليلة. ظلَّت رابطة الجأش رغم الاضطراب الذي ساد منزلها والخوف الذي اعترى أعوانها. أصرت على ارتداء حذائها بكعبه العالي وجواربها الحريرية. لَمْ تكتف بذلك بل رفضت التوجُّه مع مكلارين حَتَّى وضعت شيئاً من البودرة على أنفها واعتمرت قبعتها. سلوك أوروبي، لا ريب أنَّها إكتسبته من أوساط أرستقراطية الأمهرة خلال إقامتها في أثيوبيا. فقد كانت قرينة خوجلي ود الحسن الذي هاجر آباؤه إلى الحبشة خلال أيام المهدية. وينحدر أسلافه من المتمة. قال جاكسون إنَّ خوجلي كان يتظاهر بالاستقامة في العمل التجاري ويبدي إستعداده للعاهل الأثيوبي بدفع ألف أوقية من الذهب إذا تَمَّ ضبطه في إحدى المخالفات. بعث خوجلي ود الحسن بزوجته لتقيم داخل الحدود السودانية. إتخذت إحدى القرى مقراً لها واعترفت الحكومة السودانية بوجودها حين عينتها عمدة يمتد سلطانها في رقعة واسعة تجاوزتها هي بنفوذها وسطوتها وأحكمت سيطرتها على الأهلين المساكين. وصف جاكسون إستقبالها

لمفتش المركز الإنجليزي حين كان يزورها فتحيطه بمظاهر الفخامة والترف وتقيم سرادقاً فاخراً تفرشه بأنواع من السجاد النادر تتناثر عليه أرائك أنيقة جاءت بها من أثيوبيا. وقال إنّها كانت تتحدث العربية وتفهمها بشكل جيد إلّا أنّها كانت تصر على التحدُّث بالأمهرية حَتّى تتعرف على مضيفها بشكل وطيد. كانت تتظاهر بأنّها ممثل للحكومة إلّا أنّها في الواقع كانت وكيلاً لأعمال زوجها الذي وصفه جاكسون بالوضاعة والمكر حيث إستطاع تفادي الوقوع في يد السلطة لسنوات طويلة. ولما أحسَّ أنَّ الأرض باتت تميد تحت قدميه حَتّى بعث بزوجته إلى داخل الحدود السودانية للتوسع في تجارة الرقيق التي إستطاع من خلالها أنْ يجمع ثروته الطائلة. لقبها بالست ولَمْ ترد كلمة الملكة فيما كتب. لقب الملكة كان متداولاً في الأوساط السودانية أما الإنجليز في تقاريرهم فكانوا يكتبون الست آمنة. وصفها جاكسون بالمجرمة إلّا أنّه لَمْ يستطع تجاهل مظاهر العظمة الملوكية التي كانت تحيط بها نفسها ولا الضجر الأرستقراطي التي كانت تعبّر عنه بضيقها وتبرمها من جفاف الطقس في حلفا.

كان جاكسون قد عمل إدارياً في حكومة السودان منذ أوائل القرن العشرين. وقد أحبَّ هذه البلاد وكتب عنها بشغف وحماس. وقد تنقل ما بين أم درمان والحلفاية والكاملين وسنار ومناطق الشلك والنوير في جنوب السودان. وقد رسم صوراً قلمية نادرة. وفي عام 1929 تَمّ نقله مفتشاً لمركز حلفا حيث وجد الملكة آمنة سجينة في تلك المدينة. وأفسح لها فيما بعد صفحتين في كتابه «سودان.. ديز آند ويز». وقد صدرت طبعته الأولى في أبريل عام 1954 ولَمْ يترجم حَتّى الآن. وقد صدرت له مؤلفات أخرى هي، «عثمان دقنة» «وسن النار» «والعاج الأسود والأبيض» «والنوير في أعالي النيل» «والسودانيون المقاتلون» «وغردون باشا» (وهو الوحيد الذي تمت ترجمته إلى العربية). ما زلت ألهج بالشكر لابن شقيقتي الأستاذ صديق مصطفى أبو قرجة الذي أتاح لي فرصة قراءة هذا

الكتاب من بين كتب أخرى عن السودان حملها إليّ عند حضوره من الولايات المتحدة في إجازته الأخيرة.

في أوائل عام 1928 وقع حادث قتل في منطقة تقع جنوب غرب مركز كوستي، أفضى ذلك الحادث إلى تطوُّرات أدت إلى كشف أمور خطيرة كانت تجري في تلك المنطقة. فالرق كان قائماً كأنْ لَمْ يمر أكثر من ربع قرن على إلغائه بموجب إتفاقية عام 1899. تلك الإتفاقية كانت قد ألغت الاتجار في البشر إلَّا أنّها سمحت بتدرج تحرير الرقيق المنزلي لإعتبارات إجتماعية. وقد توقفت بالفعل تلك التجارة البغيضة ولَمْ تبرز مشكلات بهذا الشأن حَتَّى انكشف المستور في تلك المنطقة. دفعت سلطات مركز كوستي بشرطتها إلى مكان الحادث الذي كان ضحيته رقيقاً قتله سيده. فكشفت التحقيقات عن وجود عدد كبير من الرقيق كان يصل إلى ذلك المكان من داخل المناطق الحدودية. وقادت التحقيقات إلى أنَّ هناك سيدة تدعي آمنة يلقبها الأهالي بالملكة تدير تجارة غير مشروعة من داخل مملكتها الصغيرة. كانت تبسط نفوذاً على الأهالي البسطاء وتستغل بؤسهم وسذاجتهم بالتصرف في أبنائهم ببيعهم إلى وسطاء أو مشترين قادمين من مناطق النيل الأبيض. إستمر الحال لسنوات عديدة حَتَّى تَمَّ الكشف عن ذلك النشاط الخطير. كما كانت تمارس نشاطاً تجارياً آخر للتغطية على تجارتها الأثمة فتقوم بتعدين الذهب بعد الحصول على التبر من الوديان ومساقط المياه المتدفقة من الهضبة الأثيوبية. وتصنع جنيهات من الذهب عليها ختمها تحاكي بها جنيهات الذهب الإنجليزية.

نشطت سلطات مركز كوستي واندفعت شرطتها في البوادي الجنوبية والجنوبية الغربية للبحث عن ضحايا تجارة الرقيق. فاضطربت المنطقة وأخذ مالكو الرقيق في إخفائهم في الغابات والوديان وبمختلف الأساليب. وعلى الرغم من ذلك تَمَّ القبض على عدد من الآثمين فأودعوا السجن في مدينة كوستي. وتم تحرير عدد

بالموت حَتّى أوقفوا تقدُّمهم.. واحتدمت المعارك ثلاثة أيام تصدعت خلالها طوابي المحاصرين نتيجة القصف المدفعي وقتل صفوة الفرسان..

ولما حاول الأمير شيخ فضله أحمد نجدتهم من موقعه في النيل الأبيض تصدت له قوة حكومية عرقلت تحركه. وعندما بلغته الشائعات بمقتل أبو قرجة لوى عنان فرسه وأراد أنْ يهاجم قوات العدو وحده لولا أنْ أمسك به الحاضرون ومنعوه من محاولة الهجوم الانتحاري.. كانت تلك المعركة أشبه بالملاحم الإغريقية خاضها شعبنا ضد الغزاة الأجانب.. فالحصار إستمر رغم تلك الانتكاسة العسكرية وتم تعزيز قوات الثوار بالأمير عبد الرحمن النجومي وتحركت القوات الرئيسية بقيادة الإمام المهدي نفسه من كردفان لتحتل مواقعها بأم درمان.. ولَمْ يلبث أنْ صدر القرار باقتحام العاصمة وتحريرها.. وقد تَمَّ ذلك في صبيحة الإثنين 26 يناير 1885.

المرأة السودانية ظلَّت طوال تاريخها أختاً للرجال.. فالكنداكات ملكات مروي شيدن الحضارة وقاتلن الغزاة.. ومهيرة بنت عبود إمتطت هجينها في صباح يوم راعف بالدم تستنهض فرسان قبيلتها لمواجهة المعتدين.

وحفظ التاريخ لبنونة بنت المك نمر حقّها.. فقد كتبت شعرا يفور بالحماسة والمعاني الثورية.. مثلما فعلت شغبة المورغمابية التي جسّدت قيم القبيلة في أشعار جميلة باتت جزءا من التراث الذي يعكس واقعاً اجتماعياً رافضاً للاستكانة والضعف. وهناك شاعرات أخريات كتبن شعراً وطنياً خلال منعطفات تاريخية حادة.. وقد خاطبت بنت المكاوي الإمام المهدي بأبيات مدهشة بقولها:

طبل العز ضرب هوينه في البـــرزه

وغير طبل أم كبان أنا ما بشوف عزه

كان طال الوبر واسيه بالجـــــــزه

الحرب. وصدرت أحكام بالسجن على بضع مئات من الضالعين في تجارة الرقيق. وجرى تبيان طرق قوافل الرقيق من الحبشة وكشف شعابها ومخابئها، وأرسلت المعلومات للمديريات الأخرى، خاصة مديرية الفونج. ولضمان تسجيل كلّ الأرقاء المسترقين حديثاً، تقرَّر تسجيل كلّ السود المنحدرين من صلب الرقيق. كما تقرَّر إصدار أوراق الحرية لكلّ من يتطلب وضعه نوعاً من الحماية ولكلّ شخص آخر يطلبها».

أما مدير مديرية الفونج فقد كتب إلى السكرتير الإداري في 24 فبراير 1929 يقول «يبدو أنّ الوطاويط على جانبي الحدود قد إستجابوا للأمر لكنّ ما هو جدير بالإشارة حقاً أنّ كلّ حالات الاسترقاق لَمْ تشمل أشخاصاً يقيمون في السودان. كان كلُّ الأرقاء من أثيوبيا إضافة إلى ذلك فتجارة الرقيق بجملتها كانت في أيدي عائلة خوجلي. ولَمْ تحدث أية حادثة ذات أهمية من «الشيخ تورا قور» أو الشيخ حمدان أبو قور؟ تَمّ إعتقال الست آمنة وقدمت للمحاكمة وأدينت وألغيت عموديتها، وانسحب أقاربها إلى أثيوبيا، كما تَمّ إعتقال الوطاويط المتورطين وأرسلوا إلى كوستي للمحاكمة، وهرب آخرون إلى أثيوبيا وانفضح أمر عمدة بلوارا وجُرِد من العمودية. وبشكل عام يمكن القول، دون مبالغة إنّ تجارة الرقيق قد إنقضت.

خرجت شرطة مركز كوستي إلى البادية الجنوبية للمركز حيث الرعاة يجوسون الفلوات بقطعان الماشية. كانوا يبحثون عن إفادات تعزز الاتهامات المتعلقة ببيع الرقيق. عثروا على شابين يرعيان قطيعاً من الماشية. استجوباهما فقاد الحديث إلى الكشف عن جريمة ظلّت غامضة لأكثر من اثني عشر عاماً. ففي حوالي عام 1916م خرج علوان وعساكر (من قبيلة سليم) يصحبهما الختيم بانديه (وهو تعايشي) إلى المنطقة الحدودية بين السودان والحبشة لشراء أسلحة نارية. ولمَّا كان علوان يملك من المال أكثر من صاحبيه فقد اشترى رقيقاً (صبيين وفتاة).

وفي الطريق تآمر الإثنان على علوان فقتلاه على مرأى من الأسرى الصغار. باع القاتلان الولدين لرجل من الجمع يدعي إبراهيم الشاهر والفتاة لأحد شيوخ العليقة. انتابت الشكوك ذوي القتيل علوان وذهبوا يقتفون أثر الرحلة الدامية. ولَمْ يعثروا على دليل فأبلغوا سلطات مركز كوستي التي باشرت تحقيقاً مع عساكر وباندية. ولَمْ تجد دليلاً قاطعاً فأطلقت سراحهما وظل البلاغ مفتوحاً حَتَّى عام 1928 حين عثرت الشرطة على الغلامين يرعيان أبقار الشاهر. فاعترفا بما رأياه من جريمة. وجيء بالفتاة بخيتة من قرية العليقة لتعزيز شهامة الغلامين والتعرف على المتهمين اللذين لَمْ يلبثا أنْ أدينا ونفذ فيهما حكم الإعدام. وكان أحدهما قد عمل شرطياً في أعقاب ارتكاب الجريمة وحَتَّى قبيل حدوث تلك التطوُّرات الدرامية.

لَمْ تشأ بخيتة أنْ تتوجُه إلى مكان آخر عقب إبلاغها بتحريرها ولَمْ تأبه لذلك. بل توجُهت عائدة إلى العليقة لتستأنف حياتها في تلك القرية. فقد ألفتها وألفت الشيوخ الطيبين الذين أولوها رعاية حسنة ومحضوها عطفاً وإحساناً. تميَّزت بخيتة بجمال بارع وقوام لادن حَتَّى أطلق عليها الناس في القرية لقب الفريع. تزوجت وأنجبت وعاشت طويلاً حَتَّى شهدت أحفادها جزءاً من نسيج الأعراق السودانية بنموذجه الإنساني المدهش.

الحاجة ست البنات أم سيف

عندما خف ضجيج المعركة وتوقف دوي المدافع ولَمْ يعد يسمع سوى ضرب الرصاص في أماكن متفرقة.. كان ميدان المعركة الممتد من مناطق بري وحَتَّى أقصى جنوب الجريف يغص بجثث القتلى والجرحى المحتضرين والخيول النافقة. كانت مجموعات من قوات الأنصار تغطي انسحابها لنقل الجثث والجرحى بعيداً عن ساحة الموت.. حينذاك عثروا على جثة الحاجة ست البنات.. كانت لا تزال ممسكة بسيفها وإلى جانبها خمس جثث لفتيات بدا أنهن كُنَّ يقاتلن إلى جانبها.. سقطن جميعهن بقذيفة مدفع وإستشهدن.. كان ذلك في الرابع عشر من أغسطس عام 1884 أثناء حصار الخرطوم. انتصرت قوات الجنرال غردون مؤقتاً وكبدت المحاصرين أكثر من 2500 قتيل.

الحاجة ست البنات إمرأة من أهالي بلدة القطنية وإحدى قريبات الأمير محمد عثمان أبو قرجة فيما سمعنا في طفولتنا من أمهاتنا وفيما روت السيدة رباح الصادق المهدي في دراسة قيمة كتبتها عن نساء أم درمان في المهدية نشرتها مجلة «كتابات» التي تصدر عن «مركز الدراسات السودانية» بالقاهرة.

حاولت جهدي أنْ أحصل على مزيد من المعلومات عن هذه الشخصية الفريدة التي امتشقت حسامها وانخرطت في النشاط العسكرة الثوري لتحرير السودان.. سيفها بات جزءاً من إسمها.. ست البنات أم سيف. كتب عنها المؤرخ محمد عبد الرحيم أسطرا قليلة في معرض تناوله لواقعة الجريف في مخطوطه عن المهدية وقال « ومن الغريب وجدت بين القتلى امرأة تدعى الحاجة ست البنات دنقلاوية من

سكان القطينة وسيفها بيدها كانت تحارب إلى أنْ لفظت النفس الأخير فلله در المتنبي حيث قال:

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال (انتهت رواية محمد عبد الرحيم). وقد علمت أيضاً أنّها كانت امرأة ثرية ورعة إستطاعت أنْ تحج البيت رغم مشقة السفر إلى الأراضي المقدسة في ذلك الزمن البعيد.. وعندما بلغتها دعوة الإمام المهدي هاجرت إليه لتقاتل في صفوف قواته. وعلمت أيضاً أنّها كانت قد حملت رسالة الأمير أبو قرجة إلى صالح ود المك في فداسي.. وقد نصبت لها خيمة بين الجيشين حَتَّى تؤدي مهمتها المتعلقة بتسليم صالح للحامية التركية في فداسي.. ويبدو أنّ الإختيار قد وقع عليها لأنّ الأتراك بدأوا يقتلون رسل الإمام المهدي كما حدث في الأبيض. وتكريماً لها على الدور الكبير الذي لعبته في سبيل الثورة.

كان لبلدة القطينة حظها الوافر من الشهداء في ذلك اليوم - يوم معركة الجريف - تجاوز السبعين شهيداً.. قيل لَمْ يعز أحد أحداً.. خرجت النساء أمام منازلهن يبكين قتلاهن ومن بينهم أشجع الفرسان وأعظمهم بلاء.. إستشهد نصر ومصطفى شقيقا الأمير أبو قرجة.. نصر اقتحم بفرسه استحكامات الأتراك ليقتل بسيفه الجنود المدفعجية فلقي مصرعه بين صفوف العدو بعد استشهاد شقيقه مصطفى.. صرعت رصاصة فرس الأمير أبو قرجة قائد قوات الحصار فانطلقت الشائعات بمقتله الأمر الذي أضعف معنويات جيش الثوار الذي لحق به الدمار بعد أنْ دكت المدفعية مواقعه.. كانت معركة عنيفة شرسة استعد لها غردون جيداً ليرفع الحصار عن المدينة وحشد أكثر من خمسة آلاف جندي بقيادة الأميرالاي محمد على بك حسين الشلالي والسر سواري خشم الموس بك الشايقي.. تقدّمت القوات فجراً تقلها خمس بواخر مدرعة بصفائح فولاذية تحمل المدافع.. وانتظمت على النيل قبالة كلّ معسكر من معسكرات قوات الحصار.. وأنزلت الجنود المشاة.. وبدأ قصف المدفعية لتعزيز هجومهم فواجههم الأنصار بثباتهم وجرأتهم واستهانتهم

الخارج فجاء أبناء الأقاليم وصاروا هم البناؤون والنجارون والميكانيكيون والكتاب. وبعد أنْ يستنيروا عن فوائد الهجرة أو حين يضايقهم «الأخشيديون» في أرزاقهم فانهم يحلقون بعيداً ويأتي من الأقاليم الأبعد من يأخذ مكانهم ولا نستطيع أنْ نهاجر كلنا..ليس هناك مكان يتسع لثلاثين مليوناً من المهاجرين ولذلك فسوف يظل السودان مأهولاً إلى قيام الساعة. ولكن بدل أنْ تسكنه قطعان من الذئاب وبعض المهاجرين من النيجر وتشاد نريد أنْ يسكنه أهله ويعرفوا فيه الحياة التي تليق بالآدميين. ماء نظيف ومدارس ومستشفيات واتصال مستمر مع العالم الخارجي» وتحدث محمد المكي عن تجربة له مع وزير الخارجية المغربي محمد بن عيسى حين كان سفيراً للرباط في واشنطن وتذكر قولاً أسره إليه بأنْ «الثقافه الأمريكية تحمل إمضاء المسيحية بكل وضوح». وأدرك بعد خمس سنوات صحة وعمق هذه المقولة حين اكتشف أنّه «تحت أغلفة الثقافة التجارية وإنتاجها الإباحي والغرائبي هناك صخرة صلدة يرتكز عليها المجتمع الأمريكي هي صخرة المسيحية التي كانت السبب الرئيسي في نشوء أمريكا من العدم. كل هذا النتاج التجاري ليس له انعكاس في الكونجرس». ولاحظ محمد المكي بمتابعته الدقيقة « أنّ المدارس ترسخ قيم العائلة والتهذيب على الطريقة القديمة نصف أمريكا ريف والنصف الأخر حضر.. صادراتها الأولى الكومبيوتر والحبوب. والريف متمسك بالقيم التقليدية وفي الحضر هناك من يتمسك بها.. وهذا ما يجعل الشقة بيننا وبينهم غير بعيدة كما يروج البعض. صحيح إنّ فكرتهم عن ديننا قد تشوشت كثيراً نظراً لما ترتكبه الأنظمة وجماعات التطرف من جرائم باسم الدين ولكن ما زال الأمريكيون يدخلون الإسلام. وجوه عديدة للاختلاف بيننا وبينهم أهمها أنهم لا يعرفون الفصل بين الفكر والعمل إذا اقتنع الأمريكي بفكرة ما فإنّه ينفذها بلا تردُّد يهجر التدخين يناصر أطفال العراق يحافظ على البيئة بالعمل وليس بالكلام والآن أصعب شيء بأمريكا هو أنْ تجد مكاناً تدخن فيه. وعلى أيامنا كانت جزيرة مانهاتن كوماً من القمامة والآن الجزيرة وأمريكا كلها من آيات النظافة. استعادوا البيئة

وإن ما عم نيل ما فرخـــــــــــــــت وزة

وكانت بنت مسيمس قد خاطبت الزبير باشا – قبلِ سنوات قليلة من ذلك – خلال إنتصاراته التي سجّلها في بحر الغزال ودار فور ولَمْ يتمكن من استثمارها في إطار حركة وطنية تستهدف الإحتلال التركي.. وقالت:

جنك تلات ورقات جيب ردهـــــــــن

صقور الجو حلقن قوم غدهـــــــــن

يا مقنع الكاشفات لي حدهـــــــــن

ويذكر التاريخ أيضاً رابحة الكنانية التي ظلَّت تمشي على قدميها لمدّة ثلاثة أيام بلياليها لتبلغ الإمام المهدي خبر تحرك حملة راشد بك أيمن من أعالي النيل.. عبرت تلك الجبال الوعرة والغابات الموحشة المليئة بالحيوانات المفترسة حَتَّى بلغت معسكره وكشفت له تحرك قوات العدو.. ليستعد لمواجهته ويحقق أحد أعظم انتصارات الثورة.

لَمْ تقف المرأة السودانية بعيداً عن قضايا شعبها ساندتها بكلّ ما إستطاعت.. وما كان استشهاد الحاجة ست البنات إلّا تتويجا لكلّ تلك المواقف.. وحَتّى عصرنا الراهن ما انفكت المرأة السودانية تجسّد عظمة شعبها وإبائه. ومن المفارقات أنْ تكون السيدة فاطمة أحمد إبراهيم أول امرأة عربية وأفريقية تحتل منصب رئيسة إتحاد نساء العالم قد انحدرت من نفس البلدة التي قدمت الحاجة ست البنات وربما تكون جدتها بالنسب.

30 يناير 2001 م



موت رائع لإمرأة شجاعة



د.إنعام البدوي

في ذلك النهار المطير من أغسطس الماضي غصت مقبرة هاتون كروس الإسلامية بالعاصمة البريطانية بعدد كبير من أفراد الجالية السودانية- علماء وأطباء ومهندسين وقانونيين وشعراء وكتاباً وصحافيين وسّياسيين وطلاباً وسيدات محزونات دامعات. أحاطوا بقبر سيدة من طراز فريد حملت نبأ موتها طيلة ثلاث سنوات قبل وقوعه ما أبلغت أحداً سوى زوجها. عاشت بين الناس بصورة طبيعية لَمْ تستجد عاطفة ولا رثاء. ظلّت في موقع عملها وهي في قمة الحيوية والنشاط كما ظلت ترتب شؤون عائلتها الصغيرة لمرحلة ما بعد غيابها. جاءت بوالدتها من الخرطوم إلى لندن ليعتاد طفلاها عليها زارت أشقاءها المقيمين في أماكن متفرقة خارج السودان وودعتهم دون أنْ تشعرهم بفداحة الخطب وقرب رحيلها. وفي أسبوعها الأخير كانت تستقبل زوارها ببشاشتها المعهودة وروحها العذبة دون أنْ يدري أحدهم أنّها قد أعدت كلّ ما يتعلق بمراسم دفنها ومكانه. تناقل أفراد الجالية السودانية نبأ وفاتها هاتفياً في ذلك المساء الحزين وحددوا المركز الإسلامي مكاناً

لإقامة الصلاة على جثمانها الطاهر. وهرعوا في صباح اليوم التالي إلى هناك فصحبت أصدقائي منهم إلى حيث التقيت بعدد كبير من الذين أعرفهم مقيمين وقادمين في عطلاتهم السنوية ومن هناك توجُّهنا إلى المقبرةالإسلامية حيث احتشد جمعهم حول القبر صامتين. وما أنْ فرغوا من الدعاء لها بالرحمة وقرأوا الفاتحة على روحها حَتّى تقدَّم زوجها الشاب متماسكاً رابط الجأش ليصافح المشعين فرداً فرداً شاكراً ومقدراً ما تكبدوه في سبيل الوصول إلى ذلك المكان القصي للمشاركة في أداء واجب العزاء والمواساة. كانت الدكتور إنعام البدوي قد تخصصت في علم الأمراض- بعد أنْ تخرجت في كلية الطب بجامعة الجزيرة- مما أتاح لها فرصة الإطلاع على حقيقة مرضها ومدى خطورته وسرعة انتشاره. فلم تذهب بها الظنون للتعلق بالأوهام في حياة بات الإستمرار فيها مستحيلاً لذا شرعت رغم تعاطيها العلاج -في ترتيب أوضاعها في صمت وبشجاعة لا يتكرر نوعها كثيراً.

علمت أنّها نشأت يتيمة الأب وقامت بتربيتها هي وأخواتها أم مثابرة جسورة إستطاعت بكدحها الشريف أنْ تمكنهم من إكمال تعليمهم في أفضل الجامعات وأنْ تورثهم كلّ فضائل وسجايا أمتها. فكانت الفقيدة إنعام أسطع مثال وأفضل نموذج لتلك التربية المترعة بالمعاني.

وفي وقت لاحق إلتقيت بإبن عم الفقيدة صالح أحمد البدوي الجنيد. وهو شخص نادر يتميَّز بأريحيته وحسن الخلق فأتحفني بمزيد من المعلومات عنها. قال إنَّ جدها من ناحية والدها هو "الجنيد" صاحب إسم مصنع السكر المعروف. ووالدها المهندس السابق بالأشغال عبدالرحمن البدوي الجنيد وجدها من ناحية والدتها هو الشيخ محمد الطيب عمر الذي وهب جلّ حياته لترقية منطقة الحلاوين. أما أمها هي السيدة المثالية آسيا محمد الطيب عمر، التي لَمْ يتخل عنها الأقربون عند رحيل زوجها. شاركوها في حمل العبء، وآزروها وخاصة والدها، الذي كان

منزله مأوى لطلاب العلم. كما وجدت العون المتواصل أيضاً من عمها محمد البدوي الجنيد.

بات وجود الجاليات السودانية في المهاجر واضحاً جلياً لَمْ يعد أفرادها يتحدثون عن عودة وشيكة.. أدركوا ما تتعرَّض إليه بلادهم من تدهور في كلّ أوجه الحياة.. خافوا على مستقبل أبنائهم وما تخبئه الأيام من محن. وما جاؤوا بجديد فالعالم منذ أنْ درج فيه الإنسان شهد حراكه المستمر من دغل إلى سهل ومن بحر إلى نهر. وبلادنا بخصوصيتها الجغرافية كانت أكثر الأماكن التي شهدت هجرات الإنسان. وفي تنوُّع ثقافاتها وتعدُّد أعراقها ما يؤكد ذلك. ما تجاوزنا الحقيقة فيما نقول. والإنسان السوداني ظلّ مقيماً في بلاده منذ الأزل جاءه من جاء وغادره من غادر إلّا أنّ العقود القليلة الماضية لَمْ تشهد هجرات كثيفة -من الخارج أو إلى الداخل- سجّلها التاريخ كان الحراك يجري داخلياً في إطار حدود السودان الجغرافية الحالية لذا كانت هجرة أو سفر بعض الأفراد القليلين إلى الخارج حَتّى قبل سنوات أمراً يثير القلق والأحزان.

ما قرأت أفضل مما كتب صديقنا وشاعر أمتنا الفذ محمد المكي إبراهيم المقيم حالياً بالولايات المتحدة عن هجرة السودانيين واغترابهم. لَمْ يكتب دراسة وإنّما أجاب بحكمة وجرأة على أسئلة في لقاء له مع مجلة «كتابات سودانية» الصادرة في ديسمبر الماضي. ما رأى في الهجرة والاستيطان في المهاجر شراً مستطيراً بل رأي في ذلك مصلحة وطنية كبرى وتنبأ للجالية السودانية في الولايات المتحدة بأنّها ستصبح ذات شأن بعد زوال العارض السّياسي الراهن. وقال إنّ لكلّ شعوب الدنيا جاليات مقيمة بأميركا وأنّ السودانيين هناك عناصر نشطة مجتهدة يتقدّمون ببطء ولكن بثقة إلى الأمام. وأشار الشاعر الحصيف الذي ينظر إلى الأشياء وينفذ إلى جوهرها بعيني الرجل الحكيم إلى أنّ «الطبيعة تمقت الفراغ. وإذا نشأ في السودان فراغ فسوف يأتي من يملأه ألا ترى ذلك يحدث الآن. هاجر أبناء المدن إلى

يزال يحتل منصبه القيادي فيه. أما عبد الخالق محجوب فقد سماه أبوه على المأمور المصري الذي اتصل بالحركة الوطنية السودانية واندلعت أول تظاهرة سياسية بأم درمان أثناء تشييع جثمانه وكان والد عز الدين على عامر قد أطلق عليه اسم علي عبد اللطيف.

أما علي عبد اللطيف القائد الأول لتلك الحركة السياسية فقد ركز فكره السياسي على وحدة السودانيين أولاً ثُمّ وحدة وادي النيل.. والواضح أنه كان يتمثل وقائع الثورة المصرية ويهتم بشكل خاص بنشاط الزعيم سعد زغلول. ولمْ تنتج تلك الحركة السياسية فكراً محدداً لأن نشاطها ركز على العمل اليومي الذي تجسّد في الاحتجاجات والتظاهرات. وكانت قيم الشجاعة والثبات تلعب دوراً كبيراً في توجيه النشاط.

والواضح مما أسلفنا من قول إنّ هذه التجربة تحتاج لمزيد من الكتابة والتمحيص لأنها ارتبطت بشكل مباشر بالتطوُرات اللاحقة.. وإنشاء مؤتمر الخريجين وتشكيل الأحزاب السّياسية.. التي قامت جميعها في منتصف سنوات الأربعين من القرن العشرين.. ولا تزال تلك الأحداث التي وقعت في تلك الفترة تلهب الخيال وتثير الشجون حيث حاول أبطالها البحث عن حقوقهم وتقرير المصير لشعبهم.. ودافعوا عن هويتهم.. وروى المؤرخون أنّهم أثناء التحقيقات معهم كانوا يصرون على أنّهم سودانيون.. ويرفض الضباط البريطانيون منهم ذلك ويعذبونهم مطالبين إياهم بذكر قبائلهم بدلاً من انتمائهم القومي.

لقد أرسى هؤلاء الرجال أسساً راسخة للقومية السودانية- على الرغم من سقوط البرنامج الذي طالما حلموا بتحقيقه، ورسموا طريقاً معبداً بدمائهم وتضحياتهم في محاولة للوصول إليه.

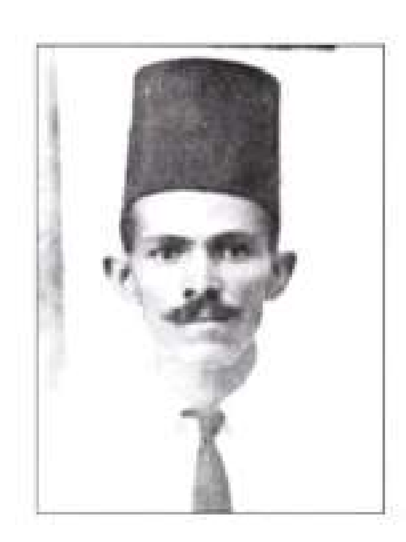
6 فبراير 2001

الطبيعية من براثن الموت. وإذا اقتنع الأمريكي بفكرة فتح جيبه ليدعمها ولو بدولار واحد. وفي العام الماضي عقدوا قمة للرؤساء الأمريكيين الأحياء كان الهدف منها تشجيع العمل الطوعي. المتطوعون في أي حارة هم الذين يراقبون الوضع الأمني ويجمعون أوراق الأشجار ويتولون حماية الأطفال والعجزة. وإذا طلب شخص المساعدة فإنّه يجد المئات مثل تلك المرأة السوداء التي أنجبت سبعة توائم فتبرع عشرات الناس. واحد لغسل الملابس وآخر لغلي البزازات وتقديم اللبن وآخر لأشغال البيت وآخر للحفاضات...الخ.

لكلّ ذلك لَمْ يخش الشاعر محمد المكي إبراهيم على الأطفال السودانيين من الحضارة الأمريكية التي تتسلل إلى الروح «وتتشربك في الواحد». لَمْ ير في ولادتهم هناك يرطنون باللسان الأمريكي ويتشربون الثقافة الأمريكية ضيراً. وأشار إلى عدم جدوى اختلاق المعاذير التي يبرر بها المغتربون بقاءهم في أمريكا حيث أصبحت هذه الهجرة واقعاً في سبيله لأنْ يكون أبدياً.

10 سبتمبر 2001

أنفاس اليسار في أحداث ١٩٢٤



صالح عبدالقادر

وقف المعتقل السّياسي أبو زيد أحمد حسين- في مشهد لا يتكرر كثيراً- خطيباً باللغة الإنجليزية في الجنود البريطانيين الذين كانوا يحيطون بسجن كوبر فهزّ مشاعرهم وأجبرتهم كلماته المؤثرة على أنْ يرفعوا قبعاتهم من فوق رؤوسهم استحساناً له وتعبيراً عن نوع من التضامن..كان ذلك في نوفمبر 1924م في ذروة الأحداث التي تلاحقت خلال تلك الأيام وأثناء التمرد الذي قاده المعتقلون السّياسيون داخل السجن.. لا شكّ أنّ مثل ذلك الموقف كان يجسّد وعياً سّياسياً عميقاً وأسلوباً للعمل والدعاية والتحريض ما كان يمكن أنْ يتأتى لشخص عادي في مثل تلك الظروف.

كان للحركة الوطنية التي برزت في حوالي عام 1921م- ممثلة في « جمعية الإتحاد السوداني» ثمّ « اللواء الأبيض زخم شديد وثراء عريض..تفجرت أحداث متسارعة وعنيفة كأنّما أعد لها إعداداً.. وقد تميزّت بالدقة في التنظيم وروح التضحية.. إلاّ أنّها تظل كما رأى المراقبون قفزة في المجهول.. قادت إلى ليل طويل لمْ يسفر صبحه إلاّ

بعد سنوات عجاف.. والغريب في أمر هذا النشاط السّياسي أنّه لَمْ يكن جميعه من نصيب «جمعية اللواء الأبيض» وذلك باعتراف السلطات البريطانية أثناء المحاكمات.. حيث برأت الجمعية من مسؤولية المشاركة في التظاهرات باستثناء ثلاث حالات فقط. وحَتّى تظاهرة أم درمان الشعبية الكبرى التي أزعجت البريطانيين لَمْ تشارك اللواء الأبيض فيها.. فما الذي كان يجري ومن الذي كان يعبئ ويحشد لتلك التظاهرات الجريئة. ليس في العاصمة وحسب وإنّما في عدد من المدن الإقليمية الأخرى؟.. على الرغم من بروز تيارين في الحركة الوطنية أحدهما التيار التقليدي الذي تزعمه زعماء الطائفية والمؤسسة القبلية وسانده البريطانيون والآخر الذي عبرت عنه جميعة «اللواء الأبيض» إلّا أنّ التغيرات التي طرأت على الواقع السوداني- ولَمْ يتمكن أحد من التعبير عنها- خلال عقدين من الزمن كانت سريعة وعميقة.. وكانت أهم العوامل لتلك التغيرات إقامة مشروع الجزيرة الذي صاحب إنشاءه وفود عناصر أجنبية- مهندسين وفنيين- من اليونان وإيطاليا وقبرص وجنوب أفريقيا حملت معها كثيراً من المفاهيم السّياسية الجديدة التي سادت في أعقاب الحرب العالمية الأولى.. وخاصة بعد تأكيد انتصار الدولة السوفيتية ودحرها للحرسيين البيض والتدخلات الأجنبية.. وذلك بالإضافة إلى التأثيرات التي أحدثها المشروع على الصعيدين الاقتصادي والإجتماعي.. فقد كان تحوُّلاً كاملاً وعميقاً.

وأشار محجوب عمر باشري في كتابه «معالم الحركة الوطنية في السودان» إشارات ذات دلالة حين تعرَّض لأحد أعضاء جمعية « اللواء الأبيض ويدعى علي أحمد صالح ووصفه بأنّه كان شاباً نابهاً تخرَّج من المدرسة الوسطى وعُرف بأناقته وإطلاعه. وقال إنّه أعجب بلينين وتعرف على رجل ماركسي يوناني اسمه اسفيكاس كان أستاذاً للفلسفة في جامعة أثينا وهرب إلى الخرطوم حيث أنشأ مكتبة. وأكد أنّ علي أحمد صالح كان يتردد عليه. وأشار باشري أيضاً إلى أنّ صالح عبد القادر- أحد الأعضاء القياديين البارزين في جمعية اللواء الأبيض- تعرف على القنصل السوفيتي بجده في

بورتسودان حيث زوده ببعض الكتب الماركسية.. ويقول باشري في كتابه أيضاً إنَّ والده تسلَّم خطاباً من خلف الله خالد بتاريخ 27 يناير 1921 يدعوه للاتصال بصالح عبد القادر الذي كان وكيلاً سفرياً في مصلحة البريد والبرق ويتسلم منه بعض الرسائل ويسلمها لشخص يدعى أبو زيد.. وأغلب الظن أنّه هو الرجل الذي شوهد يخطب في سجن كوبر بعد سنوات قليلة موضحاً قضيته للجنود البريطانيين.

أما الدكتور جعفر محمد علي بخيت فقد أورد في كتابه «النشاط الشيوعي في الشرق الأوسط.. مع إشارة خاصة لمصر والسودان» إنْ عطبرة في النصف الأول من عقد العشرينات كانت معقلاً للنشاط الشيوعي في السودان وأنّ الحزب الشيوعي المصري تغلغل إلى حد ما هناك حيث اكتشفت السلطات البريطانية في عام 1925 نسخة من برنامج الحزب المصري في الخرطوم وليس في القاهرة.

وجاء في كتاب «صدق أو لا تصدق» للرحالة أحمد حسن مطر أنّه هرب في تلك السنوات من البلاد وكانت لديه صلة بالنشاط السّياسي.. حيث ظلت تلاحقه مخابرات البريطانيين في السودان وتتبع أخباره ورسائله وحاولت أنْ تنصب له كميناً من خلال أحد أصدقائه. وقد روى هو كيف سافر إلى أوربا واتصل بالكومنتيرن وشارك في مؤتمر للشبيبة الشيوعية.

مهما يكن من حال فإنَّ هذه المشاهد المتفرقة لا تعني أنَّ تياراً يسارياً ساد في تلك السنوات وإستطاع أنْ يكون تنظيماً وقف وراء تلك الأحداث.. إلا أنّها تؤكد وصول بعض هذه الأفكار- وإن كانت بشكل مشوش- لبعض الزعامات التي كانت تبحث عن رؤية ومرجعية فكرية في نضالها لتحرير بلادها من الإحتلال الأجنبي.

وأظنه ليس غريباً أنْ نجد أبناء بعض زعماء تلك الأحداث قد شارك في النشاط السّياسي اليساري الذي تبلور في عام 1946، مثل عبد الوهاب زين العابدين عبدالتام الذي أصبح أول سكرتير سّياسي للحزب الشيوعي والتجاني الطيب بابكر الذي لا

إعدام قادتها وعن حملة قمعية شملت جميع الزعماء السّياسيين بالسجن والنفي والتشريد.. فانتهت الثورة نهاية مأساوية فاجعة وسيطر على البلاد حزن كثيف ودخلت في ليل دجوجي فاحم وطويل أُجبر فيه المثقفون على التراجع والانزواء والهجرة من الوطن وانصرف بعضهم إلى الأدب والفن كعرفات محمد عبد الله وتوفيق صالح جبريل.

لَمْ تذهب أصداء الثورة أدراج الرياح.. انعكس أثرها في الحركة الثقافية وبرزت أعمال أدبية لا تخلو من التجديد.. فالإنتاج الشعري لتوفيق صالح جبريل كان جديداً في شكله ومحتواه لا يمكن مقارنته بإنتاج أضرابه في معسكر المحافظين كعبدالله عمر البنا. وفي النثر كانت كتابات الناقد الأمين علي مدني تعتبر فتحاً إبداعياً جديداً لا مجال لمضاهاتها بما كان يكتبه حسين شريف- الصحفي الأول- في «الحضارة» رغم بلاغته وفخامة ألفاظه.. ولا يزال نُقّاد الشعر السوداني يرددون العبارة الشافية للأمين علي مدني «الشعر الجديد يتطلب ناقداً جديداً» وفي مجال الغناء برزت الموهبة الفذة للشاعر الموسيقي الفنان خليل فرح الذي إبتدع الأغنية السّياسية الحديثة وكتب قصيدة «عزة في هواك» وغيرها.. وعلى أنغام أغنية عبيد عبد النور.

يا أم ضفاير قودي الرسن

وأهتفي فليحيـــا الوطن

إندلعت تظاهرات الشعب وإهتزت شوارع العاصمة تحت أقدام العسكريين السودانيين الواثقة ولعلع الرصاص في صدور ضباط وجنود الإحتلال البريطانيين في قلب الخرطوم.

لَمْ يقتصر تأثير الثورة على هذه الجوانب وحسب وإنّما امتد إلى المسرح حيث شهد الناس عرفات -أحد قادة الثورة- ممثلاً بارعاً يشارك في عدد من

حيوية «الحزب المشاغب»

ورد في تقارير مدير مكتب المخابرات البريطانية بالخرطوم في عام 1924 أنَّ جمعية اللواء الأبيض ضمت العناصر التي قد تشكّل في المستقبل القريب «الحزب المشاغب» بإعتبارها المنظمة الرئيسية المناوئة للإدارة البريطانية.. أيّ الحزب الوطني الحديث في السودان ورأى مدير ذلك المكتب- وهو المستر ولس- أنَّ هذا التنظيم ما هو إلّا واجهة لنشاط يمارسه المصريون الوطنيون من خلال تجمُّع للسودانيين متضامن مع مصر. وظنَّ ولس أيضاً أنَّ المصريين يمولون هذا النشاط وحدد وسيطين هما محمد توفيق القاضي بمحكمة أم درمان، وحسن عبد الوهاب الضابط بالجيش المصري. وحاول حصر عضوية التنظيم- خاصة بعد أنْ سفر نشاطه في التظاهرات التي أقضت مضجع الخرطوم في ذلك الصيف الرهيب - ورأى أنَّ عضويته لا تزيد عن مائة وخمسين شخصاً.. موظفين صغار السن تتراوح أعمارهم ما بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين.. في أدنى السلم الوظيفي بالدرجتين السابعة والثامنة. وجاء في تقرير آخر للمخابرات كتب في يوليو 1924 أنَّ هؤلاء المشاغبين معظمهم من المواليد الذين تنحدر أصولهم من مصر.

والمستر وليس هذا هو الذي ورد ذكره في قصيدة للشاعر توفيق صالح جبريل- أحد مؤسسي الحركة- يهجو فيها سليمان كشة الذي اتهمه التنظيم بإفشاء أسراره لمدير مكتب المخابرات:

سليمان كان بديع الزمان
معانيه ساحرة ساخرة
هوى لا يعي ببساط الريح
وحطم مرآته الساحرة
فباع الضمير بفلس لولس
ألا أين ذمتك الطاهرة

كانت تقاريره كليلة النظر ضبابية الرؤية حين ظن أنّ معظم عضوية التنظيم من المواليد المنحدرين من أصول مصرية.. ومن أولئك الذين وصفتهم تلك التقاري بالمنبتين قبلياً.. تعني أبناء الجنود والضباط السودانيين من سلالات الرقيق الذين اقتلعهم الحكم التركي من مواطنهم في القرن التاسع عشر وعادوا من مصر ليصبحوا جزءاً من الطبقة الوسطى الجديدة.. براعمها وطلائعها المتوثبة وهي تتوق لتلعب دوراً في تشكيل مستقبل بلادها بالتحرر من النفوذ الأجنبي.. أرادت السلطات في تقاريرها هذه أنْ تحلل الأحداث وفق منظورها القائم على بنيوية مجتمع قبلي لا رابط قومي يجمعه.. فاتها أنْ تدرك أنّه قبل عقدين من السنوات فقط واجهت جيشاً قومياً واحداً للأمة يحول دونها ودون فتح البلاد.. جيشاً تصدى للآلة الحربية الحديثة التي زحفت فوق أشلائه.. ربما يكون صحيحاً أنّ جزءاً من عناصر التنظيم كان من هؤلاء وأولئك.. ولكن ذلك كان يرتبط بحقيقة التركيبة السكانية لمدن العاصمة الثلاث..وخاصة الذين أدركوا ضرورة التعليم النظامي الحديث وتخرجوا في المدارس التي تردّدت كثير من الأسر في إلحاق أبنائها بها اتقاء لشرورها المحتملة..إلّا أنّ ما أسفرت عنه الأيام أكّد أنّ التمثيل العرقي في ذلك التنظيم الذي شمل مدناً أخرى كان متكافئاً، وإن تخلفت عن ذلك الأرياف القصية بحكم تدني مستوى وعيها مثلما توفّر في التجمّعات الحضرية.

وتقارير المخابرات هذه غفلت عما كان يدور في وجدان المثقفين وقتذاك من

بوادر ثورة عارمة بعد سكون إستمر أكثر من عقدين من الزمان.. كانت رؤيتهم خلالها غائمة وحلمهم عصي التحقيق.. عجزوا عن التعبير عنه إلا بالتمثل بالماضي والأمجاد السالفة.. كتبوا شعراً رومانسياً بعيداً عن الواقع وخطبوا في المناسبات الدينية.. ولكنهم سرعان ما أدركوا أنَّ قشور الحضارة الغربية التي أدخلها المستعمرون رافقتها القبضة الأمنية الحديدية والملاحقات القمعية والسيطرة على كلِّ الأمور. كان البريطانيون خارجين لتوهم ظافرين من حرب كونية وجدوا خلالها تأييداً من زعماء البلاد التقليديين الذين كان وفدهم قد عاد من إنجلترا بعد أنْ قدَّم التهاني للملك جورج الخامس على النصر «المؤزر» مشفوعاً بسفر الولاء.

برزت الحركة الوطنية كالشهاب الساطع بدت وكأنَّها كانت بلا موعد ولا مقدمات إلَّا أنَّها عبَّرت عن أماني المثقفين وتطلعات الطبقة الوسطى وتجاوبت مع ما كان يعتمل في مصر خلال ثورة 1919. وما أعقب ذلك من مطالبات بالدستور وجلاء القوات الأجنبية لكنها لَمْ تستطعْ أنْ تقدِّم نفسها كما ينبغي.. لَمْ تلجأ لأساليب النضال الصبورة والدؤوبة.. وظلَّ فكرها مشوشاً يتراوح ما بين وحدة وادي النيل تحت التاج المصري والبحث عن القومية السودانية والدفاع عنها. إلَّا أنَّ الإجماع تلخَّص في رفض الاستعمار في كلِّ الأحوال.. مع الاحتفاظ بضرورة قيام علاقة ما مع مصر.

فجأة تفجرت الأوضاع السّياسية واندلعت التظاهرات وتلاحقت الأحداث حَتَّى بلغت منعطفاً عسكرياً خطيراً بالتظاهرة المسلحة لطلاب الكلية الحربية تضامناً مع الحركة الثورية الجديدة. تفاقمت الأحداث وأحسَّت الإدارة البريطانية بخطورتها فقرَّرت إخراج الجنود والموظفين المصرين من السودان.. فتحركت قوة عسكرية سودانية من أم درمان واصطدمت بقوات الجيش البريطاني في الخرطوم في معركة شرسة قتل فيها من الجانبين عدد كبير.. ولكنها أسفرت عن

منهم الآن سوى تسربهم الثقافي في مظاهر الأذكار الصوفية في الجزيرة، نقاقير ومواكب وجبب مزركشة. ذهبوا ولكنهم تركوا آثارهم في الثقافة السودانية وأنماط سلوكها. ولا بدَّ أنّهم أو بعضهم كانوا قد تناسلوا من الحضارة المروية التي انزاحت سياسياً وتبعثرت ثقافياً بفعل الصراع العسكري والغزو الأجنبي ولكنها بثت إشعاعها في كثير من مناطق القاره الأفريقية. وقد تكررت تلك التجربة مرات في بلاد السودان أكثر من غيره من البلدان بسبب موقعه وطبيعته الجغرافية. كما حدثت فيه إنقطاعات حضارية وثقافية منذ أنْ درج الإنسان على وجه الأرض.

رأى الأستاذ عبد الجبار في بحث البروفيسور حريز مدخلاً للتعميم النظري المخل أضر بأصله واستنتاجاته النهائية التي تصب في خانة الدفاع النظري عن مفهوم المركزية وتكريس استراتيجية النفي، ونعى عليه الحديث المشبوه حول الأعراق في السودان، وذلك حين قسم الجعليين إلى خلص «أولاد عرمان» وغير ذلك الأمر الذي من شأنه أنْ يثير الحساسيات العرقية، ليس بين الجعليين وغيرهم من المجموعات العرقية، ولكن بين الجعليين أنفسهم.

ويرى الكاتب في دراسة حريز محاولة للتوفيق بين الثقافتين العربية والأفريقية معبراً عن الحنين إلى سنار كما تجلى ذلك في أعمال مدرسة الغابة والصحراء وأسقط عليها نظرية الغش الثقافي. كما رأى في مساهمات عبد الله بولا وحسن موسى وعبد الله علي إبراهيم جدارة فكرية وتنظيراً حاسماً لما يتعلق بالهوية وهم الذين انتصروا للأفريقية رافضين نسب الغول وأوغلوا في جلد العروبيين ودعاة التوفيقية. واضعين الصراع السّياسي نصب أعينهم دون تمييز للمقاربات والمفارقات التي تميِّز الثقافي عن السّياسي.

وامتدح الكاتب فرانسيس دينج في تحليله الأحاجي قبيلة الدينكا لتوظيفه فهماً مفتوح البصيرة والذهن للاجتماعي والثقافي دون أنْ يتجاهل علاقات

المسرحيات -كما شهدوا على عبد اللطيف زعيم الثورة- يساهم في الإخراج المسرحي.

منذ البداية الأولى أدرك تنظيم حركة اللواء الأبيض أهمية التعليم فتضمنت مذكرة علي عبد اللطيف التي صودرت قبل أنْ ترى النور ضرورة التوسع في التعليم..إلاّ أنها -كما هو معروف لَمْ تستمر لتشرع في رعاية مشروع للتعليم- الأمر الذي بات من أهم واجبات الحركة الوطنية في سنواتها التالية.. حيث أضطلع مؤتمر الخريجين بمهمة التعليم الأهلي فأنشأ المدارس وتطوعت عضويته للتدريس فيها.. كما أنشأ «معهد القرش» وغيره من المؤسسات التي ترافق قيامها مع النشاط الوطني- يرفدها حماس الشعب ورغبته في التحرر والانعتاق.

13 فبراير 2001م



التظاهرة المسلحة لطلبة الكلية الحربية

رؤى جديدة حول مسألة الهوية



عبدالجبار عبدالله

أعد صديقنا الأستاذ عبد الجبار عبد الله دراسة قيمة حول موضوع الهوية في السودان الذي إتخذ في معظم الأحيان كأحد العوامل المهمة في الصراع المدمر الذي هدَّ قواه وأقعده عن التقدُّم، جاء البحث تحت عنوان: «السودان في متاهته..من الهوية إلى الوحدة أو وضع العربة أمام الحصان» مساهمة ثرية في إطار السجال الفكري الذي استعر خلال السنوات الأخيرة بين تيارات العروبيين ودعاة الأفرقة والتوفيقيين المنادين بالأفروعربية. استهله بالإشارة إلى مصير «الملك لير» المأساوي الفاجع في مسرحية الكاتب الإنجليزي الخالد ويليام شكسبير وكيف عصفت به الأهواء والصراعات الداخلية وأودت به إلى الجنون. تلك التراجيديا التي تتماهى مع ما آلت إليه الأحوال في بلاد السودان.

إستطاع الكاتب الحصيف أنْ يؤسس بحثه على رؤية نقدية ثاقبة تناول بها عملاً للبروفيسور سيد حامد حريز حول الحكاية الشعبية عند الجعليين وقد جاء العنوان للعمل المترجم إلى اللغة العربية هكذا «الحكاية الشعبية عند الجعليين.. تداخل العناصر الأفريقية والعربية الإسلامية» لَمْ يفت الكاتب أنْ ينوه بقيمة

وسبق الكتاب وريادته العلمية الأكاديمية حيث نشر في عام 1991 إلّا أنّه أبدى ملاحظات مهمة حول المحصلة المعرفية، والاستنتاجات النهائية للبحث. لَمْ يكن هو أوّل من يثير النقاش حوله إلّا أنّه أعاد النظر فيه مجدداً وأتخذه مدخلاً لهذه المسألة التي وصفها بجرح الهوية والوحدة الوطنية، القديم المتجدّد، جرح لا يغري بالتناسي فهذا هو أوان الكتابه والتمحيص والمشاركة الحثيثة والمكثفة في ما يدور الآن والبلاد تقف في مفترق الطرق لا تدري ما سيؤول إليه المصير.

يرى الكاتب أنّ أبرز ممثلي التيار العروبي هم كتاب مجلة «الفجر» ومن بينهم قيادات سّياسية نظرت إلى السودان من زاوية واحدة. اختزلته سّياسياً وجغرافياً وعرقياً وثقافياً وأنّ هذه القيادات رسخت فكرة اندياح المركز على بقية أجزاء قطر الدائرة وهي فكرة توسعية استعمارية في الأساس، إلّا أنّ تطبيقها على الواقع السوداني يقع في مستوى أدنى من مستويات التوسع والهيمنة، وتحدث عما وصفه بظاهرة «الإزاحة الثقافية، أي أنّ الثقافة المهيمنة تزيح كتلة ثقافية أخرى مكافئه لوزنها كثقافة مهيمنة وتحل محلها وتمحو شخصيتها بالكامل. تحدُث السيد باقان أموم -أحد قادة الحركة الشعبية- في مجلس خاص يوماً متسائلاً عن اللغة التي كان يتحدث بها الناس بعد سقوط مملكة سوبا عام 1504 ولَمْ يذكر لي محدثي كيف كانت الإجابة لكنّ السؤال أثار فيّ تلك الرغبات الحارة في أنْ ينكب المثقفون على دراسة تاريخهم الثقافي والإجتماعي -لا السّياسي وحده- لتعزيز معارفهم النظرية وتطوير آرائهم السّياسية وفقاً لذلك.

كانت منطقة الجزيرة تقع ضمن مملكة علوة النوبية المسيحية وعاصمتها سوبا، لَمْ تفتح ذراعيها للعناصر العربية إلّا لمن إستطاعوا التسلل في جماعات قليلة. كانت هناك لغة نوبية وثقافة ذات خصوصية ولكنها لَمْ تلبث أنْ ذابت في خضم الوافدين الجدد والمقيمين القدامى. لا أحد يدري أين ذهب «العنوج» وهم أقوام وصفتهم بعض المصادر التاريخية بطول القامة وضخامة الجسم.. ولَمْ يتبق

الدعاش.. حين قرأته خُيِّل إليّ أنَّ كلَّ السحر قد غادر نسختك بالفاكس فعادت جسداً بلا روح.. فما في نسختي كثير، وليس بعده. الحق أنني لا أستطيع أنْ أتخيَّل أنَّ النسخة التي تكرمت عليَّ بها قد غادرت شيئاً من السحر احتواه غيرها لا أدري فربما اتضح في الزمن الآتي الذي تحدث عنه النور، وقال عنه إنَّه يتشكَّل الآن في رحم الغيب، إنَّ الفاكس لا ينقل دوماً الحروف فحسب وإنَّما ينقل في بعض الأحايين روح التراكيب الفريدة المضيئة».

وجاء في الرسالة أيضاً «حامد جو لَمْ أعرفه، بل لَمْ أسمع به غير هذه الأمسية مما كتب النور، بيد أني بت أشعر أني صاحب مصيبة خاصة فيه، لا لأني من طينته لأنه ممن وصفوا بأنهم ملح الأرض. أما بشير فإنِّي أعرفه وهو لفرط حيويته يصعب على المرء تخيُّل الموت فيه. حين لاقاني النور في زيارته الكريمة، لي في أخريات الألفية الماضية في البحرين، وهي الزيارة التي أشار إليها في قصته الأخرى، ربما لَمْ نشأ أنْ نتذاكر بشيراً، لعلني من أجل ذلك لَمْ أعز النور فيه.. وبشير كانت تصادفه أحداث غريبة ونادرة، وليس أغرب من أنْ تضل بهم طائرة تهبط اضطراريا على نحو أسهم فيما بعد في الوصول إلى إتفاقية أديس أبابا»

هذا عمل إبداعي مدهش بكلِّ المقاييس النقدية لا أستطيع أنْ استمتع به وحدي دون مشاركة الآخرين لَمْ أستأذن النور بعد وأنا أحاول أنْ أقدم منه بعض المقتطفات.. علمت أنَّه عاد من الولايات المتحدة وأقام في الكويت.. ولا أعرف أكثر من ذلك.. فليغفر لي جرأتي ولا أظنه يمانع في ما ارتأيته.

قال النور حمد «إنَّ الفنانيْن الراحليْن كانا شخصيْن قلقيْن مسافريْن لا يستقر لهما قرار، صوفيان فنانان بل درويشان مجذوبان. أرادا عجن الزمان والمكان، والتهامهما في لقمة واحدة وفي دخيلة كلِّ واحد منهما إحساس بدنو الأجل، عبَّر عن نفسه في حمى التنقل التي ما برحتهما أبداً. كان بشير مثل حامد تماماً، من حيث الرغبة في التنقل وكان كلاهما يبحث عن شيء ما بحثا مضنياً. لا

التأثير والتبادل ما بين الدينكا وغيرها من القبائل ودون التعلُّق بالأوهام بتواشج ثقافة الدينكا وتأثيرها بالثقافة العربية.

توصل الأستاذ عبد الجبار شأن المثقف اللوذعي إلى أنَّ أزمة الهوية والثقافة في السودان هي جوهر الصراع السّياسي والإجتماعي بمفهومه الحقوقي السيادي ودعا إلى التسوية السّياسية عبر دستور ديمقراطي يقر الحقوق والحريات الأساسية والعامّة لكافة المواطنين دون الارتهان للانتماءات الدينية أو العرقية أو الثقافية.

اتحفنا عبد الجبار برؤية ثاقبة ومساهمة ذكية نحن في أشد الحاجة إليها في تلك الأجواء المدلهمة، وأتمنى أنْ تكون هذه الدراسة قد وجدت سبيلها للنشر لتعم فائدتها.

71 يونيو 3002م

«في كون الشلاقة عاقة» وفيض من أريج الكتابة



النور حمد

ما زلت أذكر الأستاذ بابكر أحمد موسى الشاعر والكاتب المسرحي- عليه رحمة الله- حين كان يدرسنا تاريخ أوربا في الصف الثالث (عمر) بالمؤتمر الثانوية. كان يدخل حاملاً حقيبته الجلدية التي تحتوي على كتاب «المغفلين» للجاحظ مع أغراضه الأخرى. كان إحساسه بالتاريخ عظيماً فيتحدث في تؤدة جالساً على طرف المنضدة، لا الكرسي في أغلب الأحيان يشدنا بحديثه العذب وصوته المديد. ولا يخطئك حماسه لما يقول رغم هدوئه وما زلت أذكر يوم أنْ كان يتحدث عن الإصلاح الديني في أوربا متناولاً شخصية مارتن لوثر، قال إنّ كلماته كانت تخرج من فيه كشلال من نور، فأعجبنا ذلك التشبيه وما زال عالقاً بالذاكرة. وعندما وصف عبد الله علي إبراهيم الدكتور التجاني الماحي في مقالته الشهيرة تلك «قارئ الألواح» قال إن العلم كان يتصاعد منه دخاخين دخاخين إستعار التعبير من «الطبقات» في معرض الوصف لأحد رجال الصوفية العارفين.

حين التقيت بالأستاذ النور حمد لأول مرّة في مطلع الثمانين من القرن الماضي بمنزل صديقنا الأستاذ الطاهر محمد حمد بمدينة كوستي ذكرني حين تحدث بمارتن لوثر أو ذلك الصوفي الملهم في تاريخنا العامر بمآثر الرجال. وكان النور في تلك الأمسية الفكرية البعيدة يتحدث لغة صبية جديدة ومعافاة تتدفق مفرداته وتثب عفو الخاطر في عقد نضيد من الكلام المحكم. ما زال صداها يتردد في الأذن. لَمْ أحظ بلقائه بعد ذلك إلّا مرّة واحدة عابرة بالمحطة الوسطى في الخرطوم. تبادلنا حديثاً قصيراً بقدر ما سمح لنا الوقت وفي العام الماضي بدأت أتلقى من أصدقائي بأبوظبي إصدارة غير دورية ينشرها الفنان التشكيلي والناقد المعروف حسن موسى المقيم بفرنسا سماها «جهنم» وتصدرتها هذه العبارة «جريدة الهدم النقّاد والمعارضة»، توزع مجاناً لمن يهمه الأمر وللمرسلة إليهم حق استنساخها وتوزيعها بمعرفتهم ولا ينشر أي جزء منها في الصحف السيارة إلّا بإذن ناشرها» والإصدارة ناجحة بكلّ المقاييس وتؤكد إهتمام المثقفين والكُتّاب السودانيين وحدبهم على ثقافتهم الوطنية. وشاركت بالكتابة فيها أقلام جادة من بينهم النور حمد.. لحسن الصدف. فقرأت له مقالاً جيداً غير مسبوق لغة ومضموناً بعنوان «أهل الفترة».. فلم أجد فارقاً بين حديثه وكتابته.. نفس التألق النادر والفكر المشبوب والقدرة الفذة على استكناه التجربة ثُمَّ لَمْ ألبث أنْ وقعت يدي على مقال بعنوان «في كون الشلاقة عاقة» تناول فيه سيرة ثلاثة من الفنانين التشكيليين، ثلاثتهم رحلوا عن دنيانا. قسم المادة إلى قسمين.. الأول بعنوان «عمر خيري عاقل وحيد في خضم المجانين» والثاني بعنوان «الراحلان: حامد جو وبشير حريشة.. نسمتان من وراء ما بعد الحداثة» أعجبني هذا العمل وخاصة ما كتبه عن صديقه ابن عمي الأستاذ طه أبو قرجة المحامي.. الرجل المثقف والكاتب المطبوع، الذي احتفى بالعمل أيما احتفاء وبعث برسالة عن طريق الفاكس من البحرين حيث يقيم ويعمل. وجاء في رسالته «ما كتبه النور عن حامد جو وبشير حريشة أطيب من رائحة

توجّهت ذات مساء رائق إلى مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي بأم درمان، لاحظت جمعاً على سطح مبنى المركز فتسلقنا أنا وصديقي الذي صحبته، وجدنا كرسيين فجلسنا. كانت فرقة صوصلٍ تؤدي مسرحية ما أسعدنا ما صنع الشباب على المسرح فالنص كان مشحوناً بالرمز والمباشرة.. هذا شعب لن يضيع ما دامت هذه طلائعه، بنين وبنات. انتهت الأمسية المسرحية التقيت بالأستاذ كمال عبد الكريم مدير المركز الذي أحسن إستقبالنا وأكرم وفادتنا وأتاح لنا فرصة التعرف على أقسام المركز ثُمَّ اتحفني بمجموعة من إصداراته، عكفت عليها أياماً. كما عثرت أيضاً على كتب جديدة في مكتبة مروي أروت كثيراً من الظمأ، من بينها كتاب نقدي عن الطيب صالح للأستاذ عثمان محمد الحسن الأكاديمي البارز والمثقف المرموق والأديب النشط غزير الإنتاج. ما تشرفت بلقائه ولكني استمتعت وانتفعت بكثير مما كتب، وهو محب وليس ناقداً، يؤسس منهجاً مختلفاً في تناوله النص، يعجبني كما هو صديق للطيب وعارف لفضله. يندفع حين يكتب عنه ولكنه يصيب. والطيب صالح كبائع المسك يحذيك دائماً بشيء منه، كما تظفر بأريجه الفواح. تحدث عنه وأسهب وتنقل في إبداعه وتناول أشياء لَمْ نكن نعرفها عن العالم النثري للكاتب. والحق يقال إنني لَمْ أتمكن من متابعة مقاله في الصفحة الأخيرة لمجلة «المجلة» الذي إستمر لسنوات. وكان الطيب يكتب عن الشعر وما كان ذلك يجد هوى في نفسي إلّا أنّه يبدو أنّ هناك ما كان يستوجب النظر والقراءة، نثر رفيع وتناول ذكي. استوقفني ما ساقه من وصف لأحدى جلسات الأمم المتحدة في عنفوان الحرب الباردة. كان وقتذاك مندوباً عن الإذاعة البريطانية يتابع الدورة. وكانت تلك الجلسة للرؤساء هارولد ماكميلان رئيس الوزراء البريطاني ونيكيتا خروتشوف الرئيس السوفيتي وغيرهم. وصف الأول فقال، بينما كان ماكميلان يقف خطيباً على المنصة بتلك النبرة المتعالية قليلاً، التي يغلب عليها ذلك السأم الأرستقراطي كان ينظر من حين لآخر إلى رجل قصير القامة، ممتلئ الجسم،

أدري ما هو الأسباب التي كانا يقدمانها للسفر عادة وللحركة الكثيرة وللتنقل الذي لا يهدأ لَمْ تكن دائماً مقنعة لقد كانت في أغلب الأحيان عللاً أكثر منها أسباباً لَمْ يكونا يملكان أمرهما في ذلك المنحى كانا مثل من حكم عليه بالتنقل. ولربما شاب تعلقهما بالتنقل بين الأمكنة بعضاً من حالات الإدمان وفي موتهما في حادثتي مرور إشارة، وربما تشابه المصائر. ويقول إنَّ التشابه بينهما – في حالة تتبع القرائن– أفضى بكليهما إلى كلية الفنون. معرفتي ببشير حريشة، تمت بعد التحاقي بكلية الفنون فهو كردفاني قادم من خور طقت الثانوية، ويبدو أنّه كان مشهوراً في خور طقت مثل شهرة حامد جو في حنتوب، وقد توطدت صلتي ببشير عقب تخرجه من كلية الفنون، وذلك بعد أنْ انضم إلى حركة الأخوان الجمهوريين. أما حامد جو فهو قريبي نشأنا سوياً وتقاسمنا حياة قروية مشتركة، وتدرجنا في المراحل الدراسية من الابتدائية وحَتّى مدرسة حنتوب. كان حامد يأخذ حياته لحظة بلحظة.. ولا يتحسر على ما فاته، ولا يدع التطلع لما سوف يأتي يذهله عن جمال لحظته الراهنة كانت له قدرة على نفخ الحياة في العدم. تصبح حلة حمد بالنسبة لي من غيره قاعاً صفصفاً، وخرائب ينعق فيها البوم. وجوده حولي كان يحل كبريات معضلاتي. لا أحتاج لأكثر من رؤيته أو وجوده من حولي لتذهب عني المخاوف الوجودية والحزن والوحشة. لقد كان متصلاً بالجوهر وممدوداً من الجوهر مدداً عجيباً، وأهم من ذلك كله كان قادراً على أنْ يُعدِي بحالته غيره.

قال النور إنّه حين التحق بكلية الفنون الجميلة في مطلع السبعينات كان حامد مدرساً بالمدارس الابتدائية وكان يزوره في الكلية فتعرف على أصدقائه وأعجبه المكان وقرَّر فجأة الالتحاق به. أحسَّ بأن ذلك المكان المسمى بكلية الفنون يناسبه، لقد كان يبني أموره على الحدس فقلبه هو الذي يخبره.. وحين يخبره قلبه بشيء لا يلتفت إلى متحدث آخر قلت له إنَّ فكرته جنونية بل وسريالية مثل

سائر أموره الأخرى، فهو لَمْ يكن يمارس الرسم أبداً، ولَمْ أعرف له إهتماماً به غير أنَّ حامداً أحب ذلك المكان وأولئك القوم، أصرُ على خياره وعمل له اقتنى الألوان والأدوات وصار يعمل بجد ويطلعني على أعماله وبالفعل التحق حامد بكلية الفنون رغم أنفي.

بعد موته أحسست بأنَّه فعلاً غريباً على هذه الحياة، بدا لي مثل من جرى إرساله من المستقبل ليرسم لنا بعضاً من صوره.. وليقدِّم نموذجاً لإنسان جديد، لا يزال يتمخض في رحم الغيب. إنسان تحرر من الانكسار أمام الاستعلاء باللون والجنس وبالطبقة وبالتحصيل المعرفي، ومن أي قهر يحاول به أي شخص التميز على الآخر، كان إنساناً لا يسلِّم للناس بالإمتيازات التي يمنحونها لأنفسهم. يفرض على الغني نفسه حَتَّى يقبل الغني أنْ يشاركه ما عنده. ويفرض نفسه على صاحب الجاه، والسلطة حَتَّى ينسى صاحب الجاه والسلطة وضعيته ويقترب من الجميلات حَتَّى لا تبقى لسطوة جمالهن هيبة، ويناقش من يزعم أنَّه ملم بموضوعه بندية تامة، وبغير شعور بالانكسار أو الدونية. كان حامد أعمى من أيِّ النواحي أتيته، في رؤية الفروق. وكانت له قدرة فطرية، لا فلسفة فيها ولا تعقيد، تمكنه دائماً من النفاذ إلى جوهر الأمور.

رأى النور بشير حريشة لأول مرَّة عام 1971 بداخلية الحلة الجديدة التابعة لمعهد الكليات التكنولوجية.. وقد كان يسكنها بعض من طلاب كلية الفنون. «رأيته في غرفة مجاورة لغرفتي، يرقص رقصة «الجيرك» أو «الهورس» لَمْ أعد أذكر بالضبط واحدة من الرقصات الغربية التي كانت فاشية في الأوساط المدينية الخرطومية آنذاك. استرعى انتباهي منذ أول وهلة بقوامه القصير وأنفه الأقنى، وحركات رقصه المتوافقة التي دلَّت على حس موسيقي سليم، وروح طليقة أيضاً.

انطبع مشهد رقصه في ذهني وظللت أرقبه من بعيد في الكلية بإعجاب، غير أني لَمْ أتعرف عليه عن كثب. لقد كان هو في السنة الرابعة وكنت في السنة

الأولى. ثُمّ ما لبث بشير بعد التخرج أنْ انضم للحركة الجمهورية، حيث تعارفنا عن قرب. ولا أزال أذكر يوم سفر بشير إلى جوبا، ومعه خلف الله عبود ومحمد الحاج بعد أنْ تَمّ نقلهم إلى مكتب النشر بجوبا. أذكر أنني كنت في وداعهم في مطار الخرطوم مع حسن موسى ومحمود عمر وربما آدم الصافي. أقلعت بهم طائرة «الفوكرز- فريندشب» المروحية عند الظهر ولا أزال أذكر أنّ حسن موسى علّق على شكل الطائرة بقوله إنّها «تشبه الكديسة الحامل» وفي المساء عرفنا أنّ الطائرة قد ضلت طريقها « ما أردت بهذا القول إنّ حسن موسى عينه حارة ولكن التشبيه استرعى إنتباهي وظلّ عالقاً بذهني قرابة الثلاثين عاماً الماضية». نجا بشير مع رفقائه من تلك الحادثة الفظيعة بكلّ تعقيداتها ثُمّ مات لاحقاً في حادث سير بمدينة الأبيض. ونجا حامد جو رغم أسفاره الكثيرة على شاحنات وباصات وحافلات وبكاسي وكاروات السودان الهرمة وتوفي هو الأخر في حادث سير في الجماهيرية الليبية».

5 فبراير 2002م

رواج الثقافي وتلاشي السّياسي



محمود صالح

عزف الناس عن السّياسة في السودان.. قهرهم الخطاب الديماجوجي العاجز لسلطة مهترئه ما قدمت سوى الكلام والشعارات ومزيداً من الفشل، ولا يتطلع الناس كثيراً أيضاً لخطاب المعارضة العاطلة عن الإبداع، والمتميّزة بالمراوحة والاغتراب الفكري فلاذوا بالأدب والثقافة وأخذوا يتدافعون للحصول على الملاحق الثقافية للصحف وليس هذا بغريب ففي زمان الجزر السّياسي والضمور الفكري يعتصم المثقفون بكلّ ما هو غير يومي يترفعون عن الأحداث التي لا تفتأ تتكرر ولا تأتي بجديد. ينتظرون أيام المد ورياح التغيير آنست ذلك خلال زيارتي الأخيرة للسودان في عطلتي السنوية، وأسعدني ما رأيت عليه الشباب ينهضون من كآبة الواقع السّياسي وأفول الزمن الجميل.. يؤمون المكتبات فيقرأون، ويكونون الفرق المسرحية في المراكز الثقافية شباناً وشابات مفعمين بالأمل ومسلحين بالجرأة وعفوية المبادرة ونصاعة الوجدان.

حين تطرق للبعام في حديثه عن منطقة بحر الغزال، فقال « في هذه البلاد حيوان يسمى البعام أشبه شيء بالإنسان في صورته وقامته. ويستأنس كالقردة.. وله شعر مسترسل خلف ظهره على جانبيه.. فائق في طوله.. جميل في منظره.. يتغزل به السودانيون كما تتغزل العرب في عيون الجآذر والغزلان».

وكثير مِنَّا يكون قد سمع عن البعام في معرض وصف جداتنا وأمهاتنا لمن يتميَّز بالعي وبلاهة السلوك. ولا أعتقد أنْ أحداً قد تغزل به كما ذكر مؤلف الكتاب وربما يكون البعام هو الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان ولا يفتأ علماء الأنتربولوجي مكدودين في سبيل حل ذلك اللغز.

حين تَمّ تعيين غردون للعمل بالسودان اصطحب معه إبراهيم فوزي هذا وزار معه عدة مناطق وخاصة الاستوائية وبحر الغزال وقد أتناول تجربة ذلك الرجل من خلال كتابات أخرى محتملة.

وكان لقط الزباد حظه في شحذ فضولنا واستثارة إنتباهنا أيضاً. فقد كان ذلك القط العطري النادر من بين السلع التجارية المهمة التي كان يصدرها السودان إلى البلاد الأخرى. تطرّق إليه كثير من الأخباريين الذين كتبوا عن بلادنا ولكنهم ما وصفوه ويبدو أنّه يعيش -وربما لا يزال- في بعض مناطق الجنوب والجنوب الشرقي. ويتميَّز ذلك القط العجيب بعطره النفاذ الذي كان يقول أهلنا إنّه كان يفرزه إذا أحسَّ بالخطر. يريد أنْ يشغل به عدوه المطارد ويلهيه بجمع العطر الذي يقذفه به كمادة هلامية يتمُّ الاحتفاظ بها في قرون الغزلان والأبقار وتستخدمه النساء في مستحضرات التجميل. وإذا ما تَمَّ قتله فإنَّ جلده يظل يضوع بالعطر فيغمر المكان كله. وكان يربط في يد الرضيع قطع صغيرة من جلده، وإذا ما تَمَّ صيده حياً يوضع في أقفاص بمنازل الأثرياء.

لَمْ يقتصر تواجد الحيوانات الوحشية على مناطق محدَّدة بالسودان وإنَّما

ليس حسن الهندام، هيئته مثل هيئة رئيس عمال شحن في ميناء، رجل لو خير ماكميلان لما اختار أنْ يدعوه إلى العشاء في داره في لندن مع صهره دوق دفنشاير.. إلاَّ أنَّ ذلك الرجل الذي يجلس متحفزا مثل ذئب رابض، وهو نجم هذا المهرجان دون منازع نيكيتا خروتشوف، أمين عام الحزب الشيوعي وأقوى رجل في الإتحاد السوفيتي كان يصل قبل بدء الجلسة دائماً ولا يترك مقعده حَتَّى نهاية الجلسة. عندما لاحظ مرَّة قلة الحضور هبَّ واقفاً وصرخ غاضباً قبل أنْ يؤذن له، أين يذهب هؤلاء المندوبون؟ إنَّ دولهم الفقيرة تدفع أموالاً طائلة لترسلهم إلى نيويورك، ليس للفسحة والتسكع، ولكن للعمل لَمْ يلبث المندوبون الذين كانوا يحتسون القهوة في الصالة الفاخرة ويتسكعون بالفعل في الردهات أنْ جاءوا يتسابقون إلى قاعة الجمعية العمومية. لاحظ الطيب أنَّ جلسات تلك الدورة تحوَّلت بمهارة إلى فصول مسرحية، البطل الذي يمثل قوى الخير والعدل والحرية، هو الإتحاد السوفيتي والشرير الذي يمثل قوى الظلام والباطل والقهر هو دول الغرب.

وعندما كتب الطيب صالح يصف الأم تيريزا التي رآها في مطار الخرطوم تهم بالمغادرة، قال «الآن ننتظر إقلاع الطائرة التي سوف تعود به إلى باريس»، يقصد أحمد مختار أمبو مدير اليونسكو وقتذاك، وكان الوقت أواخر الليل، فإذا ضوء يسطع في أعيننا التفت إلى مصدره فإذا بتلك السيدة العجيبة تدخل بهدوء كما يسيل الماء في الجدول، عليها الثوب الأبيض الذي اشتهرت به وحولها فتيات في مثل زيها سمراوات هنديات أو أثيوبيات أو خليط من أجناس.. لَمْ يكن معها سوى مودع وحيد ربما من إحدى منظمات الأغاثة. ذهبت وسلمت عليها وعلمت منها أنَّها كانت في سنار وفي الجزيرة جنوب الخرطوم، وأنَّها قضت شهراً تحاول أنْ تساعد ضحايا المجاعة تهش لك كأنَّها تعرفك من زمن وتحدثك بصوت خافت فيه لكنة هندية مفعم بالمرح، وجهها مغضن مليء بالتجاعيد. وجه

جميل أجمل ما وقعت عليه عيناك، يذكرك بوجوه كثيرة أحببتها وضاعت منك في زحام الحياة، تملؤك بالحبور والحزن وتراها خفيفة جداً وهي صغيرة الحجم أصلاً كأنك تستطيع أنْ تحملها في راحة يدك، تريد أنْ تحتضنها وتقبلها كما تحتضن جدتك أو أمك أو إبنتك.

31 مايو 3002م

البيئة الأمازونية التي اندثرت

البعام في مملكة الحيوان

كانت أسعد أوقات طفولتنا تلك الأماسي التي حفلت بالحكايات المشوقة والأخبار المثيرة والحكايات الغريبة عن مختلف مناطق السودان وخاصة الجنوب- الذي عمل فيه أجدادي تجاراً جوابي آفاق منذ منتصف القرن التاسع عشر.. ثُمّ والدي منذ أوائل القرن العشرين -حيث كان (عليه رحمة الله) مولعاً بالسفر والصيد.

كانت قصص الحيوانات وأنواعها تستأثر بجانب مهم من تلك الأحاديث التي كانت تزجيها إلينا والدتنا فتثير الفضول وتلهب الخيال. وكانت حين تتحدث عن البعام تتملكنا رغبة عارمة في رؤيته وصحبته في طفولتنا السعيدة تلك والبعام الذي هو من فصيلة القرود لَمْ أعد أسمع عنه منذ ذلك الزمن وإن كنت ما زلت أذكر وصف هيئته القريبة من شكل الإنسان وسلوكه الهادئ النبيل وحبه للناس ورضاه بالعيش معهم كفرد من أفراد العائلة. لا بدّ أنّ فصيلته قد انقرضت وما عادت تسعى على الأرض شأن الكثير من الكائنات التي كانت تكاد لا تحصى في السودان ولكنها ويا للحسرة اختفت إلى الأبد قبل أنْ يتمّ تصنيفها ضمن الكائنات التي درجت على ظهر هذا الكوكب. كان السودان حَتّى وقت قريب بمساحته الواسعة وغاباته الشاسعة ومياهه الوفيرة محمية مثالية لمملكة الحيوان.

وحين طالعت أخيراً كتاب «السودان بين يدي غردون وكتشنر» لمؤلفه المصري إبراهيم فوزي باشا- الذي صدر مرّة واحدة قبل مئة عام- قرأت عجباً

ولعل أطرف ما حدث في هذا الشأن إنَّ غردون باشا حين عمل بمناطق الجنوب جلب أفيالاً هندية داجنة للاستعانة بها في الحركة داخل الغابات. وشيد لها جنوده زريبة واسعة تخرج منها لترعى في الخلاء المجاور. فكانت حينما تعود آخر النهار تعود معها بعض أفيالنا الأفريقية المتوحشة التي تصبح هدفاً لسهام الجنود الذين يأكلون لحمها وتستولي الحكومة على أنيابها الثمينة.

71 يوليو 1002م



إصطياد فيل في منقلا عام 1903م

تفاوتت في كثافتها. فمن دنقلا في أقصى شمال البلاد كانت غزلان التيتل تتجول في غابات السنط. وكان الزراف والجاموس والأسود والغزلان ترتع في المناطق الشمالية الشرقية. وقد ذكر الدكتور عبد الله الطيب أنّ عماً له اصطاد أسداً في برية الدامر، ولما أعياه حمله على دابته قطع إحدى رجليه الأماميتين وأخذها ليراها الناس.

وفي إقليم عطبرة لفت نظر الرحالة الإنجليزي جورج ميللي أفراس النهر التي اعتادت أنْ تخرج من نهر عطبرة إلى حقول القمح والفول المجاورة ليلاً لترعى فيها وتدوسها بأقدامها الغليظة فتعيث فساداً. وذكر أنّ أهالي إحدى الجزر الواقعة جنوب بربر طلبوا من السلطات إمدادها بقوات لطرد أفراس النهر فأرسلت إليهم مئة جندي لإصطيادها.

وقال بوركهارت إنّ غابات التاكا كانت تغص بالحيوانات المفترسة كالأسود والنمور الرقط والغزلان والحيات والأفاعي. وإنّ الأهالي كانوا يحاولون حماية ماشيتهم بحفظها في زرايب من الشوك. وأنّه كان من النادر أنْ يقتل أسد أو نمر إلّا في حالة الدفاع عن النفس حيث إنّ الأهالي ما كانوا يمتلكون سوى السيوف والرماح التي لا تقوى على قهر ملك الوحوش.

وقال بوركهارت إنّ النمور كانت تكثر في الأودية الشرقية المتاخمة لمدينة شندي وفي مرتفعات الدندر. وعلى بعد مسافة قريبة جنوب شرقي شندي كان يوجد الزراف الذي يصطاده رجال الشكرية والكواهلة ويستفيدون من جلوده في صناعة الدرق «التروس». وترد إلى شندي الماعز الجبلية الضخمة التي تتميّز بقرونها الطويلة المنحنية حَتّى وسط الظهر وبلحمها اللذيذ المذاق. ويسمى هذا النوع بالريل.. وهو الاسم الذي يطلق على الغزال الأحمر في سوريا. وبعد صيده يقودونه من أنفه مثلما يفعلون مع النعام الذي كان يكثر بتلك الجهات.. وريش النعام في شندي كان أقل جودة من النوع الموجود في الصحراء الغربية..

والأنواع الأكثر طلباً في أسواق مصر هي التي كانت ترد من أسواق كردفان ودارفور. وقال بوركهارت أنَّ الفلاحين الجعليين كان يحملون ريش النعام إلى السوق مخلوطة بالنوعين الجيد والرديء ويستبدلونها بالذرة وكثير من الأهالي كان يربون النعام في منازلهم فيستأنس كما الطيور الداجنة.

وقد ذكر الرحالة الإنجليزي وليم جورج براون أنَّ دارفور كانت تعج بالأسود والنمور والضباع والذئاب وابن آوى. وقال إنَّ الضباع كانت تسير في هيئة قطيع يتراوح عدد أفراده من خمسة إلى عشرة وتزحف على القرى ليلاً فتنتزع ما تستطيع صيده، وتفتك بالكلاب والدواب حَتَّى إذا كانت داخل المنازل. وهناك أيضاً غزلان التيتل ووحيد القرن والزراف وأفراس النهر التي كانت تعيش في النهيرات الصغيرة. أما الأفيال فقد كانت تسير في قطعان كبيرة يتراوح القطيع ما بين400 و 500 فيل وأحياناً يبلغ الألفين.

وكان عرب البقارة يهتمون بصيد الفيل الذي يعتبر ضرباً من الشجاعة والجسارة وإبداء الفتوة قبل أنْ يكون كسباً للحصول على العاج أو اللحم يطاردونها بالخيل وينفردون بالفيل الواحد يوسعونه طعناً بالرماح حَتَّى يسقط قتيلاً أو يصوبون نحوه السهام من فوق الأشجار.. وأحياناً يحفرون حفراً في طريقه ليسقط فيه.

وذكر الرحالة براون أنَّ عرب السودان يصطادون الأسود والنمور لجلودها. وأحياناً يأكلون لحومها لإعتقادهم بأنها تكسبهم الشجاعة والجرأة والثبات في المعارك. وأحياناً يتمكنون من صيد الأشبال ليبيعونها للتجار الجلابة الذين يصدرونها إلى مصر لِتُقدَّم كهدايا للسلاطين والكبراء.

وقد ذكر المؤرخون أنهم لاحظوا وجود الأسود في قصور ملوك الفونج في سنار. وتحدث براون عن الطيور في دارفور وكثرتها كالدجاج الغيني والببغاء الأخضر

الذي يستأنس في المنازل ويتعلم شيئاً من مفردات اللغة حَتَّى يتمّ تصديره إلى مصر فيباع بأثمان مرتفعة.

أما الرحالة السويسري بوركهارت فقد كتب عن الأنهار التي تجري في بحر الغزال والتي تعج بالتماسيح وأفراس النهر كما تحدث عن حيوان عرف باسم «أم كرجي» قال إنّه يتميَّز بحجم كبير مثل الخرتيت ورأس صغير إلّا أنّه غير مؤذ. ذلك بالإضافة إلى الأفيال ووحيد القرن والزراف وغزال «أبو عرف» وهو في حجم البقرة بقرون ضخمة يندفع بها نحو الصياد فيرديه قتيلاً أو يصيبه بجروح خطيرة وتحدث عن الجلاد الذي وصفه بأنّه في حجم العجل والتيتل الجبلي.

أما الرحالة الألماني فيرناند فيرن فقد شاهد الجزيرة أبا الواقعة على النيل الأبيض بوسط السودان في حوالي عام 1840 قبل سنوات من إستيطان الإمام محمد أحمد المهدي وأسرته فيها. وقد كان يسكنها بعض من قبيلة الشلك. وقد وصف فيرن الحياة النباتية فيها وأنواع الحيوانات والطيور ولاحظ وجود الأسود بكثرة وأفراس النهر. ولفت نظر فيرن في عادات قبيلة الباريه بإقليم الاستوائية حرص الرجل منهم على أنْ يضع جلد الحيوان المفترس الذي يصطاده فوق ظهره كدليل على شجاعته وذكرى لإنتصاره وتغلبه على الشدائد التي واجهته في حياته. وكانوا يزينون رؤوس عصيهم بما يشبه قرون الثيران الصغيرة أو يكسونها بقطع صغيرة من فرائه. ويشبه فيرن البارية في تمسكهم بهذه التقاليد بالجرمان القدماء حين يقول «وكما أنّ الأسر النبيلة كانت تتخذ من رأسي الخنزير البري والثور شعارات لها معاني التقدير والاحترام، كذلك فإنّ البارية ينظرون لجلود وأنياب الحيوانات كرمز للبطولة والشجاعة أو التقدير لبعض الصفات التي تمتاز بها من غيرها من الحيوانات». ويضيف فيرن بقوله «لو لَمْ يكن المناخ حاراً لكان من المحتمل أنْ يضع البارية على رؤوسهم غطاء قبعات الحرب من ذات الفراء».

لعلمه ألا أحد في السودان يعرفها.

تناهت أخبار ذلك الأوروبي العجيب لطلاب الداخليات في الكلية نقلها إليهم عبد الرزاق العتباني وعمر الريح. فجاؤوا به ذات مساء حيث أدى معهم صلاة العصر والمغرب. وأخذ يحدثهم ويتدفق في الحديث متناولاً شتى ضروب المعرفة ببساطة وتوسع ينمان عن عمق ثقافته وموسوعيته. وكان يتحدث باللغة الإنجليزية وكان من بين هؤلاء الطلاب الأستاذ حسن نجيلة في السنة النهائية في قسم العرفاء بكلية غردون عامذاك. وقد روى هذه الحادثة في مؤلفه «ملامح من المجتمع السوداني» الجزء الثاني بعنوان «شخصية غامضة تمر بالسودان في الثلاثينيات». لَمْ تطل إقامة هذا الرجل طويلاً بالسودان فقد غادر على عجل وفي ظروف غامضة ولَمْ يعد أحد يسمع عنه شيئاً.

61 يوليو 2002م

صالح مؤمن

أوروبي لا تخطئه العين.

كان يراه ناس أم درمان من منطقة أبو روف يرتدي جلباباً فوقه جاكيت وعمامة وصندلاً. رجل أوروبي لا تخطئه العين. يتحدث العربية الفصحى والإنجليزية بطلاقة ويخوض في مختلف القضايا والمواضيع في المقاهي وأمام المتاجر ويختلط بجميع طبقات الناس كمن يريد التعرف على الأشياء. يقحم نفسه متحدثاً ومتسائلاً وباحثاً. كان يحرص على حمل شهادة صادرة من المغرب تؤكد إسلامه وإختياره اسم صالح مؤمن.. مكتوبة بالعربية والفرنسية.. يكتفي بذلك ويتحاشى التفاصيل حول حياته.. ويؤدي الصلاة في مواعيدها.

كان حي أبو روف معقلاً لشباب ذوي همم عالية.. يتطلعون إلى فجر جديد.. إنغمسوا في التعلم والتثقيف الذاتي. وكان عام 1930 الذي شهد ظهور صالح مؤمن ذروة تألقهم موظفين صغاراً وطلاباً في كلية غردون.. لا يكتمون وطنيتهم ولا بغضهم للاستعمار. ولَمْ تكن السلطات غافلة عن نشاطهم تحصي أنفاسهم غادين ورائحين. لَمْ تكن قد مضت سنوات طويلة على ثورة 1924 وما تمخض عن نتائجها وتجربتها المدمرة ودروسها المريرة التي أخذ يتجرعها هؤلاء الشباب منكبين على الكتب باحثين عن المعارف لرسم طريق الخلاص أو العثور على أمل يعبر بهم ذلك الواقع الكئيب.

وكانت سنوات ما بين الحربين من أكثر فترات التاريخ توتراً في العالم. كانت أوروبا تودع حرباً وتستقبل أخرى وتجربة الإتحاد السوفيتي بزعامة جوزيف

ستالين- باتت حقيقة راسخة والنازية تدق على الأبواب. تمثل ذروة الأنانية الرأسمالية وجنوح الفكر الغربي الحديث. وجاءت الأزمة الإقتصادية لتهتز كثير من المسلمات. وتثير كثيراً من التساؤلات حول مصير الإنسانية التي انقسمت إلى معسكرين على المستويين السّياسي والاقتصادي. كانت فترة حرجة تواجه مفترق طرق وعرة.

كان لا بدَّ لهؤلاء الشباب أنْ يتصلوا بمؤمن.. لَمْ يكن بعيداً عنهم فقد اكترى داراً صغيرة في الحي إلى جوارهم يتحدث في مختلف المعارف والفلسفات خاصة في علمي الأجناس والاجتماع اللذين تخصص فيهما.. بهرهم بثقافته الواسعة وعلمه الغزير فالتفوا حوله يستمعون إليه فما كانت كلية غردون تروي تعطشهم للمعارف.. كانت تلقي إليهم بالفتات وتكتفي بتقديم القليل لهم بما يؤهلهم للوظائف الصغيرة. ما كان تريدهم ثواراً مثقفين يقلقون راحتها ويفضحون طبيعة الاستعمار.

كان صالح مؤمن يهاجم الاستعمار بلا هوادة في جرأة وعلانية. ولكن أنوف الشباب المتحفزة كانت تتشمم.. فبدأ الهمس واستراب الناس في حقيقة وفي طبيعة المهمة التي لا بدّ أنْ يكون قد وفد من أجلها. ولماذا تغض سلطات المدينة الطرف عنه وهي التي يزعجها ما هو أقل من ذلك؟ وهل كان يكفي أنْ تكلف شيخ الحارة ويدعى عبد الحكيم لكي ينقل إليها ما كان يقوله صالح مؤمن الذي يلتفت إلى الشباب ساخراً يتحدث بالإنجليزية فيطلب منهم أنْ يترجموا لعبد الحكيم ما يستطيع أنْ ينقله للمفتش.. غير مكترث بما سيؤول إليه الحال.. رأت مجموعة شباب أبو روف في صالح مؤمن جاسوساً إنجليزياً مكلفاً بدراسة أفكار المثقفين السودانيين وتوجُّهاتهم، متنكراً في زي المستشرق المسلم القادم من المغرب.. وخاصة عندما حملت إليهم الصحف المصرية أنباء عن أنَّ لورنس- الجاسوس الإنجليزي المعروف غادر المغرب في طريقه إلى

الصومال فالحبشة.

كان لورنس معروفاً على النطاق العالمي بعد أنْ اشتهر بالدور الخطير الذي لعبه خلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918) حين عمل مستشاراً للشريف حسين ملك الحجاز.. وكيف تمكن من إقناع العرب بالوقوف إلى جانب بريطانيا وحلفائها في حربها ضد ألمانيا وجبهتها ومن بينهم الأتراك الذين ضاق العرب بسيطرتهم وفسادهم عقوداً من الزمن. وكانت بريطانيا قد أعلنت وعودها المكتوبة والموثوقة بالسيادة للعرب على أوطانهم بعد القضاء على النفوذ التركي. ولكنها تنكرت لها وتقاسمت مع فرنسا تركة تركيا وبات لورنس من خلال ما أضفي عليه من قدرات خارقة أسطورة تسعى على قدمين. وخاصة عندما أصدر كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» ثُمّ ما لبث أنْ صدرت عنه مجموعة من الكتب عن حياته في البادية العربية ومغامراته ولا يزال الفلم الذي حمل عنوان «لورنس العرب» يحتل مكانه بارزة في تاريخ السينما.

لاحظ شباب أبو روف أنّ صالح مؤمن يجيد معرفة القبائل العربية وخصوصية حياة الصحراء وتفاصيلها الأمر الذي لا يتمكن منه إلّا رجل عاش في تلك البيئة طويلاً وسبر أغوارها واهتم بدراستها كما لاحظوا معرفته العميقة بعلم الآثار وقدرته على حل الرموز الهيروغليفية وعلاقاته المستمرة مع مستر أديسون مدير متحف الآثار بكلية غردون. وعلموا أنّه كثيراً ما كان يساعده في فك طلاسم كثير من الحروف والمقاطع المحفورة على الآثار.

وكان صالح مؤمن يجيد لغة الأسبرانتو التي أراد من وضعوها أنْ تكون لغة عالمية يتخاطب بها الناس على اختلاف لغاتهم. وقد حاول مؤمن أنْ يعلمها لتلاميذه - شباب أبو روف- وبدأوا في طلب الكتب الخاصة بدراستها ووصلت بالفعل إلى البعض منهم إلّا أنّ الرحيل المفاجئ للرجل الغريب حال دون ذلك. وكان الرجل يستخدم هذه اللغة في تدوين مذكراته في كراسات خاصة

يتطلعون خارج حدودهم. وإنْ فعلوا فإنّهم يتطلعون إلى الشمال والشرق لأنهم لا يعتبرون أنفسهم أفارقة بل عرباً. أما حوادث مارس 1954 فقد استأثرت بتقرير موسع كتبه الحاكم العام سير روبرت هاو لوزارة الخارجية البريطانية جاء فيه أنّ المخاوف من المهدية قد تجددت ومن المحتمل أنْ يكون حزب الأمة قد أضعف فرصه في الحصول على السلطة عبر الوسائل الدستورية العادية. وإنّ سلاحهم الأكثر فاعلية الآن هو إثارة الاضطرابات. وقد حققوا هدفهم أثناء زيارة محمد نجيب إلا أنّ العلاقات بينهم وبين جهاز البوليس أصبحت مريرة للغاية. إنّ ما حدث يوم الإثنين الرابع من مارس كان من الممكن أنْ تتصاعد خطورته حيث كان الأنصار أقوياء وشجعان وثبتوا أمام إطلاق النار من جانب البوليس. وفي فترة معينة أثناء وقوع الإضطرابات وبعد مقتل القومندان البريطاني فقد رجال الشرطة الثقة بأنفسهم تماماً وإذا قدر للأنصار أنْ يندفعوا بقوة أكبر كان من الممكن أنْ يقتحموا القصر. وقد وصل بالفعل جماعة منهم إلى الحدائق القريبة من المنزل. أنّهم هادئون الآن ويلعقون جراحهم، ولكن لا يمكن إستبعاد وقوع حوادث أخرى أكثر خطورة أو حَتّى مذبحة إذا ما قرّر حزب الأمة القيام بعمل ولو أنّ ذلك غير منظور في المستقبل القريب. وأشار التقرير إلى أنّ حَتّى المعتدلين أمثال المفكر إبراهيم أحمد هددوا بحمامات الدم بينما أبلغ ميرغني حمزة زواراً أجانب بأن الاضطرابات كانت بسبب عدم ولاء الخدمة المدنية في السودان – وهو يعني بذلك البريطانيين. ويعزو التقرير – الذي تَمّ إرساله كبرقية- الاضطرابات للتدخل المصري حيث أنّ مؤيدي حزب «الأمة» تستفزهم رؤية مجموعات من السّياسيين المصريين تروح وتجيء بالإضافة إلى خطب صلاح سالم والاختراق الذي يتخذ شكل أعمال الإحسان وتقديم السلاح وتسهيلات التدريب.

وعندما عاد السيد علي الميرغني من إحدى زياراته لمصر بعد إقامة طويلة

هودجكن في مشهد من التاريخ السوداني المعاصر



د. فيصل عبد الرحمن علي طه

عندما عاد توماس هودجكن إلى السودان بعد سته أعوام من الغياب كتب في مجلة «الاسبكتيتر» في عددها الصادر في الثالث من سبتمبر 1954 يقول «أسعدني أنيّ وجدت السودانيين ودودين وموفوري الحيوية على النحو الذي أذكرهم به وكان من المبهج أنْ يرافقني في الباص الذي أقلني من المطار طالب عائد لوطنه من جامعة البنجاب. وقد أوضح لي هذا الطالب أنّ الحلول لكلّ المشكلات الأفريقية يمكن استنباطها من مبادئ أولية بينة. وابتهجت عندما التقطني من الخان الوضيع الذي أنزلني فيه الباص مسلم جاد أبدى أسفه عندما علم أنني غير مؤمن. وقدم لي قبضة من «سعوط» حاد الرائحة. وكان مبهجاً أيضاً الجلوس تحت أشعة الشمس الساطعة في مقهى بالقرب من المسجد الإستماع للأغاني الغرامية المصرية التي كانت تدار بصوت عال على الحاكي.. «أنا سعيد في هذا الصباح الجميل.. أنت حياتي.. وأنا أحب الحياة».

«وخلال ست سنوات من التغيير السّياسي السريع صار كثيرون ممن كانوا متواضعين نسبياً عظماء. فقادة أحزاب المعارضة الذين كانت الشرطة تراقبهم بحذر أصبحوا وزراء كما أصبح الطلاب الواعدون موظفي خدمة مدنية بارزين ومحرري صحف ومحاضري جامعات.. غير أنّهم لَمْ يتسموا بالعجرفة أو الجفاف».

«وبينما أنا جالس في المساء في «دار الثقافة» وهي مكان مثير للإعجاب ابتكره دوقلاس نيو بولد حيث يحتسي المرء القهوة ويلتقي بأصدقائه، كنت أستمع إلى سودانيين من ذوي الآراء المتباينة تماماً. من أمة وإتحاديين وبساريين ومحافظين وهم يناقشون الحركة النقابية. وقد تساءلت عما جعلهم شديدي العقلانية في توجُّهاتهم السّياسية. ربما يعود هذا جزئياً إلى تقليد المساواة الإجتماعية الراسخ في القرية والأسرة.. وجزئياً إلى فضولهم العلمي الذي حفزه جيلان من المدرسين الجيدين».

هذه الصورة الزاهية التي رسمها هودجكن لسودان سنوات الخمسين من القرن الماضي- عشية الإستقلال- جزء من الوثائق التي ترجمها البروفيسور فيصل عبد الرحمن علي طه لمجموعته من تلك الوثائق البريطانية السرية 1940-1956. وذلك في إطار مساهمته المتميِّزة في إعدادها. وقد تفضل مشكوراً باطلاعنا على نصوصها الأصلية بخط يده. حَتَّى يتسنى للقراء الوقوف على مقتطفات منها ريثما تصل إلى أيديهم قريباً.

وجاء في تقرير سّياسي بتاريخ السابع من يناير 1955- غداة سودنة الوظائف- من فيليب آدامز المفوض التجاري للمملكة المتحدة بالخرطوم إلى وزير الخارجية البريطاني أنتوني إيدن «ومع السودنة الكاملة للإدارة فقد إنقضى أكثر من نصف قرن من الحكم البريطاني لجزء من أفريقيا يعادل في مساحته كلّ أوروبا الغربية وآل تصريف عمل الحكومة إلى السودانيين أنفسهم. وقد تَمَّ هذا

التحوُّل بسلاسة ملفتة للنظر بإستثناء تظاهرة واحدة خطيرة حدثت بالخرطوم. إنَّ السلك السّياسي- والذي اعتبر لفترة طويلة كأداة نموذجية للإدارة «الاستعمارية» قد صار تاريخاً. والإداريون السودانيون الذين تسلّموا مقاليد الإدارة أقبلوا على عملهم بكلّ همة وحماس ودرجة من الكفاءة نادرة في دول شرق أوسطية.

سجُل دبليو اتش لوس في تقرير سري أقوال لداؤود عبد اللطيف الذي كان مديراً لمديرية بحر الغزال يقول فيها إنَّ هناك إشارات لتحوُّل الرأي العام المتعلّم نحو اليسار. وإنَّ هذه النزعة ظهرت حَتّى في أوساط كبار الموظفين السودانيين ورجع أنْ يكون هذا التحوُّل نحو روسيا كدولة عظمى وليس نحو الشيوعية كنظرية. أما توم برويلي بوزارة الخارجية البريطانية فقد كتب للمفوض التجاري للمملكة المتحدة بالخرطوم بتاريخ الثالث من فبراير 1955 حول أحاديث أدلى بها يحيى الفضلي لعدد من الناس في لندن. ونسب إليه عزم الحكومة على إصدار تشريعات لمكافحة الشيوعية في النقابات إلّا أنَّ الرسميين أبلغوه بعدم اقتناعهم بمحاربة الشيوعية عن طريق القوانين. وقد وصف التقرير يحيى الفضلي بأنّه شخص مخاتل ليس من السهولة قبول آرائه بهذا الشأن لأنّه قد يبرر ذلك عند الضرورة بأنّه جاء كنصائح من بريطانيا. وجاء في التقرير أيضاً أنَّ الحكومة البريطانية فكرت في توجيه الدعوة لفريق من النقابيين السودانيين لزيارتها في ذلك العام إلّا أنّها أدركت في وقت لاحق أنَّ هذا الأمر لن يكون عملياً لأنَّ رئيس إتحاد العمال وسكرتيره شيوعيان.

وتناولت إحدى الوثائق انتشار الشعور المعادي للغرب في الدول الأفريقية التي يحتلها الاستعمار الفرنسي، الأمر الذي دفع الفرنسيين لمناقشتها مع رصفائهم الإنجليز الذي عبّروا عن وجهة نظرهم للفرنسيين بأنّه من غير المتوقع أنْ يتبنى السودان المستقل نزعات دعوية إسلامية يمكن أنْ تهدّد حدوده الجنوبية والغربية ورأوا أنَّ السودانيين الشماليين محدودو النظر للغاية ولا

إلى القاهرة فوصلتها بعد عشرة أيام فقط قبل وصول البريد الذي يستغرق عادة ضعف تلك المدّة أو يزيد.. لا يدري أحد كيف حدث ذلك.. ولكن دواوين الحكومة المصرية وشوارع القاهرة أخذت تردّد ذلك الحدث بين التصديق والتكذيب حَتّى بلغها رسميا في 21 نوفمبر.

بعد إنتصاراته السريعة المفاجئة والمتلاحقة بلغ الإمام المهدي بالبلاد أقصى درجات مزاجها الثوري وحرك كيانها المتعطش للحق والعدل. وخلب ألبابها بمواعظه العميقة وطرحه الجديد.. يقف أمام الجموع متحدثا بصوته العالي العميق وهي مأخوذة بسمته الأسطوري المهيب وقوامه الفارع. امتلك الوجدان وأتاح للقوى الحبيسة أنْ تنطلق لتتجاوز واقع الحياة البائس والرتابة التعيسة.

كانت كلماته البسيطة الموحية تتسرب إلى النفوس الظمأى فتنفتح أمامها سوح الأمل.. أشتات الأمة السودانية وأثنياتها المتنوّعة -التي تنافرت وفرقت بينها عصبية القبيلة- ها هي تتوحد خلال أشهر قليلة وتقف وراء هذا الإمام الشاب تنشد مستقبلاً واحداً وتزحف لتحقيقه بقيادته الفذة وروحه الملهمة وراياته الخفاقة التي لَمْ تعرف الهزيمة والانكسار. انتصارات أشبه بالمعجزات في زمان تكالبت فيه قوى الإستعمار -وهي في ذروة إستكبارها- على المنطقتين العربية والإسلامية اللتين لفهما ليل دجوجي طويل.. ما ترى من خلاص سوى القنديل الباهت الضوء الذي كان يتلمس به جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده طريقاً لا يعرفان له أولاً ولا آخر.

كان الإمام المهدي في الظروف التي سبقت حملة هكس في قمة حيويته ونشاطه الدافق -الفكري والسّياسي والعسكري- فثابر على كتابة منشوراته التي غدت أدبا متكاملا لثورته وتجسيدا لفكره المتجدد.. فكان يمارس عباداته الشاقة العميقة.. يعظ ويوجّه ويرشد ويترأس مجالس الحرب المتعاقبة ويخطط للعمليات العسكرية وما يسبقها من تدريبات وإهتمام بالأحوال التشريعية والإدارية - للدولة الجديدة

بالاسكندرية التقى به دبليو. اتش لوس من مكتب الحاكم العام بالخرطوم وقضى معه ساعة من الزمن إستمع خلالها لإنطباعاته عن مصر. وقال له إنّه تجنب الحديث عن السّياسة السودانية إلّا أنّه حاول إجراء مصالحة بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر.. إلّا أنّه من الواضح أنّ المحاولة قد فشلت ورأى السيد علي في عبدالناصر رجلاً ذكياً جداً ومعقولاً ووصفه بأنّه نسخة محسنة من صلاح سالم. ولاحظ أنّ عواطف السيد علي كانت لا تزال مع محمد نجيب. كان ذلك في يوم 16 يونيو 1955 حيث قام لوس بتسجيل نص المحادثة في تقريره السري.

ويتضح من التقارير التي تناولت أحداث التمرد في جنوب السودان التي وقعت في أغسطس 1955 والبلاد لا تزال تحت الحكم الذاتي برئاسة إسماعيل الأزهري أنّ الإداريين البريطانيين كانوا في غاية الإنزعاج وتوقعوا أنْ تتفاقم الأحوال. وقد قدّم سير همفري تريفليان (السفير البريطاني في القاهرة) تقريراً عن إقتراح من صلاح سالم -وهو الوزير المصري المكلف بشؤون السودان- بشأن القيام بإجراء عسكري بريطاني مصري مشترك في جنوب السودان. وقال صلاح سالم إنّه وفقاً لمعلومات الحكومة المصرية فإنّ الوضع في المديريات الجنوبية يتدهور بصورة مفزعة. وقد أظهرت التقارير أنّه بعد الاضطرابات التي وقعت في جوبا فرّ المتمردون إلى الغابة ومعهم 1500 بندقية و80 مدفع برين 200 إستين ونصف مليون طلقة ذخيرة «303» وثلاثة مسدسات وعدد كبير من السيارات. ورد عليه تريفيليان أنّ معلومات الحكومة البريطانية على النقيض من ذلك وأن الأوضاع تتجه نحو الهدوء. ثُمّ اقترح صلاح سالم أنْ تتدخل الحكومتان بوضع قوات مشتركة بين القوات الشمالية والمتمردين الجنوبين. وردّ عليه تريفليان أنّ الحكومة السودانية قد تستطيع التصرف بدون مساعدة من قوات خارجية وينبغي مؤازرتها في جهودها لاستعادة سلطتها في الجنوب.

سادت المخاوف مكتب المفوض التجاري البريطاني بالخرطوم مع بداية سودنة الوظائف فكتب خطاباً إلى وزارة التجارة والصناعة في لندن في 16 فبراير 1954 يعرب فيه عن فزعه للاستبدال الوشيك للموظفين البريطانيين بسودانيين في المصالح المسؤولة عن مشتريات الحكومة فيقول «بالأمس كان لنا نصيب الأسد في التجارة المتصلة بواردات حكومة السودان»..ويقترح تقديم أسعار منافسة حيث أنَّ بعض التحقيقات أسفرت عن أسعار غير منصفة فشركة ماكينات «سنجر» كانت تحقق أرباحاً تزيد على 50 في المائه.. وشركة جستنز المحدودة كانت تزود حكومة السودان بآلاتها الناسخة لسنوات عديدة بسعر- شمل أرباح وكيلها المحلي جلاتلي هانكي وشركاه- يتجاوز 100 في المائة. ويحذر التقرير من أنَّ الأوضاع تمر بمرحلة تغيير لذا فيتعين على الشركات أنْ تقدِّم أسعاراً معقولة وإلّا فسوف يقتلون الإوزة التي تبيض ذهباً.

وفي تقرير بتاريخ 21 نوفمبر 1954 ذكر أنتوني إيدن وزير الخارجية البريطاني أنّه التقى برئيس الحكومة السودانية إسماعيل الأزهري في لندن وأبلغه إهتمامه بأن ترسل شركة النفط الإنجليزية- الإيرانية ممثلين إلى السودان بعد أنْ تطوَّرت تقنية التنقيب عن النفط. وقد أبلغه أزهري أنْ أفضل الآمال في العثور على النفط تكمن في ساحل البحر الأحمر ومناطق الغرب والجنوب.

81 يونيو 2002

شيكان.. المعركة الأسطورية



الإمام المهدي



هكــس

وقف لورد فتز مورس أمام مجلس اللوردات البريطاني معرباً عن أساه وحيرته حول الظروف التي أودت بجيش كامل العدة والعتاد يقوده ضباط بريطانيون عظام فقضى عن آخره في براري كردفان في دقائق معدودة وكأنما ابتلعته الأرض أو لمسته عصا ساحر فأزالته عن حيز الوجود. وقال إنَّ التاريخ لَمْ يشهد منذ أنْ ابتلع البحر الأحمر جيش فرعون كارثة مثل تلك التي حلت بجيش هكس فأفنى عن آخره وقضي عليه قضاءً مبرماً.

كان الجنرال هكس من النخبة العسكرية المتألقة في العصر الفيكتوري شارك في حملة نامبير التي قهرت الهضبة الأثيوبية لتأديب الأمبراطور المتمرد ثيودور. وحين استفحل أمر الثورة المهدية في السودان إنتخب لقيادة ذلك الجيش الذي شهد تلك «المأساة» التي لَمْ تتكرر في التاريخ الإنساني.

كان لانتصار الإمام المهدي على جيش هكس في ضحى يوم الإثنين الخامس من نوفمبر 1883 دوي هائل ردَّدت أصداءه السهول والوديان وحملت أنباءه الريح

وحذا حذوه مؤرخون آخرون كالأب أهرفلدر.. إلا أن الصدفة وحدها والتي كانت أشبه بالخيال الروائي - هي التي كشفت عن أهم تفاصيل المعركة، وذلك بالعثور على مفكرة عباس بك سكرتير حكمدار السودان في جيب أحد شهداء كرري بعد خمسة عشر عاماً من معركة شيكان فأزالت كثيراً من خفايا الأمور.

12 نوفمبر 2002م

التي انبثقت تحت ظلال السيوف وأسنة الرماح -والرعاية الشخصية المباشرة التي كان يوليها للآلاف من أنصاره.

وصفه الأب أهرفلدر في كتابه «عشر سنوات في الأسر». والذي تحدث إليه لساعات طويلة وسبر غور ثقافته ومعرفته في أمور اللاهوت بقوله «إنّ مظهره الخارجي أخاذ للغاية، فهو طويل، قوي البنية، ساحر الحديث، لا تفارق الابتسامه شفتيه، عميق في معارفه»، أما رودولف سلاطين فقد وصف مظهره الخارجي أيضاً بقوله «رجل قوي البنية، طويل القامة، عريض المنكبين، ضخم الرأس، يلفت النظر بعينين عسليتين براقتين، تحف وجهه لحية حالكة السواد وتميّزه ثلاثة فصود مائلة في الخدين، دائم الابتسام». أما السودانيون الذين رأوه فكانوا يصفونه ويختمون حديثهم بقولهم «ما بتوصف ».

رأت الحكومة الخديوية ومن ورائها لندن أنْ تحسم الأمور المتدهورة في السودان بجيش لجب يقوده كبار الضباط البريطانيين لوأد الثورة وإعادة الأمور إلى نصابها في السودان. ما أدركوا حجم ما آلت إليه الأمور ولا التأييد الواسع الذي لقيه الإمام المهدي حيث أخذت تهرع إلى مبايعته القبائل والأسر والأفراد بعد أنْ تخلوا عن ديارهم وأموالهم ليقدموا أرواحهم فداء للوطن ولتلك الدعوة الجديدة.

إستخدم الإمام المهدي أساليب الحرب الشعبية في القرن التاسع عشر قبل أنْ تغدو نظريات وممارسات لجنرالات تلك الحروب في القرن العشرين أمثال الجنرال جياب الفيتنامي ولين بياو الصيني وفيدل كاسترو وجيفارا وغيرهم.. إستخدم أساليب «الأرض المحروقة» و«النملة تأكل القندول» و«رب شرارة أحرقت السهل كله».

عندما تحركت قوات هكس في تلك الحملة المهولة التي أطلقوا عليها اسم القلعة أعلن الجنرال البريطاني قوله الذي ظلّ يردده السودانيون إلى وقت قريب

«هذه الحملة يستطيع جنودها أنْ يسندوا السماء بأسنه البنادق إذا مالت إلى السقوط وتثبيت الأرض إذا مادت بأرجلهم».

تحركت تروس آلة المهدي العسكرية ليوجّه الأحداث حسب مخططه المدروس لمواجهة الحملة في إيقاع وتنسيق رائعين فقد عَيّن المهدي قوة من أربع رايات على رأسها الأمير محمد عثمان أبو قرجة والأمير عبدالحليم مساعد والأمير شيخ فضله أحمد والأمير عمر الياس أمبرير، وتم انتقاء ثلاثة آلاف فارس من الأبطال المعدودين ليكونوا قواماً لتلك القوة.

عندما أشرفت قوات هكس على الترعة الخضراء أطلق المهدي لقواده العنان فانطلقوا بفرسانهم غرباً لينفذوا المرحلة الأولى من الخطة العسكرية على نحو مدهش فأخلوا المنطقة من سكانها وأحرقوا الأرض أمام الحملة بردم الآبار وبالمناوشات المستمرة دون الصدام المباشر الذي حذر المهدي من وقوعه. فأرهقوها وفتّوا من عضدها وافقدوها الروح القتالية لتصل لقمة سائغة فتتخطفها رماح المقاتلين المتعطشين لملاقاة العدو.

كان النشاط في معسكر المهدي بالجنزارة - خارج مدينة الأبيض قد بلغ ذروته لرفع كفاءة القوات بالتدريب القتالي تحت الإشراف المباشر للإمام الذي ظلّ يشدّد على الانضباط وروح العمل الجماعي حَتّى تذوب الروح الفردية والعمل العشوائي الذي يميز سلوك القبائل. ذلك بالإضافة إلى إهتمامه بعمل المخابرات حيث أكدت المصادر أنّه في تاريخ المعارك العسكرية لَمْ يتمكن قائد من الإحاطة بالأنباء المفصلة عن الخصم مثل تلك التي حصل عليها الإمام المهدي واستغلها بمهارة لأبعد الحدود.. ووصف المؤرخون ملابسات تلك المعركة بأنها كانت أشبه بمباراة للشطرنج حامية الوطيس. كانت غابة شيكان أشبه بمصيدة أبدعت الطبيعة في تشكيلها، مدخل واسع يغري بالدخول ويتسع لمواجهات الجيش. وعند التوغل فيها مسافة ثلاثة أميال أو أربعة تجد أنّ الباب قد أغلق من الأمام ما عدا

فتحة ضيقة تواجه طريق كازقيل إلى الشمال. فكأنّما قيس الوادي وفصلت الغابة على رايات المهدي الثلاث لتحتله من الأمام واليسار واليمين مستترة بأشجار الغابة تاركة باب المصيدة مفتوحاً ليشقه طريق كازقيل وهو يحمل صفوف المربع المترنحة نحو قلب المصيدة. كان الركن الأساسي لخطة المهدي هو الاصطدام بجيش هكس وهو متحرك ليس قبل ذلك ولا بعده.

إنّ مجرد تحقيق ذلك النصر الساحق الحاسم على تلك القوة الضخمة في أقل من ساعة دون تفوق عددي يذكر -كما روج المؤرخون الأوروبيون- يؤكد أنّ الفضل يعود إلى التخطيط الذكي والاستخدام المحكم للإمكانات المتاحة للمهدي.

وصف الرائد (م) عصمت حسن زلفو في كتابة «شيكان» الذي غدا مرجعاً مهماً لتلك المعركة أحوال المقاتلين قبيل اللحظة الحاسمة من المصادر التي توفرت له فقال «كان منهم من يبكي متشوقاً للقاء ربه، ومنهم من ينم، ومنهم من يتكلم بالسريانية»، وجاء في أحد المشاهد الأقرب إلى الأساطير أنّ إدريس الخندقاوي أحد فرسان راية عمر الياس كان يتمتع بقوة بدنية خارقة فداهم طاقم أحد المدافع الجبلية التي عادة ما تجرها البغال -وأزاحهم عن المدفع وتسربل بسلاسله ولفها حول صدره وسحبه بعيداً خارج الميدان وعاد ليواصل خوض معركته. أما الأمير حمدان أبو عنجة أحد قادة الهجوم الأساسيين «فقد ظل لسنوات طويلة إذا استعاد ذكرياته عن معركة شيكان لا يذكر أنّه كان يسمع شيئاً أو أنّه قتل أو جرح جندياً من قوات هكس.. إلاّ أنّه عند إنتهاء المعركة وجد رمحه وثيابه ملطخة بالدماء، فقد مرّت تلك اللحظات العنيفة، وكأنّما احتكرت الأيدي القابضة على السيوف كلّ الأحاسيس فلم تترك لبقية الحواس شيئاً لتسجّله في العقول والذاكرة».

وانفرد الجنرال ونجت بتقديم أول وصف للمعركة بعد استجوابه جنوداً أسرى قاتلوا في صفوف جيش هكس فحاول أنْ يبرر الهزيمة ويقلل من شأن الإنتصار،

المندوب السامي البريطاني بمصر بإستثناء الأمير عثمان دقنة الذي ظلَّ مقيداً حَتّى يوم وفاته في عام 1926.

وجاء في التقرير السنوي للإدارة البريطانية في عام 1907 تبرير لإستمرار إعتقال الأسرى بأنّهم قد يستجيبون للتعصب أو لجنوح اتباعهم فيعودون مرَّة أخرى إلى المهدية ويزرعون بذور التمرد والخروج على الطاعة من جديد. والواقع أنَّ هذه الإجراءات جاءت متسقة مع خطط الإدارة البريطانية في اجتثاث الحركة المهدية وحرمان الأنصار من قياداتهم السّياسية وإحباط روحهم المعنوية، الأمر الذي مكّن الإنجليز من القضاء على الانتفاضات التي رفعت لواء الثورة المهدية خلال العقدين الأولين من القرن العشرين. إلّا أنَّ الحكام الغزاة فشلوا في تحقيق الهدف الرئيسي بزعزعة إيمان الأنصار الراسخ بعقيدتهم فعندما أرادوا منعهم من قراءة «راتب الإمام المهدي» وجدوا أنّهم يحفظونه في صدورهم فلم يتمكنوا من انتزاعه منها. وفي هذا الإطار حاولت التأثير على ابنائهم بإلحاقهم بالمدارس النظامية الحديثة ومن ثَمَّ في وظائف حكومية تمكنهم من الانخراط في الحياة العملية ونسيان الدعوة الدينية إستعدادا لتلقي الثقافة الإنجليزية. وقد خصصت لهم مدارس في رشيد وحلفا معزولين عن أقرانهم من أطفال المسلمين. وتلقى بعضهم التدريب العملي في القلعة كسروجية ونجارين وأرسلت عدداً لدراسة الزراعة في مزرعة نموذجية في ميت الديبة قرب مدينة طنطا بإشراف أحد موظفي الجمعية الزراعية الخديوية. وهناك درسوا الزراعة والمساحة وبعض مبادئ الطب البيطري واللغة العربية والحساب. وفي خلال العطلات الرسمية كانوا يتوجّهون إلى سجن دمياط لزيارة ذويهم. وبعد إكمال دراستهم عمدت الحكومة إلى ترحيلهم إلى السودان حَتّى لا يتأثروا بشعارات وأفكار الحركة الوطنية المصرية. وشجعت الإدارة البريطانية آخرين من أبناء الأمراء على الدراسة المجانية بمدارس أم درمان وود مدني وكلية غردون وعملت على إستيعابهم في الوظائف الحكومية. كما دربت

سجناء الضمير من أنصار الثورة المهدية

حين تحرك جيش الغزو البريطاني نحو السودان بقيادة الجنرال كتشنر كان رودولف سلاطين الذي عاد يصحبهم مستشاراً للمخابرات أكثرهم تحرقاً للثأر. فقد مكث في أسر الخليفة سنوات حَتَّى تمكن من الفرار إلى مصر. كانت تتملكه مشاعر الحقد وروح الانتقام. فكان يتفرس في وجوه الأسرى عقب كلّ معركة أثناء الزحف.. علّه يتعرف إلى من يتمنى العثور عليهم. وكان موسى الكاظم تعيس الحظ حين وقع أسيراً عقب إحدى المعارك فسعد سلاطين وتهلل وجهه. فالكاظم كان قد أجرى له عملية الختان عقب إعلانه إسلامه، حيث وفد إلى المهدي في كردفان مستسلماً في حركة مسرحية.. باحثاً عن خلاصه الشخصي بعد أنْ أحسّ بأنّ دارفور، التي كان يديرها، لا شكّ في سقوطها. لَمْ يتردد سلاطين لحظة في الأمر بتعذيبه فأشار بنتف لحية الرجل وشاربه شعرة فشعرة ثُمّ قتله وأضرم النار في جثته. وبهذه الروح واصل الزحف إلى أم درمان. وبعد معركة كرري مباشرة أخذ يبحث بحثاً محموماً عن من تبقى من القيادات التي نجت من المذبحة. واقتاد الذين تَمّ العثور عليهم في مساء نفس يوم المعركة إلى ساحة الإعدام غرب مدينة أم درمان - ميدان الربيع الحالي - وجرت عمليات تصفية جسدية شاملة - لَمْ تشف غليله - ولَمْ يستطع أنْ يخفي خيبة أمله من مغادرة الخليفة عبدالله، للمدينة فنصح بتعقبه فوراً إلّا أنّ الحملة فشلت في مسعاها وارتدت خائبة. وبعد عام تمكن ونجت من القضاء على الخليفة عبدالله، والخليفة علي ودحلو، والصديق بن الإمام المهدي، والأمير أحمد فضيل، وهارون محمد، أخي الخليفة، وإثنين من أبناء الخليفة وأمراء آخرين وعدد من الجنود. في ذلك المشهد الأسطوري الذي لَمْ يملك الجنرال نفسه إلّا أنْ يعترف بعظمته وجلاله. وفي الشكابة بالجزيرة تحرشت قوات الغزو

بمجموعة الخليفة شريف وأقامت لهم محاكمة ميدانية عاجلة قضت بإعدامه مع ابني المهدي. الفاضل والبشرى. وأثقلت جثثهم بالحجارة وألقت بها في النيل. بينما دفنت جثث القتلى الآخرين. ومن لَمْ يقتل أو يجرح من صغار أبناء المهدي ـ عبدالله، والطاهر، ونصر الدين، وعلي ـ فقد اقتيدوا للأسر بأم درمان ومن ثَمَّ أضيف إليهم أسرى أم دبيكرات. وقرّرت السلطات البريطانية ترحيل عائلات المهدي وخلفائه الثلاث وعدد من أمراء التعايشة إلى المعتقل في رشيد بمصر.

عثرت على عدد لمجلة «الهلال» المصرية ـ صدر في ديسمبر 1899 ـ وصف فيها أحد الكتاب وصول هؤلاء الأسرى إلى مصر. والمقال يمتلئ بالأخطاء التاريخية وينم عن جهل فاضح بما كان يجري في السودان من أحداث كانت مصر جزءاً أساسياً منها. ويقيني أنَّ الكاتب استقى هذا الوصف من إحدى الصحف الصادرة في عام 1899. فحَتَّى اللغة ـ لَمْ يتصرف فيها ـ تركها كما هي ـ لغة القرن التاسع عشر بضعفها وركاكتها. إلَّا أنَّ بعض ملاحظاته جديرة بالنظر. فقال «وفي الساعة العاشرة من مساء 27 ديسمبر 1899 وصل إلى القاهرة أسرى الدارويش البالغ عددهم مائة وخمسون أسيراً ورحلوا فوراً إلى معتقل رشيد. وكان في مقدمتهم الأمراء الذين سلموا أنفسهم في واقعة 24 نوفمبر 1899 أحياء يوم قتل التعايشي وزالت دولته من الوجود. ومن الذين أحضروا الأمير شيخ الدين بن الخليفة عبدالله والأمير يونس الدكيم والأمير محمد زين والأمير محمد فرفار وعدد كبير من النساء والأطفال». ولاحظ الكاتب أيضاً «أنَّ الأمراء كلهم اصحاب شمم. وللتعايشي بنات أسيرات وهن على جانب عظيم من الجمال والاحتشام، ببشرة حبشية اللون والرجال يحتقرون من يحلقون لحاهم ولا يرتدون العمامة. وتمسكهم بالدين عظيم ولا يسيرون على المذاهب الأربعة».

ويبدو أنَّهم وصلوا في الأيام الأخيرة لشهر رمضان فكانوا صائمين. فقال إنَّهم في فجر يوم عيد الفطر ارتدوا ثياباً بيضاء نظيفة ووقفوا للصلاة يؤمهم أحد كهول

الأمراء. فأخذوا يطيلون الركوع والسجود حَتَّى استغرقت الركعتان أكثر من ساعة من الزمن. تزامنت تلك المشاهد مع وصول الأمير عثمان دقنة الذي أعتقل في شرق السودان بعد أنْ بارح منطقة أم دبيكرات قبيل المعركة بقليل، فجيء به عن طريق البحر الأحمر إلى ميناء السويس. فوصفه الكاتب أيضاً بأنّه كان طويل القامة، متوسط الحجم، أبيض اللون، عريض الوجه مستديره، تحيط به لحية عظيمة، تعبر ملامحه الواضحة عن سمات الذكاء والشجاعة. وكان يرتدي ثوباً التف به من كتفيه حَتَّى قدميه ـ كعادة أهل السودان ـ وعمامة كبيرة على رأسه. وفي أثناء ترحيله من الباخرة إلى عربة السكة الحديد إحتشد جمع غفير من الأوروبيين الذين طالما تابعوا الصحف الإنجليزية التي نوهت ببطولاته واختراقه لمربع الفرسان البريطاني ـ فتدافعوا نحوه يسلمون عليه وامتدت إليه عشرات الأيدي. فأخذ يصافحهم فرداً فرداً ويتحدث إليهم بكلّ بشاشة وترحاب.

لقي هؤلاء الأسرى معاملة قاسية من قبل السلطات البريطانية التي كبلتهم بالقيود الحديدية بدعوى أنّهم يشكّلون تهديداً خطيراً. إلّا أنّ الصحافة الوطنية المصرية كشفت ظروف إعتقالهم واتهمت الإدارة البريطانية في مقالات عديدة نشرت في «الأهرام» و«المنبر» و«اللواء» و«المؤيد» بسوء معاملة الأسرى وأحدثت ضجة كبرى في هذا الشأن. واهتم النائب البرلماني البريطاني بريلز فورد بالقضية وكتب مقالات حادة اللهجة بصحيفتي «ديلي نيوز» و«نيشن»، وذلك عقب زيارته لسجن دمياط في 25 مارس 1908 حيث قابل بعض الأسرى من الأمراء، واستمر بريلر فورد مع عدد من رفاقه البرلمانيين الليبراليين في التحري عن أحوالهم والمطالبة بإخلاء سبيلهم.

وكان لمناخ البحر الأبيض المتوسط البارد تأثيره الضار على أحوال الأسرى الصحية فتوفي بمرض السل أبناء المهدي الصغار عبدالله والطاهر ونصر الدين. كما توفي الأمير محمود ود أحمد في عام 1906 ولحق به آخرون من بينهم بعض النساء. وظلوا يرسفون في قيودهم حَتَّى عام 1909 حين أزيلت عنهم بتوجيهات من

إعادة افتتاحها بإشراف وتوجيه معلميهم المصريين، أما التاتو، فقد كانت محاولة لمسرحة معركة كرري كعمل سياسي دعائي تَمَّ عرضه في عام 1899 للإشادة بإنتصار الجيش الإنجليزي في تلك المعركة. وفي عام 1903 شهدت ساحة المولد النبوي الشريف في رفاعة مسرحية قصيرة ألفها الشيخ بابكر بدري وقدمتها مدرسة رفاعة. أما التجربة الرائدة فقد كانت مسرحية من تأليف مأمور المركز المصري بالقطينة عبدالقادر مختار، كان ذلك في عام 1908 وكانت بعنوان «نكتوت». ولعلها أول مسرحية سودانية طويلة تعرض في السودان، باللهجة العامية وتدور أحداثها في «إندابة» لامرأة تدعى نكتوت وقام بالتمثيل تلاميذ المدرسة الابتدائية، وكانت تهدف إلى تهذيب الأخلاق ومحاربة بعض العادات السلبية. ويكون بذلك هذا الرجل المصري قد سبق جماعة المؤلفين السودانيين الذي قدموا في أوقات لاحقة مسرحيات مستقاة من البيئة السودانية، وفي الوقت نفسه كان النادي المصري بالخرطوم يمارس نشاطاً مسرحياً. فقد نشرت صحيفة السودان في أول خبر لها عن عرض مسرحي عربي بالسودان، في عام 1909 بعنوان «هفوات الملوك» وهي رواية أدبية أخلاقية وضعها حضرة الأديب عبدالعزيز أفندي حمدي من موظفي مالية السودان مثلت بالنادي المصري في الخرطوم. وما أزفت الساعة الثامنة مساء الخميس الماضي حَتَّى أمَّ جمهور غفير من كبار الضباط والموظفين الإنجليز والمصريين والسوريين دار النادي وأجاد الممثلون في تشخيص أدوارهم مما دعا إلى سرور الحاضرين، وانفرط عقد الجمهور وكلهم يثني على حضرة واضع الرواية وحضرات الممثلين. ويلاحظ أنَّ الجمهور السوداني كان غائباً عن حضور أول مسرحية طويلة تعرض على مسرح في السودان. أما جمعية التمثيل والموسيقى السورية فقد تألفت من خلال أعمالها التي كانت تقدِّمها في مسرح السرور، بالخرطوم جنوب مبنى البريد والبرق. وكان يديره الخواجة لويزو، بجانب قهوته الشهيرة، وقد نقلت الجمعية نشاطها إلى أم درمان في عام 1912 على مسرح خشبي

مصلحة السكة الحديد مجموعة من ابناء هؤلاء الأمراء بورشها في حلفا بالإضافة إلى تدريبهم على النجارة وحلج القطن وغيرها من المهن. وقد تَمّ نقلهم جميعاً إلى عطبرة عام 1908 عندما تأسست رئاسة السكة الحديد. وفي عام 1908 اقترح الجنرال ونجت ترحيل الأسرى سراً من دمياط إلى حلفا حَتّى يكونوا بمنأى عن ملاحقة الصحافة المصرية وعيون البرلمانيين البريطانيين. إلّا أنّهم بناء على نصيحة سلاطين الذي تَمّ تعيينه مفتشاً عاماً على السودان منذ سبتمبر 1900، فقد تَمّ ترحيلهم بصورة علنية بدعوى أنّهم يشكون من رطوبة الطقس في مصر ويطالبون بالترحيل إلى منطقة أخرى.

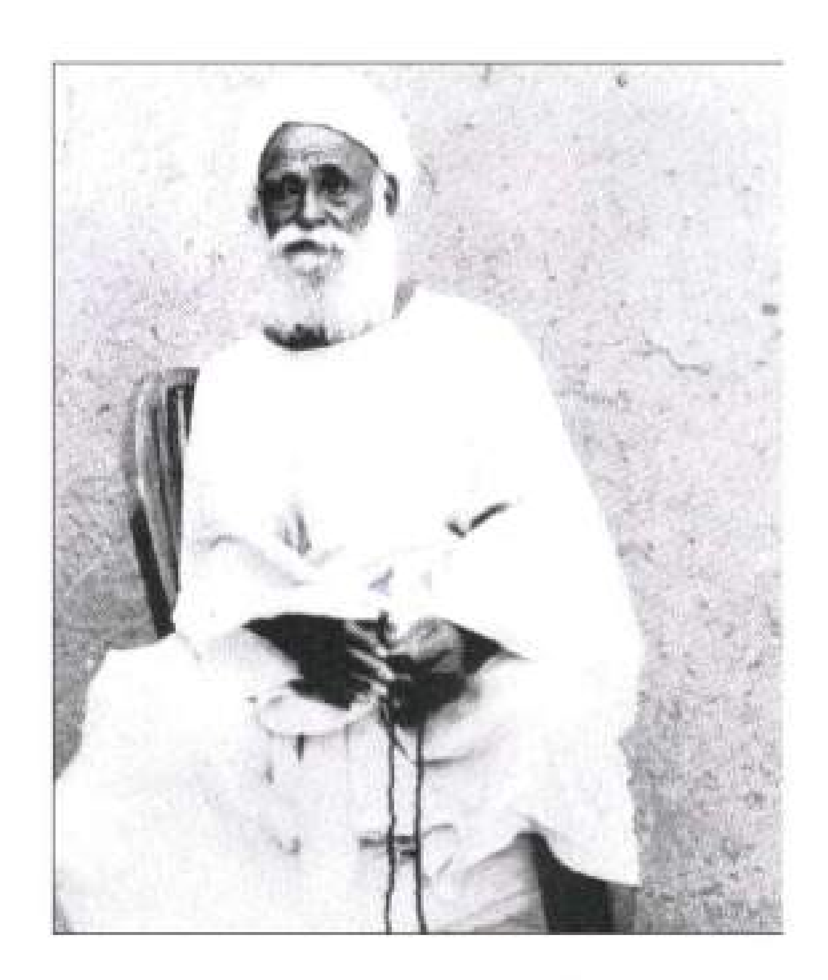
أثمرت الحملات التي شنتها الصحافة الوطنية المصرية والصحافة الليبرالية البريطانية لتحسين أوضاع المعتقلين واطلاق سراحهم في حمل سلطات الغزو على تحسين ظروف الإعتقال وتوفير الرعاية الصحية لهم، كما بدأت في الإفراج عنهم تدريجياً مع تحديد المناطق التي ينبغي أنْ يتواجدوا فيها. ولما رأت الحكومة أنّه بات من المستحيل أنْ يتمكن هؤلاء الأسرى الملاحقون، وخاصة أفراد أسرتي المهدي والخليفة من توفير العيش الكريم لأنفسهم بصورة عادية بسبب القيود التي فرضتها عليهم أحسّت أنّها ملزمة أخلاقياً بمنحهم مخصصات شهرية. وكان سلاطين الذي بات مسؤولاً عن كلّ المسائل المتعلقة بالدين، قد حدّد في البداية حجم تلك المخصصات، ثُمّ ما لبثت الحكومة أنْ قرّرت زيادتها.

وفي عام 1919 قسمت الحكومة سجناء الأنصار السّياسيين إلى ثلاث مجموعات.. الأولى تكونت من 77 أميراً بينهم يونس الدكيم والختيم موسى ومساعد قيدوم وإبراهيم مخير، وقد أخلى سبيلهم جميعاً ورفعت عنهم الرقابة الأمنية وسمح لهم بالعيش في أيّ بقعة يرغبون في البقاء عليها. أما المجموعة الثانية وتكونت من 19 شخصاً من أفراد عائلة المهدي وفي مقدمتهم السيد عبدالرحمن فقد فرضت عليها قيود خاصة وإستمرت مراقبتها أمنياً. ذلك بالإضافة إلى المجموعة الثالثة التي

أطلق عليها لفظ المتطرفين، وقد ضمت خمسة أشخاص على رأسهم السيد علي عبدالكريم.

لقد بذل البروفيسور حسن أحمد إبراهيم مجهوداً مقدراً في كتابه «الإمام عبدالرحمن المهدي» وأفرد الفصل الأول منه لهؤلاء الأسرى بعنوان «سجناء الضمير من المهدويين»، فبحث في كثير من الوثائق البريطانية والتقى منذ سنوات السبعين ببعض هؤلاء الأسرى الذين رووا له أطرافاً من تجربتهم تلك التي لَمْ يسلط التاريخ أضواءه عليها كثيراً.

9 يوليو 2002



الأمير عثمان دقنه في سجنه

بدايات الحركة المسرحية في السوادن

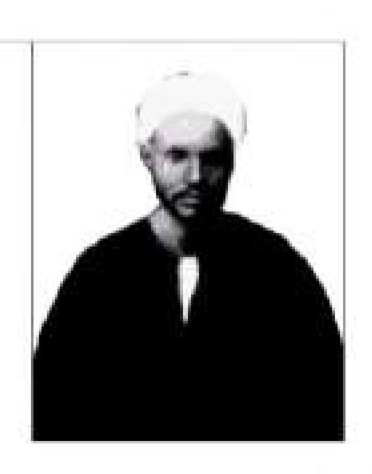
مما لا شك فيه أنْ المجتمعات السودانية عبر التاريخ كانت قد شهدت ضروباً من الفن المسرحي غير ذلك الذي يقوم الأن على الأسس المسرحية الغربية «أو المسرح الإغريقي إنْ شئنا القول، فالإحتفالات الطقسية في المعابد النوبية القديمة وإحتفالات مواسم الحصاد التي تحتشد بأنواع مختلفة من الرقص والأغاني هي مشاهد نستطيع أنْ نصفها بالمسرح الإحتفالي. ومازالت مناطق عديدة في الأرياف والبوادي السودانية تقدّم نماذج إحتفالية ذات أنماط مسرحية جديرة بتأمل النُقّاد والمتابعين للفنون المسرحية. وفي العصر الحديث ارتبطت نشأة المسرح في السودان بنشأته في الشام ومصر.

كان مارون النقاش اللبناني أول من قدّم مسرحية بصفة جادة في منزلة ببيروت في أواخر عام 1847 وهي مسرحية بعنوان «البخيل»، وقد يكون قد اقتبسها من «بخيل» موليير، ثُمَّ انتقل المسرح من بيروت إلى دمشق على يد أحمد أبو خليل القباني الذي اضطر للهجرة إلى القاهرة بعد أنْ اغلق الوالي التركي مسرحه. وكان فنه يجمع بين التمثيل والموسيقى والغناء الأمر الذي شكل بدايات للشيخ سلامة حجازي وسيد درويش ومنيرة المهدية الذين أثروا المسرح الغنائي في مصر. وبعد القباني جاء يعقوب صنوع اليهودي المصري، ثُمَّ سليم النقاش وكانوا كثيراً ما يتعرُضون لسخط الخديوي فيأمر بإغلاق مسارحهم.

وفي مدرسة الخرطوم الابتدائية التي أنشأها الخديوي عباس وأسند إدارتها للمفكر المجدد رفاعة رافع الطهطاوي بدأت محاولات مسرحية جنينية. وتؤكد المصادر أنّ أول عرض مسرحي قدمه طلاب هذه المدرسة في عام 1880 - بعد

البدايات الأولى للصحافة السودانية

حسين شريف رائداً ومؤسساً ومفكراً



لا يتناول مؤرخ تاريخ الصحافة السودانية إلّا ويستهله بالحديث عن الصحفي الأول حسين شريف.. فقد برز مهنياً ناضجاً وكاتباً ومفكراً وسّياسياً ذا بصيرة نافذة حيث أصدر أول صحيفة سودانية لحماً ودماً في عام 1919، هي صحيفة «حضارة السودان». ظلَّ حسين شريف مهتماً بالشأن السوداني منذ نعومة أظفاره، ولا غرو فهو أحد ورثة قيادة الثورة المهدية، فأبوه الخليفة محمد شريف حامد، الخليفة الثالث للإمام المهدي، وأمه السيدة زينب بنت الإمام المهدي.

وقد إستشهد والده برصاص الإنجليز عقب الفتح عام 1899 في الشكابة، فنشأ يتيماً إلّا أنه ظلَّ قريب الصلة بخاله السيد عبدالرحمن المهدي. وفي عام 1915 اتهمته السلطات البريطانية بممالاة الخلافة العثمانية وقامت بنفيه إلى منقلا بجنوب السودان لفترة من الزمن عاد بعدها إلى الخرطوم ليمارس نشاطه الصحفي الذي بدأ في صحيفة «رائد السودان». وعندما أصدر صحيفة «حضارة السودان» في عام 1919 دشن بها البداية الحقيقية للصحافة السودانية، وفي تلك الصحيفة كتب أربعة مقالات خطيرة حاول فيها تحديد مستقبل السودان، كانت تلك الأيام تشهد

في حوش منزل الخواجة فواز غرب مدرسة أم درمان الأميرية. وواصل هذا الخواجة تقديم المسرحيات في داره حَتَّى نهاية الثلاثينات وربما بعدها. والمعروف أنَّ صديق فريد كان يمثل على خشبة هذا المسرح مع جماعته أثناء سنوات العشرين وما بعدها. كما قدَّم فيه يوسف وهبي عروضه وكذلك بديعة مصابني مع فرقتها للرقص والاستعراضات وما يصاحب ذلك من مونولوجات. ومن بين ما قدمته الجمعية السورية مسرحية «ثارات العرب»، لنجيب الحداد السوري الجنسية، وهو زعيم مدرسة التعريب ومؤلف مسرحية «صلاح الدين الأيوبي»، التي اشتهر بها صديق فريد في السودان، كما اشتهر بها سلامة حجازي في مصر. وكان فريق من الخريجين السودانيين قد تأثروا بهذه الفرق المسرحية الوافدة على الرغم من أنَّ النادي المصري قد توقف نشاطه المسرحي بعد ثورة عام 1924 حيث تَمَّ إخلاء المصريين من السودان. فقد أنشأ الخريجون، جمعية التمثيل، التي ضمت صديق فريد وعبدالرحمن علي طه وعوض ساتي وطه صالح وإسماعيل فوزي وعلي بدري وأبوبكر عثمان وشوقي الأسد وعبدالرحمن شوقي. وقد شاركت جمعية التمثيل في الدعوة إلى الاكتتاب لتأسيس المدرسة الأهلية بأم درمان وذلك من خلال العروض التي قدمتها في أقاليم السودان المختلفة. ففي عام 1931 قدمت الجمعية مسرحية «صلاح الدين الأيوبي»، بمسرح نادي الخريجين بالأبيض حيث أسندت البطولة لعبد الرحمن علي طه، وشارك في التمثيل مكاوي سليمان أكرت وإبراهيم يوسف سليمان ومكي عباس وخضر حمد ويوسف مصطفى التني وأمين بابكر وحسن زيادة، وفي معظم الأحوال إرتبط النشاط المسرحي بالعمل السّياسي. وكان علي عبداللطيف وعرفات محمد عبدالله غير بعيدين عن هذا النشاط. أما صديق فريد فيعتبر الرائد الأول للمسرح السوداني الحديث حيث استطاع تكوين حركة مسرحية إلتف حولها الجمهور السوداني منذ حوالي عام 1918 وواصل نشاطه هذا حَتَّى حوالي منتصف الثلاثينات.

وفي أواخر تلك الفترة عمل على توجيه الفرق الناشئة وإرشادها. أما جماعته التي أنشأها فكانت تتبدل وتتغير بسبب التنقلات أو الخلافات أو ظهور الوجوه الجديدة التي كان يرعاها ويصقل موهبتها. وقدّم صديق فريد خلال نشاطه المسرحي عدداً من المسرحيات منها، الفارس الأسود، وتاجر البندقية، ووفاء الغانيات، والقبلة القاتلة، والتوبة الصادقة، ويوليوس قيصر وفي سبيل التاج، وصلاح الدين الأيوبي، وفران البندقية، وعطيل، ومجنون ليلى، والعباسة، ووفاء العرب، والمروءة والوفاء، وعنترة. وكلّ هذه المسرحيات كان قد تَمَّ تقديمها في مصر والشام وأعاد هو إخراجها في السودان. وذلك قبل أنْ يبرز الكتاب المسرحيون الذين تناولوا الحياة السودانية في نصوصهم كإبراهيم العبادي وخالد أبو الروس و سيد عبدالعزيز وأحمد عباس، روّاد المسرح السوداني الأصيل الذين ارتكزت أعمالهم على تراثنا وقوميتنا ولهجتنا وتقاليدنا.

تلقى صديق فريد، واسمه الكامل محمد صديق عثمان فريد، تعليمه في كلية غردون التذكارية في أول قسم فيها أنشيء لمعلمي اللغة الإنجليزية والعربية والعلوم الحديثة، أيّ أنّه نال أعلى تعليم في زمانه، وتخرج منها عام 1912. وكان من بين الذين تخرجوا معه محمد الحسن دياب وعبدالكريم محمد وحمزة فتحي حسين. وكان شخصية صديق فريد المتعلّم المثقف التي ولجت باب المسرح قد رفعت من شأن التمثيل خلافاً لما كان سائداً في العالم العربي من إزدراء للممثل ونعت له بـ المشخصاتي. وصفه معاصروه بأنّه كان طويل القامة، متكامل البنيان، ولاعب كرة ماهراً في شبابه، ذا ملامح واضحة معبّرة أسمر اللون مرحاً وساحر الشخصية سريع البديهة، قلقاً وقُلْباً شجاعاً جريئاً لا يكترث كثيراً لما يرتكب من أخطاء. وقالوا إنّه كان واضح النبرات، جهير الصوت، باختصار أنّه كان ممثلاً من الطراز الأول، وكان ضليعاً في اللغة الإنجليزية، إلى الدرجة التي كان يعتقد رصفاؤه أنّه حفظ القاموس الإنجليزي عن ظهر قلب، وكان يجري التدريبات المسرحية في منزل

أسرته الواقع شمال مدرسة أم درمان الأميرية، ويتمُ عرض أعماله في مسارح نادي الخريجين أو الخواجة فواز أو مدرسة أم درمان الأميرية أو نادي الضباط الوطنين بالموردة. ولَمْ تقتصر عروضه على العاصمة بل كانت الفرقة تنتقل أحياناً إلى عطبرة وبورتسودان والأبيض وغيرها من المدن الإقليمية.

ولد صديق فريد بأم درمان عام 1887 لأب عاصر ثلاث حقب من تاريخ السوادن وهي التركية والمهدية والحكم الثنائي. وكان ذلك الأب قد نال قسطاً من التعليم أثناء الحكم التركي بمدرسة الخرطوم مما أهله لأن يتمَّ إختياره معلماً لأبناء الخليفة عبدالله وغيرهم من أبناء الأمراء، يدرسهم مبادئ الحساب وكتابة نصوص الرسائل. وعمل أثناء الحكم الثنائي موظفا بالمالية إلى أنْ وافاه الأجل المحتوم بعد عمر مديد في عام 1921 إلّا أنّه كان قد تعرُض للإعتقال في عام 1917 بتهمة تأييد دول المحور في الحرب العالمية الأولى. وربما يعود ذلك لأصوله التركية. وقد لعب عدد من أبنائه دورا في الحياة السّياسية والإجتماعية بالسودان.

وقد ذكر بعض المصادر أنّه لأسباب غير معروفة قرّر صديق فريد فجأة الهجرة إلى أريتريا في بداية الحرب العالمية الثانية ومكث هناك إلى أنْ توفي متأثرا بالالتهاب الرئوي عام 1941 وهو في سن الرابعة والخمسين، وأشارت إلى أنَّ مكان قبره مجهول، إلّا أنُ الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه أكّد أنَّ صديق فريد كان قد التحق بقوة دفاع السودان مترجماً وعمل معها في جبهة أريتريا حيث توفي ودفن في المقبرة الحربية الإنجليزية بأسمره، وقد زار قبره وقرأ الفاتحة على روحه عند زيارة له لأسمره في عام 1963، ووجد مكتوباً على شاهد القبر بالإنجليزية « صديق فريد، مترجم».

10 أبريل 2001م

العادات الإجتماعية السلبية. لَمْ تلبث صحيفة «حضارة السودان» أنْ انغمست في نشاط سٌياسي سافر لتقف ضد الداعين للوحدة مع مصر وتصدى حسين شريف في مقالاته للصحافة المصرية والدعوة للإتحاد تحت التاج المصري.

في عام 1927 وبعد ثلاث سنوات من أحداث الثورة، تقدَّم الشيخ عبدالرحمن أحمد، المعلم بمدرسة الخرطوم الابتدائية للتصديق له بإصدار مجلة أدبية إلاَّ أنَّ طلبه ووجه بالرفض. وفي نفس العام تقدَّم سليمان داؤد منديل صاحب مطابع «منديل» بطلب لإصدار صحيفة باسم «الجريدة التجارية» فحصل على الموافقة وفي عام 1930 وضعت الحكومة قانوناً للصحافة وصدر رسمياً في سبتمبر من ذلك العام. وبعد صدوره مباشرة تقدَّم محمد عباس أبو الريش بطلب لإصدار مجلة «النهضة السودانية» التي كانت تصدر مكتوبة بخط اليد تتداولها مجموعة من الأصدقاء وبعد صدورها في ثوبها الجديد أخذ يكتب فيها محمد أحمد محجوب وإسماعيل العتباني وعبدالحليم محمد ومحمد عشري الصديق وغيرهم من شباب الكتاب الذين برزوا في الثلاثينيات. ولَمْ تمض سوى أشهر قليلة حَتَّى مرض صاحبها أبو الريش وظلَّ يشرف عليها محمد أحمد محجوب وعرفات محمد عبدالله. ولَمْ تعمر النهضة طويلاً بعد وفاة أبو الريش فتوقفت بعد أربعة عشر شهراً من صدورها.

بعد «النهضة» إنتقلت الصحافة السودانية إلى المعترك السٌياسي وصدرت مجلة «الفجر» لصاحبها عرفات محمد عبدالله واستطاعت أنْ تملأ الفراغ في الساحة الثقافية والفكرية واحتضنت عدداً من الأقلام وخاصة تلك التي شاركت في تحرير «النهضة».

بعد بروز الأحزاب السٌياسية في النصف الثاني من الأربعينيات أصدرت صحفها المعبِّرة عنها، كما صدر عدد من الصحف المستقلة، وأخذت الصحافةالسودانية تشق طريقها خلال السنوات الأخيرة للإستعمار مستشرفة العهد الوطني.

تطوُّرات ثورة 1919 المصرية. وكانت تصريحات قادتها السِّياسيين حول السودان ومستقبله تستدعي حواراً تشارك فيه جميع الأطراف المعنية. إلا أنَّ مستوى الوعي السِّياسي كان دون الطموحات المتعلقة بمثل هذا الحوار. كان القادة السِّياسيون المصريون يتحدثون عن استعادة السودان ووحدة البلدين تحت التاج المصري، وبعضهم كان يتحدث عن حق الفتح، فانقسم السودانيون بشأن تلك الرؤى وبرز تياران أحدهما رأى مستقبل السودان في وحدته مع مصر، والآخر دعا لانفضاض شراكة الحكم الثنائي وانفراد إنجلترا بالسلطة ريثما يشتد ساعد الوطنيين السودانيين فيتولون شؤون أنفسهم مع علاقة متميِّزة مع مصر. وكان حسين شريف منظراً للفريق الثاني ومدافعاً شرساً عن ذلك المعسكر حَتَّى وفاته المبكرة في 1928، إلا أنَّ أفكاره باتت أساساً نظرياً لما عرف فيما بعد بمعسكر الإستقلاليين. ظنَّ البعض أنَّ حسين شريف من صنائع الاستعمار إلَّا أنَّ سلطات الإحتلال كانت ناقمة عليه في الواقع حيث كانوا يحذرون السيد عبدالرحمن المهدي بأنَّ «ابن أختك هذا سيقودك يوماً إلى حبل المشنقة» رأت فيه زعيماً وطنياً محتملاً يخشى جانبه.

أوعز اللورد كرومر لأصحاب صحيفة «المقطم» المصرية، وهم يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس بأن يصدروا صحيفة في السودان، وكان هؤلاء الثلاثة لبنانيين يمتلكون «دار المقتطف» التي بدأت نشأطها في بيروت ثُمَّ انتقلوا بالمجلة إلى القاهرة في عام 1885. كانوا قريبين من الإنجليز، إستمالهم اللورد كرومر لضرب الصحافة الوطنية في مصر مثل «الأهرام» لذا بدأت الصحيفة الأولى في السودان وثيقة الصلة بالإدارة البريطانية، أجنبية في كلّ ما يحيط بها من مظاهر. جاءت لخدمة النظام الجديد. ففي عام 1903 حين صدرت بالخرطوم كان السودانيون خارجين لتوهم من ظروف عصيبة مثخنين بالجراح بعد أنْ هزمت دولتهم، تحيط بهم الكوارث السِّياسية والإقتصادية والإجتماعية من كلّ جانب. كان تعدادهم لا يتجاوز المليون وثمانمائة ألف بكثير.. لا حظَّ لهم في التعليم

المدني الحديث ولا أساليب الحياة العصرية التي تسارعت خطواتها في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر. جاء الشركاء الثلاثة بإمكانياتهم الصحفية فاستوردوا المطبعة وأسندوا مهمتها لعمال مصريين ورئاسة التحرير لشاهين مكاريوس ومن بعده لخليل ثابت. وصدرت صحيفة السودان بانتظام إبتداء من أكتوبر عام 1903 نصف أسبوعية ولَمْ تلبث أنْ أصبحت اداة التعبير الوحيدة لحكومة الإحتلال. وأنشأت أول مكتبة للصحف الأجنبية والأدوات المكتبية والمطبوعات، وهي مكتبة «سودان بوكشوب».

بعد إنتعاش الأحوال الاقتصاية وتخرُّج عدد من السودانيين في كلية غردون والمدارس الحديثة الأخرى ليكونوا رأيا عاماً أنشأ اليونانيان المقيمان بالسودان ساولو وخريستو عام 1911 مطبعة تجارية في الخرطوم، هي مطبعة فكتوريا. ثُمَّ حصلا على موافقة بإنشاء صحيفة باسم «سودان هيرالد» ناطقة باللغتين اليونانية والإنجليزية لتخاطب جاليتها والأجانب الآخرين. إلا أنَّ بعض المهتمين بالأدب من سوريين ومصريين وسودانيين اتصلوا بصاحبيها مقترحين إصدار ملحق باللغة العربية يعنى بالأدب العربي وقد كان. فصدرت صحيفة «رائد السودان» لتصبح ثانية صحيفة في تاريخ السودان ولتلعب دورا بارزاً في النهضة الأدبية والفكرية. وتولى تحريرها الأديب والشاعر السوري عبدالرحيم مصطفى قليلات، الذي كان يعمل في مصلحة سكة الحديد السودانية. ووجد الجيل الذي قامت على أكتافه الحركة الأدبية والصحفية السودانية في بدايتها مجالاً لنشر أعماله الشعرية والنثرية والتقى على صفحاتها خريجو المدارس الحديثة بالجيل الذي عاصر الثورة المهدية حيث كتب فيها محمد عمر البنا مفتش المحاكم الشرعية، وأبو القاسم هاشم شيخ العلماء وبابكر بدري وعمر الأزهري. أما جيل الكتاب من الخريجين فقد ضمَّ عبدالله محمد عمر البنا وعبدالله عبدالرحمن الأمين وأحمد محمد صالح، وتوفيق صالح جبريل. كان قليلات رجلاً جريئاً ذا مرؤة وكان لا يخفى تعاطفه مع تركيا

ودول المحور بعد نشوب الحرب العالمية الأولى، فوجدت عليه السلطات البريطانية. وعندما كتب مقالاً حول مجاعة كانت قد اجتاحت البلاد شن هجوماً على الحكومة وعقد مقارنة بين معاناة الأهلين من الفقر وشظف العيش وما يرفل فيه الحكام المستعمرن والأجانب من نعيم فتم إعتقاله وإبعاده عن السودان إلى مصر مخفوراً.

لَمْ تعمر «الرائد» بعد إبعاد قليلات طويلاً فقد توقفت عن الصدور في عام 1918، إلّا أنّها سجّلت انتصارا للسودانيين قبل أنْ تتوقف، حيث آلت رئاسة تحريرها لأول صحفي سوداني هو السيد حسين شريف. وعندما أدرك حسين شريف أنّ رائد السودان ستتوقف عن الصدور نشر فيها مقالاً بعنوان «شعب بلا جريدة قلب بلا لسان»، ناشد فيه السودانيين بالاكتتاب لشراء مطبعة وإصدار جريدة ناطقة باسمهم تنشر أفكارهم وإنتاجهم الأدبي، وقد تحققت دعوته بصدور حضارة السودان في 28 فبراير 1919 كأول صحيفة سودانية ملكية وتحريراً وقراء. في تلك الفترة صدرت أيضاً مجلة «السودان في رسائل ومدونات» باللغة الإنجليزية لتعنى بنشر البحوث عن السودان وأهله وتاريخهم وتقاليدهم وعاداتهم ليستفيد منها الإداري البريطاني خلال ممارسته لشؤون وظيفته.

كان الأعضاء المؤسسون لصحيفة «حضارة السودان» هم السادة عبدالرحمن المهدي وخليل عكاشة ومحمد الخليفة شريف وحسين الخليفة شريف، وعثمان صالح، وحسن أبو، ومحجوب فضل المولى وعبدالرحمن جميل. كان من الواضح أنّ هذه المجموعة ذات صلة بطائفة الأنصار وتلتف حول السيد عبدالرحمن المهدي، أيّ ذات لون سّياسي محدد.

في أول عهدها اهتمت الصحيفة بالقضايا الإجتماعية والمطلبية فدعت لإنارة الشوارع وإصلاح الطرق والتوسع في مجال التعليم والإهتمام بتعليم المرأة ومحاربة

البحرالأحمر والنيل بدار القنصلية وعند وصولهم رحب بهم على الطريقة السودانية. كما ذكر الرحالة بايارد تيلر أنّه لدى وصوله إلى الخرطوم دعته الأميرة نصرة بنت عدلان إلى مأدبة فخمة في دارها ووزعت هدايا على جميع المدعوين. ويبدو أنَّ الأميرة نصرة قد إنتقلت من قصرها في السوريبة لتسكن في العاصمة الجديدةالخرطوم.

وكانت العلاقات أقوى ما تكون بين السودانيين والجالية المصرية ـ موظفين وتجارا ـ وقد تزوج العمال المصريين من سودانيات وانجبوا من عرفوا في أوقات لاحقة بالمولدين.

وكان هؤلاء العمال يعملون كمديرين للمقاهي والحمامات العامُة وخبازين وصانعي أحذية وخياطينٍ وحلاقين وفي إصلاح أسلحة الجيش. أما الأقباط فقد كانوا قليلي العدد إلّا أنّهم كانوا يسعون للإرتباط بالموظفين السودانيين ويتبادلون معهم الدعوات إلى الموائد وخاصة في المناسبات الدينية. والسوريون كانوا أكثر الجاليات عدداً بعد المصريين والمغاربة وكانوا يعملون موظفين في الحكومة ويسكنون في الأحياء الراقية إلّا أنّهم لَمْ يعقدوا صلات عميقة مع الآخرين.

وقد نشأت منتديات ثقافية كانت تستقطب النخب من أعيان المدينة، كمنتدى المفكر المستنير رفاعة رافع الطهطهاوي الذي جاء إلى السودان ناظراً للمدرسة الأميرية ومنتدى إبراهيم بك مرزوق رئيس القلم الأفرنجي بالحكمدارية ومنتديات الحكمداريين.

ويؤم هذه المنتديات مثقفون أجانب ووطنيون وبعض كبار التجار الذين يتحدثون عن تجاربهم بالبلاد وخاصة الجنوب الذي كان قد ارتبط بحركة التجارة منذ أوائل النصف الثاني من القرن. وفي أخريات الحكم التركي في

وظلَّ الحكم الشمولي هو العقبة الكؤود التي تصطدم بها الصحافة حيث المصادرة والرقابة المستمرة مما أثر سلباً على مستواها ودفع بالكثير من الصحافيين لمغادرة الوطن والعمل بعيداً في الصحافة العربية شرقاً وغرباً.

15 مايو 2001م

الخرطوم في القرن التاسع عشر

إستبد الإنبهار بالرحالة الفرنسي شابيه لونج الذي زار الخرطوم في منتصف القرن التاسع عشر، فلم يستطع إخفاء إعجابه بالمدينة.. وربما أفرط في وصفها حين قال إنّها تذكره بباريس بمحالها التي تشبه «الباليه رويال» الزاخرة بكلّ ما يحتاجه الإنسان العصري من ملابس جاهزة وأنواع العطور والدخان.. بالإضافة إلى حدائقها الغناء بثمارها المتنوّعة التي وصفها بحدائق الشانزليزيه. أما الرحالة الإيطالي بايارد تيلر فتمنى أنْ تكون شوارع روما وفلورنسه في مثل نظافة شوارع الخرطوم. ومهما يكن من حال فتظل هذه الصورة نسبية لأن رحالة أجانب آخرين إنتقدوا مظاهر كثيرة في تلك الخرطوم القديمة ما راقت لهم. ربما كانوا قد زاروها في زمن الأمطار والفيضانات التي كانت تخلف مستنقعات صغيرة تكون سبباً في تشويه المدينة وانتشار الأمراض. إلّا أنّ عشاق الخرطوم ـ من الأجانب الذين زاروها ـ كانوا هم الأغلبية. ففي صحيفة «الأهرام» كتب أحد الأدباء المصريين يصفها فقال «مدينة الخرطوم جامعة إلى جمال الموقع الطبيعي محاسن النظام المدني والرونق الحضري. وأكثر أبنيتها من الحجر واللبن الأحمر مزدانة بالجبس والأجر، وقصورها في غاية البهجة والرونق وشوارعها منتظمة جداً. وفيها شارع يبتدئ من شاطئ النيل الأزرق وينتهي في جنوب المدينة يسمى السكة الجديدة استعارة من اسم السكة الجديدة في القاهرة. وجميع سكانها محافظون على عاداتهم الأصلية ثُمّ نشأ فيها التقليد الغربي وعادات المدنية الأوروبية، حَتّى أنّ هناك نحو ألف شاب يتكلم باللغتين الفرنسية والايطالية. وتحيط بها بساتين خصبة نضيرة يبلغ عددها حوالي مائتي بستان. ولسكانها ميل شديد إلى تزيين منازلهم بالرياش الفاخر ولديهم من

الملاهي وأماكن الرقص والمقاهي ما يزيد على الخمسمائة. وأشار إلى أنَّ عدد سكانها يبلغ نحو 250 ألف نسمة حوالي خمسهم من السودانيين والآخرون من الأتراك والمصريين والسوريين والأوروبيين والمغاربة. وفيها نحو عشرين عائلة فرنسية أشهرها عائلة الدكتور بتيه وحوالي 15 عائلة إيطالية وأربعين عائلة نمساوية ومثلها ألمانية. وأشهر العائلات النمساوية عائلة الخواجة ديفيد النقاش. ومن العائلات النمساوية عائلة الخواجة هاك ماخبر. وبها مائة عائلة يونانية وحوالي عشرين عائلة من الأرمن أشهرها عائلة بطرس بك سركيس».

واتخذ كثير من الأوروبيين الخرطوم وطنا ثانياً مثل كلين الخياط الألماني وهنزل نائب القنصل اللذين عاشا فيها لسنوات طويلة حَتَّى قتلا في معركة سقوطها عام 1885. كما كانت الخرطوم نقطة إلتقاء بين جميع الرحالة وطلاب السياحة والصيد والمغامرين الباحثين عن الثراء السريع والمكتشفين الساعين لمعرفة منابع النيل. سواء كانوا في طريقهم إلى داخل القارة أو في طريق العودة إلى بلادهم مبحرين في النيل أو البحر الأحمر. وقد وصفها الرحالة ليجان بقوله: «فقد كانت هي الجنة عند نقطة الإنتقال بين المدنية والهمجية، إلاّ أنّه رأى الجالية الأوروبية تكوّن فيها «أوروبا صغيرة غير فاضلة». فقد كانت الجماعات الأولى التي وصلت إلى الخرطوم بعد الفتح تجارا مفلسين ومجرمين عتاة وشذاذ آفاق مغامرين وفدوا ليجربوا حظوظهم في جمع الثروة أو ليحفروا قبورهم غير عابئين فانزلقوا إلى كلّ ما هو بعيد عن الفضيلة وأمعنوا في الفساد.. وتاجروا في الرقيق وأساءوا إليه. وكانت دار الإرسالية الكاثوليكية منتداهم ومكان حفلاتهم باختلاف مذاهبهم.. وكانوا كثيراً ما يحتفلون بمناسبات الزواج ووصول أوروبيين جدد إلى المدينة ليتعرفوا من خلالهم على أخبار العالم الخارجي. وكان لهؤلاء الأوروبيين علاقات بالسودانيين أيضاً. وقد حدث أنْ استضاف قنصل النمسا الدكتور ريتز مشايخ قبائل مناطق ما بين

الثقافة في مواجهة التسلط والقهر السّياسي



عبدالكريم ميرغني

لما أراد الملك بادي بن رباط ملك سنار إقطاع الشيخ إدريس ود الأرباب أرضاً واسعة رفض وقال له «هذه الدار دار النوبة وأنتم غصبتموها منهم وأنا لا أقبلها»، وجاء في كتاب الطبقات أيضاً أنَّ الملك بادي ولد أونسه أعلن توبته عن كلّ ما نهاه عنه الشيخ خليل الرومي - الذي كان شيخاً صوفياً فقيراً خلق القميص.

ظلَّت المؤسسة الثقافية السودانية طوال عهودها ترياقاً ضد الظلم والتسلط وقهر الأنسان، وكان بروزها ساطعاً في عهد الفونج الذي شهد بعض الملوك الطغاة فتصدى لهم شيوخ الصوفية والزموهم حدودهم.. منعوهم من انتهاك حقوق الإنسان. ولما غزا الأتراك السودان وقاوم أهله ذلك الغزو ببسالة نادرة كان لتلك المؤسسة مواقفها الجهيرة. فالشيخ إبراهيم عبدالدافع الفقيه الصوفي كتب قصيدة حرض فيها على المقاومة ودفع الثمن نفياً وسجناً في ليمان طرة بالقاهرة رزح تحت وطأته طويلاً.

السودان كان هناك منتدى أحمد أفندي العوام المصري العرابي النزعة والمنفي إلى الخرطوم بعد الإحتلال الإنجليزي والذي أدى تأييده للثورة المهدية إلى إعدامه قبيل تحرير المدينة.

كان التعليم الديني راسخ القدم حين دخل الأتراك إلى السودان وإستمر على هذا المنوال حَتّى دخلت الجماعات التبشيرية وأهمها البعثة الكاثوليكية التي باشرت نشاطها في عام 1843. وافتتحت مدرسة داخلية للأطفال الذين تبنتهم، وضمت إليهم بعض البيض والمولدين. وقد إستطاع تلاميذها بسهولة ويسر إجادة اللغة الايطالية بالإضافة إلى العربية.. كما تعلموا قدراً من مبادئ الحساب والرياضة البدنية والرسم والغناء. كما ألحق بها قسم تجاري كان يمد المصالح الحكومية في الخرطوم بخريجيه. واهتمت المدرسة بالتعليم المهني فافتتحت بها أقسام للتجارة والحدادة والحياكة وصناعة الأحذية والميكانيكا يشرف عليها خبراء إيطاليون. وفي السنوات التالية لعام 1859 بدأ التوسع في المدرسة حَتّى بلغ عدد تلاميذها ثلاثمائة من الأولاد ومائتين من البنات بحلول عام 1878. وكان من أشهر خريجيها القس الدينكاوي الأب دانيال سرور الذي ألف أكثر من عشرين كتاباً عن عادات وتاريخ قبيلته لَمْ يبق منها سوى كتاب واحد موجود الأن بمكتبة المخطوطات بمجمع أباء فيرونا.

وكانت بالخرطوم مدارس أهلية للبنات تقام في البيوت وتديرها نساء مصريات ومولدات متعلمات يدرسن التطريز والطبخ والشؤون المنزلية. كما كانت بالخرطوم أيضاً نساء حافظات للقرآن الكريم يعلمن بنات علية القوم القرآن والدروس الدينية والخط في منازلهن. وبافتتاح المدرسة الحكومية بالخرطوم التي أسندت نظارتها لرفاعة رافع الطهطاوي تَمَّ قبول مائتين وخمسين تلميذاً. وقد سارت المدرسة على نسق المبتديان بمصر من حيث النظام والمقرّرات وطريقة التدريس. وعلى الرغم من أنَّ المدرسة لَمْ تستمر طويلاً إلَّا أنَّ تلاميذها

عرفوا بمستوى رفيع وأجادوا اللغتين العربية والتركية. وقد وصف الجنرال غردون سكرتيره الذي كان أحد تلاميذها بقوله: «إنّه تعلم في مدرسة الخرطوم ووصل إلى مستوى يجعله على قدر المساواة مع التعليم في أرقى المعاهد الأوروبية.. فقلما يوجد موضوع لا يمكنه الحديث فيه بطلاقة.. كما أنّ في إمكانه الكتابة بعدة رموز دون أنْ ينظر إلى مفاتيحها».

وأفاض الرحالة والمكتشفون من زوار الخرطوم في القرن التاسع عشر في وصف لياليها التي كانت تحييها جماعة من المغنيات والراقصات «العوالم» كان قد طردهن الخديوي عباس من القاهرة.. فوجدن سوقاً في الخرطوم.. وكن يدعين إلى حفلات الزواج والولادة والختان والترحيب بضيوف قادمين. وكان إلى جانبهن أيضاً راقصات سودانيات كن يرتدين «الرحط». وكن جميعهن يرقصن على أنغام آلات موسيقية ويؤدين أنواعاً من الرقص منها المصري والتركي والسوداني، ويغنين الأغاني المصرية والسودانية وأحياناً الحبشية.

الخرطوم في القرن التاسع عشر كانت عاصمة للترك بلا شك.. انشأوها في أوائل سنوات غزوهم للسودان وازدهرت نتيجة للحيوية الإقتصادية التي اكتسبتها البلاد.. وفي بداية عهدها كان العنصر الوطني فيها قليلاً يتمثل في من وفد إليها من عناصر كانت تسكن في المناطق المجاورة لها. ثُمّ ما لبثت الهجرات إليها أنْ تكثفت فهرعت إليها جماعات من الدناقلة والجعليين والشايقية.. وخاصة عندما انفتحت الملاحة النيلية إلى الجنوب.. وسكنوا في أحياء خاصة بهم. وبعد أكثر من ستين عاماً هي عمر الإحتلال التركي للبلاد إندلعت الثورة المهدية وسقطت الخرطوم واتخذ الإمام المهدي أم درمان عاصمة لدولته الوليدة.

وتوجّه الكثير من سكان الخرطوم إلى المدينة الجديدة وأقاموا فيها. وحين استعادت القوات البريطانية السودان باسم مصر أعادت عمارة الخرطوم

المهجورة واتخذتها عاصمة لها.. وهكذا انبثقت خرطوم القرن العشرين ليتركز الإهتمام عليها أكثر من سابقتها.. التي لَمْ تحظ بكثير إهتمام من المؤرخين وخاصة فيما يتعلق بتاريخها الإجتماعي.

2 أكتوبر 2001م



قصر الحكمدارية بالخرطوم عام 1880

ولما بلغ استبداد الترك مداه وضاق السودانيون به ذرعاً خرج من عباءة تلك المؤسسة المفكر الثوري والقائد السّياسي العسكري محمد أحمد المهدي الذي هزَّ سكون المنطقة وتردَّد دوي انتصاراته العسكرية الأسطورية في جنبات العالم وانتصر وأقام دولة وطنية حدُدت قسمات القومية السودانية وكرست خصوصية ثقافتها. ودفعت تلك المؤسسة إلى جانبه شيوخاً ثواراً كالشيخ العبيد ود بدر والشيخ محمد الخير الغبشاوي والشيخ الطاهر المجذوب والشيخ الحسين الزهراء والحسن سعد العبادي والسيد المكي الشيخ إسماعيل الولي وعامر وأحمد المكاشفي وغيرهم.. امتشقوا الحسام واجترحوا المعجزات.

وبعد أحداث ثورة 1924 وإخمادها بدموية وصرامة ضيقت الإدارة البريطانية على المثقفين الخناق ونكلت بالمشاركين فيها وقللت فرص الوظائف وساد البلاد جو «خانق من الحصار. لَمْ يجد الخريجون مناصاً سوى اللجوء إلى المعرفة والثقافة.. جمعيات تنعقد في المنازل للقراءة والنقاش وتبادل ما يتيسر من كتب ومجلات وصحف عربية وإنجليزية.. فقرأوا لطه حسين، ومحمد حسين هيكل في صحيفة «السّياسة» وقرأوا في صحيفة «البلاغ» لعباس محمود العقاد وزكي مبارك وإبراهيم عبدالقادر المازني. وكان الملحق الثقافي للصحيفتين يفيض بالدراسات والأبحاث العلمية والأدبية والإجتماعية والإقتصادية، وبعض الخريجين إهتموا بمتابعة نشرات الجمعية الفابية البريطانية من كتيبات وأوراق تروج للفكر الديمقراطي الاشتراكي، كما تابعوا كتابات زعماء الجمعية كبرنارد شو وهـ.ج. ويلز. وقد ظللت برامج بعض الأحزاب في أوقات لاحقة تلك التوجُهات الاشتراكية الديمقراطية.

وفي مذكراته ذكر أحمد خير أنّه كان من المألوف أنْ تزدحم غرفة الشاب بأكداس من المولفات العربية والإنجليزية والصحف الأجنبية، كما لاحظت مجلة «الفجر» أنّ الشباب كانوا يقرأون حَتّى في الترام.

كانت البدايات لجمعيات القراءة المشتركة وحلقات النقاش قد تشكُلت بمدينة أم درمان في الهاشماب وأبوروف، وقد بادر بإنشاء جمعية أبوروف الشقيقان حسن وحسين أحمد عثمان «الكد»، وكان من بين أعضائها مكاوي سليمان أكرت، والنور عثمان، وإبراهيم يوسف سليمان، والهادي أبوبكر اسحاق، وإبراهيم عثمان اسحاق، وإبراهيم أنيس، وإسماعيل العتباني، وعبدالله ميرغني، ومحمد محجوب لقمان، وحماد توفيق، وعبدالحليم أبوشمة وخضر حمد، والتجاني أبو قرون، وحسن زيادة. جاهرت هذه المجموعة بعداء سافر للطائفية وللإدارة البريطانية، أما جمعية الهاشماب فقد ضمت الشقيقين عبدالله ومحمد عشري الصديق، ومحمد أحمد محجوب، وأحمد يوسف هاشم، وعبدالحليم محمد، ويوسف مصطفى التني، ويوسف المأمون والسيد الفيل. إهتمت جمعية الهاشماب بالكتابة وبرز منها شعراء وكتاب متميِّزون لعبوا دوراً كبيرا إبان الحركة الوطنية وبعيد الإستقلال. وساهم معظم هؤلاء في تحرير مجلة «النهضة». ولما عاد عرفات محمد عبدالله من السعودية عام 1931 وأصدر مجلة «الفجر» في يونيو 1934 أصبحت جمعية الهاشماب تعرف باسم جماعة «الفجر» ذات نزعة إستقلالية وترفع شعار «السودان للسودانيين»، وقد تحدث السكرتير الإداري لحكومة السودان جيمس روبرتسون عن هذا الشعار في عام 1945 وقال «إنُه بوفاة حسين الخليفة شريف في عام 1928 تفرق شمل جماعة «السودان للسودانيين» إلاّ أنّ شعارهم ظلّ حياً وسط عدد من الموظفين والضباط. وأشار روبرتسون إلى أنّ هذا الشعار عاد مجددا للظهور بعد بضع سنوات كمصدر إلهام لجماعة من الشبان المثقفين عرفوا باسم جماعة الفجر، وكان يقودهم عرفات محمد عبدالله. وفي حوالي عام 1931 أنشأ يحى الفضلي جميعة أدبية ضمت عدداً من أصدقائه وزملائه في الدراسة منهم إبراهيم جبريل وعلي حامد، ومحمود الفضلي واليسع خليفة وبشير محمود ومحمد نور حسين وبدوي مصطفى والحاج عوض الله،

وأحمد السيد حمد. وتعتبر هذه الجمعية نواة لما عرف في وقت لاحق بجماعة الأشقاء.

أما في الأقاليم فقد أُنشئت جمعية أدبية بالنادي السوداني في عطبرة وأخرى بنادي الموظفين في ودمدني في عام 1935. وكان من المقرَّر تكوين جمعية أدبية بنادي الأبيض.

أنشأ جمعية ودمدني الأدبية بعض أعضاء جمعية أبوروف من الموظفين الذين تَمَّ نقلهم إلى تلك المدينة، وكان من بينهم طه صالح وإسماعيل العتباني وإبراهيم عثمان إسحاق وإبراهيم أنيس وأحمد خير وعبدالله عبدالرحمن نقد الله وعلي نور والطاهر النيل وعمرعبدالغني ومصطفى الصاوي وأحمدمختار وميرغني دفع الله. وكانت تلك الجمعية قد تميَّزت بالحيوية والنشاط فتبلورت منها فكرة مؤتمر االخريجين في عام 1937 وقامت بتنظيم أنجح وأضخم مهرجان أدبي يقيمه مؤتمر الخريجين في تاريخه.

هذه هي المؤسسات الثقافية والفكرية التي نشأت صغيرة متواضعة في منازل الأعضاء، ولكنها ما لبثت أنْ اشتدت سواعدها واستطاعت تحمل عبء القضايا الوطنية في مؤتمر الخريجين حَتَّى انبثقت منها الأحزاب السّياسية.

وتشهد العاصمة السودانية الآن نشوء مؤسسات ثقافية وأدبية في محاولة لإحياء تلك التجارب التي ساهمت في تشكيل الوعي الإجتماعي والفكري للأمة السودانية، ومن بين هذه المؤسسات مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي بأم درمان.

وعبدالكريم ميرغني يعتبر واحداً من المثقفين الطليعيين الذين شاركوا في الحركة الوطنية. كان شغوفاً بالثقافة والمعرفة الموسوعية ذا نزعة اشتراكية وإنْ لَمْ ينتم إلى حزب بعينه. وقبل رحيله بسنوات تحوَّل صالون منزله إلى ندوة فكرية

وثقافية تتناول شتى ضروب المعرفة، وقد ولد بمدينة أم درمان في عام 1923- تلك الفترة المليئة بالأحداث والتحوُّلات منذ أحداث ثورة 1924- بعد سنوات من نهاية الحرب العالمية الأولى وما أعقبها من متغيرات سّياسية. وبعد تخرجه في كلية غردون -قسم الإدارة- بدأ حياته موظفاً بمكتب السكرتير الإداري، ولَمْ يلبث أنْ تَمّ نقله مأموراً بمركز نيالا ليكون بعيداً عن أجواء العاصمة الملتهبة بالنشاط الوطني، ولما كان إهتمام الحركة الوطنية عميقا بالتعليم إستقال عبدالكريم ميرغني من الوظيفةالحكومية وإتجه للعمل بالتدريس في مدرستي الأحفاد وأم درمان الأهلية.

وبعد فترة قصيرة التحق بجامعة بريستول في بريطانيا لدراسة الاقتصاد والعلوم السّياسية وتخرج فيها بدرجة الامتياز في عام 1955 والبلاد على أعتاب إستقلالها، فوقع عليه الاختيار ليكون قائماً بالأعمال في السفارةالسودانية الوليدة بلندن، وانتظم في السلك الدبلوماسي فأصبح سفيراً للسودان في الهند في الفترة التي شهدت عنفوان حركة عدم الانحياز. كما عمل سفيراً لبلاده في اليابان وإيطاليا واليونان ومصر مما أفاد في إثراء ثقافته ومعرفته حيث ظلّت داره في تلك العواصم مشرعة الأبواب وملتقى السفراء والكتاب والأدباء. وبعد ثورة أكتوبر 1964 الشعبية اجمعت القوى السّياسية على إختياره وزيراً للتجارة في الفترة الانتقالية - وهي الوزارة التي عاد إليها في عام 1969 عقب انقلاب مايو وتولى أعباءها فترة قصيرة انتهت عام 1970.

وفي أيامه الأخيرة وقبل وفاته عام 1995 إهتم كثيراً بعلم التداوي بالأعشاب وأنشأ صيدلية عشبية إنتفع بها كثير من المرضى. وكان يعد الدواء بنفسه ويوزعه بلا مقابل، وهذا المركز الذي أنشىء بمبادرة من أسرته يستكمل العطاء الجزيل الذي قدمه لأمته بلا من ولا أذى.

8 مايو 2001 م

غربة الروح والتمرد الخلاق

معاوية نور.. صورة وخبر

اعادة طالب سوداني بالقاهرة إلــى ذويه بالخرطـوم بالقـوة!



يشعر المرء بكثير من اللوعة والأسى كلما جاء ذكر أحد مبدعينا العظام الذين قضوا وهم في شرخ الشباب، بعد أنْ خلفوا ماهو جدير بالخلود. ومن بين هؤلاء على وجه الخصوص خليل فرح والتجاني ومعاوية والناصر قريب الله وعرفات.. فقد كانوا والحق يقال تعبيراً صادقاً عن الروح السودانية المبدعة. قبل أيام كنت أطالع إحدى الصحف المحلية حين عثرت على خبر قديم لصحيفة «اللطائف المصورة» المصرية في عددها الصادر في 28 سبتمبر 1928. وقد جاء فيه أنّ الطالب السوداني معاوية محمد نور وصل إلى القاهرة قبل أسبوع لإكمال دراسته فيها بعد أنْ هجر كلية الطب بالخرطوم. إلا أنّه فوجئ بعد بضعة أيام بوصول خاله من السودان. ولما رفض دعوته له بالعودة إستعان عليه بالشرطة وعاد به. كان خاله ذاك هو الدرديري محمد عثمان القاضي وعضو مجلس السيادة في وقت لاحق. وكان قد وقف على تربيته بعد وفاة والده وهو لا يزال صغيراً.

كان الخبر مصحوباً بصورة معاوية وهو في التاسعة عشرة، إلّا أنّه يبدو حدثاً في الرابعة عشرة، كان قد أنفق عامين في كلية الطب «مدرسة كتشنر» قبل أنْ يحسم أمره ويقرِّر التسلل خفية إلى مصر. كانت عائلته من العائلات المستنيرة وقتذاك، وكانت تقدر نبوغه حيث كان المقبولون في تلك الكلية لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين. وكانت ترغب في أنْ تراه طبيباً ملء السمع والبصر.

ما كان معاوية متمرداً على مستوى السلوك بل كان هادئ الطبع ودوداً هذبته المعارف التي أخذ ينهل من فيضها وهو لا يزال في طور اليفاعة وبلغت ذروتها بعد أنْ التهم مكتبة كلية غردون الزاخرة. إلّا أنَّ هاجساً قوياً كان يلح عليه لدراسة الآداب في الجامعات الأجنبية.

ما كانت الصحافة المصرية تدرك أنْ ذلك الفتى الهارب أديب مرموق متألق تحتفي بكتاباته صحافة الخرطوم ويوقع باسم «مطالع». وما كانت تدرك أنّه سيعود من بيروت بعد سنوات قلائل ليقتحم الأوساط الأدبية في القاهرة ويصبح نداً لعمالقة الفكر.. يتجرأ على نقد عميد الأدب العربي ويجد مكاناً رحيباً في صالون العقاد.

أحسَّ بغربته الروحية إدوارد عطية حين أدرك قيمة عبقريته وتناول تجربته في كتابه «عربي يروي قصته» ورسم صورة كئيبة للواقع الإجتماعي الذي أحاط بمعاوية في مدينة أم درمان خلال سنوات العشرين من القرن الماضي. ووصفه وهو يقرأ لكبار الكتاب والمفكرين الأوروبيين أمثال جين أوستن والدوس هكسلي في جو من التعاسة والإملاق الثقافي.

كان إدوارد عطية المدرس بكلية غردون صديقاً له وقد سانده كثيراً في محاولاته إقناع أسرته بالسماح له بترك دراسة الطب والتحوُّل لدراسة الآداب في الجامعات بالخارج.

وبعزيمة ومثابرة وممارسة شتى أنواع الضغوط نجح معاوية أخيراً في انتزاع

موافقة عائلته بالسفر إلى لبنان للإلتحاق بالجامعة الأمريكية في بيروت على نفقته الخاصة. ومنذ بداياته الأولى أظهر نضجاً ونبوغاً وبرز اسمه داوياً في المحافل الأدبية والثقافية وأخذ يستخدم أساليب ومناهج لَمْ يعرفها الأدب العربي من قبل. وساعدته قراءاته الموسوعية وارتياده الدروب الوعرة والمسالك والاتجاهات النقدية الجديدة لأن يقف نداً لعمالقة العصر ويقتحم عرين طه حسين نفسه حين كشف أنَّ فكرة كتابه «الشعر الجاهلي» الأساسية منقولة عن المستشرقين. وأعاد كلَّ محاولات التجديد إلى مظانها في الأدب الغربي. وحَتَّى الشعراء الرومانسيين الذين تربعوا على عرش الذوق الأدبي عهد ذاك.. علي محمود طه، وإبراهيم ناجي، وأضرابهما.. أوسعهم نقداً ووصفهم بمحدودية الفكر وغياب الوعي الشامل بتطوُّرات العصر ومتطلباته والافتقار للحساسية الشعرية والركاكة والتهالك.

نبغ سريعاً وانبثق كالشهاب ثُمَّ لَمْ يلبث أنْ خبا بعد أنْ افترسه الداء.. كان في الثالثة والعشرين حين التقى بأندريه مارلو وأجرى معه لقاءً صحفياً في القاهرة. تحاشى الموقف كبار الأدباء والمثقفين وتهيبوا الجلوس أمام وزير الثقافة الفرنسي الذي وصفه ديجول بأنه الرجل الوحيد الذي لا يشعر بأيِّ ابتذال لدى لقائه. لَمْ تكن جرأة معاوية جوفاء خالية من محتواها فقد إستطاع في ذلك الزمن القياسي أنْ يستوعب التيارات الفكرية والأدبية والإجتماعية والسِّياسية في العالم. لفت الأنظار باكراً للحركة العمالية وفكر الاشتراكيين الفابيين بزعامة بيرنارد شو و هـ.ج.ويلز. وكان الناقد العربي الأول الذي أشار لأسماء مثل ت. أس. ايليوت ود. هـ. لورنس وإديث سيتويل.

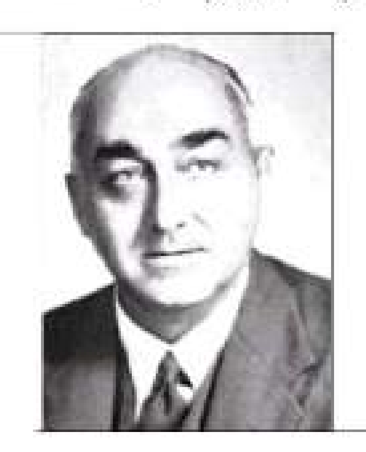
كنت كثيراً ما استمع لذكريات عمنا الأستاذ مبارك بابكر البشير -عليه رحمة الله- وهو أحد كبار رجال التربية بأم درمان - يحدثني عن التطوُّرات الإجتماعية والأحداث التي شهدتها المدينة منذ سنوات العشرين حين تفتح وعيه طفلاً

بحي الموردة.. وكان أكثر ما يثير حزني حين يتعرّض لمأساة معاوية.. قال إنّ الفضول كان يدفعهم وهم صبية أغرار إلى التطلع من خلال نافذة الغرفة التي حُبس فيها معاوية بمنزل «مرفعين الفقرا». كان قد تمكن منه الداء وهو يخضع للعلاج بالرقي والتعاويذ.. مقيداً بالسلاسل.. محروماً من الطعام يتعرّض للضرب بالسياط من وقت لآخر. كان ذلك خلال النصف الثاني من سنوات الثلاثين. كان شائخاً ولَمْ يبلغ الثلاثين بعد.. مهزولاً شاحب اللون.. وقد تساقطت أسنانه وشعر رأسه. ما كان العلاج النفسي قد وجد طريقه إلى السودان شأن كثير من دول العالم. وكان الخيار الوحيد أمام أهل المريض أنْ يدفعوا به للتعرُّض لمثل هذه التجربة.

كثير من الناس يرى أنّ العبقرية الفذة والقدرات الإستثنائية للإنسان قد تقود إلى الجنون. هذا المفهوم شائع لدى كثير من الثقافات ولَمْ ينكره علم النفس الحديث. ولا يزال هناك من يتحدث عن مأساة معاوية ويعزوها لذكائه المفرط، إلّا أنّ هناك من يشير إلى أنّ حساد نبوغه دسوا له سماً غريباً فتك به وأودى بحياته.

أتردد كثيراً على حي الموردة.. وهو مهد للعبقرية لا ريب. فقد درج فيه عدد من المبدعين شعراء وفنانين ومفكرين.. يشرد ذهني وأنا أمر أمام دورهم وأتوقف كثيراً أمام المكان الذي شهد غدوات وروحات معاوية. مثلما يحدث لي حين أزور منزل عمنا المرحوم عباس محمد نور -شقيق معاوية- بالحلة الجديدة في كوستي. وأحيانا إذا قادتني خطاي إلى مقابر الشيخ حمد النيل.. التي لا تبعد عن داري ـ أتطلع باحثاً عن ذلك المكان الذي ضم جدث تلك العبقرية المؤودة. وحين قرأت مرّة مقالة للشاعر والكاتب المغربي محمد بنيس عن مقبرة للعظماء والمبدعين الألمان رآها بمدينة برلين خلال زيارة له كففت عن الأمل بالظفر برؤية ذلك القبر الذي وقف عليه العقاد طويلاً وانتحب.

الاستعماري النبيل وضمير المثقف



دوجلاس نيوبولد

قبل ستين عاماً كتب السير دوجلاس نيوبولد السكرتير الإداري لحكومة السودان مقالاً نشرته صحيفة «سودان ستار» قال فيه: «إنني لن أدخل في تكهنات حول مستقبل السودان عدا القول إنّ التاريخ لا يقف ساكناً وإنّ أيّ امرئ يزعم أنّه بمقدوره التكهن بمستقبل السودان لا بدّ أنْ يكون نبياً أو غبياً. إنني أعلم أنني لست نبياً وآمل ألا أكون غبياً. إنّ قصارى ما تستطيع أيّ حكومة أو أمة أنْ تفعله حيال المستقبل الذي هو بيد الله، هو أنْ تهيئ نفسها ذهنياً ومادياً ومعنوياً لأيّ شيء يمكن أنْ يحدث.. وكالسفينة المبحرة في رحلة طويلة، فإنّ عليها أنْ تعد نفسها لمواجهة أيّ رياح قد تهب عليها».

لَمْ تنطو هذه الكلمات على روح التشاؤم والقنوط كما يبدو في ظاهرها، وإنّما عبّرت بشكل واضح عن إستقراء عميق لواقع كان ولا يزال ممعناً في وعورته.. يصعب التكهن بمآلاته. لَمْ تصدر عن حاكم استعماري يهدد بمصائر غير محمودة بعد خروجه، وإنّما عن رجل مشفق حدث أنْ توجّه إلى الله متضرعاً

ومبتهلاً يقول: «يا أيُّها الإله القدير منبع كلِّ حكمة يا من تصرف عنايته الإلهية كلَّ الأشياء على الأرض، ندعوك في رحمتك اللانهائية أنْ تحفظ أهل هذه الأرض وقبائلها، وأن تشملهم بظل حمايتك في المدينة والريف وفي الجبال والغابة والصحراء. نتضرع إليك أنْ تقيهم من كلِّ مصائب المجاعة والمرض وسفك الدماء.. أفرغ في قلوبهم وعقولهم أثمن هباتك ألا وهي التفاهم ليستبدلوا العداوة بالسلام ويحكموا العدل في مجالسهم ويشيعوا المرحمة في بيوتهم وينبذوا من حياتهم أفعال الشر».

توجّه نيوبولد بهذه الكلمات لأهل كردفان فتمنى لهم كل الخير من صميم فؤاده «المسيحي»!! كردفان التي شهدت ما شهدت في تاريخها القريب - بعد أكثر من نصف قرن من إبتهالات مديرها الإنجليزي هذه - حَتَّى بات يحرسها الأجانب لتنعم بشيء من الأمن والإستقرار. أما دارفور فدع عنها الحديث «فالحزن الأكبر ليس يقال» كما عبَّر الفيتوري يوماً.

أحبَّ نيوبولد بسطاء الناس -أهل الريف- حيث عمل وتفقد الأحوال وأراد لهم صوتاً مسموعاً يجلجل مفصحاً عن قضاياهم حَتَّى لا تضيع حقوقهم وحَتَّى لا يتمُّ «ذبحهم من أجل إسعاد الأفندية». واستخف بمعارضة بعض الخريجين لتوسيع تمثيل هؤلاء البسطاء في المؤسسات الدستورية الوليدة. وحذر من اتساع الخرق بين الريف والمدينة ودعا للانسجام القومي وطرد أعداء التقدُّم في السودان: الجهل والفقر والمرض والخلاف.

لَمْ تكن ابتهالات نيوبولد كلمات حاكم أجنبي مستبد قابع في قصره ينظر إلى رعاياه السود التعساء المساكين بغرور واستعلاء. وإنَّما كانت كلمات مترعة بالإنسانية والحكمة والنظرة الشاملة للبشر. أليس هو الذي وصف المثقف في محاضرته «الجانب الإنساني للثقافة» - التي ابتدر بها نشاط «دار الثقافة» في الخرطوم - وقال إنه ذلك الشخص الذي يتميَّز بإنسانيته قبل كلِّ شيء ولا

يسمح لأحماله المعرفية والفكرية بأن تجفف ينابيع تلك الإنسانية وهي البساطة وسعة الخيال وروح التسامح والفكاهة. ونصح نيوبولد المتعلمين السودانيين أنْ يتعرفوا على بلادهم من خلال المشاهدة الميدانية والطواف على مناطقها حَتّى يتمكنوا من حبها لأن الحب الحقيقي لا ينشأ إلاّ بالمشاهدة. ودعاهم إلى التحلي بالتسامح وتقبل الرأي الآخر لأن الحقيقة دائماً نسبية.

لا بدَّ أنَّ نيوبولد كان ينظر للمتعلمين السودانيين بعين الريبة والتشكك، وربما يكون قد آنس فيهم ترفعاً عن قضايا أهلهم البسطاء وميلاً للشعور بالذات أكثر من التحلي بالروح الوطنية. ولا بدَّ من الوقوف إزاء ردّ فعله من مذكرة الخريجين، وما إذا كان يتناسب مع سعيه لخير السودان. فالمذكرة التي رفعها إبراهيم أحمد رئيس مؤتمر الخريجين العام في الثالث من أبريل عام 1942 كانت تعبر عن أماني السودانيين في الإنعتاق بالإعلان عن حقهم في تقرير المصير عقب الحرب العظمى مباشرة. غاظ نيوبولد أنْ يدعي المؤتمر حقه في تمثيل الشعب السوداني، رأى فيه حفنة من الأفندية لا يحق لها أنْ تتحدث باسمهم كان قاسياً وفظاً في التعبير عن ذلك ورد المذكرة لمقدميها. وربما لا يشفع له حدبه وحنوه على أهل الريف -الذين يشكلون غالبية أهل السودان. وكانت الإدارة البريطانية تسعى إليهم من خلال زعاماتهم التي كان المتعلمون يرونها المعقل الثاني للرجعية بعد الطائفية. تلك الأفكار التي دفعت بخليفته جيمس روبرتسون لأن يعمل على إنشاء الحزب الجمهوري الاشتراكي في ديسمبر 1951. ربما كان في ذلك نوع من الوصاية إلا أنَّ نيوبولد لَمْ يلبث أنْ اجتمع مع قادة الخريجين وأجزل وعوداً بتوسيع المشاركة في الحكم في إطار نظم دستورية متدرجة.

وصف روبرتسون نيوبولد بأنّه كان رجلاً خصب الخيال مرحاً موحياً بالمحبة وافر النشاط متعاطفاً مع الآخرين يفيض بأفكار التقدُّم وبالعمل لخير الناس.. يقرأ كثيراً ويهتم بالأدب والتاريخ، سريع التفكير يتميَّز بعقل منقب وتطلع لمعرفة

الأشياء والتحقق منها.. يكون دائماً القدوة الحسنة لمن هم حوله. رآه في كردفان مديراً لمديريتها في سنوات الثلاثين ثُمَّ أصبح نائباً له كسكرتير إداري في الأربعينات. وقال إنَّه كان محظوظاً أنْ بقي قريباً منه لسنوات واستطاع أنْ يقتبس بعضاً من روحه في العمل من أجل أفريقيا. وبعد أنْ خلفه في وظيفته كان يدرك أنَّه لا يستطيع أنْ تكون له تلك المزايا الشخصية الرفيعة فلم يشأ أنْ يحتل مقعده الأكاديمي كرئيس لمجلس إدارة كلية غردون.

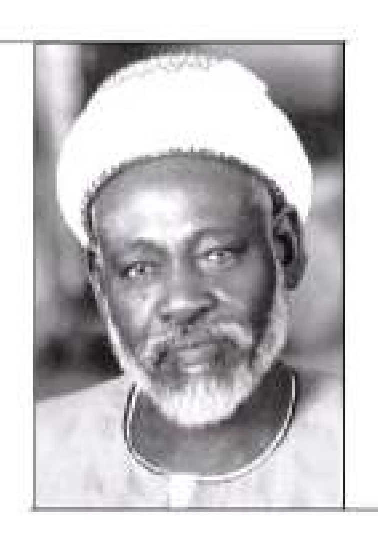
وقد كان نيوبولد هو الأب الشرعي للكلية الجديدة التي افتتحت في فبراير 1945 والتي تعد من أهم إنجازاته بإعتبارها طفرة في التعليم العالي.. ففي إطار توصيات لجنة لورد دي لاوير تَمَّ تجميع المدارس العليا السبع -وهي الآداب والهندسة والعلوم والطب والبيطرة والزراعة والقانون- في كلية غردون وتم تعيين توتهيل مدير مصلحة الزراعة كأول عميد لها. وبعد أنْ أصبح نيوبولد رئيساً لمجلسها -الذي ضم سودانيين ومصريين وبريطانيين- رُشح عباس محمود العقاد لعضوية المجلس إلَّا أنَّ المكايدات السِّياسية في مصر لَمْ تسمح بالموافقة على ذلك.

منذ سنوات بعيدة ظلَّت شخصية نيوبولد تتردد في خاطري.. صورة الإداري الإنجليزي المثقف الذي أهدى ثلاثة آلاف كتاب لتصبح نواة لمكتبة جامعة الخرطوم الحالية.. والرجل الذي كان يتردد على داره عباس محمود العقاد أثناء لجوئه للسودان إبان الحرب الثانية.. والديمقراطي المثابر الذي أنشأ «دار الثقافة» بالخرطوم لتبقى مكاناً مفتوحاً للحوار.

توفي نيوبولد وهو في الحادية والخمسين إثر إصابته بتسمم في الدم ودفن بالخرطوم حسب وصيته، وتحسر على وفاته كثير من المتعلمين وغيرهم من مختلف الطبقات، حَتَّى الأستاذ أحمد خير -الوطني المتطرف في عدائه للإنجليز- وصفه بـ «السِّياسي الموهوب والأديب المصقول والكاتب المطبوع

والعالم المثقف المجد الدؤوب»، وقال إنُه «بتلك الخلال والمؤهلات وثق وشائج الصداقة مع عدد لا حصر له من الوطنيين من مختلف الميول والثقافات وظلّ حريصاً على الإتصال بهم أو مراسلتهم بدرجة كانت مثار الدهشة والتأمل».

لقاء في بحر المانش



الإمام عبدالرحمن المهدي

«يا للغبطة والسرور، لقد انتهت المهدية إلى الأبد».

في برقية من ونجت لزوجته في 24 نوفمبر 1899

في الثامن والعشرين من يوليو 1919 شهد قصر باكنجهام في العاصمة البريطانية وصول أول وفد سوداني يزور المملكة المتحدة.. كانت تقلهم عربات ملوكية ويرافقهم السير ونجت حاكم عام السودان واللورد جرانفيل وغيرهم.

وعندما وقف الوفد أمام الملك ألقى رئيسه السيد علي الميرغني كلمة يهنئه فيها بإحراز النصر في الحرب العالمية الأولى وذلك باسم السودان. ثُمَّ أنعم عليهم بالنياشين.. فمنح السيد علي الميرغني نيشان فيكتوريا من درجة فارس مع لقب «سير»، وبالنيشان نفسه من درجة رفيق لكلٍّ من الشريف يوسف الهندي والسيد عبدالرحمن المهدي والشيخ إبراهيم موسى ناظر الهدندوة والشيخ على التوم ناظر الكبابيش والشيخ إبراهيم محمد فرح ناظر الجعليين

والشيخ عوض الكريم أبوسن وكيل ناظر الشكرية. كان الوفد الذي وجُهت إليه الحكومة البريطانية الدعوة لحضور إحتفالات النصر يضم أيضاً الشيخ الطيب أحمد هاشم مفتى السودان والسيد إسماعيل الأزهري قاضي شرعي مديرية دارفور، الذي صحب حفيده الأستاذ إسماعيل الأزهري المدرس بمدرسة أم درمان الابتدائية (رئيس أول حكومة سودانية) ليرافقه كمترجم. كما صحب السيد عبدالرحمن المهدي ابن أخته حسن الخليفة شريف والشيخ جعفر أحمد شرفي التاجر بأم درمان. واختار الشيخان الطيب وأبوالقاسم أحمد هاشم الأستاذ محمد حاج الأمين المدرس بمدرسة أم درمان الابتدائية أيضاً ليرافقهما.

لَمْ يكن ذلك الوفد السوداني يحمل قضايا سٌياسية أو رؤية محددة لمستقبل السودان غير ذلك النظام الذي فرض نفسه بالحديد والنار، ويكاد أفراده يجمعون، أنّهم ينعمون بظروف أفضل وبحالة من الإستقرار بعد السنوات العجاف التي شهدتها البلاد في أخريات القرن التاسع عشر. كان جميع أفراد الوفد من زعماء دينيين إلى نظار قبائل منسجمين مع الإدارة البريطانية ويتوقون إلى المزيد من التعاون معها إلا السيد عبدالرحمن المهدي الذي مازالت تنظر إليه بعيون التشكك والريبة. كانت ترى فيه زعيماً محتملاً لاضطرابات جديدة باسم الثورة المهدية. لَمْ تكتف بما فعلته بعد انتصارها في معركة كرري وحملات الملاحقة والتصفية التي كانت مستمرة حَتَّى ذلك العام الذي زار فيه الوفد لندن. وحين قدَّم السيف الذي ذكرت المصادر أنّه يعود لوالده الإمام المهدي لا بدَّ أنَّ صوراً مأساوية كانت تلاحق ذاكرته بلاتوقف.. معركة كرري الرهيبة التي قتل فيها حوالي عشرة آلاف رجل.. دمروا ولَمْ يقهروا كما عبَّر ونستون تشرشل في كتابه «حرب النهر».. والمعارك المتصلة لتصفية بقية رجال الدولة المهزومة.. أم دبيكرات التي إستشهد فيها الخليفة عبدالله والخليفة علي ودحلو وأخوه الصديق ابن المهدي.. ثُمَّ المجزرة التي شهدها هو شخصياً في الشكابة حيث

اغتيل أخواه الفاضل والبشرى والخليفة شريف وأصيب هو نفسه بطلق ناري في كتفه.. كانوا مجموعة صغيرة تهيم في الفلوات وتقتات من ورق الشجر. ثُمَّ سنوات المنفى الداخلي من الشكابة إلى جزيرة الفيل فأم درمان تحت الرقابة المباشرة لرودولف سلاطين المفتش العام الذي عاد ليثأر من سنوات الأسر.

إستقبلته الصحافة البريطانية بروح عدائية لَمْ تعرف المهادنة وكتبت في عناوينها الرئيسية في الصفحات الأولى «وصول ابن المهدي.. قاتل غردون». كانت عمياء في حقدها وإحساسها بمرارة مقتل غردون أثناء فتح الخرطوم.. لَمْ تتثبت من الأمور وما طرأ من تغيرات في موقف الرجل الذي أراد أنْ يقول للإنجليز بتقديمه السيف لملكهم أنَّ الحرب التي مضت عليها سنوات تجاوزت العشرين قد انتهت.. وها أنذا اختط طريقاً يختلف عن الأساليب الثورية.. التي ما عادت تجدي لقهر الآلة الحربية الجديدة والامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.

كان أعضاء الوفد قد بحثوا قبل مقابلتهم للملك جورج الخامس فكرة تقديم هدية له. ولكنهم صرفوا النظر عن هذه الفكرة لضيق الوقت الذي لَمْ يمكنهم من إختيار هدية مناسبة. ولكن السيد عبدالرحمن المهدي فاجأهم بتقديمه هديته التي استشار فيها الحاكم العام ونجت باشا ونالت موافقته. لَمْ تكن تلك المفاجأة لتسر السيد علي الميرغني رئيس الوفد والذي تعتبره الإدارة البريطانية رجل السودان الأول، فعبر عن استيائه لهذه المفاجأة للدرجة التي أعلن رغبته في العودة فوراً إلى السودان إحتجاجاً على هذه المبادرة التي قد تسحب بساط الزعامة من تحت قدميه كما أورد البرفيسور حسن أحمد إبراهيم في كتابه «الإمام عبدالرحمن المهدي». وقد أمضى صمويل عطية ضابط المخابرات الذي رافق الوفد ليلة بأكملها محاولاً إقناعه بالبقاء في لندن وعدم العودة إلى الخرطوم.

في زيارة للخرطوم في نوفمبر 1926 -بعد تركه الخدمة في حكومة السودان-

انتقد سلاطين قرار الحكومة بالسماح للسيد عبدالرحمن بالتوجُّه إلى لندن قائلاً إنّه لا يمثل إلّا المهدية المتعصبة التي تشكّل خطراً حقيقياً على الحكومة. ووصف سلاطين تقديم السيف للملك بأنّه «خطأ بيّن وعرض مسرحي».

وقد أعلن السيد عبدالرحمن أنّ دعوة الحكومة البريطانية سرته «لأنها تنطوي على نوع من الإعتراف الذي كان خصومي يعملون جاهدين على إنكاره» واعتبر الزيارة سانحة لتوضيح موقفه بأن الحرب التي كانت قائمة قد انتهت ورغم ذلك مازالت الإدارة البريطانية في الخرطوم تعامله وكأنّها مازالت ناشبة. وفي كتابه «دور السيد عبدالرحمن المهدي في الحركة الوطنية» قال البرفيسور حسن أحمد إبراهيم إنّ موالاة السيد عبدالرحمن للحكم البريطاني لَمْ تنشأ عن قناعة صادقة أو يقين يتماشى مع مبادئه بل فرضها الواقع السّياسي. ويؤكد الدكتور محمد سعيد القدال في كتابه «تاريخ السودان الحديث» أنّ مشاركة السيد عبدالرحمن الحكم البريطاني إتخذت طابعاً سّياسياً أكثر من كونها تأييداً أدبياً معنوياً.

وفي مذكراته إعتبر السيد عبدالرحمن أنّ الرحلة كانت فاشلة من الناحية السّياسية، إلّا أنّها كانت مفيدة من الناحية الإجتماعية والثقافية، حيث سمحت لهم برؤية عالم مدهش رأوا فيه الإنجليز يمارسون مهناً وضيعة عكس تلك الصورة التي تحيط بهم في المستعمرات حكاماً يصولون ويجولون. وقد تسنى له أنْ يركب الطائرة فوق سماء لندن يصحبه الشيخان علي التوم وإبراهيم محمد فرح.

شنت الصحافة المصرية حملة عنيفة ضد زيارة الوفد السوداني لبريطانيا حيث كان الشعور الوطني في حالة من الغليان في مصر ضد الإنجليز بعد إعتقالهم سعد زغلول ورفاقه الذين طالبوا بالحرية وبدستور للأمة. إلّا أنّ تلك الصحافة كانت مدفوعة بعواطفها فتنكبت الموضوعية في رؤيتها لتلك الزيارة. كان السودان قد خرج لتوه من تجربة مريرة جسّدتها دولة الخليفة عبدالله بحروباتها

المتواصلة التي خلفت كثيراً من الجراح والمرارات وأضعفت اقتصاد البلاد التي اجتاحتها المجاعات التي مات فيها خلق كثير.. فتناقصت أعداد السكان وضمرت قدراتهم.. فرأى من تبقى حالة من الإستقرار والهدوء تعم البلاد. كما رأوا في السّياسة البريطانية المخاتلة عدلاً وأملاً جديداً في حياة أفضل.

في ختام الزيارة وفي رحلة قصيرة لَمْ يتجاوز زمنها الساعة ونصف الساعة في بحر المانش التقى فقيه مغربي يدعى محمد الحسن الحجوي بالوفد السوداني فتعرف على أعضائه. وأعجبه حسن إستقبالهم له وبشاشتهم وفصاحة ألسنتهم وتأدبهم ورآهم أقرب شبهاً بالمصريين والتونسيين. ويبدو أنّه لَمْ يكن قد رأى سودانيين من قبل. وأخذ يتحدث معهم حول أحوال بلادهم وعن أوجه التقدُّم الذي طرأ عليها في السنوات الأخيرة والتعليم الذي أخذ في الانتشار وصدور الصحف التي بلغت أربعاً. هي «رائد السودان» و«حضارة السودان» و«السودان»، والرسمية «غازيتة السودان». وحدثوه عن القوانين التي تحكم البلاد والمنتجات الزراعية والنشاط الاقتصادي. وطلبوا منه أنْ ينقل ما حدثوه عنه إلى بلاده. وقد أطرى هو الإحتلال الفرنسي كثيراً وما رأى أنّه قد قدمه للشعب المغربي من أسباب الطمأنينة والعيش في سلام. وأجاب عن تساؤلاتهم حول مشاركة الجنود المغاربة في الحرب إلى جانب الحلفاء وحول إحترام فرنسا للدين الإسلامي وإهتمامها بالمساجد وصيانتها.

كان ذلك الرجل قد قام برحلة رسمية إلى أوروبا بتكليف من السلطان المغربي مولاي يوسف لحضور عيد الجمهورية الفرنسية وإحتفالات الإنتصار على الحلفاء وقد وجد الفرصة سانحة للعبور إلى بريطانيا حيث زار لندن ومانشستر وقادته الصدفة ليستقل تلك العبّارة التي أقلت الوفد السوداني. وكان الفقيه الحجوي هذا على قدر من الوعي والإستنارة حيث تخرّج في جامعة القرويين وشغل منصب نائب الملك في منطقة المغرب الشرقي. ويعتبر حسب الدراسات

المغربية المعاصرة فقيهاً مجتهداً ومفكراً إصلاحياً تجديدياً دعا إلى الانفتاح والإستنارة والأخذ بمقومات التمدن لاكتساب القدرة على التقدُم واللحاق بركب الحضارة الغربية.

وقد استطاع تلميذي الباحث السوداني عبدالله صالح سفيان المقيم بالرباط العثور على هذه الوثيقة النادرة أو النص الذي كتبه الحجوي حول لقائه الوفد السوداني الذي وصفه بصورة طريفة وأورد أسماء أفراده باختلافات طفيفة أضافت كثيراً لطرافة النص الذي نشره بمجلة «كتابات سودانية» في عددها الثامن الصادر في يونيو 1999.

من بولون توجّه الوفد إلى باريس ومنها إلى مارسيليا لركوب البحر مرّة أخرى إلى مصر ثُمّ إلى السودان عن طريق السكة الحديد.. فوصل إلى محطة الخرطوم في مساءالسابع عشر من أغسطس. وكان في مقدمة المستقبلين نائب الحاكم العام واليوزباشي أحمد عبدالله سعد ياور الحاكم العام وممثلو الجاليات الأجنبية والأعيان وجماهير الشعب. وظلّت الدور الخاصة بأعضاء الوفد تغص بالمهنئين لعدة أيام.

ووقف الشاعر المهندس عبدالرحمن شوقي في دار السيد علي الميرغني المحتشدة بالناس وألقى قصيدة مادحة.. كما وقف نظيره الشاب الأستاذ أحمد محمد صالح وألقى قصيدة رائعة في إستقبال السيد عبدالرحمن حَتّى أوشك الناس أنْ يحملوه على الأعناق.

4 يونيو 2002